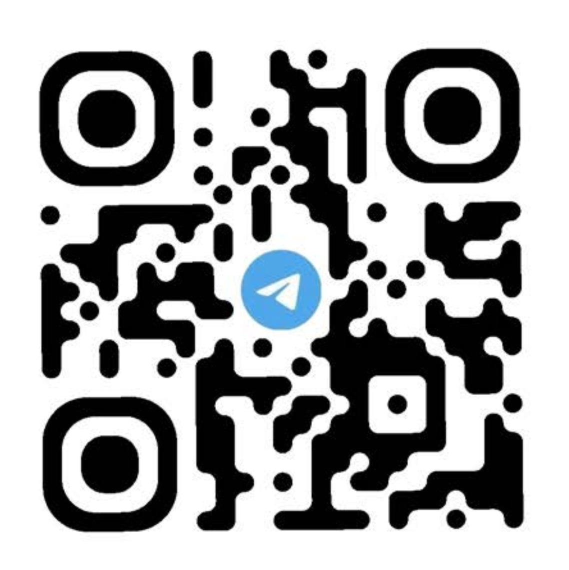

مكتبة
رواية
الشيطان
والمياه المظلمة
ستيوارت تورتون
ترجمة: أحمد صلاح المهدي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa



الشيطان والمياه المظلمة

ستيوارت تورتون

Author: Stuart Turton

The Devil And The Dark Water

© Copyright

Translated from English by:
Ahmad Salah Al-Mehdi

Book Design:
Sarwar Murad

ترجمها عن الإنجليزية:
أحمد صلاح المهدي

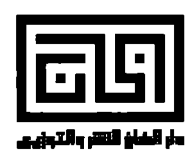
تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

الطبعة الأولى | أكتوبر 2023

ISBN: 978-9921-712-80-3

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

2281-2023



+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com





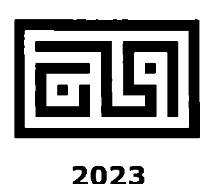
رواية

الشيطان والمياه المظلمة

ستيوارت تورتون

ترجمة

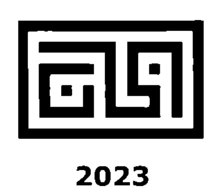
أحمد صلاح المهدي



2023

Author: Stuart Turton

The Devil And The Dark Water



2023

إهداء

إلى آدا.

الآن عمرك عامان، وتنامين في فراشك الصغير. أنتِ غريبة للغاية وتجعلينني أضحك كثيرًا. بحلول الوقت الذي تقرئين فيه هذا ستكونين شخصًا مختلفًا تمامًا. آمل أن نظل صديقين، وآمل أن أكون أبًا صالحًا، وآمل أنني لن أرتكب الكثير من الأخطاء، وأنك ستسامحينني على الأخطاء التي سأرتكبها. الحقيقة هي أنني لا أمتلك أدنى فكرة عما أفعله، ولكنني دومًا ما أبذل قصارى جهدي.

أحبك يا طفلتي، وأهدي إليكِ هذا الكتاب، أيًّا كان ما ستصيرين عليه.

تمهيد

في عام ١٦٣٤ كانت شركة الهند الشرقية المتحدة هي أغنى شركة في العالم، ولها مراكز في جميع أنحاء آسيا وجنوب إفريقيا. وأكثر هذه المراكز إدرارًا للربح كانت باتاڤيا، التي تشحن التوابل والبهارات والفلفل والحرير إلى أمستردام على متن أسطولها من السفن التجارية الهندية.

تستغرق الرحلة ثمانية أشهر وتكون محفوفة بالمخاطر.

كانت المحيطات مجهولة إلى حد كبير، وكانت المساعدات الملاحية بدائية. لم يكن هناك سوى مسار واحد آمن ما بين باتاڤيا وأمستردام، والسفن التي تشرد عنه غالبًا ما تضل طريقها. وحتى هؤلاء الذين يلتزمون بالمسارات الملاحية يكونون تحت رحمة الأمراض والعواصف والقراصنة.

العديد ممن يبحرون بالسفن من باتاڤيا لا يصلون أمستردام.

قائمة المرموقين من الركاب وأفراد الطاقم الذين أبحروا على متن سفينة ساردام متجهين إلى أمستردام كما جمعها الحاجب كورنليوس ڤوس

الوجهاء

الحاكم العام يان هان وزوجته سارا ڤيسل وابنته ليا يان

الحاجب كورنليوس ڤوس

قائد الحرس ياكوبي دريخت

كريسي ينس وابناها ماركوس وأوسبرت بيتر

الڤيكونتيسة دالڤين

الركاب المرموقين

البريديكانت ساندر كيرس وحارسته إيزابيل

الملازم آرينت هايز

كبار المسؤولين في سفينة ساردام

كبير التجار رينير ڤان شوتن

القبطان أدريان كراوڤلز

مساعد القبطان إيزاك لارم

أفراد الطاقم المرموقين

عريف الملاحين يوهانس ڤيك

الكونستبل فريدريك ڤان دي هوڤل

السجين

ساموويل بيبس

١

صرخ آرينت هايز في ألم عندما ارتطم حجر بظهره الضخم. سمع صفير حجر آخر يمر من جانب أذنه وتلقى ضربة ثالثة على ركبته، مما جعله يتعثر فتعالت صيحات الاستهزاء من حشد الغوغاء الذين لا يعرفون الشفقة، بينما يفتشون الأرض بحثًا عن المزيد من الأحجار لرميها. كان هناك المئات منهم، يحتجزهم حرس المدينة، بينما يصرخون بالشتائم في غضب وقد تجهمت أعينهم في حقد.

قال سامي بيبس متوسلًا من فوق الضجيج: "فلتحتمِ من الضربات بحق السماء". لمعت أغلاله في ضوء الشمس بينما يجر قدميه على الأرض الترابية. "إنهم يريدونني أنا".

كان آرينت أطول بمرتين وأعرض بمرة ونصف من معظم الرجال في باتاڤيا، بمن في ذلك بيبس، ورغم أنه لم يكن سجينًا بدوره إلا أنه وضع جسده الضخم ما بين الحشد وصديقه الأصغر حجمًا بكثير. فلم يترك لهم إلا جزءًا ضئيلًا للغاية للتصويب عليه.

كان لقبهما قبل سقوط سامي هو الدب والعصفور، وكان هذا حقيقيًّا في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى.

كان بيبس يُنقل من السجن إلى الميناء، حيث تنتظره سفينة لنقله إلى أمستردام. كان بصحبتهما أربعة من الفرسان، ولكنهم ظلوا على مسافة آمنة خشية أن يتحولوا إلى هدف بدورهم.

قال آرينت مزمجرًا: "أنت تدفع لي نظير حمايتك". ثم مسح العرق المغبر من على عينيه وحاول أن يحسب المسافة التي تفصلهما عن الأمان، قبل أن يقول: "سأفعل هذا حتى أصير غير قادر على حمايتك".

كان الميناء واقعًا وراء مجموعة كبيرة من البوابات في نهاية شارع باتاڤيا الرئيسي. بمجرد إغلاق البوابات وراءهما سيكونان بعيدين عن متناول الحشد. لحسن الحظ كانا يمشيان في آخر موكب طويل يتحرك ببطء في الجو الحار. لم تبدُ البوابات أقرب مما كانت عليه عندما غادرا الزنزانة الرطبة الخانقة في منتصف النهار.

ارتطم حجر بالأرض بالقرب من قدم آرينت فتناثر الطين على حذائه، بينما ارتد آخر عن أغلال سام. كان التجار يبيعون أكياسًا من الأحجار ويجنون أموالًا كبيرة من هذا.

قال آرينت مزمجرًا: "اللعنة على باتاڤيا، سيفعل هؤلاء الأوغاد أي شيء لجني المال".

في الأيام العادية سيبتاع هؤلاء الناس من الخبازين والخياطين والإسكافيين ومُجلِّدي الكتب وصانعي الشموع، المصطفين على جانبي الشارع الرئيسي. كانوا سيبتسمون ويضحكون ويتذمرون من الحرارة الفظيعة، أي شيء عدا تكبيل رجل وتعذيبه، بل وجعل روحه تستسلم للشيطان ذاته.

قال سامي مجادلًا وهو يحاول أن يدفع آرينت بعيدًا: "إنهم يريدون دمي أنا، فلتنجُ بنفسك إلى الأمان، أتوسل إليك".

خفض آرينت بصره لينظر إلى صديقه المذعور، الذي يضغط بيديه بلا جدوى على صدره. كان شعره الأسود المموج ملتصقًا بجبهته، بينما عظام وجنتيه الغائرتين متورمتين باللون البنفسجي إثر الضرب الذي تلقاه أثناء سجنه. كانت عيناه البنيتان -اللتان عادة ما تكونان ساخرتين- واسعتين ويائستين.

كان لا يزال وسيمًا رغم ما تلقاه من سوء معاملة.

على النقيض منه كان رأس آرينت حليقًا وأنفه أفطس، شخص ما قد عض قطعة من أذنه اليمنى في شجار، وقد تركت ضربة بالسوط قبل بضع سنوات ندبة طويلة على ذقنه ورقبته.

قال آرينت في عناد وقد اضطر لرفع صوته مع تعالي الصيحات من أمامهما: "سنكون بأمان بمجرد أن نصل إلى رصيف الميناء".

يتقدم الموكب الحاكم العام يان هان الذي يجلس منتصب الظهر على صهوة حصان أبيض. وقد ارتدى درع صدر فوق صدريته، ويتدلى من خصره سيف يُصدر صوت قعقعة.

قبل ثلاثة عشر عامًا كان قد اشترى القرية المقامة هنا بالنيابة عن شركة الهند الشرقية المتحدة، وما إن وقع السكان الأصليون العقد حتى أحرقها واستخدم رمادها لرسم طرق وقنوات ومباني المدينة التي ستحل محلها.

لقد صارت باتاڤيا أكثر مراكز الشركة إدرارًا للربح. وقد أُستدعي يان هان للعودة إلى أمستردام لينضم إلى الهيئة الحاكمة للشركة، السادة السبعة عشرة الغامضين.

بينما حصانه يهرول على طول الشارع الرئيسي بكى الحشد وهللوا ومدوا أصابعهم ناحيته محاولين لمس ساقيه، وقد ألقوا بالزهور على الأرض من حوله ومنحوه مباركاتهم.

تجاهل كل هذا وهو يُبقي أنفه شامخًا وعيناه محدقتين إلى الأمام. إن أنفه الخطافي ورأسه الأصلع قد منحا آرينت إحساسًا بأنه صقر رابض على صهوة حصان.

كان هناك أربعة عبيد يلهثون وهم يحاولون مواكبته، بينما يحملون هودجًا مطليًّا بالذهب بداخله زوجة الحاكم وابنته. بينما خادمة ذات وجه أحمر تسرع إلى جوار الهودج وهي تستخدم مروحة للتهوية على وجهها في هذا الجو الحار.

من ورائهم أربعة فرسان مقوسو السيقان وهم يجذبون زوايا صندوق ثقيل يحتوي على الغنيمة. كان العرق يتصبب من جباههم ويغطي أيديهم، مما جعل التشبث بالصندوق صعبًا. كانت أيديهم تنزلق باستمرار والخوف مرتسم على وجوههم، إنهم يعرفون العقوبة إن أتلفوا غنيمة الحاكم العام.

يتعقبهم مجموعة غير منتظمة من رجال الحاشية والمتملقين والموظفين رفيعي المستوى والمقربين من العائلة، الذين كانت مكافأتهم على سنوات من التخطيط هي فرصة لقضاء وقت غير مريح فيما بعد الظهيرة لمراقبة الحاكم العام وهو يغادر باتاڤيا.

رغم تشتت ذهن آرينت بهذه الملحوظات إلا أنه لم يسمح بأي فجوة بينه وبين الشخص الواقع تحت حمايته. سمع صفير حجر آخر يمر بجانبه قبل أن يصيب سامي في وجنته فتسيل الدماء، وتصاعدت صيحات الاستهزاء من الحشد.

استشاط آرينت غضبًا فأمسك بحجر وقذفه ناحية الشخص الذي ألقى به فأصابه في كتفه وجعله يدور حول نفسه قبل أن يسقط أرضًا. تعالت صيحات الغضب من الحشد واندفعوا ناحية الحرس الذين كافحوا لصدهم.

تمتم سامي في امتنان: "رمية بارعة". ثم أحنى رأسه بينما وابل من الأحجار يندفع من حولهما.

كان آرينت يعرج بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى رصيف الميناء، وجسده الضخم يتألم. كان سامي مصابًا بالكدمات، ولكن معظم جسده كان سليمًا، ومع ذلك صاح في فرح عندما انفتحت البوابات أمامهما.

على الجانب الآخر كانت الأرض مكتظة بالصناديق ولفَّات الحبال وأكوام من البراميل وأقفاص من الخوص يتعالى منها نقنقة دجاج. راحت الخنازير والأبقار تحدق إليهما بحزن، بينما الحمالون يحملون البضائع إلى القوارب التي تتمايل عند حافة الماء مستعدة لنقلها إلى السفن الشراعية الهندية السبعة الراسية في المرفأ، مع الأشرعة المنكسة والصواري العارية بدت السفن وكأنها خنافس ميتة ترفع سيقانها في الهواء. ولكن سرعان ما ستعج كل سفينة منها بأكثر من ثلاثمئة من الركاب والبحارة.

لوَّح الناس بأكياس العملات المعدنية إلى العبَّارات التي تجدف جيئة وذهابًا، وكانوا يتقدمون إلى الأمام عند النداء باسم سفينتهم. كان الأطفال يلعبون الغميضة بين الصناديق، أو يتشبثون بتنانير أمهاتهم، بينما الآباء يحدقون ناحية السماء، كأنما ليجعلوا أي سحابة تشعر بالخجل وتختفي من على صفحة السماء الزرقاء الشاسعة المتوهجة.

كان الركاب الأكثر ثراءً يقفون على مسافات متباعدة محاطين بخدمهم وأمتعتهم باهظة الثمن، وهم يتذمرون من تحت مظلاتهم ويستخدمون المراوح للتهوية على وجوههم بلا جدوى، بينما يتصببون عرقًا في ياقاتهم المصنوعة من الدانتيل.

توقف الموكب وبدأت البوابات تنغلق ببطء من ورائهم، ليخفت صوت صرخات الحشد الغاضب.

ارتدت بعض الأحجار من على الصناديق، وبذلك انتهى الاعتداء.

تنهد آرينت تنهيدة طويلة وهو يميل للأمام ويضع يديه على ركبتيه، وقطرات العرق تتساقط من جبهته على التراب.

تساءل سامي وهو يتفحص جرحًا في وجنة آرينت: "ما مدى سوء إصابتك؟".

قال آرينت ساخرًا: "أعاني شيئًا من الدوار إثر شرب الخمر، ولكن عدا هذا أنا بخير".

"هل صادر الحرس مجموعة الخيمياء الخاصة بي؟".

كان هناك خوف حقيقي في صوته، فقد كان سامي خيميائيًّا بارعًا إلى جانب مهاراته المتعددة، وتتضمن مجموعته الصبغات والمساحيق والجرعات التي طورها لمساعدته في عمله التحقيقي. لقد استغرق منه الأمر سنوات لصنع العديد من هذه الأشياء، باستخدام مكونات من أماكن بعيدة للغاية مما يجعل من الصعب استبدالها.

أجابه آرينت: "لا لقد سرقتهم من حجرة نومك قبل أن يفتشوا البيت".

قال سامي في استحسان: "رائع، هناك مرهم في جرة صغيرة، الجرة الخضراء، فلتضع بعضًا منه على إصاباتك كل صباح ومساء".

قال آرينت في اشمئزاز: "أهو المرهم ذو الرائحة الكريهة؟".

"جميعها رائحتها كريهة، لا يكون المرهم جيدًا إن لم تكن رائحته كريهة".

اقترب فارس من اتجاه رصيف الميناء وهو ينادي باسم سامي، كان يرتدي قبعة بالية بريشة حمراء، وقد تدلت حافتها فوق عينيه، وينسدل على كتفيه شعر أشقر قذر، وله لحية تحجب معظم وجهه.

تفحصه آرينت في استحسان.

معظم الفرسان في باتاڤيا هم جزء من الحرس الشخصي، فيلمعون ويلقون التحية ويبرعون في النوم وأعينهم مفتوحة، ولكن هيئة هذا الرجل المهترئة تشي بأنه قد خاض قتالًا حقيقيًّا من قبل. هناك دم جاف يلطخ صدريته المليئة بالثقوب التي أحدثتها طلقات النيران وضربات السيوف، وكل ثقب مرقع مرارًا وتكرارًا. كشف السروال القصير الذي يصل إلى ركبتيه عن ساقين مشعرتين سمراوين بفعل الشمس، وتغطيهما الندوب ولدغات الناموس. كان هناك قوارير نحاسية مليئة بالبارود، تتدلى من حزام الذخيرة، وتُصدر قعقعة مع أكياس من أعواد ثقاب الملح الصخري.

عندما وصل الفارس إلى آرينت ضرب الأرض بقدمه في حماس.

قال وهو يهش ذبابة من على وجهه: "أنا قائد الحرس ياكوبي دريخت أيها الملازم هايز، أنا المسؤول عن حرس بيت الحاكم العام، سأبحر معكم لضمان سلامة العائلة". ثم قال مخاطبًا الفرسان

المرافقين لهما: "إلى القارب الآن يا شباب، الحاكم العام يريد تأمين السيد بيبس على متن سفينة ساردام قبل...".

صاح صوت خشن آمر من فوقهم: "اسمعوني!".

ضيقوا أعينهم وهم يحدقون إلى وهج الشمس، ثم أمالوا أعناقهم ليتتبعوا الصوت إلى الأعلى.

كان هناك شخص يرتدي أسمالًا رمادية يقف على كومة من الصناديق. كان هناك ضمادات دامية تحيط بيديه ووجهه، ولم تترك سوى فجوة ضيقة من أجل عينيه.

تمتم دريخت في اشمئزاز: "مجذوم"*.

قطع آرينت خطوة غريزية إلى الوراء، لقد تعلم منذ نعومة أظافره أن يخشى هؤلاء الأشخاص الضائعين، فمجرد وجودهم كافٍ لتخريب قرية بأسرها. إن سعالًا واحدًا -أو حتى أدنى لمسة- يعني موتًا رهيبًا لا يرحل.

قال الحاكم العام آمرًا من مقدمة الموكب: "اقتلوا هذا المخلوق وأحرقوا جثته، غير مسموح بوجود المجذومين داخل المدينة".

تعالى الضجيج بينما الفرسان يختلسون النظر بعضهم لبعض. كان هذا الشخص عاليًا للغاية على أن تصل إليه الرماح، وبنادقهم قد شُحنت بالفعل على متن ساردام، ولا يحمل أي منهم قوسًا.

بدا المجذوم وكأنه لم ينتبه إلى هذا الذعر وعيناه تحدقان إلى كل شخص ينضم إلى الحشد أمامه.

* المجذوم: هو الشخص المصاب بمرض الجذام.

توقفت عيناه المتجولتان عند آرينت، فخفق قلب المرتزق، ثم قال: "فلتعرفوا أن سيدي سيبحر على متن ساردام، إنه سيد الأشياء الخفية؛ كل الأشياء اليائسة والمظلمة. ويقدم لكم هذا التحذير وفقًا للقوانين القديمة. إن شحنة ساردام خطيئة، وكل من يصعد على متنها سيهلك بلا رحمة. لن تصل السفينة إلى أمستردام".

مع نطقه لآخر كلماته اشتعلت النيران في طرف ردائه.

صرخ الأطفال بينما المتفرجون يشهقون ويصرخون في رعب.

لم يند عن المجذوم أدنى صوت بينما النيران تتسلق جسده حتى غطته ألسنة اللهب تمامًا.

لم يتحرك.

راح يحترق في صمت وعيناه مصوبتان على آرينت.

٢

راح المجذوم يضرب رداءه كأنما أدرك فجأة أن ألسنة اللهب تلتهمه.

تعثر للوراء وسقط من على الصناديق قبل أن يضرب الأرض بصوت ارتطام مثير للغثيان.

انتزع آرينت برميلًا من الجعة وقطع المسافة في خطوات قليلة، قبل أن ينتزع الغطاء بيديه العاريتين ويخمد النيران.

صدر صوت فحيح عن الأسمال البالية، واخترقت رائحة الفحم الحارقة أنفه.

راح المجذوم يتلوى في ألم وهو يخمش التراب بأظافره، لقد احترق ساعداه بشدة وصار وجهه متفحمًا. عيناه فقط كانتا لا تزالان بشريتين؛ بؤبؤان متسعان في جموح، ينبضان في اللون الأزرق المحيط بهما، وقد تبدى الجنون في نظرته بفعل الألم.

اختنقت صرخة في فمه المفتوح، ولكن لم يتجاوز أي صوت حلقه.

تمتم آرينت: "هذا مستحيل". ثم نظر ناحية سامي الذي كان يقاوم أغلاله محاولًا أن يرى بشكل أفضل، قبل أن يصرخ آرينت باذلًا قصارى جهده لكي يكون صوته مسموعًا فوق ضجيج الحشد: "إن لسانه مقطوع".

قال صوت آمر: "تنحَّ جانبًا، أنا معالجة".

تجاوزت سيدة نبيلة آرينت وهي تنتزع قبعتها المصنوعة من الدانتيل وتضعها بين يديه، لكي تكشف عن الدبابيس المرصعة بالجواهر التي تلمع بين خصلات شعرها الأحمر المشدودة بإحكام.

ما إن صارت القبعة في حوزة آرينت حتى انتزعتها من بين يديه خادمة منزعجة تحاول أن تُبقي مظلة فوق رأس سيدتها، بينما تحثها على العودة إلى الهودج.

نظر آرينت وراءه ناحية الهودج.

كانت السيدة النبيلة في عجلتها قد انتزعت الستارة من خطافها وأسقطت وسادتين حريريتين كبيرتين على الأرض. وبالداخل كان هناك شابة بوجه بيضاوي تراقبهما عبر الستارة الممزقة، لها شعر أسود وعينان سوداوان، وتبدو نسخة من الحاكم العام الذي يجلس في جمود على صهوة حصانه وهو يتفحص زوجته في استنكار.

نادت الفتاة: "أمي؟".

"انتظري لحظة يا ليا". هكذا أجابتها السيدة النبيلة الجاثية على ركبتيها إلى جانب المجذوم، غير مكترثة باتساخ عباءتها البنية بأحشاء السمك. قالت له بصوت لطيف: "سأحاول مساعدتك". ثم قالت لتخاطب خادمتها: "دوروثيا؟".

أجابتها الخادمة: "أجل يا سيدتي".

"ناوليني قنينتي من فضلك".

أخرجت الخادمة قنينة صغيرة من كم ثوبها، ثم انتزعت السدادة قبل أن تناولها للسيدة النبيلة.

قالت السيدة مخاطبة الرجل المتألم: "هذا سيخفف من ألمك". ثم قلبت القنينة فوق شفتيه المنفرجتين.

عندما اقترب كماها المتنفخان بشكل خطير من مريضها قال آرينت محذرًا: "هذه أسمال مجذوم".

قالت باقتضاب وهي تراقب قطرة من سائل سميك تتجمع عند حافة القنينة: "أُدرك هذا. أنت الملازم هايز، أليس كذلك؟".

"يمكنك أن تناديني آرينت".

قالت: "آرينت". حركت شفتيها مع نطقها للاسم كأن له مذاقًا غريبًا، ثم قالت: "أنا سارا ڤيسل". ثم صمتت قليلًا قبل أن تضيف في محاكاة لردّه الفظ: "يمكنك أن تناديني سارا".

هزت القنينة قليلًا فسقطت القطرة في فم المجذوم. ابتلعها في ألم ثم ارتجف وهدأ وكف عن التلوي بينما عيناه تزيغان.

سألها آرينت في عدم تصديق: "أنتِ زوجة الحاكم العام؟". معظم النبيلات لن يتخلين عن الهودج، حتى لو كان مشتعلًا، ناهيك عن القفز منه لمساعدة شخص غريب.

أجابته بحدة: "وأنت خادم ساموبل بيبس".

"أنا...". تردد وقد اضطرب بفعل غضبها، فهو لا يعرف على وجه اليقين كيف أساء إليها، لذا قال ليغير الموضوع: "ما الذي منحتِه له؟".

قالت وهي تعيد السدادة إلى القنينة: "شيئًا ما ليخفف ألمه، إنه مصنوع من نباتات محلية، أستخدمه بنفسي من آن لآخر، ويساعدني على النوم".

أخذت الخادمة القنينة من سيدتها وأعادتها إلى كمها ثم قالت: "هل هناك أي شيء يمكننا أن نفعله من أجله يا سيدتي؟ هل أجلب أدوات العلاج الخاصة بكِ؟".

قال آرينت في قرارة نفسه: لن يحاول فعل هذا إلا أحمق. إن حياة الحرب قد علمته أي أوصال يمكنك أن تعيش بدونها، وأي جروح ستوقظك من الألم كل ليلة حتى تموت في صمت بعد عام من المعركة. إن لحم المجذوم المتعفن سيئ بما يكفي، ولكن لن يكون هناك نجاة من هذه الحروق. مع الإسعافات المتواصلة يمكنه أن يعيش يومًا أو أسبوعًا، ولكن النجاة لا تستحق دومًا الثمن الذي يدفعه المرء من أجلها.

قالت سارا: "لا، شكرًا لكِ يا دوروثيا، لا أعتقد أن هذا سيكون ضروريًّا".

اعتدلت سارا واقفة على قدميها ثم أشارت إلى آرينت أن يلحق بها بعيدًا عن مسامع الآخرين.

قالت بصوت خفيض: "لا شيء يمكن أن نفعله هنا، لم يتبقَّ سوى الرحمة. هل يمكنك...". ازدردت ريقها وبدت خجلة من سؤالها التالي. "هل سلبت شخصًا حياته من قبل؟".

أومأ آرينت برأسه.

"هل يمكنك أن تفعل هذا بشكل غير مؤلم؟".

أومأ آرينت برأسه مرة أخرى، فمنحته ابتسامة امتنان صغيرة.

قالت: "يؤسفني أنني لا أتمتع بالجرأة الكافية لفعل هذا بنفسي".

شق آرينت طريقه عبر دائرة المتفرجين الهامسين نحو أحد الفرسان الذين يحرسون سامي وأشار إلى سيفه. استل الجندي الشاب -الذي ألجم الرعب لسانه- السيف وأعطاه له بلا أدنى اعتراض.

قال سامي وهو يشير لصديقه كي يقترب منه: "هل قلت إن المجذوم ليس له لسان يا آرينت؟".

قال آرينت مؤكدًا: "لقد قُطع لسانه، أعتقد أن هذا كان منذ فترة".

قال سامي وقد بدا مضطربًا: "فلتجلب لي سارا ڤيسل بعدما تُنهي مهمتك، هذا الأمر يتطلب انتباهنا الكامل".

بينما آرينت يعود بالسيف جثت سارا على ركبتيها إلى جانب المجذوم المريض، ومدت يدها لتمسك بيده قبل أن تنتبه إلى ما تفعله. قالت معترفة بصوت رقيق: "لا أمتلك الفن الكافي لعلاجك، ولكن يمكن أن أعرض عليك مهربًا غير مؤلم إن كنت ستقبل هذا".

تحرك فم المجذوم، ولكن لم يصدر عنه سوى التأوهات، ثم ترقرقت عيناه بالدموع وهو يومئ برأسه.

قالت سارا: "سأبقى معك". ثم نظرت وراءها إلى الشابة التي تختلس النظر إليهما من داخل الهودج، وقالت وهي تمد يدها ناحيتها: "فلتنضمي إلينا من فضلك يا ليا".

ترجلت ليا عن الهودج، كانت في الثانية عشرة من عمرها أو الثالثة عشرة على أقصى تقدير، وقد صارت طويلة القامة بالفعل، ويستقر فستانها على جسدها بشكل غريب كجلد لم تتمكن من التملص منه بشكل كامل.

استقبلها صوت حفيف كبير بينما أفراد الموكب يتحركون ليحدقوا إليها. لم يكن آرينت من بين هؤلاء المتفرجين الفضوليين. نادرًا ما يرى أحد ليا، على عكس أمها التي تذهب إلى الكنيسة كلّ مساء. كان هناك شائعات أن أباها يبقيها متوارية عن الأنظار بدافع العار، ولكن عندما نظر إليها آرينت وهي تمشي بتردد ناحية المجذوم كان من الصعب معرفة أي عار هذا. إنها فتاة جميلة رغم أنها شاحبة بشكل غير معتاد، كما لو كانت مغزولة من الظلال وضوء القمر.

مع اقتراب ليا اختلست سارا نظرة متوترة ناحية زوجها الذي كان جالسًا في جمود على صهوة حصانه، وفكه يتحرك قليلًا كأنما يعض على نواجذه. أدرك آرينت أن هذا أقصى تعبير عن الغضب بالنسبة له أمام العامة. كان من الواضح، من ارتعاش وجهه، أنه يريد أن يناديهما للعودة إلى الهودج، ولكن لعنة السلطة هي ألا يستطيع المرء التعبير عن غضبه.

وقفت ليا إلى جانب أمها فأمسكت سارا بيدها لتطمئنها.

قالت بصوت متهدج: "هذا الرجل يتألم، إنه يعاني، والملازم هايز سينهي هذه المعاناة، هل يمكنك أن تفهمي هذا؟".

اتسعت عينا الفتاة، ولكنها أومأت برأسها في هدوء وقالت: "أجل يا أمي".

قالت سارا: "جيد، إنه خائف للغاية وهذا شيء لا يجب أن يواجهه بمفرده، سنقف في يقظة وسنمنحه شجاعتنا، يجب ألا تنظري بعيدًا".

انتزع المجذوم في ألم قطعة صغيرة من خشب محترق من حول عنقه وكانت حوافها مسننة، ضغط بها على صدره وأغمض عينيه.

قالت مخاطبة آرينت: "افعلها عندما تكون مستعدًّا". ولكنه على الفور غرس نصله في قلب المجذوم. أحنى الرجل ظهره وتيبس جسده، ثم ارتخت أطرافه والدماء تسيل من تحته. كانت الدماء لامعة في ضوء الشمس وتعكس صورة الأشخاص الثلاثة الواقفين حول الجثة.

تشبثت الفتاة بيد أمها، ولكن شجاعتها لم تتزعزع.

قالت سارا وهي تمسد وجنتها برفق: "أحسنتِ يا عزيزتي، أعرف أن هذا كان مقبضًا، ولكنكِ كنتِ شجاعة للغاية".

وبينما آرينت ينظف نصله في كيس من الشوفان، جذبت سارا أحد الدبابيس المرصعة من شعرها فانسدلت خصلة حمراء.

قالت وهي تمنحه له: "هذا من أجل ما تكبدته من عناء".

أجابها: "لن يكون ما فعلتُه شهامة مني إن كان عليكِ أن تدفعي ثمنه". ثم ترك الدبوس المتلألئ في يدها وهو يعيد السيف إلى الجندي.

امتزجت الدهشة بالحيرة على وجهها، وهي تتفحصه بعينيها. ثم خشيت أن يلاحظ أحد مراقبتها له، فاستدعت في عجالة اثنين من عمال الشحن الجالسين على كومة من أقمشة الأشرعة الممزقة.

قفزا واقفين على الفور كأنما لدغتهما أفعى، وعندما اقتربا منها لمس كل منهما جبهته في تحية احترام.

قالت سارا آمرة وهي تضع الدبوس في قبضة أحدهما: "فلتبيعا هذا ولتحرقا الجثة، واحرصا على أن يتلقى الرمادي دفنًا مسيحيًّا، فلنمنحه في موته السلام الذي حُرم منه في حياته".

تبادل الاثنان نظرة ماكرة.

قالت بنبرة لطيفة، ولكن محذرة: "هذه الجوهرة ستغطي تكاليف الجنازة، بالإضافة إلى ما يكفي لأي رذائل ستنغمسان فيها طيلة هذا العام. ولكني سأجعل شخصًا ما يراقبكما. إن انتهى المطاف بهذا المسكين بإلقائه في أرض مهجورة خارج أسوار هذه المدينة فستُشنقان. هل هذا مفهوم؟".

تمتما وكل منهما يرفع قبعته في احترام: "أجل يا سيدتي".

كان آرينت يقف إلى جانب قائد الحرس ياكوبي دريخت عندما ناداها: "أتسمحين بدقيقة من وقتك من أجل سامي بيبس؟".

نظرت سارا إلى زوجها مرة أخرى، وكان من الواضح أنه يحاول كبح جماح استيائه. إن آرينت رجل متعاطف. يمكن ليان هان أن يشعر بالاستياء لترتيب طاولة بشكل غير لائق، لذا فإن مراقبة زوجته تنطلق عبر التراب كعاهرة تندفع وراء عملة متدحرجة، سيكون شيئًا لا يُطاق بالنسبة له.

لم يكن حتى ينظر إليها، بل كان يراقب آرينت.

قالت سارا: "فلتعودي إلى الهودج يا ليا من فضلك".

قالت ليا متذمرة وهي تخفض صوتها: "ولكن هذا ساموبل بيبس يا أمي".

وافقتها قائلة: "أجل".

"ساموبل بيبس بشحمه ولحمه!".

"بالفعل".

"العصفور!".

أجابتها بنبرة ساخرة: "واثقة من أنه يعشق هذا اللقب".

"يمكنكِ أن تعرفيني عليه".

"إنه لا يرتدي الملابس اللائقة من أجل المناسبة يا ليا".

"أماه...".

قالت سارا بحزم وهي تستدعي دوروثيا بإيماءة من ذقنها: "إن المجذوم إثارة كافية لهذا اليوم".

تشكل الاحتجاج على شفتيّ ابنتها، ولكن الخادمة لمست ذراعها لتشجعها على المضي قُدُمًا.

ابتعد الحشد عن طريق سارا وهي تقترب من السجين المنشغل بهندمة صدريته المتسخة.

قالت بنبرة لبقة: "إن سمعتك الأسطورية تسبقك يا سيد بيبس".

بعد ما تلقاه سامي من إذلال للتو أدهشه هذا الإطراء غير المتوقع، مما جعله يتخبط في تحيته لها، فقد حاول أن ينحني، ولكن أغلاله جعلت ما فعله يبدو مضحكًا.

سألته سارا: "والآن لِمَ أردت الحديث معي؟".

قال لها: "أنا أتوسل إليكِ لتأجيل رحيل ساردام، أرجوكِ يجب أن نُصغي لتحذير المجذوم".

قالت معترفة وقد بدت عليها الدهشة: "لقد ظننت أن المجذوم مجرد رجل مجنون".

وافقها سامي قائلًا: "لقد كان مجنونًا بالتأكيد، ولكنه كان قادرًا على الحديث بدون لسان، وتسلق كومة من الصناديق بقدم عرجاء".

قالت وهي تنظر وراءها ناحية الجثة: "لقد لاحظت اللسان، ولكني لم ألاحظ القدم العرجاء. هل أنت واثق؟".

"بل ومحترقة أيضًا، يمكنكِ أن تري عاهته بوضوح من تحت ضماداته. كان سيحتاج إلى عكاز من أجل المشي، مما يعني أنه ليس من المعقول أن يتسلق هذه الصناديق من دون مساعدة".

"إذن فأنت لا تعتقد أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه؟".

"لا أعتقد هذا. وهناك سبب آخر للقلق".

تنهدت وقالت: "بالطبع هناك سبب آخر، دومًا ما تجد سببًا للقلق".

أكمل سامي حديثه متجاهلًا ملحوظتها: "هل ترين يديه؟ إحداهما محترقة بشدة، ولكن الأخرى لم يمسسها أذى. إن نظرتِ بإمعان فستلاحظين كدمة تحت ظفر إبهامه، وأن إبهامه نفسه قد انكسر ثلاث مرات على الأقل في الماضي، مما جعله ملتويًا. عادة ما تحدث هذه الإصابات للنجارين بسبب طبيعة مهنتهم، وخصوصًا النجارين الذين يعملون على متن السفن، ويكون عليهم التعامل مع الحركة غير المستقرة للسفينة أثناء عملهم. لاحظت أنه مقوس الساقين، وهي السمة المشتركة بين البحارة.

تدخل آرينت قائلًا وهو يتفحص السفن السبعة في المرفأ: "هل تعتقد أنه كان نجارًا على متن واحدة من سفن الأسطول؟".

قال سامي: "لا أعرف، ولكن كل نجار في باتاڤيا قد عمل على متن واحدة من السفن الهندية في مرحلة ما من حياته. إن تحررت من أغلالي لتفحص الجثة فسأكون قادرًا على إجابة السؤال بشكل قطعي، ولكن...".

قالت سارا بحدة: "لن يحررك زوجي أبدًا يا سيد بيبس، إن كان هذا طلبك التالي".

قال وقد توردت وجنتاه خجلًا: "لن أطلب هذا، أنا أعرف كيف يفكر زوجك، كما أعرف أنه لن يستمع إلى مخاوفي، ولكنه سيستمع إليكِ".

تململت سارا في توتر وهي تحدق إلى المرفأ. كانت الدلافين تلعب في الماء فتقفز وتدور في الهواء قبل أن تختفي تحت سطح الماء، مع أدنى قدر من التموج.

"أرجوك يا سيدتي، يجب عليك أن تقنعي زوجك بتأجيل رحيل الأسطول حتى ينتهي آرينت من التحقيق في هذا الأمر".

ما إن قال هذا حتى حدق إليه آرينت، لقد مضى ثلاث سنوات منذ آخر مرة تولى فيها التحقيق في قضية، ولكنه في الوقت الحالي قد ابتعد عن هذه الأشياء. إن وظيفته هي إبقاء سامي آمنًا وأن يطأ بقدميه أي وغد يشير بإصبعه ناحيته.

قال سامي بإصرار وهو لا يزال يحدق إلى سارا: "الأسئلة سيوف والإجابات دروع، أنا أتوسل إليكِ، فلتحتمي بالدروع، بمجرد أن تُبحر ساردام سيكون الأوان قد فات".

٣

تحت سماء باتاقيا المتوهجة راحت سارا ڤيسل تمشي على طول الموكب، وهي تشعر بتحديق الحاشية والجنود والمتملقين إليها. كانت تمشي كامرأة مدانة، بظهر منتصب، وعينين مطرقتين، وهي تضم قبضتيها إلى جانبيها. وقد احمر وجهها خجلًا رغم أن معظمهم قد ظن أن هذا بسبب حرارة الجو.

لسبب ما نظرت وراءها ناحية آرينت، ولم يكن من الصعب ملاحظته، فهو أطول بكثير من الرجل الواقف إلى جواره. لقد كلفه سامي بتفحص الجثة، وكان في هذه اللحظة يفتش ثياب المجذوم باستخدام عصا طويلة، كانت تستخدم سابقًا في حمل السلال.

عندما شعر بنظرة سارا تجاهه نظر ناحيتها فالتقت أعينهما. شعرت بالحرج فأشاحت بوجهها بعيدًا.

نفخ حصان زوجها الهواء من منخريه وضرب الأرض في غضب مع اقترابها منه. لم تنسجم قط مع هذا الوحش، فهو على عكسها يستمتع بكونه تحت زوجها.

هذه الفكرة رسمت ابتسامة خبيثة على وجهها، بذلت مجهودًا كبيرًا لمحوها وهي تقترب من زوجها. كان موليًا ظهره لها وقد خفض رأسه في محادثة هامسة مع كورنليوس ڤوس.

إن ڤوس هو حاجب زوجها، والأهم من بين مستشاريه، وواحد من أقوى الرجال في المدينة. ولكن هذا لا يبدو واضحًا عليه عند النظر إليه، فهو يتمتع بهذه السلطة دون كاريزما أو عنفوان. لم يكن طويلًا ولا قصيرًا، وليس سمينًا أو نحيفًا، وشعره البني الداكن يعلو وجهًا متغضنًا خاليًا من أي ملامح مميزة، بخلاف عينين خضراوين متوهجتين دومًا ما تحدقان إلى ما وراء الشخص الذي يتحدث إليه.

لم يكن مهندمًا، ولكن ثيابه لم تكن رثة. وكان هناك هالة من اليأس والقنوط تحيط به، حتى إن المرء ليتوقع أن الزهور ستذبل عندما يمشي إلى جانبها.

تساءل زوجها وهو يتجاهلها: "هل شُحنتي الشخصية على متن السفينة؟".

"لقد تولى كبير التجار هذا الأمر بنفسه يا سيدي".

لم يترددا لحظة، كأنما لم يلاحظا وجودها قط. لا يتسامح زوجها مع من يقاطعه، وقد خدمه ڤوس طويلًا بما يكفي لأن يعرف هذا.

تساءل زوجها: "وقد جرت الأمور على النحو الذي يضمن سريتها؟".

أجابه ڤوس وأصابعه تتحرك على جانبيه، مما يشي ببعض الحسابات الداخلية: "إن قائد الحرس دريخت يتولى الأمر بنفسه، مما يأخذنا إلى الشحنة المهمة التالية يا سيدي، هل لي أن أسأل أين ترغب في تخزين الغنيمة أثناء رحلتنا؟".

قال زوجها: "أعتقد أن حجرتي الشخصية ستكون ملائمة".

قال ڤوس وهو يفرك يديه: "للأسف يا سيدي إن الغنيمة كبيرة للغاية، هل لي أن أقترح مخزن البضائع".

"لن أسمح بتخزين مستقبل الشركة كقطعة مهملة من الأثاث".

قال ڤوس: "القليل يعرفون ما هي الغنيمة يا سيدي". شتت انتباهه للحظة صوت مجاديف تشق الماء مع اقتراب إحدى العبَّارات، ثم أكمل: "وأقل القليل يعرفون ما نحمله على متن ساردام، أفضل ما يمكننا فعله هو أن نتصرف كأنما هي قطعة مهملة من الأثاث".

قال زوجها: "هذه فكرة ماكرة، ولكن مخزن البضائع يظل مكانًا مكشوفًا للغاية".

لاذا بالصمت وهما يفكران في الأمر.

صفعت أشعة الشمس ظهر سارا وتجمعت قطرات العرق على جبينها، قبل أن تسيل على وجهها، مما أفسد المسحوق الأبيض الذي وضعته دوروثيا على وجهها بكثافة لإخفاء نمشها. كانت تتوق إلى تعديل ملابسها وإزالة الياقة العريضة المحيطة برقبتها ونزع الثياب المبتلة عن جسدها، ولكن زوجها يكره التململ بقدر ما يكره مقاطعته.

قال ڤوس: "ماذا عن مخزن البارود يا سيدي؟ إنه مغلق ويخضع للحراسة، ولن يتوقع أحد تخزين شيء ثمين للغاية مثل الغنيمة بداخله".

"فكرة ممتازة، فلتحرص على ترتيب هذا الأمر".

وبينما ڤوس يمشي مبتعدًا نحو الموكب استدار الحاكم العام لينظر أخيرًا ناحية زوجته.

إنه أكبر من سارا بعشرين سنة، برأس بيضاوي أصلع إلا من شريط من الشعر الداكن يحيط برأسه ويصل ما بين أذنيه الطويلتين. معظم الناس يرتدون قبعات لتقيهم من أشعة شمس باتاڤيا الحارقة، ولكن زوجها يعتقد أن هذا يجعله يبدو أحمق، ونتيجة لهذا يتوهج رأسه الأصلع بلون قرمزي ساطع ويتقشر جلده ويتجمع في ثنايا ياقته.

تحت حاجبين مستقيمين كانت عيناه الداكنتان تقيمانها بينما يحك أنفه الطويل بأصابعه، كان رجلًا قبيحًا بكل المقاييس، ولكنه على عكس الحاجب قوس يشع بالقوة، كل كلمة تخرج من فمه تبدو وكأنها تُحفر في التاريخ، وكل نظرة تحتوي على توبيخ خفي، ودعوة للآخرين لمقارنة أنفسهم به واكتشاف ما يفتقرون إليه. كان يعتبر حياته دليلًا إرشاديًا في التربية الحسنة والانضباط والقيم.

"زوجتي". قالها بنبرة يمكن لأي شخص أن يعتقد بالخطأ أنها لطيفة.

رفع يده إلى وجهها مما جعلها تجفل، ثم ضغط بإبهامه على وجنتها ليمسح بخشونة جزءًا من المسحوق الذي أفسده العرق، وقال: "يا لقسوة الحرارة عليكِ".

ابتلعت الإهانة وهي تطرق ببصرها.

لقد تزوجا قبل خمسة عشر عامًا، ويمكنها أن تعد على أصابع يد واحدة عدد المرات التي استطاعت فيها مبادلته التحديق.

إنهما هاتان العينان القاتمتان كالحبر، إنهما مطابقتان لعيني ليا، باستثناء أن عيني ابنتها تلمعان بالحياة، أما عينا زوجها فخاويتان، كفتحتين مظلمتين قد تسربت منهما روحه قبل زمن بعيد.

لقد أحست بهذا في المرة الأولى التي التقيا فيها، عندما جُلبت هي وأخواتها الأربعة إليه أثناء الليل، كلحم قد طُلب خصيصًا من السوق، أجرى معهن المقابلات الواحدة تلو الأخرى، ثم اختار سارا على الفور. كان عرض الزواج شاملًا، حيث ذكر فوائد زواجهما بالنسبة لأبيها، باختصار سيكون لديها قفص جميل، وكل الوقت الذي تحتاج إليه للإعجاب بنفسها وراء قضبان هذا القفص.

لقد بكت طيلة طريق العودة إلى البيت وهي تتوسل لأبيها ألا يرسلها بعيدًا.

لم يصنع هذا فارقًا، كان المهر كبيرًا للغاية، ولم تكن تعرف أنها قد تربت للتسمين والبيع كعجل يتمتع بالخُلق والتعليم.

شعرت أنها قد تعرضت للخيانة، ولكنها كانت صغيرة للغاية، الآن تفهم العالم بشكل أفضل، لا يختار اللحم الخطاف الذي سيُعلق عليه.

"كان استعراضك غير لائق". وبّخها بنبرة خافتة وهو لا يزال يبتسم لحاشيته الذين كانوا يقتربون ببطء خشية أن يفوتهم أي شيء.

تمتمت في تحدٍّ: "لم يكن استعراضًا، كان المجذوم يعاني".

"كان يُحتَضَر، هل تعتقدين أن لديك مستحضرًا لعلاج هذا؟". كان صوته خفيضًا بما يكفي لسحق النمل الذي يزحف حول أقدامهما. "أنتِ مندفعة ومتهورة وعنيدة ولينة القلب". لقد قذفها بالإهانات كما كان الناس يقذفون ساموئيل بيبس بالحجارة. "لقد تسامحتُ مع هذه الصفات عندما كنتِ شابة، ولكن شبابك قد ولّى منذ وقت طويل".

لم تصغِ إلى بقية حديثه، لم تكن بحاجة إلى هذا، كان نفس التوبيخ المعتاد، قطرات المطر الأولى التي تسبق غضب العاصفة، لا شيء تقوله الآن سيصنع فارقًا، ستحل عقوبتها لاحقًا عندما يصيران بمفردهما.

قالت فجأة: "يعتقد ساموبل بيبس أن السفينة مهددة بالخطر".

عقد زوجها حاجبيه، فلم يكن معتادًا على أن يقاطعه أحد.

قال مجادلًا: "بيبس مكبل بالأغلال".

قالت باحتجاج: "يداه فحسب، لا تزال عيناه وقدراته حرة، إنه يعتقد أن المجذوم كان نجارًا ذات يوم، وعلى الأرجح على متن الأسطول الذي سيعيدنا إلى أمستردام".

"لا يمكن للمجذومين أن يعملوا على متن السفن الهندية".

"ربما لم يظهر البلاء إلا عندما وصل إلى باتاڤيا؟".

"المجذومون يُعدمون ويُحرقون وفقًا للمرسوم الذي أصدرته، لا يمكن التسامح مع أي مجذوم في المدينة". ثم هز رأسه في انزعاج وقال: "لقد سمحتِ لنفسك بأن تتأثري بتهديدات رجل مجنون، وآخر مجرم. لا يوجد أي خطر هنا، ساردام سفينة ممتازة ويقودها قبطان ممتاز. لا يوجد أي سفينة رديئة في هذا الأسطول، لهذا اخترت هذه السفينة".

نظرت إلى عينيه، ولكنها أطرقت ببصرها على الفور وقالت: "بيبس ليس قلقًا بشأن لوح خشبي غير مثبت، بل يخشى التخريب، كل من سيصعد على متن السفينة اليوم سيكون في خطر، بمن في ذلك ابنتنا. لقد فقدنا أولادنا بالفعل فهل يمكنك حقًا أن تتحمل...".

أخذت نفسًا عميقًا لتتمالك نفسها ثم قالت: "أليس من الحكمة أن تتحدث إلى قباطنة الأسطول قبل أن نُبحر؟ لقد كان لسان المجذوم مفقودًا وقدمه مصابة، إن كان قد خدم تحت إمرة أي منهم فبالتأكيد سيتذكرونه".

سألها: "وما الذي تريدين مني أن أفعله في هذه الأثناء؟". أشار بذقنه ناحية مئات الأشخاص المتدفقين عبر الحرارة، لقد تمكن الموكب بطريقة ما من الاقتراب من مرمى السمع دون أدنى صوت. "هل يجب أن آمر بعودة الموكب إلى القلعة بناءً على كلمة مجرم؟".

"لقد كنت تثق في بيبس بما يكفي عندما استدعيته من أمستردام لاستعادة الغنيمة".

ضيَّق عينيه بشكل منذر بالخطر.

واصلت حديثها بتهور قائلة: "ألا يمكننا على الأقل أن نستقل سفينة أخرى من أجل ليا؟".

"لا، سنبحر على متن ساردام".

"ليا وحدها إذن".

"لا".

"لماذا؟". لقد شعرت بحيرة شديدة من عناده حتى إنها لم تنتبه لغضبه. "أي سفينة أخرى ستفي بالغرض، لم أنت مصر للغاية على الإبحار...".

صفعها زوجها بظهر يده، فظهرت كدمة حارقة على وجنتها، ومن بين الحاشية كان هناك شهقات وضحكات. كانت نظرة سارا لتُغرق

كل سفينة في المرفأ، ولكن الحاكم العام بادلها التحديق بهدوء وهو يخرج منديلًا حريريًّا من جيبه.

أيًّا ما كان الغضب الذي كان يتصاعد بداخله فإنه قد تبخر.

قال وهو يمسح المسحوق الأبيض من على يده: "فلتجلبي ابنتنا لكي نركب السفينة معًا كعائلة، لقد انتهى وقتنا في باتاڤيا".

عضَّت سارا على نواجذها وهي تستدير عائدة إلى الموكب. كان الجميع يراقبونها وهم يكتمون ضحكاتهم ويتهامسون. ولكنها لم تنظر إلا ناحية الهودج.

بادلتها ليا التحديق من وراء الستائر الممزقة بوجه مبهم التعبير.

قالت سارا في قرارة نفسها: اللعنة عليه، اللعنة عليه.

٤

راحت المجاديف تعلو وتهبط، وأشعة الشمس تتلألأ على قطرات المياه المتناثرة، بينما العبارة تشق طريقها عبر المرفأ الأزرق المتموج ناحية سفينة ساردام.

كان قائد الحرس ياكوبي دريخت في منتصف القارب واضعًا ساقيه على جانبي المقعد الذي يجلس عليه، وأصابعه تنتزع في شرود رقائق السمك المملح من لحيته الشقراء.

كان قد استل سيفه من على خاصرته ووضعه على ركبتيه، إنه سلاح جيد، له شبكة معدنية رقيقة تحمي المقبض. معظم الفرسان يكونون مسلحين بالحراب أو البنادق أو سيوف صدئة قد سرقوها من ساحة المعركة، أما هذا فسيف نبيل، وأكثر من جيد بالنسبة لجندي متواضع. وتساءل آرينت كيف حصل قائد الحرس على سيف كهذا، ولمَ لم يبعه.

كانت يد دريخت موضوعة بخفة على غمد السيف، ومن آن لآخر يلقي نظرة ناحية سجينه، ولكنه من نفس قرية صاحب العبارة، وكان الاثنان يتحدثان بحماس عن الخنزير الذي اصطاداه في غاباتها، وعن الحانات التي قد زاراها.

كان سامي عند مقدمة السفينة، والسلاسل ملتفة حوله كالثعابين، فراح يتحسس أغلاله الصدئة بشكل بائس. لم يرَ آرينت صديقه تعيسًا

إلى هذا الحد من قبل، وطيلة السنوات الخمسة التي عملا فيها معًا كان سامي مزعجًا وحاد الطباع وطيبًا وكسولًا، ولكنه لم يُهزم قط. كان الأمر أشبه برؤية الشمس تذبل في السماء.

كان آرينت قد وعده قائلًا: "بمجرد أن نصير على متن السفينة سأتحدث إلى الحاكم العام، وسأجعله يرى الأمر بشكل عقلاني".

هز سامي رأسه وقال في قنوط: "لن يصغي إليك، وكلما دافعت عني صار من الصعب عليك أن تنأى بنفسك عن الأمر بمجرد إعدامي".

صاح آرينت: "إعدامك!".

قال في مرارة: "هذه هي نية الحاكم العام بمجرد وصولنا إلى أمستردام، هذا على افتراض أننا سنصل إلى هناك".

بشكل غريزي نظر آرينت ناحية عبارة الحاكم العام، كانت على مقربة منهم، وعائلته تحتمي تحت مظلة تحجبها ستارة وقد حرك النسيم الستارة الرقيقة ليكشف عن رأس ليا على حجر والدتها، بينما يجلس الحاكم العام بعيدًا عنهما بعض الشيء.

"لن يسمح السادة السبعة عشرة بحدوث هذا". قالها آرينت مجادلًا، مشيرًا إلى التقدير الذي يكنه حكام شركة الهند الشرقية المتحدة تجاه سامي. "إنك ذو قيمة كبيرة".

"إن الحاكم العام يُبحر ليأخذ مكانه بينهم، ويعتقد أن باستطاعته إقناع البقية".

مرت عبارتهم من بين سفينتين، كان البحارة متدلين من الأشرعة وهم يتبادلون المزاح البذيء عبر الفجوة التي تفصل بين السفينتين.

شخص ما كان يتبول من على الجانب، وبالكاد تمكنا من تفادي السائل الأصفر.

تساءل آرينت: "لمَ يحدث هذا يا سامي؟ لقد استعدتَ الغنيمة كما طلبوا منك، وقد أقاموا وليمة على شرفك. كيف في اليوم التالي تخطو إلى مكتب الحاكم العام بطلًا وتخرج منه مجرورًا بالأغلال؟".

قال في يأس: "لقد فكرت في الأمر مرارًا وتكرارًا، ولكني لا أعرف. لقد طلب مني أن أعترف، ولكن عندما قلت له إنني لا أعرف ما يطلب مني أن أعترف به، ثار في غضب وأمر بإلقائي في زنزانة حتى أُعيد النظر في الأمر، لهذا أتوسل إليك أن تتركني وشأني".

"سامي...".

قاطعه قائلًا: "شيء ما قد فعلته أثناء هذه القضية جعله يستشيط مني غضبًا، ولا يمكنني أن آمل في حمايتك منه ما لم أعرفه. ولكني أقسم لك أنه بمجرد أن ينتهي مني فإن أعمالنا الصالحة ستصير هباءً منثورًا وسنفقد مكانتنا في شركة الهند الشرقية المتحدة. لقد صرتُ خطرًا عليك يا آرينت هايز، لقد كان سلوكي طائشًا ومتعجرفًا، ولهذا أتعرض للعقاب. لن أضاعف من فشلي بجرك إلى الهلاك، فلتعد إلى باتاڤيا واتركني أنا أنقذ حياتك هذه المرة".

أجابه آرينت: "لقد أخذت منك المال وقطعت وعدًا أن أحميك من الخطر، لدي ثمانية أشهر لكي أنقذك من أن تصير مأدبة للغربان، وسأحرص على هذا".

هز سامي رأسه في انهزام، ثم لاذ بالصمت وقد تهدلت كتفاه.

كان قاربهما يقترب من سفينة ساردام الهائلة التي تصدر صريرًا بينما هيكلها يتصاعد من الماء كجدار خشبي ضخم. لم يمر سوى عشرة أشهر على رحيلها عن أمستردام، ولكنها قد صارت عتيقة بالفعل، وقد تقشر طلاؤها الأخضر والأحمر، وصارت الألواح الخشبية منبعجة بفعل مرورها عبر المحيط الأطلنطي المتجمد إلى المناطق الاستوائية الحارة.

إن إمكانية أن يطفو شيء بهذه الضخامة لهي معجزة هندسية أشبه بالسحر الأسود، وقد شعر آرينت بالضآلة على الفور في مواجهتها. مد يده ومرر أنامله على ألواحها الخشنة، كان هناك اهتزاز ضئيل في الألواح الخشبية، حاول أن يتخيل الموجود على الجانب الآخر؛ الأسطح الخشبية ودرجات السلالم وأشعة الشمس الشاردة وهي تخترق الظلمة. سفينة بهذا الحجم تتطلب المئات من الأشخاص للإبحار بها، وستحمل ضعف هذا العدد من الركاب. إنهم جميعًا في خطر، ورغم أن سامي مقيد بالأغلال وقد تعرض للضرب وسوء المعاملة إلا أنه الوحيد الذي يمكنه مساعدتهم.

عبَّر آرينت عن هذه الفكرة ببلاغة قدر استطاعته قائلًا: "شخص ما يحاول إغراق هذا القارب، وأنا سأذبح مثل كيس من الأحجار، هل هناك فرصة لأن تخرج رأسك من الرمال وتفعل شيئًا حيال الأمر؟".

نظر إليه سامي مبتسمًا وقال بسخرية: "يمكنك أن تقود جيشًا لأن يقفز من فوق جرف بهذا اللسان. هل أسفر تفتيشك لجثة المجذوم عن أي شيء؟".

أخرج آرينت قطعة قماشية من القنب قد اقتطعها من كيس على رصيف الميناء، ملفوف بداخلها التميمة التي كان المجذوم

يحملها عندما قتله آرينت. كانت متفحمة للغاية ولا يمكن تمييز أي تفاصيل.

مال سامي للأمام وتفحصها باهتمام ثم قال: "لقد انكسرت إلى نصفين، يمكنك تمييز هذا من الحواف التي لا تزال خشنة".

راح يفكر في الأمر للحظة ثم التفت ناحية قائد الحرس دريخت، كان صوته يحمل نبرة سلطوية رغم أنه مكبل بالأغلال وهو يقول: "هل عملت من قبل على متن سفينة هندية؟".

ضيق دريخت عينيه وهو ينظر إليه كأنما السؤال كهف مظلم لا يريد أن يدخله، ثم أجاب أخيرًا: "أجل".

"ما هي أسرع طريقة لإغراق سفينة هندية؟".

رفع دريخت حاجبًا أشقر كثًّا ثم أومأ ناحية آرينت وقال: "أن تطلب من صديق أن يلكم الهيكل بقبضته ليثقبه".

قال سامي: "أنا جاد يا قائد الحرس".

سأله في ريبة: "لماذا؟ إن ما ينتظرك ليس لطيفًا، ولكني لن أسمح لك بجر الحاكم العام إلى الجحيم معك".

أجابه سامي: "إن مستقبلي بين يدي آرينت، مما يعني أنني لم أعد أخشى عليه، ولكن هناك تهديد موجه تجاه هذه السفينة، وأريد أن أحرص على ألا ينتج عنه أي شيء".

نظر دريخت وراء سامي ناحية آرينت ثم قال: "هل هذه هي نيته حقًّا أيها الملازم؟ فلتصدقني القول".

أومأ آرينت برأسه مما جعل دريخت يحدق إلى السفن المحيطة بهم، ثم يعقد حاجبيه وهو يعدل من حزام الذخيرة المعلق بكتفه، مما جعل القوارير النحاسية تصدر قعقعة.

قال بعد فترة طويلة من الصمت: "إن إشعال شرارة في مخزن البارود سيفي بالغرض".

"من يحرس مخزن البارود؟".

أجابه دريخت: "كونستبل يجلس وراء باب موصد".

قال سامي: "أريد منك أن تعرف من لديه حق الولوج إلى تلك الحجرة يا آرينت، وأي تظلمات قد يحملها هذا الكونستبل".

تشجع آرينت لسماع الشغف في صوت صديقه، إنهم في معظم الأحيان يحققون في السرقات والقتل، الجرائم التي يرتكبها الناس عادة ويسهل فهمها، كان الأمر أشبه بالوصول إلى المسرح بعد أن انتهت المسرحية، ثم يطلبون منك أن تخمن القصة باستخدام قطع ملقاة من النص والأدوات التي تُركت على خشبة المسرح. ولكن هذه جريمة لم تقع بعد، إنها فرصة لإنقاذ الأرواح بدلًا من الانتقام لإزهاقها. هذه أخيرًا قضية جديرة بمهارات سامي. كان آرينت يأمل أن هذا سيكون كافيًا لتشتيت انتباهه حتى يتمكن من تأمين حريته.

قاطعه دريخت وهو ينفض قطرة من مياه البحر من على رمشه: "ستحتاج إلى الحصول على إذن من القبطان كراوڤلز، إن تصريحه فقط سيسمح لك بالدخول، ولكن ليس من السهل الحصول على تصريح منه".

قال سامي مخاطبًا آرينت: "الآن صار لدينا نقطة بداية، وبمجرد أن تتحدث إلى الكونستبل فلترَ إن كان بمقدورك أن تتعرف على المجذوم، أنا أعامله كضحية".

قال دريخت في استياء: "ضحية؟ كان هو من أمطرنا بتلك اللعنات".

"كيف؟ كان لسانه مقطوعًا. إنه لم يمنحنا سوى شيء لنحدق إليه بينما صوت آخر ينطق بالتهديد، ليس لدينا فكرة إن كان ذلك المجذوم يشاطره شره أم لا، ولكني متيقن من أنه لم يصعد هذه الصناديق بنفسه، ولم يُشعل النار في ثيابه. لم تبتعد يداه عن جانبيه حتى ألقى بنفسه من على الصناديق، ورأينا جميعًا ذعره بينما ألسنة اللهب تلتهمه، لم يكن يعرف ما سيحدث له، مما يجعل موته جريمة قتل، بل جريمة قتل شنيعة". كان هناك عنكبوت صغير يسرع على طول أغلال سامي، فاستخدم يده ليصنع له جسرًا وتركه يزحف على المقعد. "ولهذا سيعرف آرينت اسم المجذوم وسيتحدث إلى أي أصدقاء له، وسيعرف كل ما فعله في أسابيعه الأخيرة، ومن هذه الشذرات ربما سنفهم كيفية صعوده على هذه الصناديق، ومن الذي سمعنا صوته، ولمَ يكنّ هذه الكراهية لهؤلاء الذين سيصعدون على متن ساردام".

تململ آرينت في تردد ثم قال: "لست واثقًا من أنني سأتمكن من فعل أي من هذه الأشياء يا سامي، ربما يمكننا أن...".

قال سامي منزعجًا من تردده: "قبل ثلاث سنوات طلبت مني أن أعلمك فني وأن أجعلك متدربًا لديَّ، أعتقد أن الوقت قد حان لتتصرف على هذا النحو".

احتدمت الجدالات القديمة بينهما كفقاعات سامة في مستنقع.

قال آرينت في حدة: "لقد تخلينا عن هذا الأمر، نحن نعرف بالفعل أنني لا أستطيع فعل ما تفعله".

"لم يكن ما حدث في ليل* قصورًا في الذكاء، بل قصورًا في الحالة المزاجية، إن قوتك قد جعلتك نافد الصبر".

"لم أفشل بسبب قوتي".

"كانت قضية واحدة، وأنا أفهم أنها قد أثرت على ثقتك في نفسك...".

"لقد كاد رجل بريء أن يموت".

قال سامي بحزم: "عادة ما يموت الرجال الأبرياء. كم عدد اللغات التي تتحدث بها؟ ما مدى سهولة جمعها، لقد راقبتك طيلة السنوات الماضية، أعرف كم أنت شديد الملاحظة، وأعرف قدر ما تحفظه. ما الذي كانت ترتديه سارا فيسل عند اجتماعنا هذا الصباح؟ من القبعة وحتى الحذاء، فلتخبرني".

"لا أعرف".

قال ضاحكًا من كذبة آرينت الغريزية: "بالطبع تعرف، أنت رجل عنيد، يمكنني أن أسألك عن عدد السيقان التي يمتلكها حصان وستنكر أنك قد رأيت حصانًا من قبل. ما الذي تفعله بكل هذه المعلومات؟".

"أبقيك على قيد الحياة".

* ليل: مدينة تقع في أقصى شمال فرنسا.

"ها أنت ذا مرة أخرى، تعتمد على قوتك بينما عقلك هو ما نحتاج إليه". ثم رفع أغلاله الثقيلة وقال: "إن مواردي محدودة يا آرينت، وحتى أصير حرًّا لأتولى تحقيقاتي الخاصة أتوقع منك حماية السفينة". ارتطم قاربهم بهيكل سفينة ساردام بينما قائد العبارة يجذبهم إلى محاذاة السفينة. "لن أتركـ وغدًا ما يغرقني قبل أن يشنقني الحاكم العام".

٥

احتشدت العبَّارات حول ساردام وهي تشق المياه في سلسلة طويلة كنمل يهاجم ثورًا ميتًا، كل عبارة تعج بالركاب وكل منهم يتشبث بحقيبة واحدة قد سُمح بجلبها. عندما صرخوا لإلقاء سلالم الحبال وجدوا أنفسهم يتعرضون للسخرية من البحارة بالأعلى، الذين تظاهروا بعدم قدرتهم على العثور على السلالم، أو، فقط، عدم سماع المطالب.

لقد تغافل موظفو ساردام عن تسلية البحارة بينما ينتظرون صعود الحاكم العام هان وزوجته على متن السفينة، ولم يكن مسموحًا لأي من الركاب بالصعود حتى يستقروا على متن السفينة بشكل مريح.

كان هناك لوح خشبي متصل بأربع حبال يُستخدم في هذه اللحظة لرفع ليا للأعلى، بينما سارا تراقب من الأسفل وهي تشبك يديها مرعوبة من أن ابنتها قد تسقط أو أن الحبال قد تنقطع.

كان زوجها قد صعد على متن السفينة بالفعل وستكون هي آخر من يلحق به.

يتطلب الإتيكيت أن تهتم بغيرها أكثر من نفسها في كل شيء حتى في صعود السفينة.

عندما حان دورها جلست سارا على اللوح الخشبي وتمسكت بالحبل، ثم ضحكت في بهجة عندما ارتفعت في الهواء وراحت ملابسها تخفق مع الرياح.

إن الصعود شيء مثير للحماس.

راحت تركل بقدميها وهي تحدق عبر المياه إلى باتاڤيا.

طيلة السنوات الثلاثة عشرة الماضية كانت تنظر من القلعة إلى المدينة الممتدة من حولها كزبد ذائب، ولكن من هذا المنظور شعرت أن المدينة ضخمة للغاية؛ سجن من الأزقة، والمتاجر، والأسواق، والأسوار.

ولكن بدت في الأفق كشيء منعزل، شوارعها وقنواتها متشبثة بإحكام بعضها ببعض، مولية ظهرها إلى الساحل كما لو أنها تخشى الغابة التي تزحف نحوها. كان هناك سحب من الدخان معلقة فوق أسطح البيوت، بينما الطيور ذات الألوان الزاهية تحوم من فوقها، تنتظر أن تهبط على بقايا الطعام التي سيخلفها تجار الأسواق، الذين سرعان ما سيحزمون أمتعتهم مع انتهاء اليوم.

شعرت سارا بوخزة من الألم عندما أدركت كم ستفتقد هذا المكان، في كل صباح كانت باتاڤيا تصيح لكي توقظ نفسها، فترتجف الأشجار، بينما آلاف الببغاوات تصرخ وتحلق من أغصانها وتملأ الهواء بألوانها. لقد أحبت هذه الجوقة وأحبت هذه اللغة الشعرية الغريبة للسكان الأصليين، وأواني الحساء الغنية بالتوابل التي يطهونها في الشارع كل مساء.

باتاڤيا هي المكان الذي وُلِدت فيه ابنتها، ومات فيه ابناها، إنه المكان الذي صارت فيه المرأة التي هي عليها الآن، رغم أنها لا تعرف إن كان هذا من حسن حظها أم من سوء حظها.

أُنزِلت سارا من على اللوح الخشبي بالقرب من مقدمة السفينة تحت ظل الصاري الرئيسي شاهق الارتفاع. كان البحارة يتسلقون الأشرعة كالعناكب، فيجذبون الحبال ويحكمون ربط العقد، بينما النجارون يعدلون الألواح الخشبية المنثنية، والصبية يسدون الفجوات ويضعون القطران ويحاولون ألا يتعرضوا للتوبيخ.

وجدت سارا ابنتها عند السور الذي يطل على بقية السفينة.

قالت ليا في إعجاب: "هذا مدهش، أليس كذلك؟". كانت تشير إلى مجموعة من البحارة الذين يلهثون وهم يُنزلون البضائع عبر فتحة تؤدي إلى مخزن البضائع، كما لو أن ساردام وحش يحتاج إلى إطعام قبل بدء الرحلة. "باستخدام بكرة ورافعة أفضل سيبذلون نصف هذا الجهد، يمكنني تصميم هذا إن كانوا...".

قاطعتها سارا: "لن يسمحوا بهذا قط، فلتحتفظي ببراعتك لنفسك يا ليا، نحن محاصرون برجال لن يتقبلوا الأمر بلطف مهما كانت نوايانا حسنة".

عضت ليا على شفتها في وجوم وهي تحدق باستياء إلى البكرة قبل أن تقول: "إنه أمر يسير، لمَ لا يمكنني...".

"لأن الرجال لا يحبون أن يجعلهم أحد يشعرون بالغباء، ولن يشعروا بأي شيء آخر عندما تبدئين في الحديث". مسدت سارا وجه ابنتها وهي تتمنى أن تخفف من الارتباك الذي رأته على وجهها.

"البراعة نوع من القوة، ولن يقبلوا أن تكون امرأة أقوى منهم، لن يسمح كبرياؤهم بهذا الأمر، وكبرياؤهم هو أغلى شيء يعتزون به". هزت رأسها غير قادرة على إيجاد الكلمات المناسبة، ثم قالت: "إنه ليس شيئًا يمكن فهمه، ولكن هكذا تجري الأمور. لقد كنتِ محمية في القلعة، محاطة بأشخاص يحبونكِ ويخافون أباكِ، ولكن لا توجد حماية كهذه على متن ساردام، هذا مكان خطير، والآن أنصتي إليَّ وفكري قبل أن تتكلمي".

قالت ليا: "حسنًا يا أمي".

تنهدت سارا ثم جذبت ابنتها لتقربها منها وهي تشعر بألم في قلبها، لا ترغب أي أم في أن تخبر طفلها بأنه أقل مما هو عليه، ولكن ما الفائدة من تشجيع طفل على التشبث بشجرة تبرز منها الأشواك. قالت: "أعدكِ أن الأمر لن يستمر على هذا النحو لوقت طويل، قريبًا سنكون آمنين وسنعيش حياتنا كيفما نشاء".

صاح الحاكم العام من على الجانب المقابل من سطح السفينة: "زوجتي! هناك شخص أرغب في أن تقابليه".

قالت وهي تتأبط ذراع ليا: "أنا قادمة".

كان زوجها يتحدث إلى شخص سمين يتصبب عرقًا وتبرز الأوردة من وجهه، كانت عيناه محتقنتين بالدماء ومغرورقتين بالدموع، من الواضح أنه استيقظ متأخرًا ولم يكترث بغسل وجهه. رغم أنه يرتدي ملابس على أحدث صيحة إلى أن شرائطه لم تكن مهندمة، وكان قميصه القطني مدسوسًا في جانب واحد من حزامه، كما أنه لم يضع أيًّا من مساحيق التجميل أو العطور، رغم أنه في حاجة ماسة لكليهما.

قال الحكام العام: "هذا هو كبير التجار رينير ڤان شوتن، قائد رحلتنا".

كان هناك نفور مستتر وراء كلماته.

نظر ڤان شوتن ناحية سارا نظرة وضعتها على الميزان لوزنها وتقييمها وتحديد سعر لها.

قالت ليا: "ظننت أن القبطان هو المسؤول عن سفينتنا".

دس ڤان شوتن إبهاميه في حزامه ونفخ بطنه المستدير بشكل مثالي مستدعيًا فتات الكبرياء التي تبقت له، فقال مفسرًا: "ليس على متن سفينة تجارية يا سيدتي، دور القبطان لدينا هو الحرص على أن تصل سفينتنا بأمان إلى أمستردام فحسب، وأنا المسؤول عن كل الأمور الأخرى".

قالت سارا لنفسها: فحسب؟ كما لو أن هناك مهمة أعظم من حماية سفينة من الغرق.

ولكن بالطبع هناك مهمة أعظم، هذه سفينة تجارية تبحر لصالح شركة الهند الشرقية المتحدة، مما يعني أن الأرباح تفوق كل اعتبار آخر، لا يهم إن عادت السفينة إلى أمستردام إن كانت الشحنة قد فسدت، أو إن جرت التجارة عند رأس الرجاء الصالح على نحو سيئ. يمكن أن تصل ساردام إلى المرفأ مليئة بالجثث، وسيعتبر السادة السبعة عشرة هذا نجاحًا طالما أن التوابل لم تكن رطبة.

قال رينير ڤان شوتن: "هل يمكنني أن أصحبك في جولة على متن سفينتنا؟". ثم مد ذراعه إلى ليا وهو يحرص على أن يظهر كل خاتم

من خواتمه المرصعة بالمجوهرات، لسوء الحظ لم تكن الخواتم كافية لتشتيت الانتباه عن بقعة العرق تحت إبطه.

قالت ليا متسائلة وهي تولي ظهرها إلى التاجر وتلوي وجهها في اشمئزاز: "هل ترغبين في جولة يا أمي؟".

تدخل الحاكم العام قائلًا في صبر نافد: "يمكن لزوجتي وابنتي أن يتعرفا على السفينة لاحقًا، أريد أن أرى شحنتي".

قال في حيرة: "شحنتك؟". ثم ظهر الاستيعاب على وجهه وقال: "أوه أجل، يمكنني أن آخذك إلى هناك مباشرة".

قال: "جيد. ابنتي، أنتِ في المقصورة رقم ثلاثة". ثم لوَّح بيده بشكل مبهم ناحية باب صغير أحمر من ورائهم، قبل أن يقول: "زوجتي، أنتِ في المقصورة رقم ستة".

قال كبير التجار مصححًا بلهجة أقرب للاعتذار: "المقصورة رقم خمسة يا سيدي، لقد أمرت بتغييرها".

"لماذا؟".

"حسنًا...". تململ ڤان شوتن في توتر وقد جعلته ظلال حبال الأشرعة يبدو وكأنه واقع تحت شبكة. "المقصورة رقم خمسة مريحة أكثر".

"هذا هراء، جميعها متطابقة". يشعر الحاكم العام بالغضب إن اعترض أحد على أي أمر من أوامره مهما كان صغيرًا. "لقد اخترت المقصورة رقم ستة على وجه التحديد".

تحدث كبير التجار على الفور قائلًا: "المقصورة رقم ستة ملعونة يا سيدي". ثم احمر وجهه خجلًا. "طيلة الأشهر الثمانية في رحلتنا من أمستردام كان بها نزيلان، الأول وجدناه متدليًا من خطاف في السقف، والثاني وجدناه قد مات أثناء نومه وعيناه متسعتان في رعب. يصدر عنها صوت خطوات أقدام في الليل حتى عندما تكون شاغرة. أرجوك يا سيدي إنها...".

قاطعه الحاكم العام: "لا أبالي بهذا! أنتِ حرة في اختيار أي مقصورة تناسبك يا زوجتي، لن أكون في حاجة إليكِ حتى المساء".

قالت سارا في إذعان وهي تحني رأسها: "أمرك يا زوجي".

راقبت سارا رينير ڤان شوتن وهو يصطحبه هابطًا درجات السلم، ثم أمسكت بيد ليا وجذبتها بأسرع ما تسمح به تنورتاهما الثقيلتان ناحية مقصورات الركاب.

قالت ليا في قلق وهي تكاد أن تتعثر: "لِمَ العجلة يا أماه؟".

قالت: "يجب علينا أن نُنزل كريسي والصبيين من على السفينة قبل أن تبحر".

قالت ليا محتجة: "لن يسمح أبي بهذا، لقد أخبرتني كريسي أنها لم يكن من المفترض أن تغادر باتاڤيا قبل ثلاثة أشهر، ولكن أبي أراد منها أن تصحبنا، لقد أمر بهذا، حتى إنه قد دفع ثمن مقصورتها".

قالت: "لهذا لن أخبره، لن يعرف حتى أن كريسي قد ترجلت عن السفينة إلا بعد أن نبحر".

ثبتت ليا قدميها في الأرض وهي تتشبث بيد أمها بكلتا يديها لتجبرها على التوقف.

قالت ليا في خوف: "سيعاقبنا، أنتِ تعرفين ما سيفعله، سيكون هذا أسوأ من...".

قاطعتها سارا قائلة: "يجب علينا أن نحذر كريسي".

"لم تتمكني من السير في المرة الماضية".

لانت ملامح سارا وهي تضع يدها على وجنة ابنتها ثم قالت: "أنا آسفة يا عزيزتي، كان ذلك... أتمنى لو أنكِ لم تريني هكذا، ولكني لن أسمح بتعريض صديقتنا للخطر، لأن والدك عنيد للغاية على أن يسمع صوت العقل من امرأة".

قالت ليا متوسلة: "أرجوك يا أمي". ولكن سارا كانت بالفعل قد انتزعت ياقتها العريضة وهي تحني رأسها لتمر عبر الباب الأحمر الخفيض.

على الجانب الآخر كان هناك ممر ضيق تضيئه شمعة واحدة موضوعة في تجويف، كان هناك أربعة أبواب على كل جانب، وكل منها مرقم برقم روماني محفور في الخشب. كان الحمالون ينقلون الصناديق والأثاث وهم يلهثون ويسبون تلك الثروات الثقيلة.

كانت خادمة سارا تحثهم على الإسراع وهي تشير بإصبعها وتضع الترتيبات اللازمة نيابة عن سيدتها.

تساءلت سارا: "في أي مقصورة توجد كريسي؟".

قالت دوروثيا: "السابعة، إنها المقصورة المقابلة لمقصورة ليا". ثم أوقفت ليا لتستفسر عن بعض الأمور الصغيرة، تاركة سارا تمضي قدمًا بمفردها.

أصدرت قيثارة رنينًا تحت قماشها الواقي بينما تشق سارا طريقها عبر الفوضى، قبل أن يعترض طريقها سجادة كبيرة معقودة بالخيوط، كان من المفترض أن توضع في مقصورة صغيرة للغاية على أن تضمها.

"لن تسعها أيها القبطان". قالها أحد البحارة متذمرًا وهو يضعها على كتفه ويحاول أن يثنيها عبر إطار الباب. "ألا يمكننا أن نضعها في مخزن البضائع؟".

جاء صوت القبطان منزعجًا من الداخل وهو يقول: "لن تبقى الڤيكونتيسة دالڤين هنا من دون سُبل الرفاهية الخاصة بها، حاول أن تدخلها بشكل أفقي".

بذل البحارة مجهودًا كبيرًا وتعالى صوت صرير واضح من الخشب.

صرخ القبطان في غضب: "ما الذي فعلتموه بحق الجحيم؟ هل كسرتم إطار الباب؟".

قال أقرب البحارة معترضًا: "لم يكن نحن أيها القبطان". انزلقت عصا خشبية رفيعة من منتصف السجادة ثم سقطت على الأرضية وقد انكسر أحد طرفيها.

ركلها أحد البحارة على الفور بكاحله وقال مفسرًا: "الغرض منها هو إبقاء السجادة مستقيمة فحسب". ولكن تجهمًا صغيرًا وشى بعدم يقينه.

صاح الصوت مزمجرًا من داخل المقصورة: "اللعنة عليكم، فلتضعوها فحسب في إحدى الزوايا، يمكن أن تجد دالڤين مكانًا لها عندما تصعد على متن السفينة".

وبينما المقصورة تبتلع السجادة خطا رجل عريض المنكبين مفتول العضلات إلى الممر، ليقف أمام سارا وجهًا لوجه. كانت عيناه زرقاوين بلون المحيط، وقد جز شعره لمقاومة القمل، بينما يغطي ذقنه ووجنتيه شعيرات حمراء، أما وجهه فقد سفعته الشمس ليصير بنيًّا، وكان حاد القسمات وبه شيء من الوسامة، تمامًا مثل السفينة التي يقودها.

عندما رأى سارا انحنى بشدة كأنه في البلاط وقال: "أعتذر عن ألفاظي يا سيدتي، لم أدرك أنك هنا بالخارج، أنا أدريان كراوڤلز قبطان سفينة ساردام".

كان الممر ضيقًا ومزدحمًا مما أجبرهما على الوقوف كل منهما بالقرب من الآخر بشكل محرج.

كانت تفوح منه رائحة عطرية كرائحة الليمون، وأسنانه بيضاء بشكل غير معتاد، وتشي رائحة أنفاسه بأنه كان يمضغ النعناع. على عكس كبير التجار كانت ملابسه باهظة وصدريته مصبوغة بلون أرجواني زاهٍ، وتطريزها الذهبي يعكس ضوء الشمعة. كان كُمَّاه مزركشين وسرواله معقود فوق خاصرتيه بأشرطة حريرية، وأبازيم حذائه تلمع.

مثل هذه الملابس الفاخرة تشي بمسيرة مهنية ناجحة، يحصل قباطنة الأساطيل على نسبة من أرباح البضائع التي يوصلونها بأمان، ومع هذا لم تتفاجأ سارا عندما اكتشفت أن كراوڤلز يرتدي ثروته بأسرها.

قالت لتعرف نفسها وهي تومئ برأسها: "سارا ڤيسل، إن زوجي يثني عليك كثيرًا أيها القبطان".

ابتسم في بهجة وقال: "يشرفني سماع هذا، لقد أبحرنا معًا مرتين من قبل، ولطالما استمتعت بصحبته". ثم أومأ إلى الياقة التي تمسك بها في يدها وقال: "إن الأروقة الضيقة في ساردام غير ملائمة للموضة، أليس كذلك؟". تعالى من مكان ما بالخارج صيحة خشنة تنادي القبطان فقال: "يبدو أن مساعدي يحتاج إليَّ، هل ستكونين حاضرة على طاولة الليلة يا سيدتي؟ فحسب علمي قد أعد الطاهي شيئًا استثنائيًّا".

كانت ابتسامة سارا شيئًا جميلًا ناتجًا عن عدد لا نهائي من المناسبات الاجتماعية غير المرغوبة. قالت كاذبة: "أنا أتطلع إلى هذا".

قال: "ممتاز". ثم رفع يدها وقبلها في تهذيب، قبل أن يمشي مبتعدًا عن الضوء.

طرقت سارا على باب المقصورة السابعة، ومن وراء الباب كان بمقدورها أن تسمع ضحكات صديقتها وصيحات البهجة من ابنيها. كان الصوت أشبه بهبة من النسيم تشق طريقها عبر الضباب فتحسنت حالتها المزاجية على الفور.

اقترب صوت خطوات أقدام من الداخل، قبل أن يفتح ولد صغير الباب بحذر، فأشرق وجهه عندما أدرك من تكون.

صاح وهو يحيطها بذراعيه النحيفتين: "سارا!".

كانت كريسي ينس تتدحرج على الأرضية مع ابنها الآخر غير مكترثة بثياب النوم الحريرية. كان الولدان في ثيابهما الداخلية وبشرتهما رطبة وشعرهما مبلل وملابسهما ملقاة على الأرض. من

الواضح أن شيئًا ما قد حدث لهما أثناء صعود السفينة، وهو ما لم يكن مفاجئًا لسارا على الإطلاق.

إن ماركوس وأوسبرت يسعيان وراء المتاعب. ماركوس في العاشرة، أكبر من أخيه بعامين، رغم أنه ليس سريع البديهة مثله. كان ماركوس هو من يتشبث بسارا ويجذبها للدخول إلى المقصورة.

قالت مخاطبة كريسي وهي تمسد شعر الفتى بمودة: "لقد ربيتِ حيوانًا لاصقًا".

دفعت كريسي أوسبرت بعيدًا عن وجهها وهي تتفحصهما من على الأرضية، كان شعرها قد تشكل في حلقة فوضوية على الأرضية الخشبية، وعيناها الزرقاوان تلمعان في ضوء الشمس، ووجهها ناعم ومستدير، ووجنتاها الشاحبتان قد احتقنتا بالدماء بفعل المجهود. كانت أجمل امرأة قد رأتها سارا، وهو الشيء الذي تتفق فيه مع زوجها.

"مرحبًا يا ليا". قالتها كريسي مخاطبة الفتاة ذات الشعر الأسود التي خطت وراء والدتها إلى المقصورة. "هل تُبقين سارا بعيدًا عن المتاعب؟".

"أحاول، ولكن يبدو أنها مغرمة بالمتاعب".

كان ماركوس لا يزال متشبثًا بتنورة سارا، فقالت له كريسي: "اتركها وشأنها، ستبلل ثيابها".

تجاهل ماركوس تعليمات أمه كالعادة وقال مفسرًا: "لقد عبرنا موجة وبعدها...".

تنهدت كريسي وهي تتذكر الموقف ثم قالت: "وقف الولدان لتحية الموجة التالية، كادا أن يتعثرا من فوق حافة القارب، من حسن الحظ أمسك بهما ڤوس".

دُهشت سارا لذكر حاجب زوجها وقالت: "هل أبحرتما مع ڤوس؟".

قالت كريسي باستياء: "بل هو من أبحر معنا بالأحرى".

أضاف أوسبرت الذي كان لا يزال مستلقيًا فوق أمه وبطنه العاري يعلو ويهبط: "لقد كان مستاءً للغاية، ولكن الموجة لم تؤلمنا حقًّا".

قال ماركوس مصححًا: "كانت مؤلمة قليلًا".

فقال أوسبرت مصححًا بدوره: "قليلًا للغاية".

جثت سارا على ركبتيها وهي تنقل بصرها بين وجهيهما البريئين.

حدقت إليها أعين زرقاء لامعة ساذجة ومرحة، إنهما متشابهان للغاية، شعر بني ووجنتان حمراوان، وأذنان تلوح كل واحدة إلى العالم من جانب الرأس. كان ماركوس أطول، وأوسبرت أعرض، ولكن خلاف ذلك كان هناك القليل مما يميز أحدهما عن الآخر، قالت كريسي إنهما يشبهان والدهما، زوجها الثاني بيتر، لقد قُتل قبل أربعة أعوام، وهو شيء لا تحب كريسي الحديث عنه، وبحسب الحكايات التي سمعتها سارا عرفت أنه كان محبوبًا للغاية وقد رثاه الناس بحرارة.

قالت سارا: "أريد أن أتحدث مع أمكما أيها الولدان، هلا ذهبتما مع ليا؟ إنها تريد أن تريكما مقصورتها، أليس كذلك يا ليا؟".

قطبت ليا جبينها في انزعاج، فهي تكره معاملتها كطفلة، ولكن حبها للولدين كان كافيًا لرسم ابتسامة على شفتيها.

ازدادت جدية وهي تقول: "وعلاوة على هذا أعتقد أن هناك سمكة قرش في المقصورة".

قال الولدان في احتجاج في صوت واحد: "لا، لا يوجد سمكة قرش هناك، لا توجد أسماك قرش على اليابسة".

قالت ليا وهي تتصنع الحيرة: "هذا ما قيل لي، هل يجب أن نذهب ونستطلع الأمر؟".

وافقها الولدان في حماس كافٍ ثم اندفعا إلى الخارج في ملابسهما الداخلية.

أغلقت سارا الباب بينما كريسي تنهض على قدميها وتنفض الغبار عن ثياب نومها قبل أن تقول: "هل تعتقدين أنهم سيسمحون لي بارتداء هذا في أرجاء السفينة؟ أكره ارتداء ملابسي بعد أن بللتها الموجة...".

قاطعتها سارا وهي تلقي بياقتها على الفراش: "يجب عليكِ أن تترجلي عن ساردام".

قالت كريسي بينما تعقد حاجبيها وهي تنظر إلى بقعة متسخة على كمها: "عادة ما يستغرق الأمر أسبوعًا قبل أن يطلب مني الناس أن أغادر مكانًا".

"لقد تعرضت السفينة للتهديد".

أجابتها كريسي في ريبة: "من رجل مجنون على رصيف الميناء". ثم اقتربت من رف في الجدار يحوي أربع أباريق فخارية وقالت: "نبيذ؟".

قالت سارا في صبر نافد: "ليس هناك وقت يا كريسي، يجب أن تترجلي عن السفينة قبل أن نبحر".

أجابتها صديقتها وهي تملأ كأسين: "لمَ تصدقين هذيان رجل مجنون؟". ثم مدت بكأس إلى سارا.

قالت سارا: "لأن سامويل بيبس يصدقه".

توقف الكأس في منتصف الطريق إلى شفتي كريسي، وقد ظهر الاهتمام على وجهها للمرة الأولى وهي تسأل: "بيبس على متن السفينة؟".

"في الأصفاد".

"هل تعتقدين أنه سيحضر العشاء؟".

قالت سارا بلهجة مشددة: "إنه في الأصفاد".

قالت كريسي وهي غارقة في التفكير: "ومع ذلك سيكون متأنقًا أكثر من معظم الضيوف الآخرين. هل تعتقدين أنه سيكون بمقدوري زيارته؟ يقولون إنه وسيم بشكل استثنائي".

"عندما نظرت إليه بدا وكأنه قد خرج للتو من كومة قمامة".

ظهر الاشمئزاز على وجه كريسي وهي تقول: "ربما سينظفونه".

كررت سارا ببطء: "إنه في الأصفاد". ثم وضعت الكأس الذي لم يلمس شفتيها جانبًا وقالت: "هل تفكرين في الرحيل؟".

"ما رأي يان في الأمر؟".

"إنه لا يصدقني".

"إذن لماذا سيسمح لي بالرحيل؟".

اعترفت سارا قائلة: "إنه لم يسمح بهذا، أنا... لن أخبره".

"سارا!".

صرخت سارا وهي تلوح بيديها في الهواء، فارتطمتا بعوارض السقف الخشبية: "هذه السفينة في خطر، فلتعودي إلى باتاڤيا من أجلك ومن أجل الولدين". هزت يديها في محاولة لإبعاد الألم عن أصابعها وقالت: "سيكون هناك رحلة بحرية أخرى في غضون أربعة أشهر، ستكونين في البيت قبل زواجك بوقت كافٍ".

قالت كريسي محتجة: "ليست المشكلة في الوقت، يان يريدني على متن هذه السفينة، لقد اشترى مضجعي في السفينة وأمر واحدًا من الحرس الشخصي بتسليمي التذكرة، لا يمكنني الرحيل إلا بموافقته".

قالت متوسلة: "إذن فلتتحدثي إليه، فلتطلبي هذا منه".

"إن لم يُصغِ إليكِ، فلمَ قد يُصغِ إلي؟".

قالت سارا: "أنتِ عشيقته، والمحظية لديه".

أجابتها كريسي: "فقط في غرفة النوم". ثم تجرعت نبيذها وحدقت إلى سارا وقالت: "إن لعنة الرجل القوي هي أنه لا يصغي إلا لصوته".

"أرجوكِ! فلتحاولي على الأقل!".

قالت برفق لتغمر حدة سارا بهدوئها: "لا يا سارا، وليس بسبب يان، إن كان هناك خطر على هذه السفينة فهل تعتقدين حقًّا أنني سأتركك تواجهينه وحدك؟".

"كريسي...".

"لا تجادليني، فزوجان وبلاط مليء بالمحبين قد علموني العناد، كما أنه إن كان هناك خطر يهدد ساردام فواجبنا بالتأكيد هو أن نوقفه. هل أخبرتِ القبطان؟".

"آرينت يفعل هذا الآن".

"آرينت". قالتها بنبرة رقيقة شهوانية، فشكت سارا أنه في مكان ما على متن السفينة بدأ آرينت يتصبب عرقًا فجأة. "منذ متى وأنتِ على علاقة وطيدة بالملازم الهمجي هايز حتى تناديه باسمه الأول؟".

قالت سارا متجاهلة التلميح الكامن في كلماتها: "على رصيف الميناء. كيف يُفترض بي أن أنقذ ساردام؟".

"لا أعرف، لست أنا الذكية بيننا".

ابتسمت سارا في سخرية لسماعها هذا، ثم أمسكت بكأس النبيذ من جديد وتجرعت جرعة كبيرة، قبل أن تقول: "أنتِ ترين أكثر مما يراه معظمنا".

أجابتها كريسي: "هذه طريقة مهذبة لمناداتي بناقلة الإشاعات، هيا بنا. بحقك، فلتتوقفي عن كونك صديقة قلقة ولعب دور ساموبل بيبس، لقد رأيتكِ تنخرطين في قضاياه مع ليا وتحاولين حلها".

"إنها ألعاب".

"وأنتِ بارعة في لعبها". ثم صمتت قليلًا وهي تنظر إليها باهتمام قبل أن تقول: "فكري يا سارا، ماذا يجب علينا أن نفعل؟".

تنهدت سارا وهي تفرك صدغها براحة يدها ثم قالت ببطء: "يعتقد بيبس أن المجذوم كان نجارًا، ربما على متن هذه السفينة، لا شك أن شخصًا ما كان يعرفه، إن كان الأمر هكذا فقد يكون لديهم المزيد من المعلومات حول هذا الخطر الذي نواجهه".

"إن سيدتين مثلنا لن تكونا بأمان إن توغلتا في أعماق ساردام، كما أن القبطان يمنع أي مسافر من تجاوز الصاري الرئيسي".

"ما هذا؟".

"أطول صاري، في منتصف السفينة".

أجابتها سارا: "أوه، لن نحتاج إلى الذهاب إلى هذا الحد، نحن من النبلاء، يمكننا أن نجعل المعلومات تأتي إلينا".

فتحت الباب واستجمعت صوتها ثم صرخت بنبرة آمرة: "فليجلب لي أحد نجارًا، أخشى أن هذا المقصورة لن تفي بالغرض!".

٦

كان سامي بيبس متدليًا في الهواء، ويداه وقدماه تبرز من ثقوب شبكة بضائع ترفعه إلى ساردام.

"إن حاولت أن تقفز فثقل هذه الأصفاد سيغرقك". قالها قائد الحرس ياكوبي دريخت محذرًا، بينما ينظر لأعلى مضيقًا عينيه واقفًا على القارب بالأسفل.

أجابه سامي وهو يبتسم ابتسامة شاحبة: "لقد مضى وقت طويل منذ أن أخطأ شخص ما وظن أنني غبي يا قائد الحرس".

قال دريخت ساخرًا: "اليأس يجعلنا جميعًا أغبياء من وقت لآخر". ثم انتزع قبعته وقفز على سلم الحبال.

تبعه آرينت إلى الأعلى رغم أنه كان أبطأ بكثير، فسنوات الحرب قد سلبت منه أكثر مما منحته، ومع كل درجة كانت ركبتاه تطقطقان وكاحلاه يفرقعان. شعر كأنه كيس من أجزاء مكسورة ترتطم بعضها ببعض.

في نهاية المطاف جذب نفسه من فوق السور إلى خصر السفينة وهو السطح الأكبر والأكثر انخفاضًا من بين الأسطح الأربعة المكشوفة.

راحت عيناه تنظران يمينًا ويسارًا بحثًا عن صديقه، ولكن كان هناك الكثير من الفوضى، حشود من الركاب ينتظرون أن يخبرهم أحد أين

يذهبون، بينما البحارة يسكبون دلاءً من الماء في القوارب الشراعية، ويحشون المدافع بقماش القنب لحمايتها من تقلبات الطقس. كان هناك مئات من الببغاوات تصرخ في الفناء، والصبية في المقصورات يلوحون بأذرعهم في محاولات لإبعادها.

كان العمال ينزلون البضائع إلى المخزن عبر فتحات في سطح السفينة، بينما يتبادلون الإهانات، ويحاول كل واحد لوم الآخر في حال حدوث خطأ أثناء العمل. كان أعلى الأصوات يأتي من قزم يرتدي سروالًا قصيرًا وصدرية بينما يصرخ بالأسماء من قائمة الركاب المثبتة في ثنية ذراعه. لقد ذكَّر آرينت بجذع شجرة قد ضربه البرق، بسبب بنيته وامتلاء جسده وخشونة جلده بفعل هواء البحر والإحساس المنذر بوقوع كارثة الذي يكتنفه. بينما يعرف كل كاتب عن نفسه كان يشطب اسمه في القائمة ويصرخ فيه أن يتجه إلى مضجعه بصوت ذي لكنة ثقيلة، وهو يلوح بيده في الاتجاه الذي يجب أن يتوجه إليه. لقد أمر معظمهم بالهبوط إلى السطح السفلي للسفينة، وهو مكان خانق كريه الرائحة سيحشرون فيه كتفًا إلى كتف، وقدمًا إلى رأس، مما سيجعلهم طعامًا سائغًا للوعكة والمرض والكساح.

راقبهم آرينت في شفقة وهم ينصرفون.

في رحلته إلى باتاڤيا مات ثلث من أقاموا بالأسفل، وهذا جعله يشعر بالحزن وهو يرى الأطفال يهرولون في بهجة هابطين السلالم متحمسين للرحلة المقبلة.

إن الركاب الأكثر ثراءً، الذين لا يزالون غير قادرين على تحمل تكلفة مقصورة قد اصطحبهم أحدهم عبر قنطرة على يمينه إلى جناح

تحت السطح العلوي الأمامي، حيث تتدلى الأسرة المعلقة جنبًا إلى جنب مع المؤن وأدوات النجارة. سيكون لديهم مساحة كافية للوقوف أو الاستلقاء طالما أنهم لا يمدون أجسادهم، ولكن الأكثر أهمية هو أنه سيكون لديهم ستارة من أجل الخصوصية.

بعد شهر من الإبحار ستكون أشياء صغيرة كهذه شيئًا من الرفاهية.

لقد وُضع آرينت في هذا الجناح في رحلة مجيئه، وسيعود بنفس الطريقة، يمكنه بالفعل أن يشعر بظهره يتذمر. كان السرير المعلق يناسبه كما قد تناسب شبكة صيد ثور.

"إن صديقك هنا". صرخ بها دريخت من على الطرف البعيد لخصر السفينة وهو يلوح بيده لكي يراه آرينت من فوق رؤوس الحشد. لم يكن بحاجة إلى بذل مجهود كبير لرؤيته، فقد كان من الصعب تفويت الريشة الحمراء في قبعته.

كان هناك اثنان من الفرسان ينتزعان سامي من الشبكة وهما يضحكان بفظاظة عما صادته الشبكة، ويتساءلان بصوت عالٍ إن كان عليهما إلقاؤه في الماء من جديد.

ظاهريًّا تحمل سامي هذه الإهانة برزانة، ولكن آرينت رأى عينيه تتفحصان ملابسهما ووجهيهما وتنتزعان منها الأسرار.

لم يكن واثقًا مما سيجده صديقه.

إنه يعرف أن هذين الرجلين من باتافيا، وأنهما قبيحان وملابسهما ملطخة بالشحم ووجهاهما قذران. أطولهما يدعى ثيمان، له أسنان خضراء ولحية حمراء غير مكتملة، والقصير يدعى إيجرت، رجل

أصلع وتغطي رأسه القشور، التي يحكها عندما يكون متوترًا، وهو شيء مؤسف لأنه يكون متوترًا معظم الوقت.

قال ثيمان متسائلًا بينما آرينت ودريخت يقتربان: "إلى أين نذهب به يا قائد الحرس؟".

قال دريخت: "هناك زنزانة قد بنيت في مقدمة السفينة، سنأخذه عبر الجزء الأعلى من المقدمة ومن ثم سنهبط عبر مقصورة صانع الأشرعة".

تفرق الركاب والبحارة ليسمحوا لهم بالمرور، وقد تعالت همساتهم كسرب من الذباب المضطرب، لم يعرف أحد سبب تكبيل سامويل بيبس بالأغلال، رغم أنهم جميعًا لديهم فرضيات. أحس آرينت أنه مسؤول جزئيًّا عن ذلك، فعلى مدار السنوات الخمس الماضية كان يكتب تقارير عن كل واحد من تحقيقات سامي، في البداية كانت لكي يقرأها زبائنهما الذين يريدون أن يطمئنوا من أن ما يدفعونه يؤتي ثماره، ثم صارت مشهورة ما بين الكتبة والتجار وأخيرًا العامة. الآن تُكتب نُسخٌ من تقاريره وتُرسل إلى كل ميناء يرفع راية الشركة. لقد تحولت إلى استعراضات مسرحية وأغانٍ يغنيها الشعراء الموسيقيون. لقد صار سامي أشهر رجل في الأقاليم*، ولكن مغامراته كانت خيالية للغاية، وقدراته الاستنتاجية مذهلة للغاية، حتى إن الكثيرين ظنوا أنه محتال، لقد اتهموه بأنه مسؤول عن الجرائم التي يكشفها، معتقدين أن هذا هو التفسير الوحيد لقدرته على حلها. واتهمه آخرون بالتحالف مع قوى الظلام وبيع روحه مقابل هبات خارقة للطبيعة.

---

* هي إشارة إلى أقاليم هولندا المتحدة، أو الأقاليم المتحدة اختصارًا، والاسم الرسمي هو جمهورية البلدان السبعة المنخفضة، وهو اسم الجمهورية الاتحادية التي نشأت ١٥٨١ باتحاد عدة أقاليم هولندية قد استقلت عن الحكم الإسباني.

بينما سامي يجر قدميه على سطح السفينة ناحية زنزانته، كانوا يشيرون ناحيته ويتهامسون معتقدين أن شكوكهم الساذجة قد ثبت صحتها.

قالوا: "أخيرًا أمسكوا به".

"كان يظن نفسه بارعًا أكثر من اللازم".

"لقد أبرم صفقة مع الشيطان وكانت هذه هي نهايته".

أخرستهم نظرة آرينت الحادة، ولكن بمجرد مروره تعالت الهمسات مرة أخرى، كالعشب الذي ينثني تحت الأقدام ثم ينتصب مرة أخرى.

كان إيجرت منزعجًا من حركة سامي البطيئة، فدفعه للأمام مما جعله يتعثر في أغلاله ويسقط. ضحك ثيمان ووجه ركلة ناحية ردفه، ولكن قبل أن يركله أمسك آرينت بقميص الفارس ودفعه ناحية السور بقوة كبيرة، حتى إن الخشب تشقق.

انتزع إيجرت خنجره وهوى به ناحية آرينت.

بخطوات سريعة تفادى المرتزق ضربة الفارس ثم أمسك بذارعه وثناها لأعلى ليجبره على توجيه الخنجر ناحية فكه.

تحرك قائد الحرس دريخت بسرعة أكبر فاستل سيفه من غمده وصوبه للأمام ليلمس طرف نصله صدر آرينت.

قال محذرًا بهدوء وهو يرفع طرف قبعته لينظر إلى عيني آرينت: "لا يمكنني أن أسمح لك بأن تؤذي رجالي أيها الملازم هايز، اتركه وشأنه".

انغرس السيف قليلًا في صدره، إن ضغط بقوة أكبر فسيموت.

٧

وسط جلبة مواجهة آرينت مع ياكوبي دريخت لم يلاحظ أحد صعود ساندر كيرس على متن السفينة، وهو شيء مدهش بالنظر إلى بنيته، فقد كان رجلًا طويلًا ونحيفًا ومنحني الظهر، وعباءته الأرجوانية الرثة تتدلى من أطرافه كخرق يتطاير من أغصان شجرة. كان وجهه المتغضن بنفس درجة اللون الرمادي لشعره.

ومن ورائه ظهرت يد ثانية أصغر حجمًا من على جانب السفينة، بينما أصابع قوية تحاول أن تجد شيئًا لتتشبث به.

مد العجوز يده للأسفل وحاول أن يساعد بلا جدوى، ولكن اليد ضربته بعيدًا بينما تظهر امرأة مارديكرية* لاهثة بشعر بني مموج. كانت أقصر من ساندر وأصغر منه بسنوات عديدة، بكتفين عريضتين وذراعين سميكتين كذراعي المزارع، وقد شمرت قميصها القطني إلى مرفقيها بينما تلطخت تنورتها ومئزرها.

كان هناك حقيبة جلدية ثقيلة معلقة على ظهرها، مقفلة بإبزيم نحاسي، فتشتها في عجالة خشية أن يكون الماء المتناثر قد تسلل إلى

---

* شعب الماردیکر: هم مجتمع عرقي في جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا حاليًا) يتكون من أحفاد العبيد الذين نالوا حريتهم، وغالبًا ما يوجدون في المراكز التجارية الكبرى في الجزر الهندية الشرقية، كانوا في الغالب مسيحيين من عرقيات مختلفة من المناطق الإسبانية والبرتغالية وبعضهم من أصول أوروبية، يتحدثون لغة ماردیکر کریول المبنية على لغة كريول البرتغالية، وقد أثرت على اللغة الإندونيسية الحديثة.

داخلها، ثم شكرت الرب في ارتياح عندما وجدت أنها مغلقة بإحكام. أطلقت صفيرًا إلى القارب الذي يتمايل بالأسفل، ثم أمسكت ببراعة العصا الخشبية التي ألقى بها عامل العبارة ورفعتها إلى ساندر، ولكنه لم يأخذها منها على الفور، فقد جذب انتباهه الشجار المحتدم بالقرب منه. اشرأبت بعنقها واختلست النظر عبر فرجة في الحشد، فتعرفت على الدب والعصفور اللذين تدور حولهما الحكايات. إنهما لقبان مثيران ولكنهما يخفيان أكثر مما يظهران، فعلى الطبيعة لم يكن آرينت هايز مجرد رجل ضخم، بل كان وحشيًّا، كمارد تتزلزل الأرض تحت قدميه وهو يهبط من الجبال. كان يضع سكينًا على حلق فارس يرتجف في خوف، بينما جندي ملتحٍ يضغط بطرف سيف على صدره. نظرًا لضخامة آرينت كان من الصعب تصديق أن السيف سيخترق جسده، ناهيك عن أن يقتله.

كان ساموِيل بيبس يحاول النهوض، فذكرته محاولته بطائر ذي جناح مكسور، في هذه الحالة كانت الأصفاد هي ما يمنعه من النهوض. تصفه الحكايات بأنه وسيم، ولكن جماله كان هشًّا، إنه حاد القسمات وعيناه البنيتان تلمعان كالمصابيح الزجاجية الكروية التي توضع فوق مذبح الكنيسة. إنه أصغر حجمًا مما تخيلت، وبنيته رقيقة كأنما هو طفل.

قال ساندر كيرس منزعجًا: "لقد بدأ الأمر بالفعل".

لمس ذراعها وهو يشير ناحية مؤخرة السفينة حيث صعد الحاكم العام باكرًا، وقال متكئًا على عكازه: "يمكن تأدية الطقوس هناك بالأعلى، هيا بنا يا إيزابيل".

مشت معه على مضض، فهي تحب أن تشاهد قتالًا ممتعًا، وكانت متلهفة لترى إن كان آرينت سيرتقي إلى مستوى سمعته المخيفة.

نظرت وراءها وهي تأمل أن ساندر سيبطئ في صعود الدرج، فكل درجة تمثل معاناة بالنسبة له.

أظلمت السماء من فوقهما، إنها فترة الرياح الموسمية، وعادة ما تهب عواصف عنيفة في فترة ما بعد الظهيرة، لذا لم تتفاجأ إيزابيل برؤية السحب تشق طريقها عبر السماء الزرقاء الساطعة، لتحجب الشمس قبل أن تكشف عنها مرة أخرى. تحركت الظلال على المياه بينما بدأت قطرات المياه تضرب سطح السفينة، والأعلام الكبرى لشركة الهند الشرقية المتحدة تخفق بعنف في مهب الريح.

عند مؤخرة السفينة فك ساندر إبزيم الحقيبة التي تحملها إيزابيل وأخرج الكتاب الضخم الموجود بداخلها، ولكنه أعاد التفكير في الأمر عندما رأى قطرات المطر تتناثر على غلاف جلد الماعز الذي يحميه.

قال آمرًا: "ارفعي مئزرك، نحتاج إلى مأوى من المطر".

عقدت حاجبيها، ولكنها فعلت ما طلبه منها، وشعرت بالوخز من حدة صوته، فقد أدركت أنه خائف. بدأ الخوف يقرصها كجمرات النار الأولى، لأكثر من عام علَّمها حرفته، ولكن حكاياته عن عدوهم كانت شيئًا خاليًا من المشاعر، أشياء مرعبة، ولكنها بعيدة، كما يشعر المرء عندما يستمع إلى مآسي شخص آخر. مقارنة بالعذاب الذي تكبدته قبل أن تلتقي ساندر فإن العمل الذي ينتظرها بدا أشبه بحكاية خيالية، لقد فكرت في الأمر بحماقة على أنه مغامرة كبرى.

ولكن بينما تراقب ساندر ويداه ترتجفان أحست بالخطر الذي ينتظرها.

نظرت على الفور ناحية باتاڤيا.

لم يفت الأوان على الهرب، بحلول المساء يمكنها أن تمشي على التربة الساخنة بقدميها العاريتين مرة أخرى.

قال ساندر موبخًا وهو ينتزع الغلاف ليكشف عن المجلد: "ذراعيكِ يا فتاة! فلتبقِ المئزر فوق الكتاب، سيبتل، ليس هناك وقت لأحلام اليقظة".

فعلت ما أمرها به وهي تجبر نفسها على إبعاد نظرها عن أسطح البيوت البعيدة، مهما كان الخطر الكامن على متن هذه السفينة فلن تسمح لجبنها بأن يقنعها بأن هناك أمانًا في باتاڤيا، لقد كانت مجرد امرأة فقيرة ووحيدة، وهذا يعني أن كل زقاق من أزقتها يمثل خطرًا، لقد منحها الرب فرصة لحياة أفضل في أمستردام، عليها فقط أن تحافظ على ثبات أعصابها.

أراح ساندر الكتاب الثقيل على سور السفينة وبدأ يقلب الصفحات المصنوعة من الرق بسرعة بقدر ما يسمح به توقيره للكتاب. في الصفحة الأولى كان هناك مخلوق بجسم ماعز ووجه إنسان هزيل يجلس على عرش من الثعابين. الصفحة التالية تُظهر عذابًا بأنياب يغرس مخالبه في كومة من الجثث الصارخة التي يتسلقها. بعد هذا وحش بثلاثة رؤوس بجسد عنكبوت ينظر بشهوانية إلى عذراء قد احمر وجهها خجلًا.

وهكذا استمر الأمر، شيئًا مرعبًا تلو الآخر.

أشاحت إيزابيل بوجهها بعيدًا، إنها تكره هذا الكتاب. أول مرة عرض عليها ساندر بعض محتوياته تقيأت على أرضية كنيسته، وحتى الآن فإن الشر المبتهج الموجود في هذا الكتاب يجعلها تشعر بالغثيان.

أخيرًا وجد ساندر الصفحة التي يريدها؛ رجلٌ عجوزٌ عارٍ بجناحين شوكيين يمتطي مخلوقًا وحشيًا له رأس خفاش وجسد ذئب، والرجل العجوز له مخالب بدلًا من اليدين، ويستخدمها لمداعبة وجنة صبي صغير يثبته الذئب إلى الأرض. كان المخلوق مكشرًا عن أنيابه وقد تدلى لسانه كأنما يسخر من محنة الصبي المرعوب. على الصفحة المقابلة كان هناك رمز يمثل عينًا لها ذيل، ومن تحته تعويذة غريبة.

ضغط ساندر براحة يده على الصورة وقد عاد اهتمامه إلى الشجار.

كان سامويل بيبس قد بدأ يتحدث وكل الأعين مصوبة ناحيته. بدا الأمر أشبه بالحكايات، فرغم أنه على الأرض ورغم أنه مكبل بالأغلال ومعرض للإذلال إلا أن سطوته كانت مطلقة، حتى العملاق بدا خائفًا.

راح المطر يتساقط بقوة أكبر، فيسيل على الرافعات ويتجمع في برك ويتسرب عبر المئزر. صارت السماء قاتمة، بينما خيوط من ضوء الشمس الذهبية تصارع الغيوم.

شيء ما جعل قائد الحرس دريخت يتوتر، وسيفه يضغط بقوة أكبر على صدر آرينت.

قال ساندر كيرس هامسًا في لهفة: "افعلها، فلتفعلها الآن".

٨

بينما آرينت يثبت الخنجر على عنق إيجرت والسيف يضغط على صدره، اعترف لنفسه أن الصعود إلى متن السفينة لم يسر على النحو الذي كان يأمله.

قال وهو يمسك الفارس المرتجف بإحكام أكبر: "على رسلك".

نظر ناحية ياكوبي دريخت الواقف في ثبات تام على الجانب الآخر من سيفه.

قال آرينت: "أنا لا أحمل أي ضغينة تجاهك، ولكن سامي بيبس رجل عظيم، ولن أسمح بأن يعامله شخص حقير كهذا بشكل سيئ". أومأ ناحية ثيمان الذي اعتدل واقفًا وهو يترنح، ثم قال: "أريد أن يعرف الجميع أن سامي ليس شيئًا لتسلية الجنود الذي يشعرون بالملل، من الآن فصاعدًا أي شخص يلمسه لن يعيش طويلًا بما يكفي ليندم على الأمر".

لم تفصح كلمات آرينت عن التردد الذي يشعر به.

لم يكن هناك على قيد الحياة أشخاص أسوأ من فرسان شركة الهند الشرقية المتحدة، إن الأجر الذي يتلقونه زهيد للغاية فلا يجذب سوى أصحاب القلوب الأكثر سوادًا، هؤلاء الذين يرتضون قطع درب مليء بالأخطار بعيدًا عن الوطن، لأن الوطن هو المكان الذي

ينتظرهم فيه حبل المشنقة، ما إن يبتعدوا حتى يصبحوا غير مبالين إلا بالتسلية والبقاء على قيد الحياة، والويل لأي شخص يحول بينهم وبين هذين الشيئين.

الشيء الوحيد الذي يتحكم في تصرفات رجال كهؤلاء هو الخوف، وكان على دريخت أن يعرف أي جرائم يجب أن يغض عنها الطرف، وأي إهانات تتطلب سفك الدم. إن لم يقتله دريخت، وإن لم يدافع عن الشرف الذي لا يتمتع به هؤلاء الرجال، فإنهم سيصِمونه بالضعف، سيكون عليه طيلة الأشهر الثمانية التالية أن يقاتل لاستعادة أقل القليل من السلطة التي كان يتمتع بها وهو يصعد إلى السفينة.

أحكم آرينت قبضته حول الخنجر، فسالت قطرة من دم إيجرت من عند حافته، ثم قال آمرًا: "أنزل السيف يا دريخت".

"أطلق سراح رجلي أولًا".

تبادلا التحديق، بينما الرياح العاصفة تصفع وجهيهما بقطرات المطر.

صاح سامي ليكسر حدة التوتر: "لقد غشك رفيقك في لعب النرد".

نظروا إليه جميعًا، لقد نسوا وجوده تمامًا. كان يتحدث إلى إيجرت، الفارس الذي يمسك به آرينت.

سأله إيجرت: "ماذا؟". مع حركة فكه اضطر آرينت لخفض خنجره لكيلا يصنع ثقبًا في فمه عن طريق الخطأ.

قال سامي متجهمًا وهو يبذل مجهودًا للوقوف على قدميه: "باكرًا بينما تحررني من الشبكة كنت تنظر إليه عابسًا، لقد أزعجك مؤخرًا،

كنت تلقي النظر باستمرار ناحية كيس نقوده وأنت تعقد حاجبيك، لقد سمعت كيسه يُصدر رنينًا معدنيًّا ونحن نمشي، بينما كيسك لم يفعل هذا، لأنه فارغ. كنت تتساءل إن كان قد غشك، أقول لك إنه قد فعل".

قال إيجرت في شك: "هذا مستحيل، لقد كانت أحجار النرد الخاصة بي".

"هو من اقترح عليك استخدامها؟".

"أجل".

"إذن فقد ألقيتها بضع مرات، ولكن الحظ تخلى عنك بعد أن فاز بأول رهان، أليس كذلك؟".

هرش الفارس قشور رأسه في عصبية، لقد فاجأته اتهامات سامي، حتى إنه لم يلحظ أن آرينت قد أطلق سراحه.

سأله في ريبة: "كيف تعرف هذا؟ هل قال ذلك؟".

قال سامي مفسرًا: "إن معه مجموعة أخرى من أحجار النرد في يده، لقد بدلها وهو يجمع نردك مع ما كسبه من مال، وفي نهاية اللعبة أعاد إليك نردك".

تصاعدت غمغمات الدهشة من حشد المتفرجين مع هذه الفطنة، واتهمه أكثر من صوت هامس بأنه شيطاني، هذا ما يحدث دومًا.

تجاهلهم سامي وهو يومئ ناحية ثيمان المتكئ بركبتين مرتعشتين على أحد الجدران وقال: "افتحوا كيس نقوده وستجدون أحجار النرد بداخلها، فلتلقوها خمس مرات وستربحون خمس مرات، إن ثقلها معدّل لكي يربح دومًا".

عندما رأى دريخت غضب إيجرت يتصاعد أعاد سيفه إلى غمده ووقف بين الفارسين.

قال آمرًا وهو يشير ناحية الصاري الرئيسي: "من هذا الطريق يا ثيمان، وأنت يا إيجرت فلتهبط إلى هناك". قالها مشيرًا ناحية درج السلم الذي يؤدي إلى السطح السفلي. "فليبقَ كل منكما بعيدًا عن طريق الآخر اليوم وسأحاسبكما لاحقًا". بدا من نظرته بوضوح أنه لن يستمتع بالأمر. "وأنتم جميعًا يمكنكم أن تنصرفوا بدوركم أنا واثق من أن لديكم شيئًا آخر لفعله".

تذمر الحشد وهم يتفرقون ويبتعدون.

حرص دريخت على أن يتيقن من أن كلًّا من إيجرت وثيمان ابتعد عن طريق الآخر، ثم أولى اهتمامه إلى سامي.

"كيف فعلت هذا؟". كان صوته مليئًا بذلك المزيج الغريب من الرهبة والخوف، الذي تثيره هبات سامي.

قال سامي بينما آرينت يساعده بنفض التراب عن ثيابه: "لقد حكمت على شخصية الرجلين وثقل كيس نقود كل واحد منهما، كنت أعرف أن أحدهما غاضب من الآخر، وبدا أن المال هو السبب، فوجهت غضبه إلى حيث أريد".

ارتسمت تداعيات هذه الجملة على وجه ياكوبي دريخت بسرعة مذهلة.

صاح في عدم تصديق: "كنت تخمن فحسب؟".

قال سامي وهو يبسط يديه بقدر ما تسمح الأغلال: "أنا أعرف اللعبة، كنت معتادًا على هذا في شبابي، يتطلب الأمر أصابع سريعة

والكثير من التدريب وشخصًا غبيًّا بما يكفي لكيلا يدرك أنه يتعرض للغش، لقد رأيت كل هذه الصفات أمامي".

انفجر دريخت في الضحك وهز رأسه متعجبًا من جرأة الأمر.

قال: "أنت كنت تغش الناس في لعب النرد؟ أين يمكن لنبيل أن يتعلم غش الناس في لعب النرد؟".

قال سامي وقد بدا عليه عدم الارتياح: "لقد أسأت الحكم عليَّ يا قائد الحرس". لا يتحدث سامي كثيرًا عن ماضيه، ولكن آرينت يعرف أنه شيء قد بذل قصارى جهده للهرب منه. "أنا لم أولد نبيلًا، لقد مات أبي عندما كنت صغيرًا، وكانت أمي أفقر أرملة قد تراها في حياتك. لقد ترعرعت وأنا أستخدم التراب كوسادة والرياح كلحاف، كان عليَّ أن أحصل على أي مال يقع في طريقي، حتى لو اضطررت لوضع يدي في جيب شخص آخر للحصول عليه".

"أنت كنت لصًّا؟".

"وراقصًا، وبهلوانًا، وخيميائيًّا. ولكن معظم حياتي كنت شخصًا يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة، وما زلت كذلك، لهذا استأجرت آرينت ليمنع المجرمين -الذين أُحقق في قضاياهم- من إضافتي إلى قائمة ضحاياهم. إنه بارع في هذا العمل يا قائد الحرس. ولن يقف مكتوف اليدين إن هددني أحدهم". ثم رفع سامي حاجبًا وقال: "أنت ترى المعضلة التي نحن فيها بالطبع".

قال دريخت مفكرًا: "أجل، ولهذا سأحرص على سلامتك، سأضع شخصًا أثق به على بابك، وأي شخص يزعجك سأحاسبه

بنفسي، وسيعرف كل من على متن السفينة بهذا". ثم مد ذراعه ناحية آرينت وقال: "أتعهد بشرفي أيها الملازم هايز، هل ستقبله؟".

قال آرينت وهو يصافحه: "أجل".

"إذن فقد حان الوقت لكي آخذ بيبس إلى زنزانته".

وهكذا تركوا الهواء الطلق في خصر السفينة إلى الجناح الكبير المظلم في مقدمة السفينة، حيث جذوع الصواري السميكة تخترق السقف إلى سطح السفينة. كان هناك مصباح وحيد في السقف، قد كشف للحظة عن أوجه البحارة الجالسين في نشارة الخشب، قبل أن يأخذ ضوءه إلى مكان آخر، إنهم يلعبون النرد ويتذمرون.

قال دريخت مفسرًا: "هذا هو المكان الذي يقضي فيه أفراد الطاقم أوقات فراغهم عندما يكون الطقس سيئًا، أعتقد أنه أخطر مكان في السفينة، ولكن هذا رأيي فحسب".

سأله آرينت: "أخطر؟".

ركل سامي نشارة الخشب ليكشف عن بقعة دماء من تحتها.

قال دريخت مفسرًا: "بمجرد أن نبحر سيستحوذ أفراد الطاقم على النصف الأمامي من السفينة، بينما يُمنح النصف الخلفي للركاب وكبار الموظفين، ليس مسموحًا لأي شخص أن يعبر من النصف الخاص به إلى النصف الآخر، ما لم تتطلب واجباته هذا، وهو ما يعني أن النصف الأمامي للسفينة لا يخضع للقانون من الناحية الفعلية". ثم رفع بوابة لتكشف عن سلم بالأسفل وقال: "نحن سنهبط من هنا".

بمجرد هبوطهم وصلوا إلى حجرة صغيرة تتضمن لفافات من أقمشة الأشرعة معلقة إلى الجدران بخطاطيف، كان هناك طاولة

عمل مثبتة إلى الأرضية، ومن خلفها صانع الأشرعة يخيط قطعتين قماشيتين من القنب بإبرة حديدية بحجم يد آرينت. نظر إليهم بدون اهتمام ثم عاد إلى عمله.

تفحص سامي الجناح وقال: "أعترف أنني كنت أتوقع شيئًا أسوأ بكثير".

انفتح باب من ورائهم، وكان هناك رجل بالغ البدانة بكتفين عريضتين يحمي رأسه وهو يدلف إلى الداخل. كان أصلع بأذنين مشوهتين وجلد خشن منقر أشبه برمال قد مرت عليها حيوانات صغيرة. كان هناك رقعة من الجلد تغطي عينه اليمنى، ولم يكن هناك شيء يمكن فعله تجاه الندوب المحيطة بها الأشبه بخيوط العنكبوت.

نظر بسخرية إلى أصفاد بيبس وقال: "أنت السجين؟". ثم مرر لسانه على شفتيه المتشققتين وقال: "سمعت أنك ستصعد على متن السفينة، كنت أتطلع إلى بعض الصحبة".

ابتسم صانع الأشرعة في سخرية وهو يحيك.

قال دريخت محذرًا وهو يلمس سيفه: "إنه تحت حمايتي يا ڤيك، سيكون هناك فرسان يراقبونه، إن تعرض هو أو هم إلى أذى فسآمر بجلدك، لن أتردد في هذا حتى إن أقسم عشرات البحارة أنك كنت في مكان آخر".

خطا ڤيك إلى الأمام وقال: "أي جندي يمكنه أن يأمرني بفعل أي شيء؟ ليس لديك أي سلطة على الطاقم". قال كلمة جندي وكأنما يبصقها.

"ولكن الحاكم العام ينصت إليَّ، وكلمة الحاكم العام تسري على أي شخص كما يشاء".

قطَّب ڤيك جبينه ثم مشى بخطوات ثقيلة ناحية السلم وهو يقول: "فلتبقِه هادئًا إذن، لن أسمح بأن يعوي طوال الليل ويبقيني مستيقظًا".

وبرشاقة تتناقض مع حجمه قفز صاعدًا السلم واختفى عبر الفتحة.

سأل سامي: "ما هذا بالضبط؟".

قال دريخت بنبرة واجمة: "إنه عريف الملاحين، هو من يبقي أفراد الطاقم منضبطين".

قال آرينت محذرًا: "أنت لن تضع سامي معه".

أجاب دريخت وهو يشير ناحية الباب الذي خرج ڤيك منه: "لا، مقصورة ڤيك هناك، الزنزانة تحتنا".

فتح بابًا آخر، وكان السلم ضيقًا للغاية حتى إن كتفي آرينت علقتا في منتصف الطريق للأسفل فاضطر للتلوي لكي يخلص نفسه.

بالأسفل كانت حجرة التخزين الخاصة بصانع الأشرعة، فكانت قصاصات الأقمشة متكومة على الأرضية حيث أُلقيت من الأعلى. كانت الحجرة بمحاذاة الماء، حيث تتحول لطمات الأمواج اللطيفة إلى ضربات منجنيق، وخيط واحد من الضوء الخافت يتسلل عبر الفتحة تاركًا كل شيء آخر في الظلمة. لقد استغرق الأمر من آرينت لحظة حتى أدرك أن دريخت يجذب مزلاجًا من على باب صغير في مؤخرة الحجرة.

قال: "هذه هي الزنزانة".

منع آرينت سامي من التقدم، ثم مد رأسه إلى الداخل، كان المكان مظلمًا وخاليًا من النوافذ ونتنًا، ويقسمه إلى نصفين جذع صاري المقدمة، وبالكاد كان السقف مرتفعًا بما يكفي لأن يجلس سامي بشكل مستقيم.

تساءل سامي وهو بالكاد يقدر على تمالك أعصابه: "ما هذا المكان؟". إن الضباط الذي يؤسرون في ساحة المعركة يستحقون معاملة تتساوى مع رتبتهم، وهو ما يعني مكانًا لائقًا للإقامة أثناء سجنهم، وكان يتوقع المثل من أجل سامي.

"المعذرة يا هايز، هذه أوامر الحاكم العام".

تجهم وجه سامي وظهر عليه الذعر للمرة الأولى، ثم تراجع مبتعدًا عن الباب وهو يهز رأسه، قبل أن يقول: "أرجوك يا قائد الحرس، لا يمكنني...".

"هذه هي الأوامر التي تلقيتها يا سيدي".

نظر سامي بعينين جامحتين إلى آرينت وقال: "المكان صغير للغاية، أنا سأ...". ثم نظر ناحية السلم ومن الواضح أنه يفكر في الهرب.

أمسك دريخت بمقبض سيفه في توتر وقال محذرًا: "فلتهدئ من روعه أيها الملازم هايز".

أمسك آرينت صديقه من كتفيه وحدق إلى عينيه مباشرة، ثم قال بنبرة مواسية: "سأتحدث إلى الحاكم العام، وسأحرص على نقلك، ولكني لن أتمكن من فعل هذا إن كنتَ ميتًا".

قال سامي متوسلًا وهو يتشبث بصديقه في يأس: "أرجوك... لا تدعهم يتركونني هنا".

قال آرينت وقد تفاجأ لاكتشاف نفور سامي من الأماكن الضيقة: "لن أفعل، سأذهب إلى الحاكم العام الآن".

أومأ سامي برأسه مرتجفًا، ولكن بعد لحظة هز رأسه وقال بصوت مبحوح وأكثر حزمًا: "لا، عليك أن تنقذ السفينة أولًا، فلتتحدث إلى القبطان ثم إلى الكونستبل، فلتعرف لمَ قد يهددننا شخص ما".

قال آرينت محتجًا: "هذه مهمتك، سأنقذك، وأنت ستنقذ الآخرين، هذا هو الحال دومًا، سأتحدث إلى الحاكم العام، وسأحرص على أن يرى الأمر بشكل عقلاني".

قال سامي بينما دريخت يمسكه من كتفيه ويدفعه ناحية الزنزانة: "ليس لدينا وقت".

قال آرينت وهو يكاد أن يكون مذعورًا مثل سامي: "لا يمكنني أن أفعل ما تفعله أنت".

أجابه سامي: "إذن من الأفضل أن تجد شخصًا يمكنه فعل هذا، لأنني لن أتمكن من مساعدتك بعد الآن".

قال دريخت بحزم: "فلتدخل".

قال آرينت: "فلتنزع عنه أصفاده بحق السماء، لن ينال لحظة من الراحة مع هذه الأغلال".

نظر دريخت إلى السلاسل الصدئة وهو يفكر في الأمر، ثم قال معترفًا: "لم يوجه لي الحاكم العام أي أوامر محددة بشأن الأصفاد، سأُرسل شخصًا ما إلى هنا بمجرد أن تسنح لي الفرصة".

قال سامي مخاطبًا آرينت: "الأمر متوقف عليك الآن". ثم جثا على يديه وركبتيه وزحف إلى الزنزانة.

بعد لحظة أغلق دريخت عليه الباب بالمزلاج، لتخيم عليه الظلمة الدامسة.

٩

راحت سارا تقطع مقصورتها جيئة وذهابًا، بينما تتوقف من آن لآخر لتحدق عبر الكوة فتشعر بالارتياح عندما تجد أن باتاڤيا موجودة حيث تركتها. لم ترفع ساردام المرساة، مما يعني أنه لا يزال لديها وقت لكشف معلومات عن المؤامرة التي تهدد السفينة. إن استطاعت أن تجد دليلًا ملموسًا قبل الإبحار فربما تتمكن من إقناع زوجها متحجر الرأس بأن هناك خطرًا.

لسوء الحظ لم يأتِ النجار بعد، وبدأ صبرها ينفد.

"ستغرقين السفينة بحركتك جيئة وذهابًا هكذا". قالتها دوروثيا موبخة وهي جاثية على الأرض ترتب ملابس سارا في الأدراج.

تغفر سارا للخادمة مثل هذه الصراحة، فقد كانت مع العائلة لوقت طويل، حتى إن سارا لا تتذكر الحياة قبلها، لقد كانت جزءًا من أهل بيت زوجها قبل زواجها، وكان وجودها المريح المشاكس هو عزاؤها الوحيد في تلك الأيام الكئيبة الأولى.

كان الشيب قد غزا شعرها المضفر، ولكن عدا هذا لم يتغير فيها شيء. نادرًا ما تبتسم، ولا ترفع صوتها مطلقًا أو تتحدث عن ماضيها، ورغم هذا ازدادتا قربًا على مر السنين، لأنها كانت سريعة البديهة، وأحيانًا ما تكون حكيمة، وغير متحفظة في كراهيتها للحاكم العام.

تعالى صوت ثلاث طرقات على الباب فاعتدلت دوروثيا واقفة في ألم -دومًا ما تؤلمها ركبتاها- وفتحت الباب متجهمة.

قالت متسائلة عبر الفرجة: "من أنت؟".

قال صوت بصبر نافد: "هنري النجار، تريد سيدتك تركيب أرفف".

تساءلت دوروثيا وهي تنظر وراءها: "أرفف؟".

"فلتسمحي له بالدخول".

أحست سارا بالسخافة وهي تأمر الخادمة بإدخال الرجل بهذه الطريقة، كأنما تجلس في قصر مهيب، فهذه المقصورة أصغر من غرفة تبديل الثياب في القلعة. تحت السقف الخفيض كان هناك فراش واحد مثبت إلى الجدار، ومن تحته درجان. كان هناك مكتب بالقرب من الكوة، ورف واحد لتخزين المشروبات، ومرحاض متنقل مخفي في تجويف مصنوع لهذا الغرض، وسجادة قد بُسطت لجعل المكان أكثر راحة، وسُمح لها بجلب لوحتين بالإضافة إلى قيثارتها.

بعد سنوات من العيش في القلعة الفسيحة بدت هذه المقصورة على متن ساردام كتابوت قد أُلقيت فيه لتهيم على غير هدى.

إنها تنوي قضاء أكثر وقت ممكن بالخارج.

أحنى هنري رأسه ليدلف إلى المقصورة وهو يحمل صندوق أدوات وعددًا من الألواح الخشبية تحت ذراعه.

كان رجلًا نحيفًا للغاية، وجلده مشدود على ضلوعه، وذراعاه مفتولتا العضلات، وهناك العديد من البقع حول أنفه كالمصلين في الكنيسة.

سألها في وجوم: "أين يجب أن أركب الأرفف؟".

قالت سارا وهي تشير إلى المساحة الفارغة فوق الرف الموجود بالفعل وتحته: "هنا وهنا. كم سيستغرق الأمر من وقت؟".

قال وهو يمرر يده على سطح الجدار غير المستوي: "ليس كثيرًا، يريد مني عريف الملاحين أن أعود إلى واجباتي قبل أن نبحر".

قالت سارا: "العمل المتقن يستحق مكافأة، إن أعجبني صنيعك فسأعطيك جيلدر* نظير مجهوداتك".

قال هنري وقد تحمس كثيرًا: "أمرك يا سيدة".

نهرته دوروثيا قائلة: "بل قل أمرك يا سيدتي". وهي تطوي بعناية أحد فساتين سارا الخفيفة.

فكرت سارا في الجلوس على الفراش، ولكن لم يعجبها ما تتضمنه هذا من أريحيَّة مع الرجل، لذا بدلًا من هذا جذبت الكرسي من المكتب، وجلست بشكل لائق على حافته.

راحت تراقبه وهو يقيس طول الرف الحالي بساعده ويده، ثم قالت: "أنت تبدو صغيرًا على هذا العمل".

قال في شرود: "أنا مساعد نجار".

"هل أنت صغير على أن تكون مساعد نجار؟".

"لا".

قال دوروثيا مصححة في غضب: "لا يا سيدتي!". مما جعل وجه الشاب يمتقع.

---

* جيلدر: هو العملة الرسمية لهولندا من القرن الخامس عشر وحتى عام ٢٠٠٢ حيث استبدل باليورو.

تمتم: "لا يا سيدتي".

سألته سارا بلطف: "ما الذي يفعله مساعد النجار عادة؟".

"كل المهام التي لا يريد النجار الخبير أن يفعلها". كانت كلماته تشي بمئات الأحقاد التي يكنها.

قالت سارا وهي تحاول أن تبقي نبرتها ملولة وغير مكترثة: "أعتقد أنني قابلت النجار الخبير، له قدم عرجاء، أليس كذلك؟ ولسانه مبتور؟".

هز هنري رأسه وقال وهو يضع علامة على قطعة من الخشب بقطعة من الفحم: "أنتِ تتحدثين عن بوسي".

"أليس هو النجار الخبير؟".

"لا يمكنه صعود الصواري بقدم عرجاء". قالها في سخرية كأن مهام النجار الخبير هي معرفة شائعة.

وافقته سارا قائلة: "أفترض هذا، هل كان بوسي هذا يعمل على متن هذه السفينة، أم أنني أفكر في شخص مختلف تمامًا؟".

تململ في توتر وهي يختلس إليها النظر في عصبية.

سألته وهي ترمقه بنظرة حادة: "ما الخطب أيها الشاب؟".

تمتم قائلًا: "أمرنا عريف الملاحين ألا نتحدث عنه".

"ما هو عريف الملاحين؟".

قال: "إنه المسؤول عن الطاقم على متن السفينة، وهو لا يريد منا أن نتحدث عن شؤون السفينة مع الغرباء".

"ما هو اسم عريف الملاحين هذا؟".

"يوهانس ڤيك".

نطق بالاسم على مضض كأن مجرد النطق بالكلمات يمكنه أن يستدعي الرجل. حمل هنري أحد الألواح الخشبية ثم خرج إلى الممر وبدأ في استخدام المنشار لقطعه إلى الحجم المناسب، بينما النشارة تتساقط على الأرض.

قالت سارا ونظرها مصوب ناحية النجار: "هل يمكنك أن تجلبي جيلدرين من كيس نقودي يا دوروثيا؟".

نظر إليها هنري في جشع رغم أنه واصل النشر، خمنت سارا أنه لا يجني أكثر من هذا في الأسبوع.

قالت سارا: "جيلدران بالإضافة إلى الجيلدر الذي وعدتك به بالفعل، إن أخبرتني بما لا يريدني ڤيك أن أعرفه عن بوسي".

تململ وقد ضعفت إرادته.

قالت سارا: "لن يعرف رفاقك بهذا، وأنا زوجة الحاكم العام، لذا على الأرجح لن أتحدث مع بحار آخر لبقية الرحلة". منحته دقيقة ليستوعب هذا، ثم مدت إليه بالعملات وقالت: "والآن أخبرني، هل كان بوسي هذا يعمل على متن السفينة؟".

انتزع العملات من راحة يدها، ثم أومأ برأسه ناحية المقصورة مشيرًا إلى أنهما ينبغي عليهما التحدث بعيدًا عن أي أذن قد تختلس السمع. تبعته إلى الداخل وأغلقت الباب بقدر ما تسمح به اللياقة.

قال هنري: "أجل، لقد عمل على متن سفينة ساردام، لقد أصيبت قدمه في هجوم قراصنة، ولكن القبطان كان يحبه، لذا تركه يستمر بالعمل على متن السفينة. قال إنه لا أحد يعرف السفينة مثله".

قالت سارا: "ليس بهذه الحكاية ما يثير الريبة، ما الذي لا يريدني ڤيك أن أعرفه عن الأمر؟".

قال النجار وهو ينظر بتوتر إلى الباب المنفرج: "كان بوسي ثرثارًا، ويتفاخر بأي شيء، إن هزمك في لعب النرد فسيعيِّرك بهذا لأسبوع على الأقل. إن كان هناك عاهرة قد...". امتقع وجهه عندما حدجته دوروثيا بنظرها، ثم قال: "حسنًا، دومًا ما يثرثر. وآخر شيء تحدث عنه كان صفقة قد أبرمها في باتاڤيا ستجعله ثريًّا".

عقدت سارا حاجبيها وهي تقول: "دومًا ما يثرثر؟ عندما التقيت بوسي كان بلا لسان".

لأول مرة يبدو على النجار الإحساس بالخزي وهو يقول بصوت خافت: "ڤيك هو من فعل هذا، لقد قطع لسانه قبل شهر تقريبًا، قال إنه قد سئم الاستماع إلى ثرثرته، وقد فعل هذا في خصر السفينة بعد أن جعلنا نثبته أرضًا".

أحست سارا بقدر كبير من الشفقة ثم سألته: "هل عاقبه القبطان؟".

"لم يرَ القبطان الأمر، لم يرَ أحد شيئًا، ولا أحد سيقول شيئًا ضد ڤيك، حتى بوسي نفسه".

بدأت سارا تفهم طبيعة الحياة على متن السفن الهندية. قالت: "إن كنتم قد ثبتموه أرضًا فأفترض أنه لم يكن مصابًا بالجذام".

ارتجف الشاب في اشمئزاز وقال: "الجذام؟ غير مسموح بصعود أي مجذوم على متن سفينة هندية، ربما يكون قد أُصيب بالجذام بعد أن رسونا في الميناء. يسمح لنا القبطان بالذهاب والمجيء كما نشاء. معظمنا أمضى إجازته في باتاڤيا، ولكن بوسي ظل مختبئًا في السفينة بعد أن قطعنا لسانه، وصار منغلقًا على نفسه".

سألته سارا: "قبل قطع لسانه هل قال بوسي شيئًا آخر عن هذه الصفقة التي أبرمها، أو من الذي أبرمها معه؟".

هز النجار رأسه، وكان من الواضح أنه متلهف لانتهاء هذه الأسئلة فقال: "لم يقل سوى أنه أسهل مال يجنيه على الإطلاق، بعض الخدمات هنا وهناك. وعندما سألناه عن طبيعة الخدمات، ابتسم ابتسامته الصفراء المخيفة وقال: لاكساجار".

كررت سارا الكلمة في حيرة: "لاكساجار". إن بمقدورها أن تتحدث اللاتينية والفرنسية والفلمنكية بطلاقة، ولكنها لم تسمع قط كلمة كهذه. سألته: "ما الذي تعنيه؟".

هز النجار كتفيه، ومن الواضح أن هذه الذكريات تثير انزعاجه، ثم قال: "لا أعرف، لا أحد منا يعرف. كان بوسي نورنيًّا*، لذا قد تكون من لغته الأم، ولكن الطريقة التي نطقها بها... لقد أثارت رعبنا".

سألته: "هل يتحدث أي شخص آخر على متن السفينة اللغة النورنية؟".

* لغة النورن: هي لغة منقرضة من اللغات الجرمانية الشمالية، حيث كان الناس يتحدثون بها في الجزر الشمالية قبالة الساحل الشمالي من إسكتلندا وأقصى شمال إسكتلندا.

ضحك النجار ضحكة قاتمة وقال: "لا أحد سوى عريف الملاحين، لا أحد سوى يوهانس ڤيك، وسيتطلب الأمر أكثر بكثير من ثلاثة جيلدرات لإقناعه بالحديث معكِ".

١٠

بمجرد أن خطا آرينت خارج مقصورة صانع الأشرعة رن جرس منتصف السفينة، بينما القزم يقف على كرسي ليدق الجرس.

صرخ واللعاب يتطاير من شفتيه: "اصعدوا يا كلاب! اصعدوا جميعًا".

انفتحت البوابات على الفور واندفع البحارة من الأسطح السفلية كفئران تهرب من حريق، ليحتشدوا في خصر السفينة ويتسلقوا بعضهم فوق بعض وهم يسرعون لصعود حبال الصواري والجلوس على سور السفينة، وهم يدفعون بعضهم بعضًا بينما تتعالى الضحكات.

هذا الاندفاع جعل آرينت يتراجع إلى مقدمة السفينة حتى انحشر في الباب الذي خرج منه، وصار الهواء خانقًا مع رائحة العرق والجعة ونشارة الخشب.

لمس قائد الحرس ياكوبي دريخت طرف قبعته ليرحب به مرة أخرى.

لم يكن قد تحرك من موضعه إلا للاتكاء على الجدار بظهره وأحد نعليه، بينما دخان كريه الرائحة يتصاعد من غليون خشبي منقوش موضوع بين أسنانه. السيف -الذي كان يضغط قبل لحظات على صدر آرينت- كان مسندًا إلى الجدار، كصديق يؤنس وحدته.

تساءل آرينت: "ما الذي حدث؟".

انتزع دريخت الغليون وحك ركن شفته بإبهامه، ما بين القبعة الكبيرة واللحية الشقراء الشبيهة بعش طائر، كانت عيناه المحدقتان زرقاوين بشكل مدهش في ضوء الشمس.

"هذه هي طقوس القبطان كراوڤلز". قالها دريخت وهو يومئ بذقنه ناحية السطح العلوي لمقدمة السفينة، حيث يقف رجل قصير القامة عريض المنكبين وسميك الساقين عاقدًا ذراعيه وراء ظهره بوجه متجهم.

قال آرينت في دهشة: "هذا هو القبطان؟". لقد كان متأنقًا أكثر من العديد من الجنرالات الذين التقى بهم. "إنه جميل كزوجة بريديكانت*، أليس كذلك؟ ما الذي يفعله بالإبحار بسفينة هندية؟ يمكنه أن يبيع خزانة ملابسه ويتقاعد بشكل مريح".

تساءل دريخت وهو ينظر إليه بنظرة جانبية: "هل أنت دومًا مليء بالأسئلة هكذا؟".

زفر آرينت منزعجًا لأنه مكشوف بسهولة هكذا، هذا الفضول المستمر هو بسبب صحبته لسامي، هذا ما يحدث دومًا لشخص يقضي معه فترة طويلة.

إنه يغيرهم.

يغير الطريقة التي يفكرون بها.

* البريديكانت: هو مصطلح يطلق على القس أو المبشر في الكنيسة الإصلاحية الهولندية في جنوب إفريقيا.

كان آرينت مرتزقًا لثمانية عشر عامًا قبل أن يصير حارس سامي الشخصي، إنه لم يكن يبالي إلا بسيفه، ورصاصاته، وأي من يحاول قتله في هذه اللحظة. لم يكن من النوع الذي يقف مكتوف الأيدي، لم يكن بمقدوره أن يتحمل هذا. المرتزق الذي يرى رمحًا ثم يفكر فيه لوقت طويل ينتهي به المطاف بنصف هذا الرمح مغروسًا في صدره. الآن عندما يرى رمحًا يتساءل من الذي صنعه، وكيف صار بين يدي الجندي، ومن هو هذا الجندي ولماذا هو هنا... إلخ. إنها هبة بائسة لم تترك له شيئًا من شخصيته القديمة.

مرر كراوڤلز بصره عبر الطاقم المجتمع، وهو ينظر إلى كل تفصيلة من كل رجل بعينين لا تفوتهما شاردة ولا واردة. كان المطر يضرب سطح السفينة من حولهم.

خمدت المحادثات واحدة تلو الأخرى، حتى لم يعد هناك سوى لطمات الأمواج وصرخات الطيور التي تحوم في السماء.

ترك الصمت يخيم عليهم لثانية أخرى، ثم قال بصوت جَهور عميق: "كل رجل على متن السفينة لديه سبب لأن يرى اليابسة مرة أخرى، ربما لديه عائلة في انتظاره، وربما بيت بغاء مفضل، أو ربما مجرد كيس نقود خاوٍ يريد ملأه".

أجابته ضحكات مكتومة.

واصل حديثه وهو يضع كلتا يديه على السور أمامه: "لكي نرى الديار مرة أخرى، ولكي نملأ أكياس النقود، ولكي نلتقط نفسًا آخر، يجب علينا أن نبقي هذه السفينة طافية. هناك الكثير ممن يرون خلاف هذا، سيتربص بنا القراصنة وستضربنا العواصف وسيحاول هذا البحر اللعين المتقلب أن يضربنا بالصخور".

تمتم أفراد الطاقم بشكل محموم وهم يعتدلون في وقفتهم.

رفع كراوڤلز صوته قائلًا: "فلتثقوا في هذا إن كنتم لا تثقون في أي شيء آخر، وراء كل وغد هناك وغد آخر، ولكي نصل إلى الديار، ولكي نضع أيدينا على أي كان ما ينتظرنا هناك، يجب علينا أن نكون أوغادًا أكثر منهم". صاح أفراد الطاقم في بهجة وانتشرت كلماته بينهم كالنار في الهشيم. "إن هاجمنا القراصنة فسيعيشون طويلًا بما يكفي لرؤية رفاقهم يُذبحون، وسفينتهم ترفع رايتنا. إن أي عاصفة هي مجرد رياح تحرك أشرعتنا، وسنمتطي أي أمواج تحاول إغراقنا على طول طريق العودة إلى أمستردام".

تردد دوي الصيحات بينما الساعة الرملية تُقلب مع دوي جرس منفرد، فتفرق البحارة إلى أعمالهم. بدأ أربعة رجال أقوياء في إدارة العجلة الرحوية، فأطلقت الآلة صريرًا وهي ترفع مراسي ساردام الثلاثة من قاع المحيط. أصدر القبطان تعليمات بالسرعة والاتجاه، وانتقلت التعليمات منه إلى مساعد القبطان، ومن ثم إلى دفة القيادة.

وأخيرًا بُسط الشراع الرئيسي فتحولت صيحات البهجة إلى صدمة.

فبينما الشراع الأبيض الهائل يخفق مع الريح، كان مرسومًا عليه بالرماد عين لها ذيل.

١١

كانت كل الأعين مصوبة على الرمز المرسوم على الشراع، لذا لم يرَ أحد كريسي وهي تتشبث بسور السطح العلوي الأمامي، بينما الدماء تغيض من وجهها.

لم يرَ أحد ساندر كيرس وهو يغلق الكتاب الضخم الموضوع بين يدي إيزابيل ليخفي رمز العين المرسوم هناك.

لم يرَ أحد عريف الملاحين يوهانس ڤيك وهو يلمس رقعة العين بينما يجتر الذكريات.

ولم يرَ أحد آرينت يحدق، في عدم تصديق، إلى الندبة في معصمه التي كانت على نفس هيئة العلامة المرسومة على الشراع.

١٢

صرخ القبطان كراوڤلز بالتعليمات حتى وصلت إلى قائد الدفة، الذي كان ينظر إلى مسارهم عبر نافذة صغيرة في مقصورة القيادة بينما يضبط الموجهات بتعديل عصيّ التوجيه، وببطء كثور يجذب محراثًا عبر حقل تحركت ساردام وهي تتمايل فوق الأمواج، بينما مياه البحر تتناثر على رصيف الميناء.

انصرف أفراد الطاقم إلى واجباتهم، تاركين آرينت يحدق إلى الرمز الذي تمحوه الأمطار بالفعل.

كان القبطان قد أمر بتفحص الشراع بحثًا عن أي فجوات أو حياكة غير محكمة. ولكنهم لم يجدوا أي شيء، وأعلنوا أن الشراع القماشي قادر على مواجهة الرياح بجدارة. إن كان هناك أي شخص آخر قد أثار الرمز اضطرابه فإنه لم يُبدِ أدنى إشارة على هذا. بدا أن معظمهم يعتقدون أنه نتيجة لمزحة غريبة أو حادثة في المخزن.

مرر آرينت إصبعًا مضطربة على ندبته، كان عليه أن يمعن النظر لكي يراها، فقد كانت مخفية تحت عشرات الإصابات الأخرى الأسوأ، لقد أصيب بهذه الندبة عندما كان صبيًّا بعد وقت قصير من ظهور الشعر على ذقنه. لقد ذهب للصيد مع أبيه، وكانت العائلة تتوقع عودتهما بحلول المساء كالعادة، بعد ثلاثة أيام عثرت قافلة تجارية على آرينت وهو يتجول بمفرده على الطريق، كان معصمه مصابًا

بفداحة وكان مبتلًّا كأنما قد سقط في جدول ماء، رغم أنه لم يكن هناك أي جدول قريب ولم تُمطر السماء. لم يكن قادرًا على الحديث أو تذكر ما حدث له أو لأبيه.

ما زال غير قادر على التذكر.

كانت الندبة هي الشيء الوحيد الذي عاد به من الغابة، ولسنوات كانت مصدر إحساسه بالعار، عبء يذكره بأشياء لا يمكن تذكرها، بمن فيها أبوه الذي اختفى دون أدنى أثر.

كيف يمكن أن يوجد هذا الرمز على الشراع؟

قال ياكوبي دريخت: "مرحبًا يا هايز".

التفت آرينت ورمش بعينيه وهو ينظر إلى قائد الحرس الذي يثبت قبعته إلى رأسه بيده، بينما هبوب الرياح يزداد قوة عبر المياه.

قال بينما الريشة الحمراء في قبعته ترتعش كقرن استشعار في حشرة: "إن كنت لا تزال تريد الحديث مع القبطان فسيكون في المقصورة الكبرى، أنا ذاهب إلى هناك الآن، ويمكن أن أعرفه بك".

بحركة لا إرادية أخفى آرينت يده وراء ظهره ثم لحق بدريخت عبر خصر السفينة ناحية المؤخرة.

شعر وكأنه يتعلم المشي من جديد.

حتى مع هذه السرعة المنخفضة كانت ساردام غير مستقرة تحت قدميه مما جعله يترنح من جانب إلى آخر. حاول أن يقلد دريخت الذي كان يمشي على أصابع قدميه متنبئًا بحركة السفينة وموازنًا نفسه وفقًا لها.

قال آرينت لنفسه إنه هكذا سيقاتل، خفيف القدمين بحركة دائرية ودون أن يتوقف، سيلوح بسيفه حيث كان هدفه، ولكنه سيضرب حيث سيكون.

كان آرينت محظوظًا لأن قائد الحرس لم يطعنه بالسيف.

الحظ، إنه يكره هذه الكلمة. لقد كان اعترافًا وليس تسويغًا، الحظ هو ما تعتمد عليه عندما تهجرك حواسك ومهاراتك.

لقد كان محظوظًا أكثر من مرة في الآونة الأخيرة.

في الأعوام القليلة الماضية بدأ يرتكب أخطاءً، ويرى الأشياء بعد فوات الأوان، إنه يزداد تباطؤًا مع تقدمه في العمر، لأول مرة في حياته يشعر بثقل جسده، ككيس من الأحجار لا يستطيع إنزاله. السيف الذي يخطئه بقليل سيصيبه يومًا ما، وقريبًا سيرى قدمي قاتله دون أن يسمع صوت خطواته أو يرى ظله يقترب منه على الجدار.

إن الموت يقلب عملة، وآرينت يخمن الاحتمالات، لقد بدا هذا جنونًا حتى بالنسبة له.

كان عليه أن يعتزل قبل وقت طويل، ولكنه لا يثق في أي شخص آخر لكي يحمي سامي. هذا الفخر بدا سخيفًا في هذه اللحظة، فسامي في زنزانة على متن سفينة مهددة بالخطر، وكاد آرينت أن يتسبب في قتل نفسه قبل حتى أن يغادرا باتاڤيا.

قال آرينت وهو يمسك بحبل لكي يحافظ على توازنه: "ما كان يجب عليَّ أن أتصرف بهذه الطريقة باكرًا، أن أضعك في موقف سيئ مع رجالك، أعتذر بشأن هذا".

عقد دريخت حاجبيه مفكرًا ثم قال أخيرًا: "لقد فعلت ما يجب عليك فعله تجاه بيبس، فعلت ما تتلقى أجرًا لكي تفعله، ولكن واجبي حماية الحاكم العام وعائلته، ولا يمكنني أن أفعل هذا من دون ولاء هؤلاء الفرسان، إن وضعتني في هذا الموقف مرة أخرى فسأضطر لقتلك، لا يمكنني أن أبدو ضعيفًا، لأنهم لن يتبعوني حينها، هل تفهمني؟".

"أفهمك".

أومأ دريخت برأسه، لقد حُسم الأمر.

مرا عبر قنطرة كبيرة تؤدي إلى جناح في السطح الأوسط للسفينة، كان بعرض السفينة ويمتد إلى الداخل كالكهف، كانت الأفرشة المعلقة مربوطة من الجدار إلى السقف على الجانب الأيمن، والستائر تتدلى فيما بينها من أجل الخصوصية. كان مهجع آرينت هو الأقرب للدفة، حجرة مظلمة حيث عصيّ التوجيه التي تحرك الموجهات تبرز أخيرًا بعد رحلتها الطويلة عبر جسم السفينة. بعد أن حددوا مسارهم كان قائد الدفة يجلس القرفصاء على الأرضية مع مساعده ويلعبان بالنرد من أجل حصص الجعة.

تساءل آرينت: "كيف تعرف القبطان؟".

قال وهو ينفخ دخان غليونه: "لقد أبحر الحاكم العام يان على متن ساردام بضع مرات من قبل. إن كراوڤلز له لسان متملق، وقد تمكن من كسب ود الحاكم العام، وهو إنجاز لا يتمكن منه الكثيرون، لهذا اختار هذه السفينة للإبحار على متنها في رحلة العودة إلى الوطن".

أحنى دريخت رأسه وهو يمر عبر الباب المؤدي إلى المقصورة الكبرى، تاركًا آرينت يحدق إلى الباب في استياء.

إن مدخل الباب بنصف حجمه.

تساءل دريخت بينما آرينت يحاول دفع نفسه عبر الفتحة: "هل أُرسل في طلب المنشار؟".

بعد حجرة الدفة المظلمة احتاج الأمر من عينيه لبضع لحظات للتكيف مع الوهج المبهر في المقصورة الكبرى، إنها تستحق هذا الاسم، فهي أكبر حجرة على متن ساردام باستخدام مخزن البضائع، الجدران المطلية باللون الأبيض مقوسة والسقف مزود بالعوارض، وهناك أربع نوافذ شبكية تكشف السفن الستة الأخرى في الأسطول المنتشرة من ورائهم، وأشرعتها تخفق في مهب الريح.

كان هناك طاولة كبيرة تحتل معظم مساحة الحجرة، وسطحها مغطى بلفافات الورق والدفاتر والقوائم، وخريطة ملاحية قد بُسطت على سطحها، وأركانها الأربعة مثبتة بإسطرلاب وبوصلة وخنجر وربع*.

كان كراوڤلز يستخدم الخريطة لرسم المسار، وقد طُويت سترته بعناية على ظهر كرسي قريب، كاشفًا عن قميص قطني أنيق ونظيف بما يكفي ليشير إلى أنه جديد ولم يحِكه الخياط إلا اليوم، كما هو الحال مع بقية ملابسه باهظة الثمن.

لم يستطع آرينت تفسير الأمر بشكل منطقي، إن الإبحار عمل قذر، فما يبقي السفينة طافية هو القطران والصدأ والأوساخ، وتتشبع

* الربع: هو آلة تستخدم لقياس الزوايا حتى تسعين درجة.

الملابس بالعرق ثم تتلطخ وتتمزق، معظم المسؤولين على متن السفينة يرتدون ثيابهم حتى تصير أسمالًا بالية، ولا يستبدلونها إلى على مضض، فعلى أي حال لمَ قد تضيع أموالك على التأنق إن كان من المحتمل ألا تنجو من هذه الرحلة؟ النبلاء وحدهم ينفقون ببذخ، ولكن لن يقلل أي نبيل من شأن نفسه بالعمل في هذه المهنة، أو أي مهنة أخرى في الحقيقة.

القزم الذي قد رآه آرينت على سطح السفينة يوجه الركاب إلى مهاجعهم، كان في هذه اللحظة واقفًا على كرسي وواضعًا يديه على كلا جانبي دفتر يصف حالة مخازن السفينة. كانت النظرة المتجهمة المرتسمة على وجهه معقود الحاجبين تشي بأن ما يقرؤه لا يعجبه. ربت على ذراع القبطان ليلفت انتباه القبطان إلى مصدر انزعاجه.

همس دريخت وهو ينظر إلى حيث يحدق آرينت: "هذا القزم هو إيزاك لارم مساعد القبطان، إن وظيفته هي إدارة الطاقم، مما يعني أنه سريع الغضب، لذا ابقَ بعيدًا عنه قدر استطاعتك".

رفع كراوڤلز بصره من على الدفتر عند دخولهما، وعلى الفور أولى اهتمامه إلى كبير التجار رينير ڤان شوتن المسترخي على كرسي واضعًا قدمًا على الأخرى وهو يشرب من جرة نبيذ، كانت يده المرصعة بالجواهر مستلقية على بطنه الممتلئ الذي يشبه صخرة قد تدحرجت إلى أخدود.

تساءل كراوڤلز: "أخبرني كيف أطعم ثلاثمئة شخص وقد غادرنا الميناء بمؤن تكفي مئة وخمسين".

قال ڤان شوتن بتكاسل: "لقد أخذت سفينة ليوواردن مؤنًا إضافية". كان صوته ثملًا بفعل الشراب. "بمجرد أن نستهلك

مؤننا سيكون لدينا مساحة شاغرة لجلب هذه المؤن على متن السفينة".

"ماذا سنفعل إن فقدنا أثر ليوواردن؟". هكذا سأله مساعد القبطان بلكنة جرمانية ثقيلة، ذكرت آرينت على الفور بفصول الشتاء الباردة والغابات المظلمة.

قال ڤان شوتن مقترحًا: "يمكننا أن نناديهم بصوت عالٍ للغاية".

"هذا ليس...".

قاطعه ڤان شوتن وهو يحك أنفه الطويل: "سنستهلك مؤننا بحرص، وسنتزود بالإمدادات عند رأس الرجاء الصالح".

سأله كراوڤلز: "هل سنصرف نصف عدد حصص الطعام؟". ثم جذب أمامه دفترًا آخر به قوائم المؤن في مخازنهم.

قال ڤان شوتن: "الربع". فنظر إليه القبطان نظرة متجهمة.

سأله مساعد القبطان في غضب: "لمَ نخرج إلى البحر بدون مؤن كافية للرحلة؟".

أجابه ڤان شوتن: "لأننا نحتاج مساحة من أجل شحنة الحاكم العام".

سأله لارم في حيرة: "هذا الصندوق الذي حمله الفرسان على متن السفينة؟ لقد أمرَنا ڤوس بإفساح مكان له في مخزن البارود".

أجابه كراوڤلز في انزعاج: "هذا الصندوق ليس شحنته الوحيدة، هناك شيء آخر أكبر بكثير. لقد رتَّب ڤان شوتن الأمر بحيث يُجلب على متن السفينة في ظلمة الليل، ولم يخبرني عن ماهيته".

تجرع ڤان شوتن جرعة كبيرة من نبيذه وقال: "اسأل الحاكم العام إن كنت تشعر بالفضول، ولنرَ كيف سيجيبك".

تبادل الرجلان التحديق وقد صار الهواء مشحونًا بكراهية كلٍّ منهما للآخر.

سعل ياكوبي دريخت في توتر ثم أشار إلى آرينت عندما رفع القبطان بصره وقال: "أيها القبطان كراوڤلز أود أن أعرفك على...".

قاطعه كراوڤلز: "أعرفه جيدًا، لقد سمعت الحكايت". وعلى الفور أعاد انتباهه إلى إيزاك لارم وقال: "أخبرني عن المقصورات، أين سأنام الآن بينما الحاكم العام ينام في حجرتي؟".

قال مساعد القبطان: "الربع الخلفي الأيسر، المقصورة رقم اثنين".

"أنا أكره هذه المقصورة، إنها تحت حظائر الحيوانات في مؤخرة سطح السفينة، وفي كل مرة يذهب أحد إلى هناك تصرخ الخنازير لساعة على الأقل، فلتضعني على ميمنة مقدمة السفينة".

قال كبير التجار: "لقد أخذت أنا هذه المقصورة بالفعل". ثم هز جرة النبيذ الفارغة في خيبة أمل وهو ينظر بداخلها.

قال كراوڤلز غاضبًا وقد انتفخت العروق في عنقه الثخين: "أجل، لأنها مقصورتي المفضلة وأنت تعرف هذا، أنت وغد مثير للشفقة يا رينير".

وافقه كبير التجار في بهجة وهو يلوح بجرته الفارغة: "وغد مثير للشفقة، لن يبقيه مستيقظًا طيلة الليل صراخ الخنازير، فليستدعِ شخص ما المضيف، لقد نفد مني النبيذ".

تساءل القبطان وهو يتجاهله: "من يحتل المقصورات الأخرى؟".

راح مساعد القبطان يفتش في قوائم الركاب على الطاولة، ثم انتقل إلى صفحة قائمة النبلاء، راح يقرأ الأسماء بصعوبة وهو يمرر إصبعًا قذرة تحت كل اسم: "كورنليوس ڤوس، كريسي ينس، ابناها ماركوس وأوسبرت، سارا ڤيسل، ليا يان، الڤيكونتيسة دالڤين".

سأله القبطان: "هل يمكن نقل أي واحد منهم؟".

أجابه: "النبلاء لا".

تنهد كراوڤلز وهو ينقر على الطاولة بمفاصل أصابعه ثم قال: "كالأفاعي في سلالها اللعينة. الخنازير إذن".

لأول مرة ينظر مباشرة ناحية آرينت، ولكن اهتمامه انتقل على الفور إلى العكاز الذي يضرب الخشب ويتبعه خطوات عرجاء. نظر آرينت وراءه فرأى رجلًا عجوزًا واقفًا عند المدخل يتفحصهم كأنهم شيء قذر قد دهسته عجلة عربة. كان له وجنتان غائرتان وشعر رمادي وعينان صفراوان محتقنتان بالدماء، وملابسه الرثة تتدلى من على جسده النحيل، ويتأرجح حول عنقه صليب ضخم، ويبدو أن العكاز الخشبي المتشقق هو الشيء الوحيد الذي يبقيه منتصبًا.

كان آرينت ليخمن أنه في السبعين من عمره، ولكن المظاهر تكون خادعة في مثل هذا المكان البعيد كل البعد عن أمستردام، فإن رحلة صعبة إلى جزر الهند الشرقية يمكن أن تضيف عشر سنوات إلى الجسد، الذي سيتعرض بعد ذلك في باتاڤيا إلى اعتداء دورة لا تنقطع من المرض والتعافي، وفي كل مرة تستعيد أقل مما خسرته.

قبل أن يتمكن أي منهما من التحدث ظهرت امرأة محلية عريضة الكتفين وهي تسرع من ورائه. خمن آرينت أنها مارديكرية، عبدة قد حررتها الشركة لأنها مسيحية. كان شعرها البني المموج مدسوسًا في قبعة بيضاء، وترتدي قميصًا قطنيًا فضفاضًا، وتنورة طويلة من القنب تجر أطرافها عاى الأرض، ومئزرًا مبتلًا، وحقيبة كبيرة معلقة على ظهرها، ولكنها لم تكن منزعجة من وزنها.

كان وجهها دائريًا بوجنتين ممتلئتين وعينين واسعتين يقظتين. لم تقدم للمجتمعين أي احترام أو تحية، بل كانت توجه بصرها إلى الرجل الذي ترافقه وتنتظر أن يبدأ في الحديث.

سأل الرجل العجوز: "هل يمكنني أن أتحدث معك أيها القبطان كراوڤلز؟".

قال كراوڤلز متذمرًا: "كل تافه قد تحدث معي اليوم". ثم نظر إلى الصليب المتشقق وقال: "من أنت؟".

قال الرجل منحني الظهر: "ساندر كيرس". لم يشِ صوته الحازم بشيء من الضعف الواضح على جسده المرتعش. "وهذه حارستي إيزابيل".

اختفت الشمس للحظة وراء السحب لتظلم الحجرة.

من على كرسيه أمال ڤان شوتن جسده ناحيتهما وقال بخبث: "أوه، حارستك، أليس كذلك؟ كم تكلف الحارسة هذه الأيام؟".

من الواضح أن إيزابيل لم تفهم التعليق لأنها قطبت جبينها ونظرت إلى ساندر لكي يفسر لها، ولكنه تأمل ڤان شوتن بعينين متفحصتين،

ونظرته متأججة كالنور المقدس، ثم قال أخيرًا: "أنت بعيد للغاية عن عيني الرب، ما الذي دفعك إلى الظلام يا بني؟".

امتقع وجه ڤان شوتن ثم صار غاضبًا قبل أن يقول: "فلتنصرف أيها العجوز، غير مسموح بوجود الركاب بالأعلى هنا".

"لقد جلبني الرب إلى هنا، وليس أنت من سيصرفني".

لقد كان مقتنعًا تمامًا بما يقوله حتى إن آرينت صدقه.

تدخل إيزاك لارم قائلًا وهو يومئ ناحية الصليب: "هل أنتَ بريديكانت؟".

"هذا صحيح أيها القزم".

حدق إليه مساعد القبطان في ريبة، بينما انتزع القبطان قرصًا معدنيًّا صغيرًا من الطاولة ألقى به في الهواء قبل أن يمسك به في راحة يده.

تململ آرينت في توتر، بينما لديه مشاعر متضاربة تحثه على الاختباء والهرب. كان أبوه بريديكانت أيضًا، مما يجعلها مهنة يربطها بشكل غريزي بالخبث.

قال القبطان كراوڤلز: "لن تجد نفسك موضع ترحاب هنا يا ساندر كيرس".

قال ساندر كيرس بنبرة تشي بأنه قد سمع هذا التحذير مرارًا: "لأن الرب قد لعن يونان لإبحاره ضد مشيئته الإلهية صار البحارة يعتقدون أن كل رجال الدين يجلبون الحظ السيئ. أنا أضيق ذرعًا بالخرافات أيها القبطان، لقد كتب الرب قدر كل واحد منا في السماوات قبل

مولدنا بوقت طويل، إن غرقت هذه السفينة فهذا لأن الرب قد اختار أن يحكم قبضته عليها، سأقبل مشيئته بصدر رحب، وسأذهب إليه بكل تواضع".

تمتمت إيزابيل بالموافقة، بينما التعبير المبتهج المرتسم على وجهها يشي بأنهما سيكونان محظوظين بأن يغرقا وهما مخلصان للدين هكذا.

ألقى كراوڤلز بالقرص المعدني ليدور في الهواء وأمسك به مرة أخرى قبل أن يقول: "حسنًا، إن كنت قد جئت لتشتكي من مسكنك فسأقول لك...".

قال البريديكانت وقد بدا عليه الاستياء من هذا الافتراض: "أنا لا أشتكي من مسكني، فاحتياجاتي قليلة، أريد أن أناقش معك قانونك الذي يمنعني من تجاوز الصاري الرئيسي".

تأمله كراوڤلز في حذر ثم قال مفسرًا: "كل شيء قبل الصاري الرئيسي هو نطاق البحارة، وكل شيء بعده مخصص لكبار المسؤولين والركاب، ما لم يكن لأفراد الطاقم واجبات هناك. أي بحار يعبر الصاري دون إذن سيجلد، وأي راكب سيذهب إلى الجانب الآخر سيكون تحت رحمة الطاقم، هذا هو الحال في كل سفن الأسطول، حتى أنا لا أغامر كثيرًا بالذهاب إلى ذلك الطرف الآخر من السفينة".

رفع البريديكانت حاجبًا وقال: "هل تخشى أولئك الرجال؟".

تدخل رينير ڤان شوتن قائلًا: "لا يوجد بينهم من لن يحزّ عنقك من أجل شراب مجاني، وبعدها سيغتصبون حارستك بينما دماؤك لا تزال طازجة".

لقد أراد من نبرته أن تكون صادمة، ولكن البريديكانت حدق إليه بلا اكتراث بينما أحكمت إيزابيل قبضتها على حزام حقيبتها. ولكن أيًا كان ما شعرت به تجاه هذه الجملة فإنه لم يظهر على وجهها.

قال ساندر: "الخوف هو لعنة الكافر، لقد حملت على عاتقي واجبًا مقدسًا، وأنا عازم على تحقيقه، وأثق أن الرب سيحميني بينما أفعل هذا".

سأله إيزاك لارم: "هل تنوي الذهاب إلى الطاقم؟".

"أجل أيها القزم، وسأبشرهم بكلمة الرب".

قال لارم في استياء: "سيقتلونك".

"إن كانت هذه مشيئة الرب فسأرحب بها".

قال آرينت لنفسه إن الرجل صادق في قوله، لقد التقى في حياته بالعديد من الرجال الأتقياء، وتعلم تمييز المدعين، ولكن التقوى الحقيقية لها ثمن قاسٍ، الرب هو الشعلة الوحيدة التي تمنحهم الضوء والمصدر الوحيد للدفء والهداية، إنهم يرون بقية العالم كشيء رمادي باهت، وسيضرمون فيه النار بكل بهجة لينشروا شعلتهم، إن ساندر كيرس ينطق كل كلمة كما لو أنه يشعل عود ثقاب.

تبادل كراوڤلز ولارم محادثة صامتة، سؤالًا قد طُرح بإيماءات صغيرة من الرأس وإجابة بشفتين مزمومتين وهزة كتف طفيفة، إنها لغة هؤلاء الذين يمتهنون مهنًا خطيرة في أماكن منعزلة. يتواصل آرينت مع سامي بنفس الطريقة.

نظر البريديكانت إلى القبطان كراوڤلز وقال: "والآن، هل تمنحني مباركتك بالذهاب لمباشرة واجباتي التبشيرية".

ألقى كراوڤلز القرص المعدني في الهواء مرة أخرى، ولكنه التقطه على الفور في غضب وقال: "سأمنحك إذني فقط وليس مباركتي، وهو ينطبق عليك فقط وليس على حارستك، لن أغامر بحدوث تمرد بسبب الشهوة".

قالت الشابة محتجة: "أيها القبطان...".

قاطعها ساندر في حزم: "إيزابيل! لقد نلنا ما جئنا من أجله".

راحت تحدق إلى وجه وتعبير وجهها يشي بوضوح بأنهما قد نالا ما جاءا من أجله، ولكنها لم تنل ما جاءت من أجله. زمت شفتيها في انزعاج ثم غادرت المقصورة وهي تضرب الأرض بقدميها.

أسرع ساندر كيرس وراءها بخطوات عرجاء وهو يتوكأ على عكازه.

قال كراوڤلز وهو يحك جبينه: "حسنًا، هذه متاعب لم أكن بحاجة إليها. والآن، ما الذي تريده مني اليوم يا صائد اللصوص؟".

تجهم آرينت لسماع هذا اللقب، لطالما كره سامي مناداته بصائد اللصوص، قال إنها مهنة المشاكسين والرعاع، هؤلاء الذين لا يعملون إلا على الألغاز الصغيرة التي يمكن حلها بسهولة باللكمات. كان يفضل مناداته بالمشكلاتي، وهو لقب قد ابتكره بنفسه ولا يُطلق على أحد سواه، ومع هذا هناك ملوك قد أفرغوا خزائنهم للاستعانة بخدماته.

"هل كان لديكم نجار مشوه على متن السفينة؟".

"أجل، بوسي، كان يعرف كل مسمار وكل لوح خشبي في هذه السفينة، ولكن اسمه لم يكن ضمن قائمة العمال الذين صعدوا على متن السفينة، لماذا تسأل؟".

"يعتقد سامي بيبس أنه المجنون الذي كان يهددنا على رصيف الميناء".

جفل إيزاك لارم ولكنه حاول إخفاء هذا بطوي خريطته والقفز من على كرسيه قبل أن يقول: "أحتاج إلى تفحص سرعتنا أيها القبطان".

قال بصرامة: "خذ قدح الجعة من يد قائد الدفة عندما تذهب إليه".

راقب آرينت لارم وهو يغادر، وقرر أن يتحدث إليه لاحقًا بمجرد أن يحصل على كل ما يحتاج إليه من القبطان.

سأل آرينت: "هل يمكنك أن تفكر في أي سبب قد يجعل بوسي هذا يهدد ساردام؟".

"أعرف أن خلافًا ما قد حدث بينه وبين أفراد الطاقم، ولكني لا أعرف طبيعة الخلاف. على القبطان أن يبقى بعيدًا عن رجاله قدر الإمكان، وإلا فلن يتمكن من السيطرة عليهم. لارم يعرف عن هذا الأمر أكثر مني".

"عندما كنا على رصيف الميناء ذكر أن له سيدًا، هل تعرف أي شيء عن هذا الأمر؟".

"هناك مئة وثمانون بحارًا ضمن طاقمي يا هايز، أنت محظوظ لأنني أعرف اسمه. صدقني إن لارم هو من يجب أن تتحدث إليه، وهو أقرب إلى هؤلاء الرعاع مني". كان من الواضح أن صبره ينفد. "هل تحتاج إلى أي شيء آخر؟ لا يزال لدي عشرات الأمور المزعجة لكي أوليها اهتمامي".

قال آرينت: "أحتاج إلى تصريح للحديث مع الكونستبل الذي يحمي مخزن البارود".

"لماذا؟".

"سامي بيبس قلق حيال محاولة شخص ما تفجير المخزن".

تنهد القبطان وقال: "لا بأس". ثم ألقى بالقرص المعدني ناحية آرينت الذي أمسك به في راحة يده، كان ثقيلًا ومنقوشًا عليه طائر برأسين، كان آرينت ليظن أنه طابع يستخدم لختم الشمع لولا الفجوة في منتصفه.

قال القبطان: "فلتُظهر هذه العملة للكونستبل وسيعرف أنك تحمل توصية مني".

قال رينير ڤان شوتن: "لحظة واحدة". ثم بذل مجهودًا كبيرًا للنهوض من كرسيه وتوجه ناحية الطاولة.

أخرج ريشة من المحبرة وبدأ يرسم مجموعة من الأرقام على قطعة من الورق ثم قال: "أنا سيد هذه الرحلة، وستظل جميع الأبواب مغلقة أمامك حتى آمر بخلاف هذا، لسوء الحظ لا يمكنني أن أمنحك ما تريده حتى تسدد دينًا". ثم ألقى بحفنة من مسحوق الفحم على الحبر ليجففه قبل أن يُعطي الورقة لآرينت.

سأله آرينت وهو يحدق إليها: "ما هذا؟".

أجابه ڤان شوتن وعيناه تلمعان: "إنها فاتورة".

"فاتورة؟".

"من أجل البرميل".

"أي برميل؟".

قال كأنه أكثر شيء بداهة في هذا العالم: "برميل الجعة الذي كسرته على رصيف الميناء، كان من ممتلكات الشركة".

سأله آرينت في عدم تصديق: "تريد أن تحاسبني لأنني رحمت رجلًا من معاناته؟".

"هذا الرجل لم يكن من ممتلكات الشركة".

"لقد كان مشتعلًا بالنيران".

قال ڤان شوتن بنفس اللا اكتراثية المثيرة للغيظ: "كن ممتنًا لأن الشركة لا تمتلك ألسنة اللهب، المعذرة أيها الملازم هايز فحسب سياسة الشركة لا يمكن أن نقدم لك أي خدمات حتى تسدد دينك".

زمجر كراوڤلز وهو ينتزع الورقة من يد آرينت، قبل أن يلوح بها في وجه كبير التجار ويقول: "إن هايز يحاول مساعدتنا أيها الوغد أسود القلب، ما الذي حدث لك خلال الأسبوعين الماضيين؟ تبدو وكأنك رجل مختلف تمامًا".

ظهر الشك على وجه ڤان شوتن، ولكنه لم يتغلب على عجرفته وهو يقول: "ربما إن جاء إليَّ أولًا لكان بمقدورنا أن نتجنب هذا الموقف المؤسف، ولكن...". هز كتفيه وقال: "ها نحن ذا، إن سلطتي تحتم...".

"إن سلطتك لا تساوي شيئًا!".

جاء هذا الصوت من مدخل مجاور يقف فيه الحاكم العام يان هان بوجه محتقن بالدماء ومتوهج بالغضب. قال في حدة بكلمات مفعمة بالاشمئزاز: "كيف تجرؤ على معاملة الملازم هايز بهذا القدر

من عدم الاحترام؟ من الآن فصاعدًا ستناديه سيدي، وستظهر له نفس الإذعان الذي تظهره لي، وإلا فسآمر قائد الحرس دريخت بقطع لسانك، هل تفهم؟".

قال ڤان شوتن متلعثمًا وهو ينقل بصره ما بين آرينت والحاكم العام محاولًا في يأس أن يرسم خطًّا فاصلًا بينهما: "مولاي... أنا... أنا... لم أقصد إهانة...".

قال الحاكم العام في حدة: "لا أبالي بنواياك مقدار ذرة"، ثم لوَّح بيده ليصرف ڤان شوتن.

نقل بصره إلى آرينت وقد أشرق وجهه بابتسامة مفاجئة.

قال وهو يدعوه إلى الداخل: "تعالَ يا ابن أخي، لقد حان الوقت لكي نتحدث".

١٣

كان الحاكم العام قد احتل مقصورة القبطان، وهي ضعف حجم المقصورات الأخرى، وبها حمامها الخاص. كان الفراء مكومًا على الفراش وهناك سجادة موضوعة على الأرض، وعلى الجدران لوحات زيتية لمشاهد شهيرة من التاريخ الشخصي للحاكم العام، بما في ذلك حصار بريدا.

كان آرينت في تلك اللوحة، عملاق ملطخ بالدماء يحمل عمه على كتفه بينما يقاتل بمفرده جحافل الجنود الإسبان. لم يحدث الأمر بهذه الطريقة، ولكنه كان قريبًا منها بما يكفي لكي يشعر بالغثيان لتذكر هذا الأمر. الحقيقة هي أنهما كانا مختبئين تحت الجثث وقد تحركا بمشقة عبر أكوام النفايات حابسين أنفاسهما طيلة الطريق عبر خط العدو. ولكنه يفهم لماذا لم يطلب عمه رسم ذلك المشهد لوضعه على جداره، فقد كان من الصعب تصوير عظمة الأمر باستخدام الألوان الزيتية.

كان هناك خادم منهك ينقل الملابس من صندوق تخزين إلى الأدراج بينما كورنليوس ڤوس يرتب حافظات اللفافات بدقة شديدة على الرف. احتاج الأمر من آرينت بضع نظرات ليلاحظ وجوده حقًّا، فقد كان من الصعب التمييز بينه وبين الأعمدة التي تدعم السقف بسبب شعره الموحل وملابسه البنية.

قال آرينت وهو يغلق الباب وراءه: "أنا ممتن لتدخلك، ولكن يمكنني خوض معاركي الخاصة يا عماه".

قال يان هان: "هذه المعركة أدنى من منزلتك". ثم أشار بيده ناحية المقصورة الكبرى وقال في غضب: "رينير ڤان شوتن ضعيف ومرتشٍ وجشع، إن وجود أي مكان له في الشركة التي أحبها يجعل حبي لهذه الشركة يقل".

تفحص آرينت عمه، لم يرَ أحدهما الآخر منذ أكثر من شهر، عندما جاء هو وسامي إلى باتاڤيا لأول مرة، ثم تذكر أنهما قد تناولا عشاءً كبيرًا وشربا الكثير من النبيذ، فقد مضى أحد عشر عامًا منذ آخر لقاء بينهما.

إنه لم يتغير كثيرًا، ربما على مدار السنوات صار وجهه حاد القسمات الشبيه بالصقر أكثر حدة، وصار هناك بقعة من الصلع التي سفعتها الشمس فوق رأسه، وكان التغير الجوهري الوحيد فيه هو طوله، فقد خسر طبقة الدهون التي تعد علامة على الثراء وصار نحيفًا كأي شحاذ في الشارع.

فكر آرينت أنه قد صار نحيفًا بشكل غريب، كما يكون السيف نحيفًا، حادًّا وليس ضعيفًا، كما لو أن العمر كان حجر شحذ بالنسبة له. هل يكون القلق هو ما أعاد تشكيله. كان هناك درع صدر موضوع بشكل محكم فوق ملابسه، والمعدن يلمع. ورغم جودته الواضحة إلا أنه بالتأكيد غير مريح، حتى الجنرالات في الحروب ينتزعون دروعهم بمجرد عودتهم إلى خيامهم. ولكن يبدو أن عمه غير راغب في فعل هذا.

نظر الحاكم العام إلى ما وراء ابن أخيه، فوجد قائد الحرس دريخت ينتظر في صبر وهو يضع قبعته على صدره في احترام.

"تبدو وكأنك تحضر جنازتي يا دريخت، ما الذي تريده مني؟".

"أطلب إذنًا بنقل بعض الفرسان إلى سفينة أخرى يا سيدي، لقد جعلناهم يتكدسون في كل مساحة فارغة وجدناها، ولكن لا يوجد مساحة على متن ساردام".

"كم عدد من جلبناهم على متن السفينة؟".

"سبعون".

"وكم عدد من تريد نقلهم؟".

قال الحاكم العام مخاطبًا حاجبه: "ما رأيك في هذا الأمر يا ڤوس؟".

نظر ڤوس وراءه وأصابعه الملطخة بالحبر ترتعش بينما يفكر في الأمر، ثم قال: "ستتوفر حمايتك بقدر كافٍ من خلال الرقم الذي سنحتفظ به، وستكون الحصص الغذائية الإضافية موضع ترحيب. لا أرى سببًا لرفض الأمر". وما إن قال هذا حتى عاد إلى عمله.

قال الحاكم العام: "إذن لديك تصريح مني يا قائد الحرس. والآن إن سمحتما لي أيها السيدان، أود قضاء بعض الوقت بمفردي مع ابن أخي، فلدينا الكثير لنناقشه".

ألقى كورنليوس ڤوس نظرة آسفة على كومة اللفافات التي لم ينتهِ من ترتيبها بعد، ثم تبع ياكوبي دريخت إلى المقصورة الكبرى مغلقًا الباب وراءه.

قال آرينت: "رجل غريب".

قال يان وهو يمرر أصابعه على الجرار في رف النبيذ الخاص به: "لا أحد أفضل منه في التعامل مع الأرقام، غير أنك ستجد متعة أكبر في الحديث مع تمثال. ولكنه مخلص مثل دريخت، وهذا يساوي الكثير هذه الأيام، هل ترغب في شراب؟".

"هل هذه خزانة النبيذ الشهيرة الخاصة بك؟".

قال يان: "قدر ما استطعت جلبه منها. لدي شيء فرنسي، سأكون مسرورًا بإضاعته على براعم التذوق البائسة الخاصة بك".

أنزل يان جرة ونفخ الغبار من عليها قبل أن ينتزع السدادة ويصب قدحين، أعطى أحدهما لآرينت وهو يقول رافعًا قدحه: "نخب العائلة".

قرعا قدحيهما ثم تجرعا الشراب مستمتعين بالمذاق.

قال آرينت محاولًا أن يبعد الإحساس بالألم عن صوته: "حاولت أن أراك بعد أن أخذ جنودك سامي، ولكن لم يكن مسموحًا لي دخول القلعة، قالوا إنك ستستدعيني عندما يسمح وقتك بهذا، ولكنك لم تستدعني".

قال الحاكم العام وهو يطرق بعينيه في خجل: "كان هذا جبنًا مني، لقد كنت أتجنبك".

"لماذا؟".

"كنت أخشى أنني إن رأيتك... كنت أخشى ما قد أكون مضطرًّا لفعله".

"عماه؟".

راح الحاكم العام يدير النبيذ في قدحه وهو يحدق بعمق إلى السائل الأحمر، كما لو أن حقيقة عظمى ستكشف عن نفسها قريبًا.

تنهد وهو يحدق إلى آرينت ثم قال بهدوء: "الآن وأنا أراك أمامي أُدرك أن ولائي للشركة ليس أعظم من ولائي لعائلتي. لذا قل لي وبدون خوف، هل تعرف ما كان ساموويل بيبس يفعله؟".

فتح آرينت فمه ليتكلم، ولكن الحاكم العام أسكته بإشارة من يده، ثم قال وهو يتفحص ملامحه: "قبل أن تجيبني عليك أن تفهم تمامًا أنني لن أوجه لك أي اتهامات، سأفعل كل ما بوسعي لحمايتك. ولكني يجب أن أعرف إن كان ساموويل بيبس ينوي ذكر اسمك كـ...". راح يفتش عن الكلمة المناسبة قبل أن يكمل: "كمتآمر عندما يقف أمام السادة السبعة عشرة". ثم تجهم وهو يقول: "إن كان الأمر هكذا فيجب اتخاذ المزيد من التدابير الاحترازية".

لم يكن لدى آرينت أدنى فكرة عما يقصده بالتدابير الاحترازية على وجه التحديد، ولكنه شعر أن الكلمات ملطخة بالدماء.

قال بحزم: "لم أرَه يفعل أي شيء ملتوٍ يا عماه، بل إنه لا يعرف حتى ما هي تهمته".

قال الحاكم العام باستهزاء: "بل يعرف".

"هل أنت واثق؟ إنه رجل أفضل مما تظن".

مشى الحاكم العام ناحية الكوة، موليًا ظهره إلى ابن أخيه، لم يمضِ على إبحارهم سوى ساعة وقد بدأ الأسطول في التفرق بالفعل، بينما الأشرعة البيضاء تترك السحب المظلمة للرياح الموسمية وراءها.

قال الحاكم بشيء من الحدة في صوته: "هل تظن أنني غبي؟".

"لا".

"متهور إذن؟ أو ربما متعجرف؟".

"لا".

"إن بيبس بطل لهذه الشركة النبيلة التي نخدمها جميعًا، إنه المفضل لدى السادة السبعة عشرة، لم أكن لأكبله بالأغلال أو أعامله بهذه الطريقة لو كان لدي خيار آخر، صدقني إن هذه العقوبة تليق بجريمته".

سأله آرينت في حيرة: "وما هي هذه الجريمة؟ لمَ تُبقي الأمر سرًّا؟".

قال الحاكم العام: "لأنك عندما تواجه السادة السبعة عشرة ستكون هذه الحيرة هي أعظم دفاع لديك، سيعتقدون أنك متورط في الأمر، وكيف لا يعتقدون هذا؟ إنهم يعرفون العلاقة الوطيدة التي تربطك ببيبس، يعرفون كم يعتمد عليك، ولن يصدقوا أنك كنت جاهلًا بالأمر. هكذا سوف تثنيهم عن الفكرة، بغضبك وحيرتك".

أمسك آرينت بجرة النبيذ وأعاد ملء قدح عمه، ثم قال وهو يقف إلى جواره عند الكوة: "هناك ثمانية أشهر تفصلنا عن محاكمته يا عماه، ولكن بينما نقلق بشأن السيف قد يفوتنا الرمح، يعتقد سامي أن هناك خطرًا ما يهدد هذه السفينة".

"بالطبع يعتقد هذا، إنه يفكر في استخدام هذا للمساومة على حريته".

"لم يكن لدى المجذوم لسان ومع ذلك تحدث، كان له قدم مشوهة ومع ذلك تسلق برجًا من الصناديق. هذه الأشياء الغريبة وحدها تستحق اهتمام بيبس، وهناك ذلك الرمز الذي ظهر على الشراع".

"أي رمز هذا؟".

"عين لها ذيل، إنه شبيه بالندبة التي على معصمي، تلك التي أُصبتُ بها بعد اختفاء أبي".

فجأة أولاه عمه اهتمامه الكامل. اقترب يان هان من مكتبه وأخرج ريشة من محبرتها ورسم الرمز على ورقة ثم رفعها أمام وجه آرينت.

سأله والحبر يتقاطر من الورقة: "هذا الرمز؟ هل أنت واثق من هذا؟".

خفق قلب آرينت وهو يقول: "أنا واثق من هذا. كيف يعقل أن هذا الرمز هنا؟".

"ما قدر ما تتذكره من الفترة التي تلت اختفاء أبيك؟ هل تتذكر لمَ جاء إليك جدك؟".

أومأ آرينت برأسه، بعد أن عاد وحده من رحلة الصيد صار منبوذًا، عاملته أخواته بازدراء، وأبقته أمه بعيدًا، تاركة الخدم يعتنون به. كان الجميع يكرهون أباه، ولكن لم يبدُ أحد سعيدًا لاختفائه، ولم يكونوا سعداء لأن آرينت قد عاد. لم يقلها أحد بصوتٍ عالٍ، ولكن اتهامهم له كان واضحًا. لقد ظنوا أنه ضرب أباه بسهم في ظهره ثم تظاهر بفقدانه للذاكرة.

سرعان ما صارت هذه الإشاعة هي الحقيقة، وانتشرت بين رعايا أبيه، لتثير أحقادهم تجاهه.

في البداية اتهموه سرًّا، بينما الأطفال الآخرون يهمسون بشتائم بذيئة كلما رأوه في الشارع، ثم لعنه أحد القرويين بعد القداس وهو يصرخ بأن الشيطان يرقص من ورائه.

ارتجف آرينت في خوف وهو يتشبث بأمه لكي تحميه، ولكنه وجدها تحدق إليه بنفس البغضاء.

في تلك الليلة تسلل من البيت في جنح الليل ونقش شكل الندبة على بيت القروي، لا يمكنه أن يتذكر سبب فعله لهذا، أو الدافع الشيطاني الذي ألهمه بهذا الفعل، لم يتعرف أي شخص على العلامة، ولكنه فكر أن هناك شيئًا خبيثًا حيالها، لقد أخافته لذا افترض أنها ستخيف الآخرين.

في الصباح التالي كان القروي الذي تلقى العلامة هو المنبوذ، ولم ينفعه إنكاره بشيء، لقد زعموا أن الشيطان يأتي إلى باب هؤلاء الذين يدعونه.

أحس آرينت بالحماس لهذا الانتصار، لذا تسلل ليلة تلو الأخرى ليحفر الرمز على باب كل شخص قد أساء إليه من قبل، ليراقبهم وهم يصيرون أهدافًا للريبة والخوف. كان شيئًا يسيرًا، القوة الوحيدة التي يحوزها، الانتقام الوحيد الذي يمكنه أن ينزله عليهم.

كان الرمز مجرد مزحة، ولكن القرويين صبوا عليه خوفهم وجعلوه ينبض بالحياة، وقبل أن يمضي وقت طويل صاروا يحرقون كل بيت تظهر عليه العلامة، ويطردون قاطنيه من القرية. أحس آرينت

بالرعب مما قد صنعه، لذا توقف عن زياراته الليلية، ولكن العلامة استمرت في الظهور لتحيي عداوات قديمة وتصنع عداوات جديدة. راحت القرية لشهور تمزق نفسها تحت وطأة أحقادها، والناس يتهمون بعضهم بعضًا، حتى وجدوا أخيرًا شخصًا يمكنهم أن يلوموه.

توم العجوز.

اضطربت أفكار آرينت، هل كان توم العجوز مجذومًا؟ هل لهذا كرهوه جميعًا؟

لا يمكنه أن يتذكر هذا.

هذا لا يهم، فعلى عكس آرينت لم يكن لدى توم العجوز أقارب أقوياء أو أسوار ليختبئ وراءها. لم يكن شيطانًا بالتأكيد، رغم أنه كان دومًا غريب الأطوار، فيجلس في نفس البقعة في السوق لكي يستجدي الصدقات، حتى في المطر أو الشمس أو الثلج. لم يكن هناك شيء منطقي فيما يقوله، ولكن معظم الناس ظنوا أنه لا ضرر منه. ذات يوم أحاط به حشد غاضب، لقد اختفى ولد صغير، وزعم أصدقاؤه أن توم العجوز قد استدرجه بعيدًا. كال له القرويون الاتهاماتِ وطالبوه بالاعتراف. عندما لم يتمكن من إثبات براءته -فلم يكن هذا بمقدوره- ضربوه حتى الموت.

حتى الأطفال انهالوا عليه بالضرب.

في اليوم التالي توقف الرمز عن الظهور.

هنأ القرويون أنفسهم على طردهم للشيطان من ديارهم، وعادوا إلى الابتسام والضحك مع جيرانهم كأن شيئًا لم يحدث.

بعد أسبوع جاء جد آرينت، كاسبر ڤان دين بيرج، في عربته، لقد أخذ آرينت من رعاية والدته، وعاد به إلى ضيعته في فريزيا على الجانب الآخر من الأقاليم. زعم كاسبر أن هذا لأن أبناءه الخمسة قد خيبوا أمله وأنه بحاجة إلى وريث. كلاهما يعرف أن السبب هو أن والدة آرينت قد استدعته، فقد كانت تعرف حقيقة الندبة والرموز التي كان يرسمها على الأبواب.

كانت تخاف منه.

قرَّب الحاكم العام الورقة من لهب الشمعة، وراقب الشيء البغيض يحترق ثم قال: "بعد رحيلك إلى فريزيا سمعنا إشاعات عن انتشار العلامة في أرجاء الأقاليم، في البداية لاحظها الحطابون، محفورة على الأشجار التي يسقطونها، ثم بدأت تظهر في القرى، وأخيرًا منقوشة على جثث الأرانب والخنازير. أينما ظهرت تحل كارثة ما، فتفسد المحاصيل وتولد العجول ميتة، ويختفي الأطفال دون أن يراهم أحد مرة أخرى. لقد استمر الأمر قرابة عام، حتى بدأت الحشود الغاضبة تهاجم بيوت العائلات النبيلة التي تمتلك الأراضي، متهمين إياهم بالتآمر مع قوى الظلام".

عندما وصل اللهب إلى أنامل الحاكم العام ألقى بقصاصة الورق من الكوة إلى البحر.

سأله آرينت وهو يحدق إلى الندبة: "لمَ لم تخبرني بأي من هذا؟". كانت مرئية بالكاد، ولكنه قادر على الإحساس بها تحت جلده تحاول شق طريقها إلى الخارج.

"كنتَ صغيرًا للغاية". ومض شيء على وجهه، خوف قديم يحكم خناقه من جديد. "لم يكن عبئك لكي تحمله، لقد افترضنا أن أحد

الخدم الأنذال قد باغتكما في الغابة فقتل أباك ووسمك في طقس ما خبيث، ولكن لم يظهر عليك أي آثار سيئة. ثم سمعنا أن صائد ساحرات قد جاء من إنجلترا وهو يلاحق العلامة، حيث إن جماعته تحاربها لسنوات. لقد زعم أن هذا من عمل الشيطان، وقرر أن يجوب أرض أتباع الشيطان ليذبح المجذومين ويحرق الساحرات اللاتي يظهرن في أعقابه".

قال آرينت في قرارة نفسه: مجذومين، مثل بوسي.

أكمل عمه حديثه قائلًا: "تأججت المحارق في أرجاء فريزيا لأشهر، حتى طُرد الشيطان من الأرض، لقد خشي أبوك أن يظن صائد الساحرات أنك واحد من خدم الشيطان، لذا خبَّأك". مر ظل قاتم من على وجهه بينما النبيذ يرتجف في يده. "كانت أوقاتًا عصيبة، لقد أحكم الشيطان خناقه حول كل شخص عظيم وقوي، ودفعهم إلى الانحراف. لم يتمكنوا إلا من إنقاذ عدد قليل من العائلات العريقة. كان الشيطان قد استعبدهم بشره".

غرق الحاكم العام في أفكاره وهو ينقر على جانب قدحه بأظافره المصقولة بعناية، بطريقة انتهت موضتها منذ وقت طويل، ومثيرة للتوتر بطريقة ما. فكر آرينت أنها تبدو مثل المخالب، كما لو أن عمه يتحول ببطء إلى الطائر الجارح الذي لطالما كان يشبهه.

"هناك شيء آخر يجب أن تعرفه يا آرينت، حسبما قال صائد الساحرات فإن الشيطان يسمي نفسه توم العجوز".

أحس آرينت أن ساقيه لا تقويان على حمله، واضطر لأن يستند إلى المكتب.

قال محتجًّا: "توم العجوز كان شحاذًا، وقد قتله القرويون".

هز الحاكم العام رأسه وقال: "أو ربما وجدوا المخلوق الصحيح مصادفة، إن ألقيت ما يكفي من الأحجار فستصيب من آن لآخر شخصًا يستحق هذا. أيًّا ما كانت الحقيقة فإن هذه الأحداث كانت قبل ثلاثين عامًا مضت تقريبًا، فلمَ تظهر العلامة الآن مرة أخرى؟ وفي النصف الآخر من العالم؟". ثم نظر بعينين متجهمتين إلى آرينت وقال: "هل تعرف عشيقتي كريسي ينس؟".

هز آرينت رأسه وقد شعر بالحيرة من هذا السؤال الجديد المفاجئ.

"زوجها السابق كان صائد الساحرات الذي أنقذ الأقاليم، الرجل الذي أخفيناك عنه. لقد عرفتُ كريسي من خلاله، إن كان قد أخبرها بأسرار عمله فربما تعرف المزيد بشأن توم العجوز، ولماذا يهدد هذه السفينة، وما الذي تمثله العلامة الموجودة على معصمك".

"إن كنت تؤمن أن هناك خطرًا ما، ألا يكون من الحكمة أن نعود إلى باتاڤيا؟".

"أتقصد ننسحب؟". قالها الحاكم العام في ازدراء للفكرة، قبل أن يضيف: "هناك قرابة ثلاثمئة ألف إنسان في باتاڤيا، وأقل من ثلاثمئة على متن هذه السفينة. إن كان توم العجوز هنا فإنه محتجز. فلتفعل هذا من أجلي يا آرينت، أي شيء تطلبه...". لاحظ التعبير المرتسم على وجه آرينت فأضاف سريعًا: "باستثناء تحرير بيبس، سأحققه لك".

"لا يمكنني أن أفعل ما يفعله".

قال الحاكم العام محتجًّا: "لقد اقتحمت حصنًا لتحريري من الجيش الإسباني".

"لم أذهب إلى هناك متوقعًا النجاح، بل ذهبت متوقعًا الموت".

"إذن لمَ ذهبت؟".

"لأنني لا يمكنني العيش مع إحساسي بالذنب إن لم أحاول".

جاشت مشاعر الحاكم العام من ثقل الحب الذي يكنه له ابن أخيه، فأشاح بوجهه بعيدًا لإخفاء هذا وقال: "ما كان يجب أن أعلمك بشأن شارلمان عندما كنتَ صغيرًا، لقد أصاب هذا عقلك بالتعفن".

أحس بعدم الارتياح لأنه لم يربح في نهاية المطاف، فعاد إلى طاولته وتصفح بعض الأوراق، ثم تابع وهو يعيد ترتيب مستنداته بعناية: "لقد خدمتَ بيبس لخمسة أعوام، وبالتأكيد قد شاهدت طريقته في العمل".

"أجل، وقد شاهدت السناجب وهي تتسلق الأشجار، ولكن لا يمكنني أن أفعل هذا ولا ذاك. أن كنت تريد إنقاذ هذه السفينة فسيكون عليك أن تحرر سامي".

"أعرف أنني لست عمك برابطة الدم، ولكني أشعر بقرابتنا الوثيقة، لقد شاهدتك تكبر وأعرف قدراتك، لقد كنتَ وريث جدك واصطفاك على أبنائه الخمسة وأحفاده السبعة. لم يسبغ عليك هذا الشرف لأنك كنت غبيًّا".

قال آرينت محتجًّا: "إن سامي بيبس ليس بارعًا فحسب، بل يمكنه أن يرفع حواف العالم وأن يلقي نظرة من تحتها، إن لديه موهبة لن أفهمها أبدًا، صدقني لقد حاولت".

مر وجه إدوارد كويل المسكين في أفكاره وتلا هذا الإحساس المعتاد بالخجل.

كان هناك تعبير غريب مرتسم على وجه الحاكم العام وهو يقول: "لا يمكنني تحريره يا آرينت، لن أحرره، بل أفضل أن أترك هذه السفينة تغرق وأنا أعرف أنه سيغرق في تلك الزنزانة". تجرع كل ما بقدحه دفعة واحدة ثم وضعه على الطاولة بقوة وقال: "إن كان توم العجوز على متن السفينة، إذن فأنت أفضل شخص يمكنه أن يصيده. إن سلامة ساردام بين يديك".

١٤

راح آرينت يحدق إلى عمه وهو يشعر بالدوار، لم يكن في حسبانه حقًّا أن المهمة ستقع على عاتقه وحده. كان مقتنعًا أن عاطفة عمه تجاهه ستؤثر على رأيه، ولكنها نفس المودة التي حكمت عليه الآن بالهلاك.

إن يان يؤمن به إيمانًا مطلقًا، ولطالما كان هكذا. عندما كان صبيًّا علمه المبارزة بالسيف بجعله يواجه رجالًا بالغين، في البداية رجلًا واحدًا، ثم رجلين ثم ثلاثة ثم أربعة، حتى صار الخدم يتركون واجباتهم ليشاهدوه وهو يتدرب.

في الثامنة عشرة من عمره عندما حلت قعقعة المعداد* محل صليل السيوف، أقنع يان كاسبر بأن يرسل آرينت للتفاوض بشأن العقود مع التجار الماكرين للغاية، الذي قد يسرقون يدي آرينت من ذراعيه إن لم يكن منتبهًا.

هذه النجاحات في الماضي قد أعمت بصيرة عمه فلا يرى الفشل الحتمي، فإن آرينت آخر من يمكنه حماية ساردام.

قال في محاولة يائسة: "إن كنت تريدني أن أفعل ما تطلبه مني فسأحتاج إلى مشورة سامي".

* المعداد: ويسمى أيضًا إطار العد، هو آلة حاسبة كانت تستخدم في العصور القديمة، مكونة من إطار خشبي يوصل بين ضلعيه مجموعة من الأسلاك وصفوف من حبات الخرز التي يمكن تحريكها.

"تحدث إليه عبر الباب".

"ألا يمكننا أن ننقله إلى مقصورة على الأقل؟". قالها آرينت متوسلًا وقد كره كم بدا ضعيفًا. "ألا يستحق هذا من أجل الخدمة...".

قال الحاكم العام بحزم وهو يمسك لسانه عن السباب: "تقيم عائلتي في هذه المقصورات".

قال آرينت مغيرًا زاوية الهجوم: "إن لم تمنحه هواءً ومكانًا للتريض فستنهشه الأمراض، سيموت قبل أن نصل إلى أمستردام بوقت طويل".

"لن يكون هذا أكثر مما يستحق".

عض آرينت على نواجذه وغضبه يتزايد بسبب عناد عمه، ثم قال متسائلًا: "ألن يعترض السادة السبعة عشرة؟ ألا يريدون سماع الاتهامات وإصدار الحكم بأنفسهم؟".

تزعزع يقين الحاكم العام.

قال آرينت وهو يشعر بثغرة في دفاع عمه: "إن لم تسمح بتحريره فعلى الأقل اسمح له بالتريض، كل الركاب على متن سطح السفينة السفلي يتمشون على السطح مرتين في اليوم، يمكنه أن ينضم إليهم".

قال: "لا، لن أسمح بانتشار دنسه أكثر مما انتشر بالفعل".

"عماه...".

واصل قائلًا: "في منتصف الليل، يمكنك أن تتمشى معه في منتصف الليل". وقبل أن يضغط عليه آرينت: "لا تختبر صبري أكثر

من هذا، لقد قدمت بالفعل أكثر مما كنت أتوقع، وهذا فقط لأنك الشخص الذي طلب هذا مني".

"إذن سأقبل هذا بامتنان".

ضرب الحاكم العام راحة يده بظهر يده الأخرى وبدا عليه بوضوح أنه غير راضٍ عن نفسه، ثم قال: "هل ستتناول معي الإفطار في الغد؟".

"ألن تكون موجودًا على طاولة القبطان هذه الليلة؟".

"أفضل النوم قبل الغسق والاستيقاظ قبل الفجر، بحلول الوقت الذي يستضيف فيه القبطان الحمقى والأغبياء المبحرين على متن هذه السفينة، سأكون قد خلدت إلى النوم".

قال آرينت: "الإفطار إذن. رغم أنني أفضل لو أبقيت اسم عائلتي سرًّا".

"أنت تمشي في الأرجاء مرتديًا أسمالًا بالية واسم عائلتك هو ما يشعرك بالعار؟".

قال آرينت معترضًا: "إنه ليس عارًا يا عماه، ولكن هذا الاسم يسبقني، فيقوم المسارات الملتوية ويلوي المسارات التي أنوي السير فيها".

قال الحاكم العام وهو ينظر إليه في إعجاب: "لقد كنت صبيًّا غريبًا، وكبرت لتصير رجلًا أكثر غرابة، ولكنك رجل استثنائي". ثم زفر قبل أن يضيف: "حسنًا، كما تشاء، لن أنطق باسمك الحقيقي، وبالمثل لا يجب عليك أن تتحدث عن ماضيك. هل يعرف بيبس بشأن ندبتك واختفاء أبيك؟".

"لا، لقد نصحني جدي بأن أُبقي ما حدث في تلك الغابة سرًّا، وما زلت ملتزمًا بهذه النصيحة، أنا لا أتحدث عن الأمر، ونادرًا ما أفكر فيه".

"جيد، فلتواصل إخفاء الأمر، حتى عن كريسي ينس عندما تلتقي بها، إنها امرأة صالحة، ولكنها لا تزال امرأة، وستفسر الأمر على أسوأ نحو ممكن". نقر على الطاولة بأصابعه ثم قال: "والآن بقدر ما يؤسفني الأمر فإن لدي واجبات يجب أن أوليها اهتمامي". ثم فتح الباب ليكشف عن كورنليوس ڤوس وقائد الحرس دريخت وهما يتبادلان الحديث على الجانب الآخر.

"ڤوس، فلتصطحب ابن أخي إلى كريسي ينس، أخبرها أنه رجل صالح رغم مظهره، وأنه يلتزم بتعليماتي".

قال آرينت معترضًا: "أود أولًا البدء بمخزن البارود، يجب أن نعرف كيف ينوي سيد ذلك المجذوم مهاجمتنا".

وافق قائلًا: "لا بأس، خذ ابن أخي إلى مخزن البارود بالأسفل، واحرص على أن يجيب الكونستبل على أسئلته". ثم مال مقتربًا من الحاجب ليهمس في أذنه قائلًا: "وأرسل كريسي ينس إليَّ".

قال آرينت وهو يحني رأسه في احترام: "شكرًا لك يا عماه".

جذبه يان هان إليه ليعانقه وقال: "لا تثق في بيبس، إنه ليس كما تعتقد".

اقتاد كورنليوس ڤوس آرينت خارجين من المقصورة الكبرى، وعبر حجرة دفة القيادة، إلى جناح تحت السطح الأوسط. كانت

خطواته متساوية تمامًا، وذراعاه مثبتتان إلى جانبيه، كأنما يخشى أن يحتل مساحة أكبر مما يحتاج إليها.

تحدث ڤوس ببطء كأنما ينفخ التراب عن كل كلمة قبل أن تمر من بين شفتيه: "سأعترف لك أنني كنت أظن أنني أعرف كل جذر وفرع من شجرة عائلة سيدي، لذا أعتذر إليك لأنني لم أعرف أنك من عائلته على الفور".

شعر آرينت أنه صادق في أسفه، كان هذا هو حال خدم جده الأكبر سنًّا، العائلة هي حياتهم، ويفخرون بخدمتها. كان بمقدور جده أن يضع أطواقًا حول أعناقهم، وكانوا سيصقلونها لكي تلمع.

قال آرينت مفسرًا: "أنا لست من نسل عائلة يان، ولكن الحاكم العام يدعوني ابن أخي كعلامة على المودة. كانت أراضيه تجاور أراضي جدي في فريزيا، وهما صديقان مقربان، وقد تشاركا تربيتي".

"إذن، مَنْ عائلتك؟".

قال آرينت وهو يتيقن من أن أحدًا لا يسترق السمع: "هذه مسألة أفضل ألا أتحدث عنها، وسأكون ممتنًّا إن لم تذكر صلتي بالحاكم العام لأي شخص آخر".

قال ڤوس بجمود: "بالطبع. ما كنت لأصل إلى هذا المنصب لو لم أكن كتومًا".

ابتسم آرينت من استياء ڤوس، من الواضح أنه يزعجه أن ينأى أي شخص بنفسه عن شرف صداقة الحاكم العام.

قال: "أخبرني عن نفسك يا ڤوس، كيف انتهى بك المطاف إلى خدمة عمي؟".

قال بنبرة لا تحمل أي ضغينة: "لقد دمر حياتي، كنت تاجرًا ذات يوم، ولكن شركتي دخلت في منافسة مع الحاكم العام، فنشر شائعات مشينة عني بين زبائني، مما قضى على أعمالي، ثم عرض عليَّ وظيفة أن أعمل حاجبًا لديه".

كان يتحدث بنبرة مبتهجة كأنما هو شخص يتذكر وليمة عيد الميلاد.

سأله آرينت في دهشة: "وأنت قبلت؟".

قال ڤوس مستهجنًا حيرة آرينت: "بالطبع، إنه شرف عظيم، لولاه لكنت شخصًا آخر، ليس لدي أي موهبة في إدارة الأعمال، ولكن عملك قد تعرف على مواهبي في التعامل مع الأرقام، أنا موجود في المكان الذي أنتمي إليه، وأحمد الرب على حكمته كل ليلة".

تفحص آرينت وجهه الخالي من المشاعر بحثًا عن أي كرامة مجروحة أو استياء مكبوت، ولكنه لم يجد شيئًا، لقد بدا ممتنًّا لأن عمه قد سحقه وأضافه إلى مجموعة مقتنياته.

أخرج ڤوس ليمونة صغيرة من جيبه وانتزع قشرتها بأظافره ثم نشر رذاذها في الهواء، راقبه المرتزق للحظة بينما السفينة تتمايل من تحته.

سأله فجأة وهو يأمل أن يباغته: "هل تعرف سبب سجن سامي بيبس؟".

تيبس جسد ڤوس على الفور وهو يقول: "لا".

قال آرينت معترضًا: "بل تعرف، هل الأمر سيئ كما يقول عمي؟".

قال ڤوس: "أجل". ثم غرس أسنانه في الليمونة فترقرقت عيناه بالدموع.

أنهت الكلمة المحادثة كصخرة قد سقطت لتغلق مدخل كهف.

كان السلم المؤدي إلى السطح السفلي يقع على الناحية المقابلة لمهجع آرينت، وكان هناك صوت جلبة كبيرة تأتي من آخر السلم.

عندما هبط آرينت إلى الظلمة شعر وكأنها قد ابتلعته تمامًا. كان هناك شبكة من العوارض تدعم السقف الخفيض، بينما قطرات الرطوبة تتساقط كالعصارة الصفراوية. كان هناك ستة مدافع موضوعة على مسافة مستوية على طول الجدران المنحنية، بينما مركز السطح تحتله العجلة الرحوية الضخمة التي تُستخدم مقابضها الأربعة الطويلة لرفع المراسي عن قاع البحر.

كان المكان حارًّا بشكل خانق، بينما من المتوقع أن ينام الركاب أينما وجدوا مساحة لهذا. خمن آرينت أن هناك قرابة خمسين شخصًا موجودين في هذا المكان، بينما مجموعة من المسافرين المتمرسين يربطون حبال أسرة معلقة ما بين منافذ المدافع، حيث يجدون أخيرًا نسيمًا من الهواء، ولكن البقية سيكون عليهم أن يكتفوا بالحصر على الأرضية والشعور بالفئران وهي تندفع من فوق أجسادهم في الليل.

كانت الجدالات محتدمة، والركاب المرضى يسعلون ويلهثون ويبصقون ويتقيؤون، بينما يشتكون من مهاجعهم. كان ساندر كيرس وحارسته إيزابيل يقفان في وسطهم يصغيان بتعاطف ويمنحانهم بركات الرب.

قال ڤوس وهو يومئ برأسه ناحية مؤخرة السفينة: "مخزن البارود من هذا الطريق".

ما إن قطعا ثلاث خطوات حتى احتشد الركاب من حولهما وهم يشتكون بعضهم من بعض. حاول رجل غاضب أن يكز آرينت في صدره ثم أدرك أنه لن يصل إليه فوكز ڤوس بدلًا منه.

أشار ناحية الفراش المعلق وقال: "لقد بعت كل ما أملك لكي أشتري هذا المهجع، لا يوجد حتى مكان لكي أضع فيه ممتلكاتي".

قال ڤوس وهو يزيح إصبع الرجل جانبًا كأنها قطعة من الوسخ: "هذا مثير للاهتمام، ولكن ليس أنا من يقرر المكان الذي ستنام فيه، بل إنني لا أقرر أين أنا...".

بتر جملته وقد شتت انتباهه شيء ما. تتبع آرينت نظرته فرأى ولدين بشعر بني وآذان بارزة يندفعان عبر السطح، بينما كل منهما يحاول لمس الآخر أولًا. كانا يرتديان ملابس متطابقة؛ جوربًا أصفر وبنطالًا بنيًّا وسترة ضيقة وحرملة قصيرة.

إنها ثياب خاصة بالنبلاء، وبدت متناقضة بشكل صارخ مع الأحذية المهترئة والملابس البالية التي يرتديها بقية الركاب، إن أزرارها المصنوعة من اللؤلؤ وحدها كافية لتسكين واحدة من هذه العائلات في الطابق العلوي.

صرخ ڤوس ليوقف النبيلين الصغيرين على الفور: "أيها الولدان! أنا واثق من أن أمكما لا تعرف أين أنتما، وأنا متيقن أنها لا توافق على هذا، فلتصعدا إلى مقصورتكما على الفور".

تمتم الولدان، ولكنهما صعدا السلم كما أمرهما.

قال ڤوس مفسرًا: "إنهما ابنا كريسي ينس". نطق الاسم بشوق كبير حتى إنه تحول للحظة إلى إنسان طبيعي. فبعد أن تعرف عليه لوقت

قصير كان آرينت قد افترض أن قلب ڤوس هو كرة من المخطوطات، ولكن من الواضح أن هناك دماء دافئة في مكان ما في قلبه.

شقت امرأة منتحبة صفوف الحشد لتجذب كم آرينت وهي تشتكي: "أنا لديَّ ولدان". ثم مسحت أنفها بمنديل وقالت: "لا يوجد ضوء ولا هواء، كيف سيتحملان ثمانية أشهر هكذا؟".

"سأتحدث إلى...".

صفع ڤوس يدها ليبعدها مما جعل آرينت ينظر إليه في انزعاج، ثم قال بشكل رسمي: "لا يمكن للملازم هايز أن يساعدك بأكثر مما أستطيع، نحن راكبان مثلكم، فلتخاطبوا مساعد القبطان أو كبير التجار".

قال الرجل الغاضب وهو يدفع المرأة جانبًا: "أريد الحديث إلى القبطان".

قال ڤوس بفتور: "وأنا واثق من أنه يود الحديث إليك، ربما يمكنك أن تجرب أن تصرخ باسمه لتناديه".

وبدلًا من أن ينتظر إجابة خطا بعزم ناحية مخزن البارود، ونقر على الباب بسلطة رجل تنفتح الأبواب دومًا أمامه. جاء صوت خطوات أقدام من على الجانب الآخر، ثم انزلقت لوحة جانبًا لتكشف عن عينين زرقاوين مرتابتين تحت حاجبين أبيضين كثين.

قال صوت عجوز مبحوح: "من هناك؟".

"الحاجب ڤوس، أمثل الحاكم العام يان هان، وهذا آرينت هايز، رفيق سامويل بيبس". ثم أشار إلى القرص المعدني الذي منحه

كراوڤلز لآرينت في المقصورة الكبرى، فأعطاه آرينت له. رفعه إلى الفجوة وقال: "نحن هنا بتصريح من قبطانك".

تعالى صوت احتكاك بينما الباب ينفتح، ليكشف عن بحار متغضن الوجه بذراع واحدة وظهر منحنٍ كقوس مشدود. كان عاري الجذع ويرتدي سروالًا فضفاضًا يصل إلى ركبتيه، وخصلة ملتوية من الشعر الأشقر تتدلى من حبل حول رقبته، بينما شعره أشعث كشرارات من نيران رمادية.

قال وهو يشير إليهما بالدخول: "تفضلا إذن. ولكن فضلًا أغلقا المزلاج من ورائكما".

كان مخزن البارود جناحًا عديم النوافذ، بألواح من الصفيح مثبتة بمسامير إلى الجدران، وعشرات من براميل البارود الثقيلة موضوعة على الأرفف، وكان هناك سرير معلق في الزاوية، ومن تحتها دلو لقضاء الحاجة، ومن حسن الحظ أنه كان فارغًا.

كان هناك عارضة خشبية سميكة تصدر صوت احتكاك وهي تتحرك جيئة وذهابًا من فوق آرينت الذي أحنى رأسه.

قال الكونستبل عندما لاحظ ما ينظر إليه آرينت: "إنها تربط الموجه بعصا التوجيه في الدفة، ستعتاد هذا الصرير بعد فترة من الوقت".

في زاوية الحجرة كان هناك صندوق ضخم يحتوي على الغنيمة، يستخدمه كطاولة الكونستبل الذي جلس عليه ووضع قدميه من فوقه فأسقط حجري نرد ليتدحرجا على الأرض.

كان حافي القدمين ككل البحارة الذين رآهم آرينت.

حدق آرينت إلى الصندوق في حيرة وهو يتساءل، كيف يمكن لشيء ثمين إلى هذا الحد أن يعامل بمثل هذا الإهمال. إن الغنيمة هي سبب استدعائهما إلى باتاڤيا قبل أشهر مضت، ولا يعرف حقيقته إلا عدد قليل من الأشخاص يعد على أصابع اليد الواحدة، وسامي ليس واحدًا منهم. هو شيء قد بُني سرًّا، وجرى اختباره سرًّا، وسُرق سرًّا، ثم جرت استعادته سرًّا. لقد أمضيا ساعة في صحبته بعد استعادته، وقد تفحصاه من أعلاه إلى أسفله.

وحتى حينها لم يتمكنا من معرفة رأسه من ذيله، أو حتى ما الغرض منه.

إنه مكون من ثلاث قطع، وبمجرد دمجها معًا يكون هناك كرة نحاسية موضوعة داخل دائرة من الخشب محاطة بحلقات من النجوم وقمر وشمس، كلما أملته تدور التروس ويتغير موضع كل شيء، حتى إن محاولة تتبع أي قطعة منها تصيب آرينت بالصداع.

أيًّا ما كانت طبيعته فإنه شيء مهم بما يكفي لأن يرسل السادة السبعة عشرة أهم عملائهم للعثور عليه، وهم يعلمون جيدًا أن الرحلة من أمستردام قد تقتله قبل وصوله.

لحسن الحظ لم ينجُ سامي فحسب، بل ونجح في مهمته، وكشف عن أربعة جواسيس برتغاليين، وكُلِّف آرينت بمهمة القبض عليهم للمثول أمام غضب الحاكم العام، ولكن اثنين انتحرا قبل أن يمسك بهما، والاثنان الآخران أحسا باكتشافه لأمرهما ولاذا بالفرار.

ما زال يشعر بالخجل من هذا الفشل.

سأل الكونستبل: "ما الذي جلب سيدين محترمين مثلكما إلى الأسفل هنا في مؤخرة السفينة؟". ثم وضع قطعة من السمك المجفف في فمه، وحسبما يرى آرينت لم يكن هناك أسنان.

لم يجد آرينت طريقة أفضل لصياغة سؤاله فقال: "هل طلب منك أي شخص أن تشعل شرارة في هذه الحجرة؟".

تغضن وجه الكونستبل في حيرة كبرتقالة قد امتصت منها كل عصارتها.

سأله: "لمَ قد يرغب أحد في فعل هذا؟".

"لقد تعرضت السفينة للتهديد".

"مني؟".

أجابه آرينت: "لا، بل من...". ثم تردد قليلًا وهو يشعر بمدى سخافة إجابته قبل أن يكمل: "من مجذوم".

كرر الكونستبل الكلمة: "مجذوم". ثم نظر إلى ڤوس ليطلب تأكيدًا على هذه الحماقة.

قطم الحاجب قطعة من ليمونته، ولكنه لم يقل شيئًا.

قال الكونستبل وهو يمضغ سمكته بلا صوت: "هل تعتقد أن مجذومًا قد أقنعني بالمشاركة في مؤامرة ستغرقني مع كل شخص آخر على متن السفينة؟ حسنًا دعني أفكر في هذا لدقيقة، هناك الكثير من المجذومين الذين يهبطون إلى هنا ومن الصعب تذكرهم جميعًا".

ضرب آرينت الأرضية بقدمه.

لم تكن التحقيقات هي عمله، ولا يشعر بالراحة في توليها، لقد حاول فعل هذا من قبل، واعتقد سامي أن هناك شرارة موهبة في آرينت، وطريقة سريعة للتقاعد. لقد دربه ثم منحه قضية، وقد جرت الأمور على ما يرام بما يكفي، حتى كادوا أن يشنقوا الرجل الخاطئ بناءً على كلمة آرينت، ولم يُكتشف الخطأ إلا لأن سامي قد توقف عن الشراب بما يكفي لأن يمعن النظر في الحقائق ويلاحظ شيئًا قد فات آرينت.

حتى ذلك الحين كان آرينت مغرورًا، لقد رأى مواهب سامي وظن أنها رائعة، ولكنها فقط كما يكون عرض الفروسية رائعًا، شيئًا مثيرًا للإعجاب، ولكن يمكن تعلمه.

لقد كان مخطئًا. ما يفعله سامي لا يمكن تعلمه أو التدرب عليه، إنها هبات يتمتع بها وحده.

عندما شعر ڤوس بتوتر آرينت أشفق عليه وحوَّل انتباهه إلى الكونستبل.

قال: "فلتعرف أن آرينت هايز قد جاء إلى هنا بأمر من الحاكم العام يان هان نفسه، أيًا ما كانت أسئلته فستجيب عليها بدقة ولباقة، وإلا فسآمر بجلدك، هل تفهمني؟".

امتقع وجه العجوز وقال متلعثمًا: "المعذرة يا سيدي، لم أقصد أي إهانة".

"فلتجب على السؤال".

"لا يوجد مجذومون يا سيدي، ولا مؤامرات. وصدقني إن كنت أريد قتل نفسي، فسأقضي ليلة في العبث مع العاهرات والشرب مع

الأوغاد بالخارج". ثم أكمل وهو يشير إلى ما وراء الباب المقفل: "أنا لا أفعل هذا لأنني لديَّ ما يكفي من المال بالكاد، وهناك عائلة في انتظاري. هناك الكثير من الأسباب للعودة إلى الديار".

لا يمتلك آرينت أيًا من هبات سامي، ولكن لديه مواهبه الخاصة في كشف الكذب. لقد حاول الناس خداعه طيلة حياته، سواء لإغرائه بصفقة سيئة عندما كان يعمل لدى جده، أو لإقناعه بأن الخنجر الموضوع وراء ظهره ليس من أجل طعنه هو. عندما نظر إلى وجه الرجل العجوز المتغضن رأى الأمل والتوتر، ولكنه لم يرَ شيئًا يشي بأنه يكذب.

سأله آرينت: "من غيرك يمكنه أن يدخل هذه الحجرة؟".

قال وهو يلوي أصابع قدميه: "لا أحد معظم الأيام، والجميع عندما يصدر أمر بالتوجه إلى مراكز القتال، سيأتي أفراد الطاقم ويذهبون وهم يحملون البارود من أجل مدافعهم. ولكن لا أحد يملك المفاتيح سواي أنا والقبطان كراوڤلز ومساعد القبطان".

"هل تعرف نجارًا يدعى بوسي؟ إن له قدمًا عرجاء وربما يحمل ضغينة تجاه ساردام".

قال الكونستبل وهو يمضغ المزيد من السمك فيسيل اللعاب على ذقنه: "لا يمكنني الجزم بأنني أعرفه، فأنا جديد على الطاقم، لم أنضم إليه إلا في باتاڤيا، هل تقلق حيال أن شخصًا ما سيحاول إغراق السفينة؟".

"أجل".

قال: "إذن فأنت تنظر إلى الأمر على النحو الخاطئ، إن هذه الحجرة بها خبز على كلا جانبيها، وألواح من الصفيح في جميع أرجائها".

"أنا لست...".

"الخبز مُخزَّن في جناحين على كلا الجانبين، حتى لو اشتعلت شرارة فسيخمد الانفجار الصفيح والخبز، هذا لن يصنع ثقبًا في هيكل السفينة، لن يكون الحريق أمرًا هينًا، ولكن سيكون لدينا وقت لإطفائه قبل أن يلتهمنا جميعًا، لهذا بُنيت السفينة على هذا النحو".

سأله ڤوس بحزم: "هل تدرك أننا سنوجه نفس السؤال إلى القبطان كراوڤلز؟".

أجابه الكونستبل: "وسيجيبك بنفس الإجابة يا سيدي".

تمتم آرينت: "هل يمكنك أن تفكر في طريقة أفضل لإغراق ساردام؟".

قال الكونستبل وهو يداعب بأصابعه خصلة الشعر القذرة المتدلية من عنقه: "هناك بعض الطرق، يمكن لسفينة أخرى أن تضربنا بالمدافع، فتغرقنا بالطريقة التقليدية". ثم فكر قليلًا قبل أن يضيف: "أو يمكن تركنا وشأننا، ويثق بالقراصنة أو العواصف أو الجدري للقضاء علينا، يحدث هذا في كثير من الأحيان، أو...". ثم صار مضطربًا.

قال ڤوس ليحثه على مواصلة الحديث: "أو؟".

"أو... حسنًا، إن كنت أريد إغراق السفينة، وأنا لا أريد هذا قطعًا أنا فقط أتحدث". ثم نظر إليهما لكي يتيقن من أنهما يقبلان أنه يتحدث فحسب.

قال ڤوس آمرًا: "قل لنا فكرتك".

"حسنًا إن كنت أريد إغراق السفينة فسأحاول أن أزيح القبطان من طريقي".

قال آرينت في دهشة: "كراوڤلز؟".

قال الرجل العجوز وهو ينتزع شظية خشبية من الطاولة: "ما قدر ما تعرفانه عنه؟".

أجابه ڤوس: "أعرف فقط أنه يرتدي ثيابه كأنه من أفراد الحاشية، ويكره كبير التجار".

ضرب الكونستبل فخذه في مرح، ثم توقف عندما لاحظ أن تقييم ڤوس الصريح من المفترض ألا يكون مضحكًا.

"ما قلته صحيح يا سيدي، ولكن القبطان كراوڤلز هو أفضل بحار في الأسطول، والجميع يعرفون هذا، بمن فيهم ابن العاهرة كبير التجار هذا، رينير ڤان شوتن. يمكن لكراوڤلز أن يبحر بسفينة كبيرة عائدة إلى أمستردام وأن يوصل شحنته بأمان". كان هناك انبهار في صوته، ولكنه تلاشى عندما تحدث مرة أخرى قائلًا: "إن الأجور التي تدفعها الشركة زهيدة، مما يعني أن طاقم ساردام يتكون من الساخطين والقتلة واللصوص بلا استثناء".

سأله ڤوس: "وأيهم أنت؟".

قال وهو ينقر على بقايا ذراعه المبتورة: "لص، أو كنت ذات يوم. ولكن إليك ما يهم حقًّا، رغم سوء أفراد الطاقم إلا أن كلّ واحد منهم يحترم القبطان كراوڤلز، سيتذمرون ويتآمرون، ولكنهم لن يعصوا له

أمرًا، إنه شرس، ولكنه عادل في استخدام السوط، ونحن نعرف أنه سيوصلنا جميعًا إلى الديار، لذا فإن هذه الحيوانات تحني رؤوسها وتقبل اللجام".

سأله آرينت: "ماذا سيحدث إن مات؟ هل يمكن لمساعد القبطان أن يسيطر على هذا الطاقم؟".

قال الكونستبل في ازدراء: "القزم؟ هذا احتمال بعيد، إن مات القبطان فهذه السفينة ستحترق، تذكر هذا جيدًا".

١٥

كانت سارا وليا واقفتين على مؤخرة سطح السفينة تراقبان باتاڤيا تبتعد في الأفق، كانت سارا قد توقعت أن تختفي تدريجيًّا كإزالة بقعة من قميص قطني، ولكن بدلًا من هذا اختفت المداخن وأسطح البيوت ما بين غمضة عين وانتباهتها، دون أن تترك مجالًا للوداع.

سألتها ليا للمرة المئة خلال هذا الأسبوع: "كيف تبدو فرنسا يا أمي؟".

كانت سارا قادرة على أن ترى الخوف في عينيها، فلم تعرف ابنتها وطنًا سوى باتاڤيا، وحتى حينها لم يكن مسموحًا لها بالمغامرة بالخروج من أسوار القلعة إلا لمامًا. كانت تتظاهر في طفولتها أن القلعة هي متاهة دايدالوس، فتقضي ساعات في الهرب من المينوتور في تلك المتاهة. لقد لعب والدها دور الوحش على نحو مثالي.

والآن بعد أن أحاطت بها الأسوار والحراس لثلاثة عشر عامًا، تبحر لبدء حياة جديدة تمامًا في بيت كبير به حدائق.

لم تحظَ الفتاة المسكينة بنوم هانئ لأسابيع.

قالت سارا معترفة: "لا أعرفها جيدًا، لقد زرتها آخر مرة عندما كنت في ريعان شبابي، ولكني أتذكر أن الطعام كان لذيذًا والموسيقى مبهجة".

ارتسمت ابتسامة حالمة على وجه ليا، فهي تحب كليهما كما تعرف سارا.

أكملت سارا حديثها بأسى: "إنهم مخترعون وعلماء ومعالجون موهوبون، وقد صنعوا المعجزات، كاتدرائيات تصل إلى عنان السماوات".

أراحت ليا رأسها على كتف أمها، فانسدل شعرها الأسود على ذراعها كمياه سوداء.

أصدر المصباح المتأرجح صريرًا على عموده الطويل من فوقهما، بينما الراية تخفق بقوة في الرياح. تعالت نقنقة الدجاج ونخير الخنازير من حظائر الحيوانات، في محاولة للتعبير عن استيائها الواضح من سطح السفينة الذي يتأرجح من تحتها.

تساءلت ليا في أسى: "هل سيحبونني هناك؟".

صاحت ليا: "سيحبونك بالطبع! لهذا سنذهب إلى هناك. لا أريدك أن تخافي مرة أخرى مما تكونينه، لا أريدك أن تضطري إلى إخفاء هباتك".

تشبثت ليا بها، ولكن قبل أن تتمكن من طرح السؤال التالي في قائمة أسئلتها جاءت كريسي مسرعة وهي تصعد درجات السلم وشعرها الأشقر يتطاير من ورائها. كانت قد استبدلت ثياب النوم وصارت ترتدي قميصًا بياقة عالية وكمين حمراوين مربوطين بالأشرطة وقبعة عريضة الحواف مزينة بالريش. كانت تمسك حذاءها في يدها وجبينها يتصبب عرقًا.

قالت وهي تلهث: "ها أنتِ ذا، كنت أبحث عنك في كل مكان".

سألتها سارا في قلق: "ما الخطب؟".

كانت كريسي قد وصلت إلى باتاڤيا قبل عامين بأمر من الحاكم العام، فأشرقت على حياتهم القاتمة كضوء الشمس. إنها لبقة في الحديث ولها موهبة في سرد الحكايات الطويلة، وهو شيء تفعله يوميًّا. لا تتذكر سارا أنها كانت يومًا قلقة أو في مزاج سيئ، إنها مبتهجة بطبيعتها، ودومًا ما يكون حولها من يغازلها ليثير هذه البهجة.

قالت كريسي وهي تلهث: "أعرف ما الذي يهدد هذه السفينة، أعرف من هو سيد بوسي".

صاحت سارا وأسئلتها تصارع بعضها بعضًا: "ماذا؟ كيف؟".

اتكأت كريسي إلى السور لتلتقط أنفاسها. من تحتهم مباشرة كانت هناك كوة مربعة تؤدي إلى مقصورات الركاب، وبالداخل سمعوا صوت كراوڤلز يتشاجر مع ڤان شوتن بشأن مقصورته.

سألتها كريسي: "هل أخبرتك من قبل عن زوجي الثاني بيتر فليتشر؟".

أجابتها سارا في لهفة: "لا أعرف إلا أنه والد ماركوس وأوسبرت، وأنه كان يعرف زوجي في يوم من الأيام".

قالت كريسي وهي تنطق بالاسم في أسى: "كان بيتر صائد ساحرات، وقبل ثلاثين عامًا -قبل زواجنا بوقت طويل- جاء من إنجلترا إلى الأقاليم المتحدة، ليحقق في رمز غريب قد انتشر في أراضي العائلات النبيلة كالوباء".

سألتها ليا: "هل كان ذلك الرمز الذي ظهر على الشراع هذا الصباح".

قالت كريسي وهي تنظر في قلق إلى الشراع الأبيض الخفاق: "هو بالضبط. وأثناء تحقيقه في العلامة حرر زوجي أرواح مئات من المجذومين والسحرة، وجميعهم حكوا نفس الحكاية. في تلك الساعة العصيبة التي يفقدون فيها كل أمل يهمس شخص يسمي نفسه توم العجوز لهم في الظلمة، ويعرض تلبية رغباتهم الدفينة نظير خدمة".

سألتها سارا وهي غير قادرة على إخفاء إثارتها: "أي نوع من الخدمات؟".

انتابها نفس الشعور الذي كان ينتابها عندما تصل قضية جديدة من قضايا بيبس إلى باتاڤيا، كانت تستعرض القضية مع ليا، وترفض أن تقرأ النهاية حتى تبتكر نظرية خاصة بها. كثيرًا ما تكون محقة، رغم أنها عادة ما تخطئ في تخمين الدافع. لم تكن مفاهيم مثل الغيرة أو الحب المرفوض شيئًا يمكن أن تفهمه سارا، ناهيك بأن تستوعب أن يُقتل شخص ما من أجل هذا.

"لم يكن زوجي يتحدث عن تفاصيل عمله، فقد كان يؤمن أن هذا الشيء لا يجب أن تسمعه سيدة لطيفة".

"كان قرارًا حكيمًا". قالها ڤوس وهو يصعد الدرج. "إن سيدي يطلب حضورك على الفور يا سيدتي ينس".

أومأت له كريسي برأسها وقد بدا عليها النفور.

ظهر آرينت من ورائه ثم أحنى رأسه لسارا، فقالت لنفسها إن شيئًا قد تغير منذ آخر مرة رأته فيها على رصيف الميناء. لقد بدا وكأنما حمل ثقيل جديد قد أضيف إلى عاتقه.

قالت سارا بينما الرجلان ينضمان إليهم: "فلتبقي يا كريسي، هل التقيتِ من قبل بالملازم هايز؟ لقد ساعدني في التعامل مع المجذوم على رصيف الميناء".

قال مصححًا بدمدمة خفيضة: "آرينت". ثم ابتسم لها فوجدت نفسها تبادله الابتسام.

لمعت عينا كريسي وهي تنظر إليه ثم قالت في لباقة: "لم ألتقِ به من قبل، ولكني كنت آمل لقاءه. إن الحكايات التي تروى عن حجمك لم يكن مبالغًا فيها، أليس كذلك أيها الملازم هايز؟ يبدو الأمر وكأن الرب قد زادك في الخلق بسطة".

قالت سارا موبخة بلطف: "فلتحاولي إغواءه لاحقًا يا كريسي". ثم قالت مخاطبة آرينت: "من الواضح أن العلامة التي كانت على الشراع تنتمي إلى شيطان يدعو نفسه توم العجوز".

لم يفتها النظرة التي ومضت في عيني آرينت، فقالت متسائلة وهي تميل رأسها جانبًا: "هل تعرف الاسم؟".

"لقد أخبرني الحاكم العام بالحكاية".

قالت: "حسنًا لقد تحدثت مع شاب اليوم وأخبرني أن المجذوم كان نجارًا على متن ساردام يدعى بوسي، وقبل موته تبجح بأنه عقد صفقة ستجعله ثريًا مع شخص ما في باتاڤيا، وأن كل ما عليه أن يفعله في المقابل هو بعض الخدمات الصغيرة".

هزت كريسي رأسها في حزن وقالت: "أيًا ما كانت الخدمة التي طلبها توم العجوز من بوسي، فإن نهايتها الوحيدة كانت المعاناة". ثم مسحت رذاذ البحر من على وجهها وقالت: "بمجرد أن تعقد صفقة

مع توم العجوز ستصير خادمه، ولن تتحرر منه أبدًا. إنه يتغذى على آلامنا، وهؤلاء الذين لا يقدمون له مأدبة يعانون بأنفسهم. كان بيتر يتمتع بعزيمة صلبة، ولكنه مع ذلك كان يحجم عن سرد الفظائع التي شهدها".

فكرت سارا أنه إن كان ما يسعى إليه توم العجوز أشخاصًا يشتكون من الظلم فسيجد فائضًا منهم هنا، كل شخص على متن السفينة لديه سبب ليشتكي، والجميع يشعرون بسوء المعاملة، وكل شخص يرغب فيما يمتلكه شخص آخر. بمقدورها أن تتخيل الثمن الذي سيدفعه هؤلاء الناس من أجل حياة أفضل.

على سبيل المثال، الثمن الذي كانت مستعدة لدفعه.

تمتم آرينت كأنما يقرأ أفكارها: "هناك الكثير من الأشخاص الذين يشعرون بالظلم على متن ساردام. هل أخبرك زوجك بحقيقة توم العجوز؟".

قالت كريسي: "شيطان من نوع ما، ولكنه لم يخبرني بالأمر مباشرة. لم يخبرني إلا بعد...". صمتت وقد ترقرقت عيناها بالدموع ثم قالت: "قبل أربع سنوات عاد بيتر إلى البيت مذعورًا. كنا نعيش في أمستردام في بيت كبير مليء بالخدم. لقد حثنا على الإسراع إلى عربة متوجهة ناحية ليل بدون أي تفسير أو أن نحمل أيًّا من متاعنا...".

قالها آرينت في دهشة: "ليل؟".

قالت وهي تحاول أن تفهم سبب انزعاجه: "أجل، هل يعني هذا شيئًا بالنسبة لك؟".

"لا... أنا...". هز رأسه وقد ارتسم على وجهه تعبير كمن رأى هيئة مخيفة تحلق من أمام النافذة. "كنا نحقق في قضية هناك ذات مرة، ولدي ذكريات سيئة عن ذلك المكان. المعذرة لمقاطعتي حكايتك".

تحفظ سارا كل تقاريرهما عن ظهر قلب، لذا فهي تعرف أنه لم يكتب قط عن ليل. تساءلت عن طبيعة هذه القضية المفقودة، ولمَ أثار الأمر انزعاجه إلى هذا الحد. ولكن في الوقت الحالي لديها الكثير من المخاوف الأخرى لتوليها اهتمامها.

أكملت كريسي وهي تشعر بغصة في حلقها: "قال لي زوجي إن توم العجوز قد عثر عليه، ويجب علينا أن نهرب. توسلت إليه لكي يخبرني بالمزيد، ولكنه لم يقل كلمة أخرى. سافرنا لثلاثة أسابيع لنصل إلى بيتنا الجديد، ولكنه مات بعد يومين". ازدردت لعابها ثم قالت: "عذبه توم العجوز وترك علامته على الجدار، وهكذا عرفنا بالضبط من المسؤول عن موته".

أمسكت سارا بيد كريسي وسألتها: "هل لديك القوة الكافية لإخبار زوجي بهذا؟ قد يكون هذا كافيًا لإقناعه بالعودة إلى باتاڤيا".

قال آرينت: "لن يعود، الحاكم العام يعرف بالفعل ما يمثله هذا الرمز، وأمرني بالتحقيق فيه، ولكنه لن يأمر بأن تعود السفينة أدراجها".

صاحت سارا وهي تنظر إلى ليا في قلق: "هذا الأحمق العنيد اللعين".

قال ڤوس موبخًا: "ليس من اللائق أن تتحدثي عن زوجك بهذه الطريقة". فنظرت إليه كريسي نظرة مليئة بالكراهية.

لوَّح الحاجب بيديه وهو يتحدث بسرعة لكي يخفي حرجه: "إن كنا نواجه الشيطان فأقترح أن نستشير البريديكانت، إنه بالتأكيد على دراية بهذا الأمر أكثر منا".

سألته ليا: "هل تؤمن حقًّا بالشياطين يا ڤوس؟ لم أكن لأعتقد هذا، فأنت تبدو...".

تبرعت كريسي قائلة: "متبلد المشاعر؟".

قالت ليا موضحة: "عقلاني للغاية".

قال: "لقد رأيت الشياطين بعينيَّ، فقد هاجمت الشياطين قريتي عندما كنت صغيرًا، ولم ينجُ من هذا الهجوم سوى عدد قليل من البيوت".

قالت سارا مخاطبة آرينت: "سأتحدث إلى البريديكانت إن شئتَ، فأنا أحتاج إلى جلسة اعتراف على أي حال".

قال آرينت: "هذا سيساعدنا كثيرًا، شكرًا لكِ. سأواصل تقصي الحقائق عن بوسي، إن كان سيده حقًّا هو توم العجوز، فقد يعرف أحد أصدقائه كيف التقيا".

أجابته سارا: "قد يكون لديَّ بعض المعلومات المفيدة بشأن هذا الأمر أيضًا". ثم أخبرته بما عرفته عن النجار هذا الصباح، بما في ذلك كلماته الأخيرة قبل قطع لسانه.

عندما انتهت من حديثها قال آرينت متعجبًا: "لاكساجار؟ أنا أعرف بعض اللغات، ولكني لم أسمع من قبل كلمة كهذه".

وافقته سارا قائلة: "ولا أنا". ثم تشبثت بالسور عندما ارتطمت السفينة بموجة كبيرة. "الشاب الذي تحدثت معه يعتقد أنه كان نورنيًّا،

والشخص الوحيد الذي يتحدث هذه اللغة على متن السفينة هو عريف الملاحين يوهانس ڤيك، وهو المسؤول عن قطع لسان بوسي، لذا لا أعتقد أنه سيجيب عن أسئلتنا طواعية".

وافقها آرينت قائلًا: "لن يفعل هذا، لقد التقيت به بالفعل".

"لقد أرسلت دوروثيا لكي تسأل الركاب في السطح السفلي، فقط تحسبًا لأن يكون أي منهم قادرًا على مساعدتنا".

نظر آرينت إليها في إعجاب، فأجابته بابتسامة شاحبة مرتبكة.

تدخل ڤوس قائلًا بنبرته الرتيبة المعتادة: "إن كان توم العجوز يتغذى على المعاناة فلمَ غادر باتاڤيا؟ هناك آلاف الأشخاص في المدينة وبضع مئات فقط على متن ساردام، لمَ يترك الوليمة من أجل وجبة خفيفة؟".

قالت كريسي بصوت مرتجف: "إنه يسعى ورائي، ألا تفهمون هذا؟ لقد حرر بيتر أتباعه ونفاه من الأقاليم. لقد ذبحه توم العجوز انتقامًا منه، ولكني هربت قبل أن ينهي عمله. لقد واصلت الترحال لكيلا يعثر عليَّ قط، ولكني ظننت أنني سأكون آمنة في هذا المكان البعيد كل البعد عن الأقاليم. لقد تهاونت في الأمر، ولكنه قد جاء من أجل بقية عائلته". ثم نظرت في يأس إلى سارا وقالت: "إنه هنا من أجلي".

١٦

مع اقتراب النهار من نهايته، راح البحارة يغنون ويرقصون ويعزفون بالآلات الوترية، ومن آن لآخر يسرع أحدهم لتلبية أمر قد جاء بصوت عالٍ من السطح العلوي. عاليًا فوق الأشرعة راحوا يضحكون على النكات البذيئة ويوجهون الإهانات لمن هم بالأسفل. كانوا صاخبين حتى إن صمتهم المفاجئ كان أعلى من دوي البرق.

لقد خطا آرينت متجاوزًا الصاري الرئيسي. بالأعلى من السطح العلوي راح القبطان كراوڤلز يسب بصوت خافت ويفكر في ندائه ليحذره، ثم أدرك على الفور أن هذا لن يكون مجديًا، فرغم أنه لم يعرف آرينت هايز إلا لوقت قصير قد أدرك أنه يذهب إلى حيث يشاء.

توقف البحارة على الفور في موضعهم يراقبون مروره. بمجرد أن تخرج السفينة إلى البحر يصير كل شيء قبل الصاري الرئيسي ملكًا لهم، أي ركاب يغامرون بالمجيء إلى النصف الخاص بهم من سفينة ساردام يكونون قد سلموا أنفسهم للعذاب الذي سيبتكره البحارة، هكذا كان الحال دومًا، ولكن آرينت لم يُظهر أي قلق، ومع ذلك لم يتحرك أحد. نظر إليه بعض أفراد الطاقم أثناء مروره وهم يفكرون في سرقته أو تخويفه، ولكن حجمه نحى جانبًا أي أفكار عدوانية. تراجعوا عائدين إلى مهامهم تاركين آرينت يصعد درجات السلم إلى الجزء العلوي من مقدمة السفينة.

كان الصاري الأمامي يعلو من فوقه، والأشرعة تلقي بظلالها على كل شيء. كان الجزء الأمامي المدبب للسفينة يمتد فوق البحر، من فوقه تمثال على هيئة أسد ذهبي يبدو وكأنه يقفز من موجة إلى أخرى.

أحس للحظة أن وهج الشمس البرتقالية يعمي بصره، فقد كان ضوءها يسقط على الأشرعة البيضاء للأسطول فتبدو وكأنما تشتعل بالنيران.

رمش بعينيه عندما سمع صوت هتافات، ثم لكمات مبللة تشي بقتال بالأيدي. نظر ناحية حشد من البحارة والفرسان، ثم رأى جسدين عاريي الجذع يدور أحدهما حول الآخر. كانا مصابين بالكدمات وينزفان الدماء ويضربان بلكمات جامحة متعبة. معظم اللكمات لم تكن تصيب هدفها، سيكون الخاسر أول من يسقط منهما بسبب الإرهاق.

راح آرينت ينظر من فوق رؤوس الحشد بحثًا عن إيزاك لارم.

كان مساعد القبطان يجلس على مسافة غير بعيدة فوق السور المطل على مقدمة السفينة، وساقاه القصيرتان تتأرجحان بينما يشذب قطعة من الخشب باستخدام سكينه.

من آن لآخر كان يرفع عينيه لينظر إلى الشجار بعبوس مقاتل محترف يشاهد قتالًا غير احترافي تمامًا.

ما إن قطع آرينت خطوتين حتى هز لارم رأسه وقال محذرًا دون أن يتوقف عن تشذيب قطعة الخشب: "انصرف".

"أخبرني القبطان أنك قد تعرف شيئًا عن نجار يدعى بوسي، من كانوا أصدقاءَه؟ وما الذي كان يفعله قبل أن ينضم إلى الشركة؟".

قال لارم مرة أخرى: "انصرف".

"لقد رأيتُ رد فعلك في المقصورة الكبرى عندما ذكرت اسم بوسي، لقد جفلت، أنت تعرف شيئًا".

"انصرف".

"ساردام في خطر".

"انصرف".

تردد دوي ضحكات من البحارة المتحلقين، كان القتال قد توقف، وصار الجميع يراقبونه بدلًا من ذلك.

كوَّر آرينت قبضتيه وتسارعت نبضات قلبه، منذ أن كان صبيًّا وهو يكره أن يكون محطَّ الاهتمام، في معظم الأحيان كان يمشي بكتفين متهدلتين وظهر منحنٍ، ولكن حجمه الضخم يجعل من السهل ملاحظته. عندما يكون العصفور موجودًا فلا أحد يولي اهتمامًا لأي شيء آخر.

قال آرينت: "لقد جئت بسلطة الحاكم العام". كره نفسه لأنه اضطر لذكر عمه.

قال لارم وهو ينظر إلى آرينت بابتسامة وحشية: "وأنا جئت بسلطة كوني الرجل الوحيد الذي يمنع هؤلاء الرعاع من ذبحك في الليل".

ضحك البحارة مستهزئين، من الواضح أن هذه معركة أفضل من التي كانوا يشاهدونها.

"نعتقد أن بوسي لديه سيد يُدعى توم العجوز يحاول إغراق هذه السفينة".

قال لارم بحدة: "وأنت تعتقد أنه بحاجة إلى خطة ما بارعة لفعل هذا؟ إن أفضل طريقة لإغراق سفينة هندية هي تركها وشأنها، إن لم تنل منا العواصف فسينال منا القراصنة، وإن لم يكن القراصنة فإنها الأمراض. هذه السفينة ملعونة بمجذوم أو بدونه".

تمتم أفراد الطاقم في موافقة، وقد امتدت أيديهم بشكل غريزي إلى تمائم الحظ. كل تميمة مميزة مثل الشخص الذي يمتلكها. تلفت آرينت حوله فرأى تمثالًا محترقًا وحبلًا مربوطًا بشكل غريب، وخصلة ملتوية من شعر ملطخ بالدماء، وقنينة غريبة بها سائل داكن، وقطعة من الحديد المذاب، وكتلة ملونة من الميكا*، قد احترقت حوافها بفعل اللهب.

كان لارم شيئًا غريبًا، وجه شبق منحوت من الخشب.

قال آرينت بإصرار: "هل ستجيب عن أسئلتي؟".

"لا".

"لماذا؟".

أجابه لارم: "لأنني لست مضطرًّا لهذا". ثم انتزع بعنف كتلة من القطعة الخشبية التي يمسك بها وألقى بها في المحيط.

انتظر حتى هدأت الضحكات، ثم أشار ناحية المقاتلين الداميين بطرف سكينه وقال: "يجب عليك أن تقاتل".

أجابه آرينت وقد شعر بالحيرة من التغير المفاجئ في مجرى المحادثة: "ماذا؟".

---

* الميكا: هي مجموعة من المعادن التي تتبلور على هيئة طبقات، وتتميز أحجار الميكا بأشكالها الجميلة وألوانها الجذابة المتنوعة.

قال لارم بينما البحارة يتمتمون في تردد: "أن تقاتل. هذا هو المكان الذي نسوي فيه نزاعاتنا. ولكن يمكنك أن تجني المال إن كانت الاحتمالات في صالحك".

تبادل جميع أفراد الطاقم النظرات، محاولين أن يخمنوا أيهم سيكون أحمق بما يكفي لمقاتلة هذا العملاق. اقترح أحدهم أن يفعلها يوهانس ڤيك، فتمتم الآخرون في تأييد.

قال آرينت في صدق: "أنا لا أقاتل من أجل المتعة". ثم أضاف: "لم أعد أفعل هذا".

انتزع لارم سكينه من كتلة الخشب وقال: "إنهم لا يقاتلون من أجل المتعة، بل يقاتلون من أجل المال، نحن من يحظى بالمتعة".

"لا أفعل هذا أيضًا".

"إذن فقد انتهى بك المطاف في الجانب الخاطئ من السفينة دون سبب لوجودك هنا".

حدق إليه آرينت في عجز، لم يكن لديه أدنى فكرة عما سيقوله لاحقًا، كان سامي ليلاحظ شيئًا أو يتذكر حقيقة مهمة، كان سيجد مفتاح القفل البشري الماثل أمامه. لم يستطع آرينت أن يفعل شيئًا سوى الوقوف هناك وهو يشعر بالحماقة.

قال في محاولة يائسة: "إن كنت لن تجيب عن أسئلتي فعلى الأقل أخبرني كيف أجعل عريف الملاحين يجيب عنها".

ضحك لارم ضحكة شرسة فظيعة ثم قال: "عشاء لطيف وبعض كلمات المجاملة ستفي بالغرض. والآن انصرف لكي ننهي هذا القتال".

أحس آرينت بالهزيمة وهو يوليهم ظهره ويمشي مبتعدًا بينما تلاحقه ضحكات البحارة المستهزئة.

١٧

حل الغسق في شرائط من اللونين الأرجواني والوردي، وظهر عدد قليل من النجوم في السماء. لم يكن هناك أي يابسة على مرمى البصر، بل الماء فحسب.

أمر القبطان كراوڤلز بطي الأشرعة وإنزال المراسي معلنًا انتهاء يومهم الأول من الإبحار. سأله الحاكم العام لمَ لا يمكنهم مواصلة رحلتهم في المساء، لأنه يعرف قباطنة يستمتعون بالإبحار في ضوء القمر.

قال محاولًا أن يستفز كراوڤلز لكي يواصل الإبحار بشكل متهور: "ألست بارعًا بقدر براعتهم؟".

أجاب القبطان بهدوء: "البراعة لا تعني شيئًا إن كنت غير قادر على رؤية ما يحاول إغراقك. إن قلت لي أسماء القباطنة الذين يبحرون أثناء الليل، فسأخبرك بأسماء السفن التي أغرقوها والحمولات التي أضاعوها".

هذا أنهى المناقشة بشكل قاطع. وبعدها راح كراوڤلز يستمع إلى إيزاك لارم وهو يقرع الأجراس الثمانية ليعلن عن بدء نوبة مراقبة جديدة.

يحب كراوڤلز هذا الوقت من المساء عندما تنتهي واجباته تجاه أفراد الطاقم، بينما لم تبدأ بعد واجباته اللعينة تجاه النبلاء. هذا الوقت

ملكه، ساعة واحدة قرب الغسق، يشم فيها رائحة الهواء، ويشعر بالملح على جلده، ويجد بعض البهجة في هذه الحياة التي فُرضت عليه.

توجه ناحية السور وراح يراقب أفراد الطاقم المتعبين، وهم يمررون الأوامر ويفركون تمائمهم ويتلون صلواتهم وينقرون على أي جزء يمكن أن تصل أيديهم إليه، من أجل الحظ الحسن. قال لنفسه إن الخرافات هي الشيء الوحيد الذي يبقي السفينة طافية.

أخرج من جيبه القرص المعدني الذي أعطاه لآرينت. لقد أعاده إليه ڤوس باكرًا، وقد بدا عليه الانزعاج الواضح لأنه يعامل هدية من الحاكم العام بمثل هذه اللا مبالاة. فرك سطحها بإبهامه وسبابته، ثم تفحص السماء وعقد حاجبيه في اضطراب.

طوال الساعات الماضية كان يشعر بتلك القشعريرة المألوفة في جلده، التي تخبره بأن هناك عاصفة تجتمع وراء الأفق. صار الهواء يخز الجلد وتغير لون البحر بشكل غير ملحوظ. فتح فمه ليتذوق طعم الهواء، كان الأمر أشبه بلعق قطعة من الحديد قد أُخرجت من قاع البحر.

ستصل إليهم في غضون يوم أو ربما أقل. مر أحد فتيان الخدمة وهو يحمل مشعلًا إلى مؤخرة السفينة، قبل أن يقف على أطراف أصابعه ليشعل المصباح الكبير الموجود هناك.

راحت السفن الأخرى في الأسطول واحدة تلو الأخرى تحذو حذوهم، حتى صار هناك سبعة ألسنة لهب تشتعل في الظلمة اللا نهائية، كشهب تطفو على سطح المحيط.

١٨

كان عشاء هذه الليلة عذابًا بالنسبة لسارا، التي كانت متلهفة لإجراء بعض المحادثات القصيرة مع الركاب.

كان قائد الحرس دريخت قد أمر أحد فرسانه بالتمركز خارج مقصورات الركاب، مما خفف من قلقها بعض الشيء، ولكن كان هناك الكثير لتقلق بشأنه. لم تتمكن دوروثيا بعد من العثور على راكب يعرف معنى لاكساجار، مما يعني أنه ليس هناك من يقدر على ترجمتها سوى يوهانس ڤيك. وبقدر ما رغبت في أن تستدعي عريف الملاحين لاستجوابه، إلا أنها لا تستطيع أن تغامر بأن يعرف زوجها بالأمر. إن استدعاء النجار كان محفوفًا بالمخاطر بما يكفي، وكان لديها عذر وجيه لفعل هذا.

كان الأمر مثيرًا للغيظ.

إنها المرأة النبيلة الأعلى مرتبة على متن السفينة، ومع ذلك لديها حرية أقل من أدنى فتيان الخدمة منزلة.

على الأقل كاد هذا العشاء الطويل أن ينتهي.

لقد انتهوا من تناول الطعام ورُفعت الأطباق وأدوات المائدة باستثناء شمعدان فضي كبير، تتساقط قطرات الشمع من شموعه ويلقي بضوء مخيف على كل وجه. طويت الطاولة مما أفسح

مجالًا للضيوف للتفرق في أرجاء المقصورة الكبرى والانخراط في محادثات عامة ومملة في الغالب.

كانت سارا قد وجدت لنفسها كرسيًّا في زاوية المقصورة، متذرعة بحاجتها إلى بضع دقائق من الراحة للتغلب على صداع قد أصابها. إنها حيلة اعتادت استخدامها في المناسبات الاجتماعية، وعادة ما تمنحها عشرين دقيقة من العزلة بعد أن تتضاءل الموجة الأولى من الأسئلة القلقة للاطمئنان عليها.

بينما تجلس في صمت في الظلال، حاولت أن تفهم هذا الجمع الغريب أمامها. معظمهم كانوا من كبار المسؤولين الذين لم تتعرف عليهم، باستثناء القبطان كراوڤلز، الذي كان متأنقًا في صدرية حمراء بياقة عريضة ناصعة البياض، وأشرطة حريرية معقودة بعناية وأزرار مصقولة تعكس ضوء الشموع، زي مختلف عن الذي كان يرتديه في النهار، ولكنه فخم بنفس القدر.

كان يتحدث إلى ليا، التي انهالت عليه بالأسئلة المتعلقة بالإبحار، في البداية قلقت سارا من أن ابنتها ستكشف عن ذكائها، وغالبًا ما تفعل هذا عندما تكون متحمسة، ولكن ليا كانت تضع أفضل تنكر لها؛ التعبير الخاوي لسيدة نبيلة ساذجة تحاول أن تبهر شخصًا يتودد إليها.

بدا أن كراوڤلز يستمتع بالأمر، بل في الواقع بدا أكثر ارتياحًا مما كان عليه طوال المساء.

قالت لنفسها إنه رجل مثير للاهتمام، عالق في مفترق الطرق ما بين تناقضاته المختلفة، فرغم فخامة ثيابه إلا أنه غليظ القلب، يخاطب النبلاء بكلمات معسولة، ولكنه فظ وسريع الغضب مع كل شخص

آخر. كانت وليمته عامرة، ولكنه لم يأكل سوى أقل القليل، يشرب من زجاجة الجعة الخاصة به بدلًا من النبيذ الذي يقدمه لضيوفه. يشجع الجميع على الانخراط في محادثات من حوله، ولكنه لا يتحدث إلا قليلًا، وينفد صبره عندما يتحدث إليه أي شخص. لم يكن هناك شك في أنه يريد إثارة الإعجاب، وفي الوقت ذاته لا شك في أنه يشعر بعدم الارتياح مع الأشخاص الذين يحاول إثارة إعجابهم.

وقع بصرها على ساندر كيرس، الذي كان قد تنحى جانبًا بالقرب من النوافذ بصحبة إيزابيل، بينما ينظران نظرة ناقدة إلى الضيوف الآخرين.

كان يتجنبها طوال المساء.

في البداية ظنت أنه مجرد رجل انطوائي يحب مشاهدة المحادثات بدلًا من الانخراط فيها، ولكن مع مرور الساعات بدأت تلاحظ نمطًا، لم يكن مهتمًّا بالناس، بل بجدالاتهم، كلما ارتفع صوت مال للإمام في اهتمام وقد انفرجت شفتاه، وبعدها يتجهم في خيبة أمل عندما يتحول الجدال إلى ضحك مبتهج، حينها يتمتم بشيء إلى إيزابيل التي تومئ له بالموافقة.

على حد علم سارا لم تقل حارسته شيئًا طيلة الليل، بل بدت قانعة بالصمت. بالنسبة للبعض -مثل كريسي- فإن الهدوء ينطوي على الكثير من الكتمان، وهو أمر يستدعي التحقق منه.

كانت إيزابيل على النقيض، فعيناها اليقظتان مليئتان بالصراحة، فيعملان بالنيابة عن فمها بالتعبير عن كل لحظة من الشك أو الخوف أو الدهشة.

جاءت ضوضاء من عند المدخل، فخفق قلب سارا وهي تأمل أن ترى وصول آرينت أخيرًا، ولكنه لم يكن سوى المضيف وقد جلب المزيد من النبيذ.

هزت رأسها وقد انزعجت من لهفتها، لقد أرادت أن تعرف ما اكتشفه، ولكن كرسيه بقي شاغرًا، وكذلك كرسي الڤيكونتيسة دالڤين، التي لم تتمكن من الحضور بسبب اعتلال صحتها.

هذا على الأقل منح الضيوف شيئًا للنميمة بشأنه، بعد تبادل الفرضيات حول سبب سجن سامويل بيبس لساعة كاملة انتقلوا إلى مناقشة ثروة دالڤين ونسبها إلا أن كل هذا مجرد تكهنات، لم يلتقِ بها أحد من الموجودين في المقصورة، باستثناء القبطان كراوڤلز الذي تحدث باقتضاب قائلًا إنها امرأة مريضة بسعال يمكنه أن يسقط الأوراق من على الأشجار.

تمتمت سارا وهي تشعر بالحيرة: "دالڤين".

عندما كانت طفلة فُرض عليها أن تحفظ عددًا لا يحصى من أنساب النبلاء، للتيقن من أنها لن تحرج أباها بألا تتعرف على الفور على أحد الغرباء الأثرياء في إحدى الحفلات، ولكنها لم تتعرف قط على اسم دالڤين.

تعالت ضحكات كريسي فوق الثرثرة، لم تكن لتقدر على الاكتفاء بالجلوس في مقصورتها ورثاء حالها. لا يمكنها العيش دون قضاء وقت مبهج، وهذا مفيد، فأعظم هبات كريسي هي قدرتها على إقناع الآخرين أن نهارها كان بائسًا ومقبضًا قبل مجيئهم.

حينها كانت تتحدث مع كبير التجار رينير ڤان شوتن وهي تضع أناملها برفق على ساعده، ويبدو أن قلب كبير التجار قد وقع في أسرها بالحكم على النظرة الحالمة التي ارتسمت على وجهه. لم تستطع أن تفهم سارا سبب اهتمام كريسي به، إن ڤان شوتن مخلوق مثير للغيظ، فدومًا ما يكون ثملًا ومن الواضح أنه غير قادر على الانخراط في محادثة دون أن تقطر كلماته بالحقد، وقد بدا ملحوظًا أن الجميع في هذه الأمسية قد أبقوا طاولة بينهم وبينه.

كان كورنليوس ڤوس قد انتحى جانبًا كعادته، شابكًا يديه وراء ظهره يراقب كريسي بتعبير الشوق المتألم، الذي لطالما ظهر على وجهه كلما كان بصحبتها.

امتزجت الشفقة بالغيظ في قلب سارا.

إن ڤوس رجل صالح، ويتمتع بقدر كبير من النفوذ، ومن المفترض أنه يتمتع بالثروة، هناك الكثير من النساء اللاتي سيكن سعيدات لمشاركته حياته، ولكنه يطارد الخيار الوحيد المستحيل.

كريسي ينس هي أكثر امرأة مرغوبة في الشركة.

بالإضافة إلى جمالها فإنها عازفة بارعة، ومتحدثة لبقة، وباعترافها الخاص فإنها بارعة في الفراش. إن امرأة كهذه تكون نادرة وقيمتها كبيرة للغاية.

زوجها الأول كان تاجرًا ثريًّا بشكل مذهل، وزوجها الثاني كان أهم صائد ساحرات في العالم، لقد استدعى يان كريسي إلى باتاڤيا لتكون عشيقته بعد أن سمع عن جريمة قتل صائد الساحرات الغامضة، والآن تبحر عائدة لتتزوج دوقًا في البلاط الفرنسي.

ربما كان من الأسهل على ڤوس الساذج المسكين المتألم في حبه أن يعشق القمر ذاته.

عندما لمحت كريسي سارا في كرسيها استأذنت من مرافقها للحظة وأسرعت إليها. قالت بمرح وعيناها تدمعان من النبيذ: "يا لها من صحبة رائعة. لمَ تتوارين في الظلال؟".

"أنا لست متوارية".

"غارقة في الأفكار الكئيبة؟".

"كريسي...".

"اذهبي وابحثي عنه".

"من؟".

قالت في سخط: "آرينت هايز، إنه الشخص الوحيد الذي تريدين التحدث معه، اذهبي وابحثي عنه. يمكنك أن تنظري في عينيه وتتحدثي ببراءة عن المجذومين والشياطين والأشياء الفظيعة الأخرى، سيكون من دواعي سروري أن أعرف أنكما تقاتلان ذلك الشر معًا".

احمر وجه سارا خجلًا، فضحكت كريسي ضحكة ماكرة، ثم أمسكت بيديها ورفعتها من على الكرسي قبل أن تقول: "عرفت أنه يقيم في جناح تحت السطح الأوسط، هذا على مسافة جدارين من الجانب الآخر من حجرة الدفة".

حاولت سارا أن تعترض قائلة: "لا يمكنني الذهاب، أنا أعظم النبلاء منزلة هنا".

قالت كريسي وهي تقلد نبرتها المتعالية: "بالطبع يمكنك هذا، فبصفتك أعلى النبلاء منزلة يمكنك أن تفعلي ما يحلو لكِ، كما أن يان في الفراش، لذا فليس عليكِ أن تقلقي حيال الأمر. سأخبر الجميع أنك شعرت بالدوار".

لمست سارا وجنة صديقتها في امتنان وقالت: "أنتِ رائعة".

"أعرف".

قالت وهي تخطو ناحية الباب: "فلتبقِ ليا بعيدة عن كبير التجار، إنه يصيبني بالغثيان".

"بحقك، فلتتركي رينير وشأنه، إنه يستحق الشفقة لا الازدراء".

"الشفقة؟".

"ألا يمكنك أن تري الألم الذي يخفق بدلًا من قلبه؟ إنه مجروح، لذا يجرح الآخرين". ثم فكرت في الأمر للحظة قبل أن تضيف: "كما أنه سكير أكثر من ملك في ليلة زفافه، لا يمكنه حمل نفسه والعودة إلى فراشه، ناهيك بفراش ليا، ولكني سأفعل ما تريدين". ثم توقعت سؤال سارا التالي وقالت: "وسأحرص على أن يصحبنا شخص جدير بالثقة ليعيد كلتينا بأمان. والآن اذهبي وابحثي عن رجلك الهمجي".

كانت سارا قد انتقلت من ضوء الشموع الساطع في المقصورة الكبرى إلى الظلام في حجرة الدفة، عندما سمعت صوت آلة كمان تُعزف من بعيد ويصحبها غناء خفيض بصوت أجش. في البداية ظنت أن الصوت يأتي من مقدمة السفينة ثم أدركت أنه يأتي من السطح العلوي.

كان القبطان قد حذر النسوة من التجول بمفردهن في الليل، ولكنها مصابة بداء الفضول.

أحكمت غلق عباءتها ثم صعدت درجات السلم ومشت مباشرة ناحية الأغنية، كان آرينت يعزف الكمان إلى جانب ضوء شمعة موضوعة على برميل، عيناه مغلقتان وأصابعه الكبيرة تتحرك ببراعة على الأوتار، بينما قائد الحرس دريخت يجلس على الناحية المقابلة ويغني أغنية حزينة. كان منحنيًا للأمام ويداه المشبوكتان تتدليان بين ركبتيه وسيفه المهيب موضوع عند قدميه. كان هناك جرتان فارغتان من النبيذ موضوعتان على الأرضية، وثالثة فوق البرميل، مما يشي أنهما هنا منذ بعض الوقت.

عندما رأى دريخت سارا قفز واقفًا على قدميه ليسقط كرسيه إلى الوراء.

توقفت الموسيقى على الفور، ونظر آرينت إلى دريخت ثم نظر وراءه ناحية سارا. ابتسم ابتسامة مبتهجة صادقة فبادلته الابتسام ودُهشت من مدى سرورها لرؤيته.

قال دريخت متلعثمًا: "سيدتي". كان من الواضح أنه ثمل ويحاول ألا يكون كذلك. "هل تحتاجين إلى مساعدة؟".

قالت وهي تصفق بيديها في بهجة: "لم أكن أعرف أنك قادر على الغناء يا قائد الحرس، لقد حميت عائلتي لسنوات طويلة، فكيف لم أعرف بهذا؟".

"القلعة مكان كبير يا سيدتي، وأنا أغني بهدوء شديد".

ضحكت لدعابته قبل أن تولي اهتمامها إلى آرينت وتقول: "وماذا عنك أيها الملازم هايز؟".

قال مصححًا برفق: "اسمي آرينت فحسب".

"أنت تعزف بشكل جميل".

قال وهو يربت على آلة الكمان: "الشيء الوحيد المفيد الذي اغتنمته من الحرب، هذا بالإضافة إلى وصفة ممتازة لحساء عش الغراب".

تساءل دريخت: "هل أنت عائدة إلى مهجعك يا سيدتي؟ هل يمكنني أن أصحبك إلى هناك؟".

قالت: "بل في الواقع جئت لأتحدث إلى آرينت".

قال آرينت وهو يدفع كرسيًّا بقدمه ناحيتها: "إذن من الأفضل أن تجلسي".

قال دريخت بإخلاص: "دعيني أساعدك يا سيدتي".

"هذا لطف منك يا قائد الحرس، ولكن الجلوس هو أحد الأشياء القليلة المسموح لي بفعلها بنفسي، لذا أنا بارعة إلى حد معقول في هذا الأمر".

نظرت سارا إلى الكرسي الخفيض وهي تلعن كبرياءها في قرارة نفسها. كانت تنورتها الداخلية مصنوعة من الديباج الأحمر، ومطعمة باللآلئ، وصدريتها مغطاة بشلال من الدانتيل. كان زيها بأسره يكاد أن يكون ثقيلًا كحلة من الدروع، لذا بصعوبة شديدة أنزلت نفسها على الكرسي ليغمرها ضوء الشمعة الذهبي.

ما بين الأمواج والنجوم المتلألئة بدت الثرثرة ذات الطابع الرسمي المنبعثة من المقصورة الكبرى وكأنها حياة بعيدة للغاية.

سألها آرينت وهو يمرر لها جرة: "أتريدين شرابًا؟".

قال دريخت: "سأجد لك قدحًا".

قالت بلطف: "ستفي الجرة بالغرض، فقط لا تخبر زوجي".

ثم رفعتها إلى شفتيها واستعدت لتذوق أيًّا ما كان ماء المستنقعات الكريه الذي يشربه الجنود، ولكن المذاق كان رائعًا.

قال آرينت مفسرًا وهو يحرك أصابعه على أوتار كمانه ببراعة: "إنها من مخزون سامي، إن كنتِ تريدين تجربة شراب الجنود الحقيقي فلتتنظري حتى الأسبوع القادم عندما ينفد منا هذا".

ابتسم مرة أخرى، وأدركت أن الابتسامة قد بدأت من عينيه، إنهما خضراوان بمركزين ذهبيين، ورقيقتان للغاية مقارنة بالوجه الهمجي المحيط بهما.

قالت سارا متسائلة وهي تعيد إليه الجرة: "هل أخبرت قائد الحرس بشأن توم العجوز؟".

قال دريخت: "ليس هناك حاجة إلى هذا، لقد تحدث إليَّ الحاكم العام بالفعل، وأخبرني عن الرمز الذي كان على الشراع وكيف اجتاح الأقاليم قبل ثلاثين عامًا. لا يمكنني القول إنني أصدق أيًّا من هذا، ولكنه خائف، لقد طلب مني أن اصطحب بنفسي أي شخص يغادر مقصورته".

قالت سارا بسخرية: "يا لحسن حظك".

قال آرينت وهو يقرب الكمان من أذنه ويضبط أحد الأوتار: "ألا تؤمن بالشياطين يا دريخت؟".

قال وهو يخرج عثة محتجزة في لحيته ويسحقها بأصابعه: "لا أرى فائدة منهم، فأنا لم أرَ من قبل شيطانًا يقف على جثة طفل ميت، ولم أرَ شيطانًا يغتصب امرأة ويشعل النار في كوخ بينما لا يزال هناك عائلة بالداخل. لقد خضتَ حروبًا من قبل يا هايز، وتعرف ما يصير عليه الرجال عندما لا يكون هناك من يأمرهم بأن يكونوا أشخاصًا أفضل. إنهم ليسوا بحاجة إلى أن يهمس توم العجوز بالاقتراحات في آذانهم، إن الشر ينبع من هنا". ضرب بقبضته على صدره. "يولد فينا، هذا ما نحن عليه عندما تنزع الثياب الرسمية والرتب والنظام".

لم تكن سارا بحاجة لأن تخوض حربًا لكي تتعلم هذا الدرس، فقد قضت حياتها بأسرها تدرس الرجال، ليس بدافع الحب والإعجاب كما يليق بامرأة، بل بدافع الخوف. الرجال خطيرون، فهم متقلبو المزاج وغالبًا ما يلجؤون للعنف عندما يشعرون بخيبة الأمل، وهم كثيرًا ما يخيب أملهم. معظم الأوقات بسبب نواقصهم، رغم أن الأحمق فقط هو من سيخبرهم بهذا.

قال آرينت مفكرًا: "إن كنت لا تعتقد أن الشيطان يتربص بنا في هذه السفينة، فمن المسؤول عن تلك العلامة على الشراع؟".

"أتعتقد أن أحد أفراد الطاقم قد سمع بالحكاية ويمارس حيلة على أقرانه؟".

لوح دريخت بيده ناحية خصر السفينة، وعلى ضوء لسان اللهب بالمصباح استطاعت سارا أن ترى أفراد الطاقم يغنون ويرقصون

على أنغام المزامير والطبول. أحست سارا بقشعريرة تزحف على جلدها، مع صوت الصرخات والضحك، ونوبات العنف المفاجئة. "صدقًا لا يوجد شيء سوى الحقد والملل من العمل على متن هذه السفينة".

أجابه آرينت وهو يرتشف جرعة من النبيذ: "أنا لا أختلف معك في هذا، ولكن فرضيتك تترك الكثير من الأسئلة التي لن يكون سامي مسرورًا بدون الإجابة عليها، على سبيل المثال كيف صار النجار الأعرج مجذومًا وكيف صعد أعلى كومة من الصناديق لينذر بهلاك ساردام من دون لسان".

قالت سارا: "لم يكن مجذومًا، على الأقل ليس من الناحية المتعارف عليها، الجذام شيءٌ فظيعٌ، ويزداد سوءًا مع مرور السنوات، إن كان مصابًا بالجذام وهو على متن ساردام كان أفراد الطاقم سيعرفون بهذا، وإن كان قد أصيب به في باتاڤيا فما كانت حالته لتتدهور بما يكفي لأن يحتاج إلى تلك الضمادات".

سألها آرينت: "هل تعتقدين أنه كان تنكرًا؟".

قال دريخت: "أو زيًّا موحدًا، كل جيش يكون له زي موحد".

قالت سارا وهي تجذب لؤلؤة في فستانها: "على الأرجح يوهانس ڤيك يعرف، لا شك أنه قطع لسان بوسي ليمنعه من البوح بشيء ما، وأغلب الظن أنه يعرف ما هي الخدمات التي طلبت من بوسي نظير الثروات التي وُعد بها، ومن المؤكد أنه يعرف ما تعنيه كلمة لاكساجار".

سألها دريخت: "لاكساجار؟ هل هذا اسم؟".

هزت سارا كتفيها فأصدر فستانها خشخشة ثم قالت: "ربما، أو قد يكون مكانًا. ولكن من الواضح أنها كلمة نورنية".

"سأسأل فرساني، ربما يتعرف أحدهم على الكلمة. إن لدينا هنا أشخاصًا من كل مكان". ثم أنهى نبيذه وقال: "ماذا عنك يا آرينت؟ هل تؤمن أن معنا شيطانًا على متن السفينة؟".

قال آرينت ولهب الشمعة ينعكس في عينيه: "لقد رأيت سامي يفند الكثير من حكايات الأشباح، مما يجعلني لا أؤمن أن لدينا واحدًا هنا".

تثاءب دريخت ثم اعتدل واقفًا بجسد متعب وقال: "من الأفضل أن أعطي الفارس الواقف على باب الحاكم العام استراحة من واجبه". ثم مد ذراعه إلى سارا وقال: "هل يمكنني أن أصطحبك إلى مقصورتك يا سيدتي؟".

رفضت عرضه قائلة: "أود البقاء في الهواء الطلق لبعض الوقت، وأنا متيقنة من أن آرينت سيصطحبني عندما أكون مستعدة للمغادرة".

رمقه دريخت بنظرة متسائلة فأومأ له برأسه.

قال في تردد: "حسنًا، إذن طاب مساؤك يا سيدتي، طاب مساؤك يا آرينت".

أومأ له آرينت برأسه ولوحت له سارا بيدها، ثم نظر إليه كلاهما في تساؤل عندما توقف في منتصف الدرج.

قالت سارا: "من منا الذي لا يثق فيه، أنا أم أنت؟".

قال آرينت: "لا يثق فيكِ بالطبع، لقد صرت أنا وياكوبي دريخت أعز صديقين".

قالت: "يمكنني أن أرى هذا. ألم يضع سيفه على صدرك هذا الصباح؟".

قال آرينت بمرح: "وسيفعلها مرة أخرى إن اعترضت طريقه، إنه أكثر رجل بارد الدماء التقيت به في حياتي".

"صداقة غريبة".

قال: "يوم غريب". راح يداعب كمانه، وبدا عليه أنه يتحرق شوقًا للعزف، ثم قال: "هل ترغبين في سماع أغنية؟".

"هل تعرف أغنية (عبر المياه الرقيقة)؟".

قال وهو يعزف النغمات الأولى: "أعرفها".

بعض الأغنيات لا تكون مجرد أغنيات، بل ذكريات تعتصر القلب وتشعل فيه النيران، تجعل المرء يشعر بالحنين إلى الماضي، هذا ما فعلته أغنية المياه الرقيقة بسارا، لقد أعادتها إلى طفولتها، إلى بيت والديها الكبير، وإلى أخواتها، عندما يعود خمستهن إلى البيت مرهقات حتى النخاع ويرتجفن من البرد بعد يوم من امتطاء الخيل، فيتسللن إلى المطبخ ليتناولن الحساء تحت الطاولة مع الكلاب.

قالت لنفسها بحزن إن ابنتها لم تحظَ بتلك البراءة أو بتلك السعادة، لقد سجنها أبوها وراء أسوار القلعة الحجرية، خوفًا من أن يتهمها الناس بأنها ساحرة إن سمح لها بالخروج إلى العالم. بمجرد أن تتحررا منه، تنوي سارا أن تمنح ليا كل تجارب الطفولة التي حرمت منها.

عزف آرينت على الكمان برقة.

سألته: "لمَ لم تأتِ إلى العشاء الليلة؟". وتفاجأت من صراحتها.

نظر إليها آرينت ثم عاد اهتمامه إلى عزفه.

"هل كنتِ ترغبين في أن أكون هناك؟".

عضت شفتها، ولكنها لم تكن قادرة على الإجابة إلا بإيماءة من رأسها.

قال برقة: "إذن فسآتي في الغد".

فكرت في شيء تفعله لكي تبعد تفكيرها عن الأمر، فبدأت تجذب الدبابيس المرصعة من شعرها لتترك خصلاته الحمراء تنسدل بحرية، مما خفف من الضغط على فروة رأسها.

سألها آرينت: "هل هذه الدبابيس مثل الدبوس الذي عرضتِه عليَّ في رصيف الميناء؟".

قالت وهي تضع أحد الدبابيس في ضوء النار: "كان لديَّ ثلاثة عشر منها، فقد كانت هدية زفافي من يان". ثم ابتسمت ابتسامة شاحبة وقالت: "وأخيرًا وجدت فائدة لها بعد خمسة عشر عامًا".

قال: "لا شك أن هذه الدبابيس تساوي ثروة، ولكنك دفعت أحدها ثمن جنازة ستتكلف ثلاثة جيلدرات".

"لم يكن معي ثلاثة جيلدرات".

"ولكن...".

قاطعته وهي لا تزال تحدق إلى الدبوس الذي تحمله في راحة يدها: "لم أرتدِ هذه الدبابيس منذ ليلة زفافي، لقد طلب مني زوجي

أن أرتديها اليوم، لذا أخرجتها من الخزانة هذا الصباح ونفخت عنها الغبار ووضعتها في شعري، الليلة سأعيدها إلى علبتها ولن أرتديها إلا بعد خمسة عشر عامًا أخرى". هزت سارا كتفيها وهي تضع الدبابيس على البرميل بالقرب من الشمعة. "ربما يمكنك أن ترى أن لها قيمة كبيرة، ولكني لا أرى هذا. لا أرى لها قيمة إلا في تسخيرها لغرض ديني ومعاملة التعيسين بتقدير واحترام، حتى لو جاء هذا متأخرًا".

حدق إليها آرينت في إعجاب وقال: "أنتِ تختلفين تمامًا عن النبلاء الآخرين يا سارا".

"آمل هذا. أوه، هذا يذكرني بشيء". ثم أخرجت من كمها قنينة من جرعة النوم التي أعطتها للمجذوم على رصيف الميناء، تلألأ السائل البني اللزج في ضوء الشمعة، ثم قالت وهي تعطيه القنينة: "خذ هذه، كنت أنوي أن أعطيها لك في العشاء، ولكن هذا المكان سيفي بالغرض، إنها من أجل بيبس".

حدق إلى القنينة في عدم فهم، وقدت بدت صغيرة للغاية في راحة يده المليئة بالندوب.

قالت مفسرة: "ستساعده على النوم. إن مقصورتي أشبه بالتابوت، لذا لا يمكنني أن أتخيل مدى الفظاعة التي تبدو عليها زنزانته. قطرة واحدة من هذا ستجعله ينام طيلة النهار أو الليل، قطرتان ستجعلانه ينام حتى نصف اليوم التالي".

"ماذا سيحدث إن تناول ثلاث قطرات؟".

"لن يشعر بالعالم من حوله".

"ثلاث قطرات إذن".

تحولت ضحكتها المبتهجة إلى تثاؤب كتمته على الفور بيدها. أرادت أن تبقى هنا طيلة الليل، تتحدث وتُصغي إليه وهو يعزف، وهذا وحده سبب كافٍ للمغادرة. قالت: "يجب عليَّ أن أخلد إلى النوم". انزعجت من نبرتها الرسمية للغاية.

أسند آرينت كمانه بحرص إلى البرميل وقال: "سأصطحبك".

"لا حاجة إلى هذا".

قال: "لقد وعدت دريخت، كما أن هذا سيجعلني أشعر بالراحة، وأيضًا لا أعتقد أن بإمكانك النهوض دون مساعدة، هذا الفستان يبدو ثقيلًا".

صاحت: "إنه ثقيل بالفعل! لمَ لا يفكر الخياطون في هذه الأشياء. وأيضًا رغم كل هذا التطريز لا يوجد جيوب، ولا حتى جيب واحد".

قال آرينت وهو يمسك بيديها ليساعدها على الوقوف: "هذه كارثة". كانت بشرته خشنة، وقد احمر وجهها خجلًا من لمسته فأسرعت لتسبقه لتخفي هذا.

أخذ آرينت دبابيس الشعر التي انتزعتها من على البرميل ولحق بها.

كانت ليلة جميلة مليئة بالنجوم، التي انعكست على سطح الماء الساكن، ومن بين النجوم كانت مصابيح الأسطول السبعة ونيرانها الذهبية تبدو مريحة بشكل غريب وسط الظلمة.

تمهلا عند السلم ليستمتعا بالمشهد.

قال آرينت وهو ينظر إليها: "أنتِ لم تجيبي عن سؤال دريخت عما إن كنتِ تؤمنين بالشياطين".

قالت وهي تبتسم ابتسامة طفيفة: "إن كنتِ تنصت بعناية للاحظت أنه لم يسألني أنا".

"حسنًا أنا أسألك، هل تؤمنين أن معنا شيطانًا على متن هذه السفينة؟".

قالت ويداها تتشبثان بالسور: "أجل".

أثناء نشأتها تعلمت أن الشياطين تمشي على الأرض لتعذب المخطئين. ألسنة مشقوقة تنطق بوعود مغرية، ولكنها مجرد خدع، فلا يوجد شيء ينتظرهم في النهاية سوى الجحيم. هؤلاء الذين وثقوا في حب الرب سيميزون هذه الخدع وسيحتمون من الأذى. إنها تؤمن بهذا، كما تؤمن أن هؤلاء الذين يسقطون ضحية شر الشياطين يستحقون هذا بطريقة ما. ولكن هذا لم ينقذ زوج كريسي. إن كان توم العجوز مستعدًّا لإغراق ساردام لإيذاء كريسي فهذا لن ينقذ أي شخص آخر.

أكملت سارا حديثها قائلة: "كانت أمي معالجة، وعادة ما يجعلها هذا تدخل في صراع مع الشياطين، لقد حكت لي حكايات عن أطفال جروا آباءهم إلى الغابات ليذبحوا، وأخبرتني عن البالغين الذين استحوذت عليهم الشياطين، فتمزق جلدهم لأن أجسادهم لم تسع الشياطين. نحن فئران بالنسبة لهم، فيلعبون بنا ويمزقوننا. تلك العلامة على الشراع، هكذا يبدأ الأمر، إنه يقصد إخافتنا لأن الخائفين سيفعلون أي شيء للتخلص من خوفهم، وسيفعلون هذا لأي شخص تقريبًا".

تمتم آرينت بالموافقة قبل أن يغرق في أفكاره الخاصة. نظرت إليه سارا بخجل من طرف عينيها، من النادر أن تتحدث إلى أي شخص

بحرية عدا كريسي وليا، وكانت مدهوشة -ومسرورة- لأنه راح يفكر بعمق في قالته. ظلا واقفين جنبًا إلى جنب لبضع لحظات في صمت وهما ينظران بإعجاب إلى جمال الليل، قبل أن يستأنفا سيرهما.

كان إيجرت -الفارس الذي كاد آرينت أن يقطع عنقه في ظهيرة هذا اليوم- واقفًا يحرس المدخل المؤدي إلى مقصورات الركاب، فحدق إلى المرتزق وهو يتحسس عنقه بحركة لا إرادية.

قال آرينت وهو يتوقف أمامه: "ما كان يجب عليَّ أن أقيد حركتك بتلك الطريقة، كنت مخطئًا وأعتذر لك عن هذا الأمر".

أمالت سارا رأسها في إعجاب، لم تسمع الكثير من الاعتذارات في حياتها، وبالتأكيد ليس من شخص غير مضطر للاعتذار.

كان التعبير المرتسم على إيجرت يشي بوضوح أنه يعتقد أن الأمر مجرد خدعة.

قال في توتر وهو يصافح يد آرينت الممدودة: "لا عليك".

أبعد رأسه قليلًا وقد تأهب خشية أن يتعرض للهجوم، ولكن المرتزق ابتسم له بود ثم لحق بسارا عبر الباب الأحمر تاركًا إيجرت يرمش بعينيه في حيرة.

اصطحب آرينت سارا قليلًا عبر الممر، ولكن ليس حتى بابها.

أحست بالامتنان لهذا، فهذه الخطوات الأخيرة كانت ستشي بحميمية تحاول جاهدة أن تتجنبها. لقد أمضت وحدها أمسية في صحبته، وبدأت بالفعل تشعر بمشاعر غريبة متشابكة تعتصر قلبها.

عاهدت نفسها أنها ستقطع هذه التشابكات في الأيام التالية، إن لديها هدفًا على متن ساردام ولن تتنازل عنه من أجل افتتان طفولي، مهما كانت البهجة التي انتابتها بصحبته الليلة.

قال آرينت وهو يعيد إليها دبابيسها: "طابت ليلتك".

أجابته سارا: "طابت ليلتك".

من الواضح أنه أراد أن يقول شيئًا آخر، ولكنه في النهاية أومأ لها برأسه واستدار عائدًا عبر الممر، بينما جسده الضخم يحجب عنها رؤية ما بالخارج.

راقبته سارا وهو يبتعد، ثم فتحت باب مقصورتها... وصرخت.

كان هناك من يحدق إليها من الكوة، مغطى بنفس الضمادات الدامية التي تذكر أنها كانت تغلفه على رصيف الميناء... إنه المجذوم.

١٩

"أعصاب متوترة؟". كررت سارا ما قاله رينير ڤان شوتن وهي تنظر إليه بحدة.

كان ڤان شوتن والقبطان كراوڤلز قدا جاءا مسرعين إلى المقصورة بعد أن سمعها صرختها، ليجدا كريسي وليا تهدئان من روعها. كان آرينت هو أول من وصل، ولكنه مد رأسه عبر الكوة ثم أسرع صاعدًا إلى السطح على أمل أن يلمح المجذوم، وقد أخذ الفارس الذي يحرس المقصورات معه.

لم يتوقف جسد سارا عن الارتجاف، في البداية كان من الخوف، ولكنه الآن بعد مجيء ڤان شوتن صار من الغضب.

تدخل كراوڤلز قائلًا بنبرة مهادنة: "لقد كان يومًا شاقًّا، ولن يلومك أحد لأن عينيك متعبتان يا سيدتي".

قالت في عدم تصديق: "هل تعتقد أنني تخيلت الأمر؟". لم يرَ أي شخص آخر المجذوم، حتى آرينت كان أبطأ من اللازم، لقد أسرع المجذوم مبتعدًا عندما صرخت، مما أدى لإخافة الحيوانات الموجودة في الحظائر من فوقهم، فأحدثت جلبة كبيرة.

"بالطبع لا يا سيدتي، أنا فقط أعتقد أن الأمر قد اختلط عليك عندما رأيتِ...". ثم أحنى رأسه قليلًا ليضع عينيه في مستوى بصر سارا وحدق عبر الكوة. "القمر!". قالها بانتصار وقد رآه بالخارج.

سألته سارا وقد استشاطت غضبًا: "هل يغلف القمر نفسه بضمادات دامية؟ من الغريب أنني لم ألحظ هذا من قبل". ثم صرخت: "أنا أعرف الفارق بين وجه شخص والقمر". شعرت بغضب شديد لأنها مضطرة للدفاع عن نفسها تجاه تهمة سخيفة، لو ظهر المجذوم في كوة مقصورة زوجها لكانت ساردام قد استدارت بالفعل عائدة إلى باتاڤيا.

"الشيء الوحيد الموجود بالخارج هو البحر". قالها ڤان شوتن متذمرًا، وكانت رائحة أنفاسه كريهة إلى درجة جعلت عينيها تترقرقان بالدموع. "لا توجد حافة للوقوف عليها، ولا طريقة للتسلق من مؤخرة السفينة".

برفق أحاطت كريسي سارا بذراعها وقالت بنبرة مواسية: "اهدئي يا عزيزتي".

أخذت سارا نفسًا عميقًا.

لم يكن من اللائق أن تصرخ في رجل على الملأ، وخصوصًا أحد المسؤولين رفيعي المستوى في الشركة. إن الاحترام هو شيء من المفترض أن ترتديه كل صباح إلى جانب قبعتها وصدريتها.

قال كراوڤلز: "أرجوك افهمي يا سيدتي، إن السفن الهندية تبحر على الخرافات بقدر ما تبحر على الرياح والأمواج، لن تجدي رجلًا على متن السفينة ليس لديه جزء محدد من هيكل السفينة يقبله من أجل الحظ الحسن، أو تميمة يقسم أنها قد أنقذته من كارثة من في رحلته الأخيرة. إن انتشر خبر بأنك قد رأيتِ مجذومًا -سواء كان موجودًا أم لا- فإن هؤلاء الرجال سيصنعونه. كل طائر ميت يرتطم بالصاري

وكل ذراع مكسورة وكل دم يسيل على مسمار معووج، سيضعونه في كومة واحدة ويزعمون أنه عمل شيءٍ خبيث. وفجأة ستجدين البحارة يُذبحون لأنهم كانوا يثرثرون في نومهم وبدا الأمر شيطانيًّا".

اندفعت دوروثيا إلى المقصورة وهي تحمل قدحًا من النبيذ المتبل من أجل سيدتها. كانت قد هبطت إلى مطبخ السفينة لكي تجلبه، حاولت سارا أن تثنيها عن هذا، ولكن دوروثيا تؤمن بأن النبيذ المتبل هو أفضل شيء من أجل الصدمات السيئة، ولن يثنيها شيء عن عزمها.

قال لها ڤان شوتن آمرًا: "أيًّا كان ما تعتقدين أنكِ قد رأيته فلتبقيه داخل هذه المقصورة".

أعطت دوروثيا قدح النبيذ المتبل لسارا ثم حدجت ڤان شوتن بنظرة نارية وقالت محذرة: "الزم حدودك أيها التاجر، أنت تخاطب سيدة نبيلة. تعرف سيدتي ما رأته، لمَ تعتقد أنك تعرف هذا أكثر منها؟".

نظر إليها ڤان شوتن، وبدا من خلال التعبير المرتسم على وجهه أنه يعتقد أن الانغماس في هراء النبلاء المدللين هو أمر غير محتمل بما فيه الكفاية، دون الحاجة إلى أن يقلل من شأنه خادمة وقحة.

قال وهو يشير إليها بإصبعه: "اسمعيني...".

قاطعته سارا وهي تخطو بينهما وتغرس إصبعها في صدره: "لا! اسمعني أنت يا كبير التجار. لقد هدد بوسي ساردام في باتاڤيا، وظهر ذلك الرمز الغريب على الشراع، والآن يطل بوسي من الكوة. شيء ما يحدث على متن هذه السفينة، ويجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد".

قال ڤان شوتن بحدة وهو يعض على نواجذه: "إن كان الشيطان يريد أن يبحر على متن ساردام فسيكون عليه أن يشتري تذكرة مثل أي شخص آخر. فلتتحدثي مع زوجك، إن طلب مني التحقيق في الأمر فسأفعل هذا، وحتى ذلك الحين لدي مشكلات حقيقية يجب أن أوليها اهتمامي".

ثم اندفع خارجًا من المقصورة، فأحنى كراوڤلز رأسه كما تقتضي اللياقة قبل أن يلحق به.

حاولت سارا أن تلحق بهما، ولكن ليا وكريسي منعاها من هذا.

نصحتها كريسي قائلة: "لن يجدي هذا نفعًا، الغضب يجعل الرجل الصالح عنيدًا، والرجل العنيد مثيرًا للشفقة، لن يصغيا إليكِ".

أحست سارا باليأس، ثم حدقت إلى وجه ليا القلق، إن واجبها الوحيد على متن هذه السفينة هو أن تحمي ابنتها، ولكن لا أحد يريد أن يصغي إليها. يبدو أنهم عاقدو العزم على الإبحار إلى المياه المظلمة تلك التي تنتظرهم أيًا ما كانت.

قالت كريسي وهي تلقي بجسدها على الكرسي وتضع وجهها بين يديها: "أعتذر عن هذا".

قالت سارا في حيرة: "هذا لم يكن خطأك".

"كان المجذوم يبحث عني يا سارا، ألم تفهمي هذا؟ لا شك أن توم العجوز قد أرسله".

تعالى صوت ثلاث طرقات ثقيلة جعلت إطار الباب يرتجف.

لم تكن بحاجة للالتفات لتعرف أنه آرينت، لا أحد سواه يمتلك يدين كالمرزبة.

سألته سارا: "هل وجدت شيئًا".

قال وهو لا يزال واقفًا عند الممر خجلًا من أن يدخل: "لم أرَ أدنى أثر له، لقد فتشت جميع الأسطح المكشوفة".

"الأسطح المكشوفة؟".

"تلك التي تصل إليها أشعة الشمس، لن يجد المجذوم وقتًا للنزول إلى باطن السفينة". ثم مد لها بخنجر موضوع في غمد وقال: "إن ظهر مرة أخرى فاطعنيه بهذا في وجهه".

قبلت الهدية بامتنان وراحت تزنها في يدها.

قالت: "أقسم لك أنني رأيته".

"لهذا أعطيتك خنجري".

"لقد كان هو، كان بوسي. أنا واثقة من هذا".

أومأ آرينت برأسه.

قالت وهي تسمح لخوفها أن يبدو عليها أخيرًا: "لقد شاهدناه يموت. كيف يُعقل هذا؟".

هز آرينت كتفيه وقال: "لقد حل سامي ذات يوم قضية حيث كان هناك بنَّاء طلبت منه زوجته الميتة أن يبني لها كنيسة. كما حقق في قضية سقط فيها أخوان صريعان بقلبين مكسورين في نفس الوقت بالضبط، رغم أن أيًّا منهما لم يتحدث إلى الآخر لستة أعوام. لا

يستدعيه أحد إلا عندما تكون المشكلة مستحيلة، ولحسن الحظ أنه على متن السفينة".

"إنه سجين يا آرينت، ما الذي يمكنه أن يفعله".

"سوف ينقذنا".

كان الإيمان مشعًّا في هاتين العينين الرقيقتين، وكان متأججًا للغاية، حتى إنه أحرق أي جدال يختمر بداخلها، لقد رأت سارا نفس الشيء في أعين القساوسة والرهبان، وعادة ما يكون هذا قبل أن يسيروا في طريق الخطر دون شيء ليحميهم سوى حب الرب.

إن آرينت هايز متدين حتى النخاع.

وديانته هي سامويل بيبس.

٢٠

"أعصاب متوترة". قالها آرينت متذمرًا وهو يشعر بالألم في قدميه بينما يقطع خصر السفينة وهو يحمل كيسًا على كتفه. لم يعر ڤان شوتن حكاية سارا اهتمامًا كبيرًا، ولكنه لم يرها جاثية على ركبتيها أمام جثة بوسي المحترقة على رصيف الميناء، لم يسمع صوتها عندما طلبت من آرينت أن يخلص المجذوم من معاناته.

لقد رأت سارا ڤيسل لحم الرجل وهو يذوب، ولم يدخلها هذا في حالة هيستيرية، ولم يشوش على حكمها الصحيح على الأمور، لقد بقيت هادئة وصافية الذهن، ومليئة بالحزن والتعاطف.

لا، إن سارا ليست من النوع الذي تتوتر أعصابه.

حدق آرينت إلى ندبته وهو يتساءل لمَ لم يخبرها عن علاقته بتوم العجوز، بقدر ما أراد هذا إلا أن الكلمات رفضت أن تغادر شفتيه، لطالما قال سامي إنه على المرء أن يكتم ما يعرفه حتى يفهم ما يعنيه، كان هذا محرجًا بالنسبة لآرينت ولكنه قبل النصيحة بامتنان.

دوى الجرس ليعلن عن نوبة الحراسة لمنتصف الليل، فانفتحت البوابات بصوتٍ عالٍ بينما البحارة يخرجون من فُرشهم إلى سطح السفينة متذمرين بأعين غائمة ومزاج سيئ.

عندما وجدوا آرينت على السطح بعد حلول الظلام حدجوه بأنظارهم وسبوه بأصوات خفيضة، ولكنهم لم يشعروا برغبة في اعتراض طريقه مثلما لم يشعروا بهذا بعد ظهيرة هذا اليوم.

وصل أخيرًا إلى الجناح الواقع تحت السطح العلوي لمقدمة القارب حيث يقضي أفراد الطاقم أوقات فراغهم، سمع صوتًا يافعًا من الداخل ينتحب من أجل الرحمة.

"لم أفعل هذا، أقسم لكم، لم أكن...".

أجابه صوت غاضب: "تريد أن تشوه سمعة السفينة لمصلحة غرباء، أليس كذلك؟ كم دفعوا لك؟".

تعالى صوت لطمة وتلاه صرخة ألم.

دفع آرينت جسده عبر المدخل الضيق ليدلف إلى حجرة ذات سقف خفيض، وسيئة الإضاءة فلا يضيئها إلا مصباح متأرجح ينبعث منه دخان أكثر من الضوء. كان البحارة جالسين ومتكئين بظهورهم إلى الجدار وهم يدخنون الغليون، وينظرون إلى شاب يبرحه ضربًا ذلك الرجل الضخم عريض المنكبين المسمى يوهانس ڤيك.

كان الفتى على الأرضية، بينما يقف ڤيك أمامه مكورًا قبضتيه والدماء تقطر من مفاصل أصابعه.

"لا يا سيد ڤيك، لم أفعل هذا، أقسم لك...".

قال ڤيك وهو يركل الفتى في معدته: "أنت كاذب لعين يا هنري، أين أخفيت العملات، أين هي؟".

أدرك آرينت أن هذا بلا شك هو الفتى الذي تحدثت إليه سارا هذا الصباح، لقد دفعت له ثلاثة جيلدرات نظير المعلومات التي قدمها عن هوية المجذوم الحقيقية.

قال آرينت في دمدمة متوعدة: "يكفي هذا".

نظر يوهانس ڤيك وراءه وضيق عينيه عندما رأى آرينت، ثم قال مكشرًا عن أسنان عطنة: "هذا أمر يتعلق بشؤون السفينة، فلتعد إلى حيث تنتمي".

قال آرينت وهو يومئ ناحية الفتى: "وما الذي سيحدث له عندما أعود؟".

مد ڤيك يده إلى حذائه واستل خنجرًا صغيرًا صدئًا ثم قال: "سأفعل ما يحلو لي".

لم يبدِ آرينت أي رد فعل وهو يقول: "هل هذا هو نفس الخنجر الذي قطعت به لسان بوسي؟".

هذا جعل ڤيك يتردد، ولكن للحظة قصيرة، قبل أن يقول وهو يضع أنامله على النصل: "هو بعينه، ليس النصل الأكثر حدة، لذا لم أقطع لسانه، بل بالأحرى نشرته. لقد تطلب الأمر مجهودًا، ولكنه كان عملًا لطيفًا في نهاية المطاف".

"هل كان هذا من شؤون السفينة أيضًا؟".

بسط ڤيك ذراعيه ليشير لاتساع مملكته وقال: "كل شيء أفعله هو من شؤون السفينة، أليس كذلك يا أولاد؟".

تمتم أفراد الطاقم بالموافقة، بعضهم على مضض والبعض الآخر بحماس أكثر، من الواضح أن شؤون السفينة ليست شيئًا يحظى بالشعبية بين أفراد الطاقم.

قال ڤيك بنظرة متوعدة: "وسأخبرك بشيء آخر من شؤون السفينة؛ اختفاء الركاب الذين يتجاوزون الصاري الرئيسي فيمزقهم أفراد الطاقم إربًا إربًا".

اقتربت خطوات من ورائه؛ نصف دزينة من البحارة يخرجون من الظلال بأعين متقدة بالرغبة في القتل. قال ڤيك: "لا ينتظر أحدًا سوى الحظ التعيس على متن هذه السفينة".

بادله آرينت التحديق وهو ينظر إلى عينه السليمة، التي بدت وكأنما تتلألأ بذكرى كل شيء مروع قد شهدته.

سأله آرينت: "ما الذي تعنيه لاكساجار؟ لقد سمعت أنها كلمة نورنية، ويقولون إنك تتحدث هذه اللغة".

قال ڤيك: "فلتغرب عن وجهي الآن أيها الجندي".

"ليس من دون الفتى".

جلس ڤيك القرفصاء إلى جانب الفتى الذي أُبرح ضربًا، وغرس خنجره في ألواح الأرضية الخشبية إلى جانب رأسه وقال: "هل سمعت هذا أيها الصغير هنري؟ هذا الجندي اللطيف قلق بشأنك، ويخشى عليك أن تكون في صحبة السيد ڤيك البغيض، ما رأيك في هذا؟".

أطال ڤيك النظر إلى آرينت، بينما هنري يرفع رأسه المصاب من على الأرض، ثم قال وهو يلهث من بين أسنانه الدامية: "انصرف أيها

الجندي، إن الموت أفضل من...". ازدرد لعابه في ألم وقال: "من أن ينقذني... شخص مثلك". ثم هوى برأسه من جديد في إنهاك على الألواح الخشبية.

ربت ڤيك على وجنة الفتى ثم قال بنبرة خفيضة منذرة بالخطر: "أنت لست موضع ترحاب هنا أيها الجندي، وهذا هو الإنذار الوحيد الذي سأوجهه لك".

قال آرينت بنبرة خالية من المشاعر: "لا، هذا هو التحذير الوحيد الذي ستتلقاه أنت، إن لديَّ عملًا لأنهيه على متن هذه السفينة، مما يعني أنني سأمر من هنا في هذا الوقت كل ليلة، إن اعترض أي واحد منكم أيها الأوغاد طريقي فسأقطع حلقه وألقي به في الماء".

لمع شيء وحشي في عينيه، فتراجع البحارة خطوة للوراء، ولكن هذا الشيء اختفى بنفس السرعة التي ظهر بها، قبل أن يرفع آرينت الباب ويبدأ في هبوط السلم إلى مقصورة صانع الأشرعة.

كان صانع الأشرعة نفسه يغط في النوم في فراشه المعلق، ولم يتململ عندما رفع آرينت الباب الثاني ليهبط إلى الجناح الذي يضم زنزانة سامي. كان نزول السلم صعبًا كما كان في الصباح، ولكن في النهاية تمكن من أن يدفع جسده للأسفل.

كان دريخت قد وضع فارسًا في الحجرة كما وعده، ولدهشة آرينت كان الفارس هو ثيمان الذي اتهمه سامي بغش صديقه في الصباح. يحرس إيجرت الركاب بينما يحرس ثيمان سامي. من الواضح أن دريخت يريد أن يكون الاثنان كلٌّ منهما أبعد ما يكون عن الآخر.

قفز ثيمان واقفًا على قدميه عندما دخل آرينت، ولكنه سرعان ما جلس مرة أخرى عندما أدرك من يكون.

كان هناك باب صغير يؤدي إلى مخزن البضائع من ورائهما، فأحس آرينت بحكة في حلقه بفعل رائحة التوابل، بينما يبذل مجهودًا لإزاحة المزلاج الذي يغلق بوابة زنزانة سامي. في النهاية أصدر الباب صريرًا وهو ينفتح، ثم هبت رائحة كريهة تمزج ما بين القيء والفضلات البشرية من الزنزانة.

سعل آرينت وهو يغطي فمه ويحدق إلى داخل الزنزانة ثم قال: "سامي؟".

كانت خيوط ضوء القمر المتسللة عبر الفتحة بالأعلى تكشف عن ثلاثة خطاطيف فارغة على الجدار، والركن السفلي من أحد الأعمدة، ولكن كل شيء آخر كان في ظلام دامس.

خرج سامي مسرعًا في ذعر جنوني وهو يضرب الأرض بيديه وقدميه ليعب الهواء عبًّا، سقط ضوء القمر على وجهه فأصدر فحيحًا متألمًا وهو يحمي عينيه من الوهج.

جثا آرينت على ركبتيه إلى جواره ووضع يدًا مواسية على ذراعه. ارتجف جسد سامي وكان شاحبًا بشكل مخيف، وشاربه مغطى بالقيء.

كوَّر آرينت قبضتيه في غضب، لا يمكنه أن يترك صديقه في هذا العذاب.

ضيق سامي عينيه وهو ينظر إليه من بين أصابعه في حيرة وقال: "آرينت؟".

قال وهو يعطيه جرة من النبيذ: "أعتذر لأنني لم أستطع المجيء مبكرًا".

أجابه سامي: "لم أتوقع أن تأتي على الإطلاق". ثم انتزع السدادة من الجرة وتجرع النبيذ، ليسيل السائل الأحمر على ذقنه، ثم توقف وقال: "ظننت أنني سأظل محتجزًا هنا إلى الأبد. ما كان عليك أن تأتي يا آرينت، إن عرف الحاكم العام أنك...".

قاطعه آرينت: "إنه يعرف، وقد وافق على السماح لك بالتمشية في منتصف الليل طالما أنني أصحبك، وسأحاول أن أجعلك تخرج في ضوء النهار".

قال سامي وهو يعقد حاجبيه في حيرة: "كيف استطعت أن تقنعه...". ثم تعالى صوته وهو يقول: "ما الذي يريده منك؟ ما الذي قايضك عليه نظير هذه المنحة؟ أخبره أنك لا تريدها، لن أرغب في أن تكون مدينًا لرجل مثل يان هان، بل أُفضل أن أتعفن في الظلام".

قال آرينت وهو يحاول تهدئته: "لم يقايضني على شيء، ليس هناك دين، إنها مجرد هبة منه".

"لِمَ قد يهبك شيئًا كهذا؟".

نظر آرينت ناحية ثيمان في توتر، ثم خفض صوته وقال: "هل هذا مهم؟".

حدق إليه سامي في ريبة وقد ضيق عينيه الحادتين بينما يفتش في أسرار آرينت. ثم هز رأسه وأشاح بوجهه بعيدًا، فلم يرغب في أن يستخدم هباته على آرينت احترامًا له.

من الأعلى ضرب صانع الأشرعة الأرضية بقدمه ليتساقط التراب من السقف، قبل أن يصرخ: "فلتكملا حديثكما بالخارج، أنا أحاول النوم".

صعد سامي السلم وهو لا يزال مضطربًا، وفي النهاية شق طريقه إلى الهواء الطلق. كان البحارة قد تفرقوا إلى واجباتهم، فاصطحب آرينت صديقه إلى الخارج دون أي متاعب. راح يحدق إلى ضوء القمر الذي يغمر الرافعات والأشرعة كالفضة الذائبة.

قال في رهبة: "إنه جميل". تمهل وهو يحدق إلى المشهد، ثم مشى إلى السور وقال: "فلتدر ظهرك من فضلك".

"لماذا؟".

"يجب أن أقضي حاجتي".

"فلتفعلها، إنه ليس شيئًا لم...".

صاح: "أرجوك يا آرينت، لم يتبقَّ لي إلا القليل من الكرامة، وأود أن أحتفظ بما تبقى".

تنهد آرينت ثم أدار له ظهره.

انتزع سامي سرواله ثم وضع مؤخرته فوق الماء وقال: "إن الحاكم العام رجل خطير، لقد حاولت أن أعفيك من نظرته المتفحصة، ولكن لكي أريح عقلي قل لي لمَ قد وافق على السماح لي بالخروج من الزنزانة؟".

قال آرينت معترفًا وهو يخطو خطوة مبتعدًا عن الرائحة: "لأنه بالنسبة لي أحد أفراد العائلة، أنا أناديه عمي، ولكنه أقرب ما يكون إلى أب بالنسبة لي".

أجابه سامي بصوت مختنق: "أب؟".

قال آرينت مفسرًا: "إنه أعز أصدقاء جدي، وكانت أراضيهما متجاورة في فريزيا، الإقليم الذي ترعرعت فيه. عندما كنت صغيرًا كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في ضيعته، لقد علمني المبارزة وركوب الخيل وأشياء أخرى عديدة".

قال سامي وهو يمسح مؤخرته بحبل قبل أن يرتدي سرواله: "المعذرة يا آرينت، أعلم أن أخلاقك ليست أخلاق شخص قد وُلد جنديًّا، ولكن كيف صار جدك صديقًّا لشخص ذي نفوذ كبير مثل الحاكم العام يان هان؟".

تردد آرينت وهو يفكر في طريقة لصياغة الكلمات، إن الجواب مدفون في أعماقه منذ زمن بعيد حتى نبتت له جذور.

وأخيرًا قال: "إن جدي هو كاسبر ڤان دين بيرج".

قطع سامي خطوة للوراء كما لو أن الإجابة قد أُلقيت في وجهه وقال: "أنت من عائلة بيرج!؟ إن عائلة ڤان دين بيرج هي أغنى عائلة في الأقاليم، كاسبر ڤان دين بيرج واحد من السادة السبعة عشرة. إن عائلتك هي التي تدير الشركة من الناحية العملية".

قال آرينت بسخرية: "حقًّا؟ أتمنى لو أن شخصًا ما قد أخبرني بهذا قبل أن أترك الديار".

فتح سامي فمه وأغلقه، ثم فتحه وأغلقه مرة أخرى، قبل أن ينفجر قائلًا: "لمَ أنت على متن هذه السفينة بحق الجحيم؟ يمكن لعائلتك أن تشتري لك سفينة خاصة، يمكنها أن تشتري لك أسطولًا".

"ماذا سأفعل بأسطول؟".

"أي شيء لعين يحلو لك".

لا يمكن لآرينت أن ينكر هذا المنطق، ولكن في الوقت ذاته ليس لديه إجابة لا تحرج كليهما. لقد ترك البيت في العشرين من عمره لأنه بعد سبع سنوات من الدراسة تحت إشراف السادة السبعة عشرة رأى الحياة بطولها وعرضها متاحة له، فأدرك مدى صغرها. إن الأثرياء يخطئون في اعتقادهم بأن ثروتهم خادم لهم، وأنها ستمنحهم كل ما يريدون.

إنهم مخطئون.

الثروة هي سيدهم، والصوت الوحيد الذي يصغون إليه، فيضحون بالصداقات بناءً على أمرها وتُدهس المبادئ لحمايتها. مهما حازوا من الثروة فإنه ليس كافيًا، فيصابون بالجنون وهم يلاحقون المزيد، حتى يجلسوا وحيدين فوق كنوزهم، مكروهين وخائفين.

لقد رغب آرينت فيما هو أكثر من هذا، فأدار ظهره للسلطة والثروة، ووجد نفسه محصنًا ضد إغرائهما، وبدلًا من هذا سعى إلى مكان يكون فيه الشرف مهمًّا، حيث تُستخدم القوة لحماية الضعفاء، ولا تُنقل العروش بشكل تلقائي من رجل مجنون إلى آخر.

ولكن كل الأماكن كانت متشابهة، القوة هي العملة الوحيدة ذات القيمة، والسلطة هي الهدف الوحيد، فتُدهس الرحمة والشفقة والتعاطف، ويستغلها الناس باعتبارها نقاط ضعف.

ثم التقى سامي.

ها هو ذا أحد العامة قد وُلد بلا ثروة ولا نسب، ويقلب النظام الطبيعي بفضل ذكائه، ولتحقيق هدفه لا يخشى أن يتهم النبلاء كما يتهم الفلاحين. إنه شخص لا تنطبق عليه القواعد القديمة، ومن خلال سامي رأى آرينت العالم الذي يطمح إليه، كأرض بعيدة يراها عبر زجاج معتم. إن سامي هو ما ترك آرينت الديار بحثًا عنه، ولكن صداقتهما لن تسمح له أبدًا بأن يعترف بهذا. ولن تتغير نظرته إلى هذا الأمر أبدًا.

قال وهو يهز كتفيه بنبرة تشي بانتهاء المحادثة: "هذه هي الحياة التي اخترتها".

استسلم سامي متنهدًا ثم أمسك دلوًا من مقبضه، كان هناك حبل طويل مربوط إلى المقبض، فألقى به من على سور السفينة إلى المحيط، قبل أن يجذبه وقد امتلأ بالماء. عادة ما تستخدم الدلاء لغسل الثياب أو لتبريد الخشب الذي يهدد بالانثناء، ولكنه سكبه فوق رأسه ليزيح الأوساخ ويكشف عن الجلد المتورد من تحته.

ألقى بالدلو مرتين أخريين ليغسل ذراعيه وساقيه، ثم انتزع قميصه لينظف جسده الهزيل. لقد مر أسبوع منذ آخر مرة أكل فيها قدرًا معتبرًا من الطعام، وهي الحقيقة التي تصرخ بها ضلوعه المكشوفة.

بعد أن اغتسل ارتدى ثيابه المبتلة وهندم سرواله قبل أن يمرر أصابعه عبر شعره المتشابك الدهني.

راح آرينت يراقبه في صمت. كان هذا سيبدو عديم الجدوى إن فعله أي شخص آخر، ولكن سامي كان مشهورًا بسلوكه الجميل بقدر ما هو مشهور بذكائه. إنه يتأنق في ثيابه ويرقص ببراعة ويتناول الطعام

بشكل دقيق. إن سلوكه راقٍ في كل شيء. إن كان هذا الكبرياء لا يزال متقدًّا بداخله إذن فهو لم يفقد الأمل بعد.

سأله سامي وهو يدور حول نفسه: "كيف أبدو؟".

"تبدو وكأنك قد قضيت ليلة مع بقرة".

"لم أرغب في أن تكون أمك وحيدة".

ضحك آرينت ثم أخرج عقار النوم من كيس معلق على خاصرته وأعطاه لسامي قائلًا: "هذا من سارا ڤيسل، سيساعدك على النوم، وآمل أن هذا سيجعلك أكثر راحة بينما أعمل على إيجاد طريقة لتحريرك".

قال سامي: "هذه هدية رائعة". ثم انتزع السدادة ليتشمم السائل، قبل أن يقول: "أرجوك أبلغها شكري، لقد رأيت مدى نبل أخلاقها على رصيف الميناء، ولكن هذا... لم أرَ من قبل امرأة تضاهيها".

كان آرينت يتفق معه، ولكنه لم يقل شيئًا خشية أن يفصح عن مشاعره، وبدلًا من هذا أعطاه رغيفًا كبيرًا قد سرقه من المطبخ.

سأله: "ألم تعرف بعد من الذي يحاول إغراقنا؟".

"هذه مهمتك أنت يا آرينت، لقد كنتُ مسجونًا في الظلام طوال الليل". ثم قضم الرغيف مستمتعًا بمذاقه. لقد تناول آرينت شيئًا من هذا الخبز في العشاء، وهو صلب كقلب مرابي، ولكن بدا على سامي كأنه لم يتذوق شيئًا أفضل منه من قبل.

قال آرينت معترضًا: "الفارق الوحيد بين هذا اليوم وأي يوم آخر هو أنك لم تحظَ بغليون ونبيذ جيد".

أنهى سامي الرغيف ثم شبك ذراعه بذراع صديقه وقال: "سأتغاضى عن الإهانة التي تنطوي عليها هذه المجاملة. هلَّا تمشينا؟ إن ساقيَّ متيبستان".

وهكذا خطا الدب والعصفور جنبًا إلى جنب في صمت ودي، كما فعلا في مئات الليالي من قبل. مشيا عبر خصر السفينة متجاوزين القاربين الشراعيين المثبتين إلى سطح السفينة، ثم صعدا الدرج إلى السطح العلوي الذي يغطي ربع السفينة. تحركت الظلال من حولهما لتكشف أن أكوام الحبال هي في الواقع بحارة متكومون على أنفسهم، بينما الأجسام الأخرى الكامنة في الظلال اتضح أنها دلاء متدلية من أعمدة.

بينما يخطوان جنبًا إلى جنب تساءل آرينت إن كان عليه أن يضحك من توتر أعصابه، أم أن عليه أن يلكم الهواء فقط من باب الاحتراز. لم يسترخِ حتى وصلا إلى السطح العلوي، حيث كان مساعد القبطان يعتني بالنَجار الشاب المنتحب الذي ضربه ڤيك، ويتحدث إليه بنبرة مواسية. أيًا ما كانت كلمات لارم فإنها بدت وكأنها تشد من أزر الفتى. بعد صعود المزيد من الدرج وصلا إلى المكان الذي توجد فيه حظائر الحيوانات. ما إن سمعت الخنازير أصوات أقدامهما حتى بدأت في النخر وتشمم الحواجز الخشبية، معتقدة أنها على وشك الخروج، بينما راح الدجاج يخدش الخشب.

أطل آرينت من فوق السور، كانت مقصورات الركاب تحتهما مباشرة، وضوء الشموع يتسلل من كواتها. لم تكن هناك مقصورات مظلمة سوى مقصورتي سارا وكريسي، حيث أغلقتا الكوتين تحسبًا لعودة المجذوم في الليل.

سأله سامي وقد لاحظ تفحصه للمقصورات: "ما الذي يشغل بالك؟".

أجابه آرينت: "لقد رأت سارا ڤيسل المجذوم في كوتها هذا المساء".

"المجذوم الذي كان على رصيف الميناء؟ هذا الذي أجهزت عليه بسيفك؟". مكتبة سُر مَن قرأ

قال آرينت مفسرًا: "اسمه الحقيقي هو بوسي". ثم أخبره بالمعلومات التي اكتشفتها سارا عن صفقة الرجل الغامضة مع توم العجوز، وكيف قطع يوهانس ڤيك لسانه.

قال سامي: "من عذاب إلى عذاب". ثم جثا على ركبته ليتحسس ألواح الأرضية الخشبية الخشنة بحثًا عن أي أثر لمرور المجذوم، قبل أن يقول: "هل تعتقد أنها قد تخيلت الأمر؟".

أجابه آرينت: "لا".

"إن كانت لم تتخيل الأمر فهذا يثير سؤالًا محددًا". ثم توقف سامي عن بحثه قبل أن يقول: "بل اثنين في الواقع". ثم فكر في الأمر قبل أن يقول مصححًا لنفسه: "بل ثلاثة".

قال آرينت مخمنًا: "من الذي تظاهر بكونه الرجل الميت عند كوتها؟".

قال سامي: "هذا أحد الأسئلة". ثم قفز واقفًا على قدميه ونظر بحدة إلى المياه المظلمة بالأسفل قبل أن يقول: "هذا مجرد منحدر أملس دون موضع قدم، فكيف تمكن من الوصول إليها؟ وكيف هرب بمجرد رؤيته؟".

قال آرينت: "إنه لم يأتِ من هذا الطريق، لقد صعدت إلى هنا بعد أقل من دقيقة من صراخها، سيكون عليه أن يتجاوزني وهو يركض هاربًا".

"ربما اختبأ في حظائر الحيوانات".

"كنت سأراه عبر الحواجز".

مرر سامي يده على السور وقال: "سيحتاج إلى حبال لإنزال نفسه، ولن يجد وقتًا للتسلق صاعدًا وفك الحبال".

"وإن كان قد ألقى بنفسه في الماء فكانت سارا ستسمع صوت ارتطامه بالماء".

مشى سامي ناحية الصاري الخلفي الواقع ما بين السطح الذي يحتوي على حظائر الحيوانات والسطح الذي يغطي ربع السفينة وتوجد به مقصورة القيادة، ثم جذب أحد حبال الأشرعة واختفى على الجانب الآخر من السفينة. هذا الحبال متصلة بعارضة سميكة تبرز من هيكل ساردام.

"هذه العارضة بالأسفل هي المكان الوحيد الذي يمكنه الوقوف عليه، وهي بعيدة للغاية عن الكوة". وفجأة لعق سامي الخشب، ولكن خيبة الأمل المرتسمة على وجهه أشارت إلى أن هذا لم يمنحه أي جواب. "أخبرني عن توم العجوز هذا".

"من الواضح أنه شيطان من نوع ما".

لا يمكن لأحد أن ينظر نظرة مستهزئة تضاهي نظرة سامي، النظرة التي حدج بها آرينت يمكنها أن تنتزع اللحاء من جذع شجرة.

قال آرينت محتجًا: "لم أقل إنني أصدق هذا". ولكنه كان يعرف طيلة حياته ما ينتظره في الظلام. عندما كان صبيًا رآه أبوه وهو يتثاءب أثناء واحدة من عظاته، فضربه بشدة حتى خشي الناس أنه لن يستيقظ مرة أخرى. لقد بكت أمه لثلاثة أيام، حتى جمع أبوه الخدم وجذبها عبر السلم وراح يصفعها في القاعة الرئيسية وهو يصرخ في غضب وورع ديني.

قال إن حزنها يمثل نقصًا في الإيمان، وإنه قد أرسل آرينت إلى الرب ليعتذر له عن هرطقته شخصيًا، إن كان ندمه صادقًا فسيعود، وإن مات فسيكشف هذا بشكل أكيد عن افتقاره للإخلاص في الدين. وقال إن العلاج الوحيد في تلك اللحظة هو الصلوات لا الدموع.

لقد عاد آرينت بعد يومين، ولكن هذا لم يكن بسبب الإخلاص.

معظم الناس يستيقظون من شيء كهذا مع فجوة في الذاكرة، يقولون إنهم يشعرون وكأنهم كانوا نائمين.

ولكن آرينت يتذكر كل شيء، لقد سافر إلى الحياة الأخرى وهو يصرخ من أجل المساعدة دون مجيب. عرف أنه ليس هناك إله ينتظره، ولا شيطان. لا يوجد قديسون ولا عصاة، ليس هناك سوى أناس والحكايات التي يحكونها لأنفسهم، لقد رأى هذا بنفسه. لقد منح الناس السماوات صوتًا، لذا كان لديهم ما يطلبونه، حصاد أفضل، أو طفل سليم، أو شتاء معتدل. إن الرب هو الأمل، والبشرية تحتاج إلى الأمل كما تحتاج إلى الدفء والطعام والجعة.

ولكن مع الأمل تأتي خيبة الأمل.

إن التعيسين يتوقون إلى حكايات تفسر مصائبهم، رغم أن ما يريدونه حقًّا هو شخص يلومونه على تعاستهم، من المستحيل أن تحرق الآفة التي دمرت محاصيلك، ولكن من السهل أن يكون هناك ساحرة قد استدعت الآفة، وعند هذه المرحلة ستفي أي امرأة عجوز بالغرض.

فكر آرينت أن توم العجوز لم يكن شيطانًا، بل رجلًا عجوزًا يمكن ركله.

قال آرينت مفسرًا: "أخبرني عمي أن توم العجوز قد عاث فسادًا في الأقاليم قبل ثلاثين عامًا، مدمرًا القرى والعائلات النبيلة، ويُقال إنه كان يلبي للناس رغباتهم نظير خدمات مريعة. كان يترك علامة غريبة أينما ذهب، عينًا لها ذيل، نفس العلامة التي كانت على الشراع عندما أبحرنا من باتاڤيا". ثم قال بصراحة: "ونفس العلامة التي على معصمي".

قال سامي متفاجئًا: "معصمك؟ لمَ قد تكون على معصمك؟".

أجابه آرينت: "لأنني عندما كنت صبيًّا ذهبت للصيد مع أبي، وعدت بعد ثلاثة أيام، وأنا أحمل هذه الندبة. أما هو فلم يعد على الإطلاق، ولا أعرف ماذا حدث".

رمش سامي بعينيه في دهشة وهو ينظر إلى آرينت وقال: "إذن فقد أصبت بالندبة في نفس الوقت الذي كان توم العجوز هذا ينشر علامته في أرجاء الأقاليم؟".

"أعتقد أنني كنت أول شخص يحملها، أو واحد منهم. لم يكن عمي متيقنًا".

قال سامي وهو يجذب آرينت ناحية المصباح الموجود على الصاري: "فلترني إياها، وأخبرني بكل شيء تعرفه عنها".

قال آرينت مفسرًا بينما سامي يتفحص الندبة: "لا أعرف شيئًا باستثناء أنني رسمت هذه العلامة على بعض الأبواب في قرية قريبة من باب النكاية، لم أكن أدرك مدى الضرر الذي يسببه هذا، وقد انتهى المطاف بضرب شحاذ عجوز يدعى توم حتى الموت، على يد بعض القرويين المذعورين".

قال سامي: "توم العجوز؟ إذن فهذه العلامة قد تحررت منك ثم انتشرت كالوباء وهي تحمل اسم شحاذك الميت. بحق السماء هذا ليس مجرد شيطان، بل هو شيطانك".

"كانت مجرد حادثة".

"إن أسوأ الأشياء عادة ما يكون مجرد حادثة".

مرر سامي أصابعه الصغيرة على يد آرينت الضخمة، ولكن حتى مع الضوء الإضافي لم يكن هناك شيء جديد يمكن أن يعرفه عن الندبة. لم يعد حتى من السهل رؤيتها، ولم يكلف المشكلاتي نفسه عناء إخفاء خيبة أمله.

قال موبخًا وهو يترك يد آرينت: "أنت تقدم دليلًا سيئًا للغاية. من غيرك يعرف بشأن الندبة والطريقة التي استخدمت بها العلامة؟".

"جدي وعمي، كانت أمي تعرف، ولكنها ماتت بعد أن أخذني جدي منها بوقت قصير".

"ماتت بقلب مكسور؟".

"بل ماتت بالجدري".

"ماذا عن سارا فيسل؟".

"ربما قد أخبرها عمي، ولكني أشك في هذا، فهي لم تذكر الأمر. عدا هذا لا أحد، لقد أمرني جدي بإبقاء الأمر سرًّا، قال إن الماضي أرض مسمومة، وإن من يطيل البقاء هناك يموت. ظننت أنه يحاول منعي من التفكير في الأمر، ولكن عمي أخبرني أن صائد ساحرات إنجليزي كان يتصيد أي شخص مصاب بالعلامة، لذا أخفوني بعيدًا، ولكني لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت".

تمتم سامي في إعجاب: "يبدو أن جدك رجل حكيم. ما الذي تتذكره عن يوم اختفاء أبيك؟".

"أقل القليل. كنا قد قطعنا بضع ساعات في الغابة نتعقب خنزيرًا بريًّا، ولم نكن نتحدث، كنت هناك فقط لحمل حقيبة أبي، ثم نادانا شخص يطلب المساعدة".

"شخص تعرفه؟".

"لا أعتقد هذا".

"وماذا حدث بعدها؟".

"أجبناه النداء ثم ذهبنا للبحث عنه، وبعدها...". هز آرينت كتفيه، فقد كان هذا آخر ما يتذكره من ذلك اليوم. لسنوات حاول أن يتذكر ما حدث، ولكن الأمر كان أشبه بمحاولة تسلق منحدر حاد. "استيقظت في الطريق وأنا أرتجف مبتلًّا، بينما هذه الندبة على معصمي".

صار سامي يقظًا وسؤاله التالي كان دقيقًا: "هل عثر أحد على جثة أبيك؟".

هز آرينت رأسه.

"إذن فقد يكون على قيد الحياة".

قال آرينت ساخرًا: "هذا إن كان للشيطان حس دعابة، فقد كان أبي بريديكانت، ولم يكن يحب شيئًا سوى رعايا الكنيسة، إن نجا لعاد من أجلهم. بالتأكيد أنت لا تعتقد أن أبي متورط في الأمر! قلتَ إن علينا استبعاد الأشباح".

قال سامي والأفكار تتصارع في عقله: "الأشباح هي مشكلة الرب، أما الأحياء فعليهم أن يتعاملوا معي. ولكن لكي نسميه شبحًا يجب أن تكون هناك جثة. ليس وكأننا لم نرَ هذا من قبل يا آرينت، هل تتذكر قضية البرج الخاوي؟ حيث كان هناك...".

قال آرينت وهو يرتجف: "أخت قد ماتت منذ زمن بعيد تعيش داخل الجدران". كان هو المسؤول عن جذبها إلى ضوء النهار، وقد قضى أسبوعًا يغسل جسده من الرائحة النتنة.

سأله سامي: "أي شيء آخر تعرفه عن توم العجوز هذا؟". ولكن من الواضح أن أفكاره لا تزال منصبة على والد آرينت.

"لقد طرده من الأقاليم صائد ساحرات إنجليزي يدعى فيتشر، وقد كان الزوج الثاني لكريسي ينس".

"عشيقة عمك؟".

أومأ آرينت برأسه وقال: "قبل أربع سنوات عشر عليه توم العجوز في أمستردام، فوضع فليتشر عائلته في عربة وهرب إلى ليل، ولكنه لحق به وقتله، وترك علامته على جثته. تؤمن كريسي ينس أنه أعاد بوسي من الموت ليقتل بقية عائلته على متن ساردام".

مرر سامي يده على وجهه، محاولًا أن يخفي القلق المرتسم عليه، ثم قال: "آرينت، أنت كنت في ليل قبل أربعة أعوام".

لم يكن آرينت بحاجة لمن يذكره، فقد كان العار يلطخه كختم شمع.

كانت أول قضية عُهد إليه لكي يحلها وحده، أرسله سامي لكي يستعيد جوهرة مسروقة من السادة السبعة عشرة، وبعد أربعة أيام من التحقيقات اتهم كاتبًا يدعى إدوارد كويل بالجريمة، وكانوا يضعون حبل المشنقة حول رقبته عندما وصل سامي على صهوة حصان منهك وهو يحمل حفنة من الشظايا التي تثبت أن آرينت قد اتهم الشخاص الخاطئ، لقد كان متعجلًا لاتهام كويل حتى إنها قد فاتته.

كان سامي لطيفًا، ألطف مما توقع آرينت، فقد راح مرارًا وتكرارًا يعرض على آرينت قضية أخرى، فرصة أخرى ليثبت أنه قادر على الأمر، ولكن المرتزق يعرف حدود قدراته، لقد رآها من كثب. هذه هي هدية سامي لكل من يلتقي به، فهم تام لما يمكن أن يكون عليه.

قال آرينت محتجًّا: "بالتأكيد لا تعتقد أنني ذبحت زوج كريسي ينس، لم أكن أعرفها حتى".

"أعرف أنك لم تفعلها أيها الأحمق. ولكن إما أنَّ هناك شخصًا ما يحرص على جعلنا نفكر في أنك من فعلتها، وإما أنها صدفة. هل قدمت كريسي أي تفسير لسبب انتظار الشيطان لهذا الوقت الطويل لتنفيذ انتقامه؟".

"لقد لاذت بالفرار، وراحت تنتقل من بلد إلى بلد منذ ذلك الحين".

"هل كانت تنتقل، أم كان هناك من يحركها؟".

"يحركها؟".

"هناك ثلاثة أشخاص على متن هذه السفينة مرتبطون بتوم العجوز، ونادرًا ما يكشف القدر عن نفسه بمثل هذا الوضوح".

"ثلاثة؟".

قال سامي مفسرًا في صبر نافد: "أنت وكريسي وعمك. كيف انتهى بكم المطاف جميعًا هنا؟".

قال آرينت كأنما ليذكره: "أنا هنا لأنك هنا".

"وأنا هنا لأن الحاكم العام أمر بهذا".

"أما كريسي ينس فقد أجبرها عمي على الرحيل عن باتاڤيا قبل الموعد المحدد".

"لماذا؟".

"لأنها جميلة وعمي يستمتع بصحبتها".

بدا سامي متشككًا وهو يقول متذمرًا: "وكذلك أنا، ولكني في الزنزانة. ماذا عن عمك، لماذا هو هنا؟".

"إنه يبحر عائدًا للانضمام إلى السادة السبعة عشرة وتسليمهم الغنيمة".

"أجل، ولكن لماذا هو هنا على متن هذه السفينة، كان عمك قادرًا على أن يختار أي سفينة في الأسطول، لماذا اختار ساردام".

"القبطان كراوڤلز هو أفضل بحار في الشركة، وقد أبحرا معًا من قبل، وهو يثق فيه".

زفر سامي في انزعاج ثم قال: "إذن فإن كل شيء يتمحور حول عمك، أليس كذلك؟ إنه أشبه بدوامة لعينة، ونحن جميعًا عالقون في المياه المتلاطمة". ثم نظر إلى آرينت مفكرًا وقال: "إن كان عمك قد أمرك بأن تصعد على متن هذه السفينة، فهل كنت لتفعل هذا؟".

"ليس من دونك".

"وإن حاول أن يأمرني بالصعود على متن ساردام لسألته لمَ هو حريص أشد الحرص على أن أكون هنا".

"ما الذي تفكر فيه؟".

"أن سجني هو الطريقة الوحيدة لضمان أنك ستكون على متن ساردام".

قال آرينت في حدة: "ربما يكون عمي فظًّا، بل وحتى قاسيًا، ولكنه يحبني يا سامي، لن يفعل أي شيء يعرضني للخطر".

نظر سامي إلى مصابيح الأسطول المتوهجة، ثم قال موبخًا نفسه: "إننا نغفل الموتى، رغم كل الأشياء الغريبة على متن هذه السفينة، إلا أنه هناك جريمة واحدة يجب علينا أن نحقق فيها. لم يشعل بوسي الثياب في ملابسه، ولم يكن صوته هو الذي يهدد السفينة، وحتى نعرف المزيد سأتعامل مع موته على أنه جريمة قتل. هل تحدثت مع أصدقائه؟".

"لقد حاولت، ولكن الأمر أشبه بمحاولة فتح فخاخ".

"إذن فلتبذل المزيد من الجهد، لا شك أنه أخبر شخصًا ما بشأن الصفقة التي عقدها، وأنتما مرتبطان بطريقة ما، لذا دعنا نرى إن كان يعرفك أو يعرف عائلتك. فلتعرف من أين جاء بوسي، ربما كان أحد الضحايا في القرية التي مات بها توم العجوز".

أومأ آرينت برأسه، ولكن سامي لم يكن قد انتهى من المهام التي سيكلفه بها، فقد قال: "سيكون من المفيد معرفة ما تعنيه لاكساجار".

أجابه آرينت: "لقد حاولت سارا بالفعل، نعتقد أنها كلمة نورنية، والشخص الوحيد الذي يتحدث هذه اللغة هو الرجل الذي قطع لسان بوسي".

"هذه معلومة مفيدة، ربما نحتاج تفسيرًا لهذا الأمر أيضًا".

وافقه آرينت في تردد وهو يتذكر مواجهته السابقة مع ڤيك: "حسنًا، أي شيء آخر؟".

"ليس من الصعب العثور على الأشرطة القماشية والضمادات، فلتقنع القبطان كراوڤلز بتفتيش السفينة إن استطعت، أو فلتحاول إقناع عمك. إن كنا محظوظين فسنجد زي المجذوم مع الرجل الذي كان يرتديه".

حدق سامي إلى المصابيح في الماء مرة أخرى ثم عقد حاجبيه وقال: "إن مسار تحقيقاتنا الثاني سيكون أسهل، إن كان هذا المجذوم يمثل تهديدًا فكيف ينوي مهاجمة سفينة بهذا الحجم؟ هل تحدثت إلى الكونستبل في مخزن البارود؟".

قال آرينت: "إنه يعتقد أن تفجير البارود لن يفي بالغرض، بل يؤمن أن أسرع طريقة لإغراق ساردام هي قتل القبطان، فإن القبطان

كراوڤلز هو الشيء الوحيد الذي يمنع طاقم السفينة من التمرد من وجهة نظره".

قال سامي في إعجاب: "إن صديقنا الكونستبل هذا ذكي للغاية. هل قال شيئًا آخر؟".

"إن التهديد قد يأتي من الأسطول".

قال سامي وهو يفكر في الأمر: "أن توجه سفينة أخرى مدافعها نحونا؟".

أجابه آرينت: "إنها مجرد فكرة".

قال سامي: "فكرة جريئة، ومثيرة للاضطراب".

"لماذا؟".

قال سامي وهو يشير ناحية المصابيح في المياه: "هل تذكر عدد السفن التي غادرت باتاڤيا؟".

هز آرينت كتفيه، فهو لم يكترث بعد السفن.

أجابه سامي: "سبعة".

قال آرينت في حيرة: "حسنًا، سبعة، وماذا إذن؟".

"إذن لماذا توجد ثمانية أضواء في المياه؟".

***

كان هناك أربعة رجال واقفين عند السور، والمياه تتلاطم من حولهم، ثلاثة منهم يحدقون إلى المصباح الثامن في الأفق، بينما

سامي يحدق لأسفل ناحية مساعد القبطان، وعندما شعر إيزاك لارم بنظرته المتفحصة رفع بصره وتلوى وجهه بتجهمه المعتاد.

"ما الذي تنظر إليه أيها السجين؟".

قال سامي بصراحة: "قزم، لم أرَ قزمًا في الشركة من قبل، في معظم الأحيان يكون بنو جنسك...".

أكمل لارم جملته قائلًا: "حمقى. إن وظيفتنا أن ندعو نبلاء مثلك بالأوغا...".

قال كراوڤلز مزمجرًا: "إيزاك".

كان آرينت قد نبه مساعد القبطان إلى الضوء الغريب، ثم ذهب ليجلب القبطان أيضًا. كان كراوڤلز لا يزال ثملًا، ومنزعجًا، ويتوق إلى فراشه. ولكن آخر شيء يريده هو دم سامي على خنجر إيزاك لارم، وهي الطريقة التي عادة ما تنتهي بها الجدالات مع مساعده.

قال إيزاك لارم في حدة: "أنا مساعد القبطان على متن هذه السفينة، ولن أسمح بأن ينظر لي سجين بازدراء".

قال سامي: "لم تكن هذه نيتي". وبدا دهِشًا لأن كلماته قد أُخذت على محمل الإساءة.

قال القبطان وهو لا يزال يحدق إلى المصابيح: "إيزاك هو أفضل مساعد قبطان رأيته في حياتي". ثم أضاف في وجوم: "وهو الشخص الوحيد الذي أعرفه والذي يمكنه أن يبقي عريف الملاحين الوغد منضبطًا".

تساءل آرينت: "ما رأيك في هذه الأضواء أيها القبطان؟". لقد أراد أن يغير الموضوع قبل أن يُغضب سامي إيزاك لارم أكثر من هذا.

قال وهو يحك شاربه البرتقالي: "حسنًا، إنهم ليسوا قراصنة. أيًّا من كانوا فإنهم يريدون منا أن نعرف أنهم هناك، القراصنة يأتون خلسة ولا يهاجمون الأساطيل، بل يهجمون على السفن المنفردة".

قال لارم مقترحًا وهو يفرك تميمة على هيئة نصف وجه تحيط برقبته: "ربما تكون سفينة شاردة آتية من باتاڤيا".

قال كراوڤلز وهو يمرر أصابعه في شعره ويبسط عضلات ذراعيه: "ربما".

فكر آرينت أن كراوڤلز رجل معجب بنفسه كثيرًا، ويرغب في أن يثير إعجاب الآخرين.

واصل كراوڤلز حديثه قائلًا: "فلتراقب الأسطول، أنت وحدك يا إيزاك، لا أريد أن ينتشر خبرٌ عن هذا الأمر ليفزع الطاقم. قد يتضح في النهاية أنه أمر لا يستحق الاهتمام. ولكن إن تغير شيء الليلة فأريد أن أعرف".

"أمرك يا قبطان".

قال: "وأول شيء في الصباح هو إرسال شخص ليستطلع هذه السفينة، أُريد أن أعرف الراية التي ترفعها".

وافقه لارم: "أمرك يا قبطان".

تفرق الرجال الأربعة، فاصطحب آرينت سامي عائدًا عبر خصر السفينة نحو المقدمة.

ما إن خرجا من مرمى السمع حتى وكز سامي آرينت وقال: "هل لاحظت التميمة التي يرتديها لارم حول عنقه؟".

قال آرينت: "لقد رأيتها بعد ظهيرة اليوم، قطعة من الخشب المتشقق تتدلى من خيط، أليس كذلك؟".

"إنه نصف وجه يا آرينت، وهو يطابق النصف الذي كان بوسي يتشبث به لمواساة نفسه على رصيف الميناء، إن حوافهما متوافقة".

لا شك أن سامي لم يرَ تميمة بوسي لأكثر من لمحة عابرة، ولكن آرينت لا يشك في تذكره للأمر. إن عدم النسيان هو هبة أخرى من هبات سامي، وربما أتعسها، فيمكنه أن يتذكر كل محادثة قد خاضها من قبل، وكل غموض قد كشفه، وكل وجبة غداء قد أكلها.

كان آرينت ليحسده، لولا أن سامي شخص لا يمكن أن يحسده المرء.

يقول إن الماضي مليء بالأشياء المؤلمة.

إن الألم الذي شعر به عندما جرجته شوكة وهو طفل، هو نفس الألم الذي يشعر به عندما يتذكر الأمر، يمكنه أن يستدعي هذه الذكرى دون الحاجة لإسالة دمه. لا عجب أنه هكذا دومًا، لا ينظر للوراء مطلقًا، ودومًا ما يركض للأمام.

تعالت صرخة من ورائهما، وعندما نظرا وجدا إيزاك لارم يحاول أن يجذب امرأة شابة من الظلال. كانت أطول من القزم وأعرض منه وأكثر قوة، فراح يكافح للتشبث بها وهو يزمجر، ثم لكمها في معدتها لينهي مقاومتها، قبل أن يلقي بها أرضًا وهي تشهق من الألم أمام كراوفلز.

تحرك آرينت لمساعدتها، ولكن سامي أمسك بذراعه وهز رأسه محذرًا.

قال كراوڤلز متفاجئًا: "ألستِ حارسة البريديكانت؟ ما الذي تفعلينه هنا بعد حظر التجول؟ هذا خطير".

قالت في حدة وهي تنظر بغضب إلى القزم بينما تحاول التقاط أنفاسها: "اسمي إيزابيل".

قال كراوڤلز وهو يجلس القرفصاء أمامها: "اسم جميل، ولكنه ليس تفسيرًا. ما الذي تفعلينه بالاختباء في الظلال يا إيزابيل؟".

أخذت نفسًا عميقًا وهي تفرك معدتها ثم قالت: "كنت قد خرجت للتمشية، ثم شعرت بالخوف، هذا كل شيء".

قال لارم ساخرًا: "بل بالأحرى كنتِ تسترقين السمع". فرمقته إيزابيل بازدراء.

تنهد كراوڤلز ثم قال: "إن قواعد السفينة موضوعة من أجل سلامتكم وسلامتنا". ثم ابتسم ابتسامة مبتهجة منذرة بالخطر وقال: "ولكنها أولًا وأخيرًا من أجل سلامتكم. هذه المحادثة كانت خاصة، ويجب أن تظل كذلك. إن انتشرت كلمة واحدة عن الأمر فسأعرف من الذي قالها، هل تفهمين؟".

أومأت برأسها وقد امتزج القبول الصغير بالغضب المتأجج.

قال: "اذهبي إذن، ولا أريد أن أراكِ تتسللين في الظلال مرة أخرى".

ألقت إيزابيل نظرة خاطفة ناحية أعلى مقدمة السفينة، قبل أن تنهض واقفة على قدميها وتعود إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط.

تسلل شخص مبتعدًا في الظلمة دون أن يراه أحد.

٢١

اختفى المصباح الثامن قبل الفجر ببضع ساعات.

خوفًا من هجوم وشيك استدعى إيزاك لارم القبطان كراوڤلز، الذي أمر الرجال بالتوجه إلى مواقع القتال. أُرسلت الإشارات عبر الأسطول من أجل الاستعداد. بينما أخرج يوهانس ڤيك أفراد الطاقم من أَسِرَّتهم المعلقة وحثهم على الإسراع صاعدين السلم أيًّا كانت الثياب التي يرتدونها.

مع رفع المراسي وخفض الأشرعة من أجل المناورة نُزِع القنب من فوهات المدافع وسُحبت الأوتاد من تحت عجلاتها، وفُتح مخزن البارود على مصراعيه بينما البحارة يدحرجون عشرات البراميل عبر السفينة، قبل أن يضعوا محتوياتها في المدافع، ويدكوها لتصير متماسكة.

لم يكن للركاب دور في هذه الجلبة، فاحتشدوا معًا على السطح السفلي منتظرين أول وابل من نيران المدافع. كانت سارا في مقصورتها متشبثة بجسد ليا المرتجف، بينما تهمس في أذنها بكلمات مشجعة. وكريسي في مقصورتها تعانق ماركوس وأوسبرت وتهدئ صغيريها بالأغنيات.

راح البريديكانت وإيزابيل يصليان معًا، بينما آرينت يراقب من السطح العلوي، فلم يكن من النوع الذي يدير ظهره للعدو مهما كان حجمه.

كان الحاكم العام هان قد استيقظ مبكرًا كما هي عادته، ثم جلس أمام مكتبه للعمل وهو يوجه تعليماته للحاجب ڤوس كالمعتاد. لم يكن من شيء يشي بأن هناك خطبًا ما سوى رعشة طفيفة في يده.

في الظلمة راحت ساردام تكشر عن أنيابها كقطة تستعد للشجار، ولساعتين تأهبوا وتحول الخوف إلى حيرة ثم إلى ملل. شقشق الفجر وتحول الليل إلى رماد قبل أن يتلاشى تمامًا.

صعد المراقب حبال الشراع وظلل عينيه وهو ينظر في كل الاتجاهات، ثم صاح مناديًا القبطان ومساعده: "إنها ليست هناك، لقد اختفت أيها القبطان".

٢٢

تعالى صوت طرقات على باب مقصورة سارا، فاستيقظت على الفور ووضعت أصابعها حول مقبض الخنجر الموضوع تحت يدها، لقد غرقت في النوم وهي جالسة على كرسي عند طاولة الكتابة، محدقة إلى الكوة في انتظار ظهور المجذوم مرة أخرى. كانت ترتدي ثياب النوم، وشعرها الأحمر مسدل ويتدلى على كتفيها، بينما ازدهر النمش على أنفها ووجنتيها.

كانت ليا نائمة في فراشها، وأنفاسها تصدر صريرًا خافتًا للغاية.

تعالت الطرقات مرة أخرى، فقالت سارا: "ادخل".

دخلت دوروثيا وهي تحمل كوبًا من شاي التوت، وتأملت المشهد في استياء.

قالت دوروثيا: "هناك أصوات غريبة قد صدرت عن مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين هذا الصباح". ثم وضعت الشاي أمام سارا، بينما حبات التوت الحمراء والأرجوانية تتمايل على سطحه. إن هذا النوع من الشاي مفضل لدى العائلة، لذا طلبت منها سارا أن تجلب بعضه من أجل الرحلة.

قالت سارا: "أصوات غريبة؟". راحت الأفكار تدور في عقلها ببطء. عادة ما تبدأ دوروثيا أي محادثة بالنميمة، ولكن من النادر أن

تتعامل سارا مع الأمر في مثل هذا الوقت من الصباح، في المعتاد لا يستطيع الشيطان نفسه أن يوقظها في مثل هذه الساعة المبكرة. كانت باتاقيا شديدة الحرارة بحيث إنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء نهارًا، مما جعلها تقيم الحفلات ومآدب منتصف الليل من أجل نبلاء المدينة الذين لا يجدون ما يروحون به عن أنفسهم. على مدار الثلاثة عشر عامًا الماضية كانت تخلد إلى النوم في وقت متأخر وتستيقظ في وقت متأخر، فقد كانت ترى أن الاستيقاظ فجرًا هو شيء لا يعاني منه إلا الأشخاص التُّعساء.

لسوء حظها كان البريديكانت قد قرر أنه يجب الاستماع إلى عظته دون أن يطغى عليها سباب البحارة الصاخب.

أكملت دوروثيا حديثها قائلة: "كان صوتًا أشبه بالاحتكاك، لقد استمر لبضع ثوانٍ ثم توقف قبل أن يبدأ مرة أخرى. لا يمكنني تمييز الصوت، ولكنه كان مألوفًا...". ثم بترت جملتها.

ارتشفت سارا رشفة من الشاي الحلو، إنه واحد من أشياء عديدة تفتقدها في فرنسا، ثم سألت دوروثيا: "هل نمتِ؟".

أجابتها وهي لا تزال قلقة بشأن ذلك الصوت الغريب: "بما يكفي. ماذا عنكِ؟".

كانت عينا سارا متعبتين ومحاطتين بهالتين سوداوين، لم يبدُ عليها أنها قد نامت لحظة واحدة، لم يبدُ عليها حتى أنها قد تعلمت كيف تنام، ومع ذلك قالت وهي تحدق إلى الكوة: "نمت قليلًا".

سألتها دوروثيا: "هل أوقظ ليا؟". بينما تنظر إلى السيدة الصغيرة النائمة.

"اتركيها تنام قليلًا، لدينا وقت قبل أن تبدأ العظة". نظرت سارا إلى ابنتها بحنان ثم نهضت وقالت: "هل استطعتِ أن تسألي المزيد من الركاب عن تلك الكلمة الغريبة لاكساجار؟".

فتحت دوروثيا أحد الأدراج وراحت ترتب ملابس سيدتها من أجل اليوم.

كانت سارا متيقنة من أنها قد فعلت هذا لتخفي الاستياء المرتسم على وجهها. فبحسب التجارب السابقة تعرف أن دوروثيا لديها آراء متشددة للغاية حيال ما يجب أن تفعله السيدة النبيلة وما لا يجب أن تفعله. إن قائمة ما لا يجب فعله طويلة بشكل مبالغ فيه، وقائمة ما يجب فعله قصيرة للغاية.

ستفكر أنه من غير اللائق بالنسبة لامرأة في مكانة سارا أن تلعب دور صائد اللصوص، ولكنها ستفعل ما يحلو لها كالعادة، وكالعادة أيضًا سينفد صبر زوجها في نهاية المطاف وسيضع حدًّا للأمر، وبشكل عنيف على الأرجح.

ارتجفت سارا وهي تتخيل ذلك اليوم. إن دوروثيا محقة، إن استمرت على هذا النحو فسيعاقبها زوجها في نهاية المطاف، ولكن كيف لها أن تتوقف بينما حياة ليا مهددة بالخطر.

أجابتها دوروثيا: "لقد سألت الجميع، ولكن لا أحد يعرفها. ربما هناك عدد قليل من الركاب الذين لم أجد فرصة لسؤالهم، لذا سأطرح الأمر عليهم أثناء تريض منتصف الصباح".

"سأكون ممتنة لهذا".

أنهت سارا ما تبقى من الشاي ثم ساعدتها دوروثيا على ارتداء ثيابها.

استيقظت ليا بعد وقت قصير، ولكن تزيينها كان مهمة والدتها، إن بشرتها بيضاء ومثالية، فلا تحتاج إلى أي مساحيق، وكان المشط يتخلل شعرها الأسود كسمكة في تيار متدفق.

بعد أن اكتملت الاستعدادات خرج ثلاثتهن إلى هواء الصباح الرطب، كان وقتًا غريبًا تحث فيه الشمس الآتية النجوم الآفلة على الحركة. لا يزال هناك أربعة أجراس لم تدق بعد من أجل الفجر، ومرساة ساردام لم تُرفع بعد، بينما المحيط هادئٌ وزجاجي.

كان السطح مزدحمًا بشكل مفاجئ بالنظر إلى الساعة المبكرة.

لقد حرص البريديكانت على أن يعرف الجميع أنه سيقيم القداس تحت الصاري الرئيسي، بعد وقت قصير من بدء إبحار اليوم. وبشكل ما تمكن من الحصول على تصريح لكي يحضر القداس الركاب الموجودون في السطح السفلي، وقد جاؤوا بأعداد كبيرة.

كان القبطان كراوفلز والمسؤولون عن السفينة يتحدثون بأصوات خفيضة قلقة عن الضوء الغامض الليلة الماضية.

قال إيزاك لارم: "هذا المصباح يخص سفينة هندية، سأتعرف عليه في أي مكان".

قال ڤان شوتن: "إذن كيف اختفت بهذه السرعة؟ لقد اختفت قبل الفجر ببضع ساعات، حتى لو كانت سفينة هندية بلا أية حمولة فما كانت لتبحر خارج أبصارنا في مثل ذلك الوقت القصير، ولم يكن هناك رياح. أقول لكم إنها سفينة شبحية لعينة".

مع اقتراب سارا وليا لاذ المسؤولون بالصمت، وتنحوا جانبًا للسماح لهما بالانضمام إلى الحاكم والحاجب ڤوس في مقدمة المصلين. كما هو الحال في أمستردام يقف النبلاء بالقرب من البريديكانت على أمل أن ينظر إليهم نظرة عابرة، ومن خلاله يشعرون بعيني الرب تنظران إليهم.

بقيت دوروثيا في الخلف مع الخدم الآخرين.

جثت سارا على ركبتيها إلى جانب زوجها، ولكنه لم يلتفت إليها مطلقًا. كالعادة شعرت بشيء من القلق في حضوره.

اشرأبت بعنقها فرأت كريسي على الجانب الآخر منه، بينما ماركوس وأوسبرت يتململان بجانبها كالعادة. كانت إيزابيل -الفتاة المارديكرية- تراقبهما وهي تبتسم ابتسامة طفيفة.

على الجانب البعيد من الصاري الرئيسي، كان هناك قرابة عشرين بحارًا يتحركون في الأرجاء في انتظار أن تبدأ العظة. لم تتوقع سارا رؤيتهم، فقد سمعت طريقتهم في الحديث، ولمحت نظراتهم النهمة عندما تمر امرأة من جوارهم. إن كان الرب قد تحدث إليهم فإن صوته كان خافتًا ما بين نداءات الخطيئة والرزيلة.

بدأ ساندر كيرس حديثه بصوت جهوري: "إننا نحتفل هذا الصباح بحظنا الحسن، فعلى متن هذه السفينة نرى مجد الرب بأنفسنا. انظروا أيها الأصدقاء إلى هذه الأشرعة وهذه الألواح الخشبية، وإلى البحر من تحتها. إن الإبحار ليس أشرعة وإدارة للدفة، بل هو المجد الإلهي ذاته، إنها مئات البركات التي تُظهر لنا إنعام الرب علينا. إن ما يحدث مستحيل ما لم يجعله الرب ممكنًا، إن الرياح هي أنفاسه والأمواج

هي يداه. لا تظنوا أنها براعة منكم، إن الرب هو من يرشدنا عبر هذا المحيط".

أحست سارا بقلبها يخفق، لقد ظنت في البداية عندما نظرت إلى البريديكانت أنه رجل عجوز ضعيف، وأنه على الأرجح سيلقي عظة قد عفا عليها الزمن، ولكن النطق بكلمات الرب قد غيره، فهذا الظهر المنحني قد صار مستقيمًا، وراحت أصابعه تشق الهواء بحيوية وهو يحمد الرب ويثني عليه.

"أي منكم أيها الأوغاد قد سرق مقبض العجلة الرحوية؟".

توقفت العظة مع كلمات يوهانس ڤيك الغاضبة. لم ترَ سارا الرجل من قبل، ولكن آرينت قد وصفه لها جيدًا بما يكفي، هناك انبعاج في رأسه الأصلع ورقعة على عينه تحيط بها شبكة عنكبوتية من الندوب. جسد بدين وكتفان عريضتان فوق ساقين متقوستين كأنما بالكاد يمكنهما تحمل وزنه.

شق طريقه بخطوات ثقيلة ما بين الكومة النتنة من البحارين الذين اجتمعوا وراء الصاري للاستماع إلى حديث البريديكانت، ثم راح يجذب الرجال من أكتافهم ويحدق إلى وجوههم.

صرخ فيهم: "كان هناك أربعة مقابض عندما صدر أمر بالتوجه إلى مراكز القتال، والآن صاروا ثلاثة. هذه ممتلكات السفينة، أي منكم قد أخذ المقبض؟ أخبروني الآن".

كان هناك مزيج من الخوف والحيرة مرتسم على وجوه البحارة.

"إن العجلة الرحوية تجعل رفع المرساة سهلًا، أليس كذلك؟ إن لم أعثر عليه فسأختار عشرة منكم كل يوم ليرفعوا المرساة بأيديهم".

راحوا يتمتمون في استياء، ولكن أيًّا منهم لم يجرؤ على التعبير عن استيائه بصوت عالٍ.

"أخبروني الآن وإلا...".

بتر تهديده وهو يحدق إلى المصلين في دهشة. حاولت سارا أن تنظر إلى حيث ينظر، ولكن ڤيك كان قد تراجع إلى الوراء بالفعل. عندما لاحظ تحديقها نظر إليها على الفور، كانت عيناه قذرتين وتلمعان في وعيد. حياها بسخرية وابتسامة هازئة غريبة مرتسمة على شفتيه.

سعل البريديكانت ليستعيد انتباههم ثم قال: "كما كنت أقول، يجب علينا ألا نلقي بالتهم جزافًا، لأنه لا أحد يحاسب الناس سوى الرب". بدا وكأنه لم ينتبه إلى المفارقة في كلماته. "يجب أن نعبد الرب بأن نتحلى بالرحمة والمغفرة، واعلموا أن حب الرب سينقذكم جميعًا! فكما تثقون في الأخشاب المُثبتة بالمسامير، يجب أن تثقوا في أن التآخي سيحمينا جميعًا في وجه المحن الآتية".

ارتجفت سارا بينما العظة مستمرة، كان هناك شيء منذر بالخطر بشكل غريب في حديثه، لا شك أن الآخرين أحسوا بهذا أيضًا، لأنهم كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض في توتر.

استمر حديثه لساعة قبل أن يتلاشى صوته أخيرًا.

تفرق المصلون ككتل من الدهن في حساء. أرادت سارا أن تتحدث مع البريديكانت ولكن رينير ڤان شوتن اقترب منه على الفور وتنحى به جانبًا.

قال بصوت هامس: "أريد أن أتحدث معك على انفراد".

قال البريديكانت: "بالطبع، ما الأمر يا بني؟".

تلفت ڤان شوتن حوله ومرت عيناه من على سارا كأنما هي ليست هناك، ثم استقرتا على قائد الحرس دريخت فاتسعتا في قلق قبل أن يقول: "هل يمكن أن نتحدث في مقصورتي؟".

"يجب أن أمنح الركاب وأفراد الطاقم فرصة للاعتراف، ولكن بعدما تنتهي واجباتي سآتي إليك".

"الاعتراف هو ما أريده".

"من أجل أي خطيئة؟".

مال مقتربًا منه وهمس في أذنه بالإجابة. ظهر القلق على وجه البريديكانت وهو يسأله: "كيف يمكنك ألا تعرف؟".

"فلتأتِ فقط أرجوك، وفي أسرع وقت ممكن". ثم أسرع مبتعدًا قبل أن يسأله ساندر أسئلة أخرى.

ظهرت إيزابيل من بين الحشد وأعطت ساندر عكازه. راح يمسح العرق من على جبهته بكم ثوبه البالي. كان وجهه محمرًّا بينما يلهث كما لو أن هذه العظة قد استنفدت كل قوته.

قالت سارا وهي تومئ برأسها في تحية: "عظة جميلة أيها البريديكانت".

كان زوجها متجهًا ناحية المقصورة الكبرى بصحبة ڤوس وهما منهمكان في محادثة خفيضة.

قال ساندر وقد بدا منزعجًا من نفسه: "لم تكن كافية، هناك الكثير من الأرواح التي يجب إنقاذها على متن سفينة كهذه، وأخشى أن الأمر قد يحتاج إلى كلمات أقوى".

نظرت سارا ناحية دوروثيا نظرة ذات مغزى، فأخذت الخادمة ماركوس وأوسبرت إلى الحظائر لرؤية الخنزير.

بعدما صاروا بمنأى عن استراق السمع سألته سارا بصراحة: "هل لديك أي معرفة عن الشياطين؟".

اختلس ساندر نظرة قلقة ناحية إيزابيل التي شددت قبضتيها على حقيبتيها ثم سألها: "ما الذي تتحدثين عنه على وجه التحديد".

"هناك مجذوم قد لعن السفينة في باتافيا، وزعم أن سيده سيهلكنا جميعًا، نفس المجذوم ظهر في كوتي الليلة الماضية، أعتقد أن له علاقة بالرمز الذي كان مرسومًا على الشراع أمس. لقد ظهر هذا الرمز لأول مرة في الأقاليم قبل ثلاثين عامًا، وقد تلا ظهوره خراب عظيم. يقال إنه ينذر بمجيء شيطان يدعى توم العجوز".

قال ساندر وهو يلوح بيده كأنما سارا هي لقطة يحاول أن يمحوها: "لا، لا، ليس لدي معرفة بهذا الأمر".

لم ترَ سارا في حياتها كذابًا أسوأ منه.

تدخلت كريسي قائلة: "أرجوك أيها البريديكانت، لقد صارع زوجي ذلك المخلوق وخسر حياته في تلك المعركة، وأعتقد أنه قد جاء الآن من أجل عائلتي".

ظهر وميض من التعرف على وجه البريديكانت، فخطا خطوة متألمة ناحيتها وهو يقول: "من كان زوجك؟".

"بيتر فليتشر".

وضع ساندر يده على فمه وترقرقت عيناه بالدموع. رمش بعينيه ليبعد الدموع ونظر ناحية السماوات، ثم نظر إلى إيزابيل وقال: "ألم أقل لكِ إن إيماننا سيُكافأ؟ ألم أقل لكِ إن رسالتنا إلهية؟".

نظرت إليه كريسي بفضول وقالت: "هل كنت تعرف زوجي أيها البريديكانت؟".

"أوه بالطبع، لقد كنا صديقين مقربين ذات يوم، وهو سبب وجودي على متن هذه السفينة". فجأة صار ساندر قلقًا وتلفت حوله كأنما يخشى خطرًا ما، ثم قال: "هل هناك مكان يمكن أن نتحدث فيه على انفراد؟ لدي الكثير لأقوله لكما، ولا يمكن قوله علانية".

قالت سارا وهي تعض على نواجذها: "من المفترض أن أتناول الإفطار مع زوجي، وإن لم أذهب فسيرسل قائد الحرس دريخت لجلبي. إن أخبرت كريسي...".

قالت كريسي وهي تتشبث بذراعها: "لن أفعل هذا من دونك".

حدقت سارا إلى صديقتها التي بدت خائفة حد الموت، ثم أجابتها في تردد: "حسنًا إذن، ولكن سيكون علينا أن نسرع". ثم نظرت ناحية دوروثيا وقالت: "هل يمكنك أن تحملي رسالة إلى آرينت هايز...".

صرخ البريديكانت: "لا!". ثم احمر وجهه خجلًا من انفعاله قبل أن يخفض صوته ويقول: "هناك أمور لا تفهمينها تمامًا، دعيني أشرح لكِ الأمر، وبعدها فلتقرري إن كنتِ ستخبرين الملازم هايز بهذه المعلومات أم لا".

٢٣

سألت كريسي البريديكانت وهي تغلق الباب وراءهم: "كيف كنت تعرف زوجي؟ قلت إنك كنت صديقًا مقربًا له".

كانت دوروثيا قد بقيت على سطح السفينة بصحبة الولدين، أما بقيتهم فقد ذهبوا إلى مقصورة كريسي المطابقة من حيث المساحة لمقصورة سارا، ولكنها لا تمتلك قيثارة ضخمة في الزاوية، مما جعلها تبدو فسيحة بالمقارنة معها. كان هناك سجادة مريحة موضوعة على الأرضية وقد تناثرت عليها ألعاب خشبية، وهناك صور معلقة على الجدار، بما فيها صورة زوج كريسي الثاني بيتر.

كان واقفًا بين كلاب صيده أمام بيتهما المهيب في أمستردام، وباستثناء ثوبه المتألق كان صورة من ابنيه، فيشاركهما الأذنين البارزتين والعينين الماكرتين، وشبح الابتسامة الذي يشي بمصيبة تلوح في الأفق.

شيء حيال الصورة قد أزعج سارا، ولكنها لم تتعرف عليه على الفور. ربما هو شيء له علاقة بالتناقض في الأقدار ما بين صائد الساحرات في الصورة وصائد الساحرات الذي ينظر إليه. كانت ثياب ساندر أشبه بالأسمال البالية، وقد انحنت أطرافه العجوز الضعيفة، وبدا أن كل شيء يفعله يسبب له الألم.

قالت كريسي لتجذب انتباهه: "أيها البريديكانت!".

قال وهو يشيح ببصره عن الصورة في حزن: "أوه، أجل، فلتغفري لي، ولكني لم أرَ صديقي لوقت طويل، إن رؤيته مرة أخرى -حتى لو على هذا النحو- قد... أعادت لي الذكريات".

سألته ليا التي تشبه أباها في أنها تضيق ذرعًا بالمشاعر: "ذكريات ماذا؟".

أجابها: "كان بيتر تلميذي لفترة من الوقت، رغم أنني سأعترف بصدر رحب أنه كان أكثر براعة مني". ثم هز رأسه غير قادر على إبعاد عينيه عن اللوحة وقال: "لقد كان رجلًا عظيمًا، كان بطلًا".

صبت كريسي لنفسها كأسًا من النبيذ بيد مرتجفة.

إنها لم تتحدث عن بيتر كثيرًا، ولكن سارا تدرك كم كان حبهما عميقًا.

لقد وُلدت كريسي لعائلة من المزارعين ميسوري الحال، الذين يحتاجون إلى أبناء من أجل الحقول لا بنات من أجل الموقد، لذا زوجوها صغيرة ثم نسوا بشأنها. كان زوجها الأول وحشًا، ولكن مع ازدهار جمالها بدأت تدرك قوة هذا الجمال، وأدركت أنها ليست مضطرة لتحمل هذه المعاناة.

لقد هربت إلى روتردام وصارت محظية.

بشكل رسمي التقت ببيتر في حفلة راقصة، وبشكل غير رسمي التقت به في دار بغاء، وقد أحب أحدهما الآخر منذ اللحظة الأولى. ومن هذه التربة غير المعتادة نمت حياة غير معتادة. لم تلتقِ به سارا

قط، ولكن بحسب ما يُروى عنه كان بيتر شهمًا وطيب القلب وسخيًّا في ماله وضحكاته، ومكرسًا حياته تمامًا لتدمير الشر أينما وجده.

تنهد ساندر وهو يمرر يده الرمادية المتغضنة على وجهه الرمادي بالمثل.

قال بينما كريسي تتجرع النبيذ لتتمالك نفسها: "إن ما جلبني إلى هنا هو إعجابي بزوجك. قبل عامين تلقيت خطابًا منه يتوسل لي أن أساعده، قال لي إن هناك شيطانًا يتعقبه يدعى توم العجوز، وإنه قد صارعه في أرجاء الأقاليم. قال لي إنه سيهرب إلى باتاڤيا، وأرسل لي أموالًا لكي أحجز رحلة على متن سفينة وألحق به. كان يعتقد أنه بتعاوننا معًا يمكننا أخيرًا أن نضع حدًّا لذلك الشيطان".

وضعت كريسي نبيذها جانبًا ببطء بينما الحيرة مرتسمة بوضوح على وجهها، ثم قالت: "ليس هذا ما حدث، لقد عثر علينا الشيطان حقًّا، ولكننا هربنا إلى ليل، وكان هذا قبل أربعة أعوام وليس عامين. كان زوجي قد مات منذ وقت طويل بحلول الوقت الذي تلقيتَ فيه هذه الرسالة".

قال ساندر في حيرة: "ربما كان ينوي السفر إلى باتاڤيا بعدها، ولكن...".

قالت كريسي معترضة: "إنه لم يسمع عن باتاڤيا من قبل، لم يسمع بها أي منا قط. السبب الوحيد لوجودي هنا هو أن يان هان استدعاني إلى باتاڤيا بعد أن سمع بموت زوجي".

تغضن وجه البريديكانت العجوز وقد انجرفت أفكاره بعيدًا، ثم كرر بعناد: "ولكنه أرسل في طلبي".

سألته سارا: "هل أنت واثق تمام الثقة من التفاصيل؟".

قال منزعجًا من السؤال: "بالطبع، لقد قرأت هذا الاستدعاء مئات المرات". ثم نظر إلى إيزابيل وقال: "هلا جلبتِه لي يا عزيزتي، إنه في خزانتي". قطعت خطوة ناحية الباب، فقال: "أرجوكِ اتركي الكتاب، سنحتاج إليه".

حدقت إليه في تخوف، فتجهم موبخًا. أذعنت له بأن رفعت الحقيبة الثقيلة من فوق رأسها ووضعتها بحرص شديد على طاولة الكتابة الخاصة بكريسي.

وبعد لحظة كانت قد اختفت.

أكمل ساندر حديثه وهو يمشي بخطوات عرجاء ناحية المكتب: "بعد أن تلقيت خطاب بيتر حجزت رحلة على متن سفينة متوجهة إلى باتاڤيا، علمت أن السيدة ينس قد صارت أرملة بالفعل. افترضت أن هذا قد حدث في المدينة وحاولت أن أراكِ، ولكنك كنتِ قد أقمتِ في القلعة بالفعل. لم يتعاطف الحراس معي وحاولوا إبعادي، وقد رفضوا حتى أن ينقلوا رسالة مني، لذا شرعت في إنشاء سفينة صغيرة وطلبت من المصلين أن يجلبوا لي أخبار أي أشياء شيطانية تحدث في المدينة، لقد وصلت تحقيقاتي إلى طريق مسدود عندما جاء نجار إلى كنيستي لكي يعترف، قال إنه قد سمع هامسًا في الظلام يسمي نفسه توم العجوز، لقد تفاوض معه وعرض عليه أن يمنحه الثراء نظير بعض الخدمات الصغيرة، أراد النجار أن يعرف إن كان الرب سيغفر له".

كانت كلمات البريديكانت مثقلة بالحكم على الرجل، حتى إن سارا دُهشت لأنه لم يختنق بها.

سألته: "هل كان اسم هذا النجار بوسي؟".

أجابها بشكل مبهم وهو يلوح بيده: "شيء من هذا القبيل، لقد كان أعرج".

قالت سارا بثقة: "إنه بوسي. هل كان مصابًا بالجذام عندما قابلته؟".

قال وعيناه تلمعان بوحشية: "لا، ولكن هذا بالتأكيد كان من صنيع توم العجوز، هؤلاء الذين يعقدون صفقة معه يصيرون عبيدًا لديه، إن قاوموا مشيئته فسيبدؤون بالتحلل، ولا يمكنهم استعادة أنفسهم إلا بطاعته. إنه يستخدم هذه المخلوقات الفاسدة كمنذرين به، إنهم بيادقه".

تململت ليا في توتر وقالت: "لا يمكننا أن نتأخر عن الإفطار يا أمي، أبي سوف...".

أشارت لها سارا أن تصمت ثم قالت: "هل أخبرك بوسي أي خدمات طلبها منه؟".

"من الواضح أن توم العجوز كان يخطط للإبحار على متن ساردام، ولكنه كان بحاجة إلى الاستعداد أولًا".

تساءلت كريسي: "أي استعداد؟".

"لم يخبرني، قال فقط إن توم العجوز يخطط للتغذي على معاناة كبيرة للغاية، حتى إنها ستشبعه لسنوات، رغم أن النجار لم يكن يعرف شيئًا عن هذا الأمر".

فتح حقيبته وبحذر أخرج كتابًا مجلدًا من غلافه المصنوع من جلد الماعز.

قالت كريسي في دهشة: "هذه موسوعة شياطين؟".

قالت ليا وهي تقترب من الكتاب: "ما هي موسوعة الشياطين؟".

أجابها ساندر وهو يمسح بعض الغبار من على غلاف الكتاب: "هو تصنيف للشياطين، يصف طبقاتهم وأساليبهم في إفساد البشر وكيف نخلص أنفسنا منهم، إنه أعظم سلاح قد يحوزه صائد ساحرات. كل واحد في جماعتي يمتلك نسخة منه".

قالت ليا وهي تنظر من فوق كتفه النحيل بتوتر: "لقد سمعت أن الملك جيمس قد أمر بجمع مجلد لغرض مماثل".

ابتسمت سارا، فرغم أن ابنتها مرعوبة لا يمكنها أن تقاوم المعرفة.

قال ساندر: "إنه ناقص ومبني على التخمين، واستنتاجاته مستقاة من الشائعات". ثم مرر أصابعه على كعب كتابه وقال: "يلتقي أعضاء جماعتي بانتظام لمشاركة ما تعلمناه أثناء تحقيقاتنا، ونضيف هذه المعلومات الجديدة إلى كتبنا، كل موسوعة شياطين تحتوي على خلاصة معرفة كل صائدي الساحرات، التي جمعوها في أعمار قضوها في التحقيق في الشر، ولا يضاهيها في حكمتها إلا الكتاب المقدس ذاته".

قلب ساندر صفحات موسوعة الشياطين المصنوعة من الرق بأصابع مرتجفة، وكل صفحة مغطاة برسومات متداخلة ومؤطرة بزخرفات من الكتابة اللاتينية. بعد أن عثر على الصفحة التي يريدها تنحى جانبًا لكي يتمكنوا من رؤيتها.

تراجعوا جميعًا للوراء، وقد تلوى وجه ليا في اشمئزاز، بينما رسمت كريسي الصليب في الهواء بشكل غريزي، وحتى سارا أشاحت ببصرها.

كانت الرسمة مروعة.

إنها تُظهر رجلًا عجوزًا عاريًا بجناحي خفاش، يمتطي ذئبًا برأس خفاش، والذئب يثبت صبيًّا إلى الأرض، بينما العجوز يداعب وجنته بيده المخلبية، ويحيط بهم حلقة من المجذومين.

سألته سارا وهي ترتجف من الاشمئزاز: "هل هذا هو توم العجوز".

أجابها ساندر: "أجل".

قالت كريسي في عدم تصديق: "إن كان هذا الشيء على متن ساردام لعرفنا بالأمر".

قال لها: "إن هذه واحدة من أشكال الشيطان العديدة، ولكنه ليس الشكل الذي يستخدمه حاليًا، إن توم العجوز يمشي على متن سفينة ساردام وهو يبدو كواحد منا".

"هل تعني أنه...".

"قد استحوذ على أحد الركاب".

خيم عليهم جميعًا صمت مذهول.

في النهاية سألته سارا: "من؟".

هز البريديكانت رأسه وقال: "هذا ما أنا هنا لمعرفته".

٢٤

تعالى صوت طرقات على الباب وقد عادت إيزابيل وهي تحمل الخطاب الذي سلمته لساندر، وعلى الفور أعطاه لكريسي التي كانت تحدق إلى خارج الكوة في تفكير عميق. كانت سارا مطرقة برأسها وهي تحدق إلى صورة توم العجوز في تركيز شديد.

فضَّت كريسي الخطاب في حذر كأنما تتوقع أن شيئًا حادًّا سيسقط منه.

بعد أن قرأت محتوياته اكتسى وجهها بالصرامة وهي تقول بحدة: "هذا ختم زوجي، ولكن هذا ليس خط يده، لم يكتب بيتر هذا الاستدعاء".

سألها ساندر كيرس: "ما الذي يعنيه هذا؟".

أغلقت سارا الكتاب بقوة وهي تقول: "أن هناك من استدرجك إلى هنا، شيء ما ينتظرك في باتاقيا يا ساندر، ونفس الشيء على الأرجح قد استدرجك إلى ساردام. هل يمكنك أن تفكر في السبب؟".

جعلت الصدمة ساقيه ترتعشان، فأسرعت إيزابيل لكي تسنده.

قال وهو يمسح وجهه بيده: "أنا آخرهم".

"آخر من؟".

قال: "جماعة صائدي الساحرات. بعد موت بيتر بدؤوا... كان هناك حوادث وجرائم قتل، بعضهم قد اختفوا، ولكن... لم يتبقَّ سواي. كنت مختبئًا لسنوات، وغيرت اسمي وتركت حرفتي لأصير بريديكانت".

تساءلت كريسي: "إن كنت مختبئًا فكيف وصل إليك هذا الاستدعاء؟".

"إن أفراد جماعتي يسافرون إلى جميع أنحاء العالم، لذا نرسل كل رسائلنا إلى كنيسة في أكسل، واعتدنا الذهاب إلى هناك كل بضعة أشهر لتفحصها، وهنالك وجدت هذه الرسالة من بيتر، ولكن لا أحد يعرف أن عليه ترك الرسائل هناك سوى أفراد جماعتي".

قالت كريسي في ألم: "لقد تعرض زوجي للتعذيب قبل موته، من المحتمل أنه أفصح عن اسم الكنيسة".

قال ساندر والنيران تتقد في عينيه: "إذن فتوم العجوز يتعقبني". ثم نظر إلى إيزابيل وقال: "لقد ارتكب هذا الشيطان خطأً فادحًا بتسليم نفسه إلى حكم الرب".

تمتمت سارا، وقد شعرت بالتوتر من حماسه الديني: "سيكون عليك أن تجده أولًا. إن كان من المحتمل أن توم العجوز قد استحوذ على أي شخص على متن هذه السفينة فلمَ تثق بنا؟".

نظر ساندر إليها وقال بصراحة: "أنتِ غير ذات أهمية، توم العجوز يشعر بالكبرياء، وهؤلاء الذين يستحوذ عليهم يجب أن يكونوا أقوياء أو أصحاب سلطة، أن يكون لديهم ما يكفي من النفوذ للذهاب حيث يشاؤون، وهذا النفوذ يزداد قوة كلما طالت سيطرته عليهم. الحقد

والخراب ينبعثان من توم العجوز كما تتبعنا الظلال على سطح السفينة. لقد سمعت حكايات عنك يا سارا، إن زوجك يضربك، أليس كذِلك؟".

احمر وجهها خجلًا، ولكن ساندر أكمل بلا هوادة قائلًا: "ما كان توم العجوز أن يسمح باستمرار شيء كهذا، والسيدة ينس بريئة من الاشتباه بسبب زوجها، لقد كان الأكثر خبرة في التعامل مع توم العجوز، وما كان لينخدع".

سألته ليا التي كانت قد جلست على الفراش: "أليس من المحتمل أن يكون توم العجوز قد سيطر على كريسي بعد قتل بيتر؟".

نظرت كريسي ناحيتها، ولكن ليا هزت كتفيها وقالت بجدية: "لا أعتقد أنك شيطانة، ولكن على أحدنا أن يسأل السؤال".

"لا يمكن لتوم العجوز أن يستحوذ إلا على روح قد عقدت معه صفقة، ولا أرى في ظروفك الشخصية ما يشي بأنك تحوزين مثل هذه القوة، نفس المنطق يستبعد إيزابيل التي كانت متسولة عندما ضممتها إلى جماعتي".

سألته سارا: "وماذا عنك يا ساندر كيرس؟ لمَ يجب أن نثق بك؟".

توقعت منه أن يغضب، ولكنه ضحك بمرح وقال: "هذا سؤال جدير بأن يسأله صائد ساحرات، إن كنتُ توم العجوز فلن يكون لديَّ سبب للإفصاح عما أعرفه". ثم أضاف وهو يشير إلى ثيابه البالية: "كما أن صيد الساحرات يمنح المرء القليل من المكافآت، كان عليَّ أن أتسول الصدقات من المصلين من أجل إقامتنا في باتافيا".

تململت ليا وقالت: "يجب أن نذهب يا أماه، سنتأخر عن الإفطار".

قالت سارا: "لا يزال لدينا بضع دقائق. إن كنت لا تعرف من الذي يستحوذ عليه توم العجوز فلمَ انزعجت عندما اقترحت أن ينضم إلينا آرينت؟ إنه قوي أعترف بهذا، ولكنه مع ذلك مجرد خادم، كما أنني لم أرَ منه شيئًا سوى الشرف والشجاعة والشهامة".

إن دفاعها الشديد عنه جعل كريسي ترمقها بنظرها، حتى سارا نفسها تفاجأت بكلماتها. لم يعرف أحدهما الآخر إلا ليوم، وقد التقيا عند جسد محترق، كما أنه ابن الأخ المحبوب لأفظع رجل قد عرفته في حياتها. الحقيقة هي أنها لا تعرف عنه شيئًا باستثناء ولائه لساموويل بيبس، وقدرته على عزف أغنية كانت لتستمتع بها وهي طفلة، ورفضه لتلقي ثمن مساعدتها على رصيف الميناء.

قال ساندر موبخًا: "يجب ألا يخدعك سلوك آرينت، إن الشياطين يتنكرون بشتى الطرق، لقد رأيت الأمر مرارًا وتكرارًا، إنهم بارعون في جعل أنفسهم محبوبين قدر الإمكان، لكي نتبعهم عن طيب خاطر إلى الهلاك". ثم فرك أنفه وقال: "لا أعرف على وجه اليقين إن كان آرينت هو الشيطان، ولكنه قد يكون كذلك. قد يكون أي واحد من الركاب الأثرياء، أو كبار أفراد الطاقم. أي روح تعقد صفقة مع توم العجوز يمكن أن تؤويه. قبل ثلاثين عامًا في الأقاليم راح بيتر يطارده من نبيل إلى نبيل، وكان يتفاجأ باستمرار من الأشياء التافهة التي يتخلون عن أرواحهم من أجلها. آرينت هايز جندي مشهور، وقد أمضى حياته بأسرها في إراقة الدماء، ومن خلال ساموويل بيبس يمكنه أن يصل إلى أي ملك في الأرض، لا يمكن أن نستبعده".

سألته كريسي بمكر: "وكيف يمكن لثلاثة مخلوقات عاجزة لا تستحق اهتمام توم العجوز أن تساعدك من وجهة نظرك؟".

"يجب علينا أن نكشف هوية الشيطان".

"كيف؟".

"بالتحقيق في الأمر، الشيطان مخلوق متقلب المزاج، إنه خبيث وحاقد وعازم على نشر المعاناة أينما حل. حتى وهو مختبئ لا يمكنه أن يخفي طبيعته الحقيقية لوقت طويل، وإن ضيقنا الخناق على الشيطان فسيكشف عن نفسه".

"وبعدها؟".

قالت إيزابيل: "سأقتله".

قال ساندر معترضًا: "عندما يستحوذ توم العجوز على جسد فإنه لا يتخلى عنه حتى في الموت، إن كنتم لا تصدقوني فانظروا ما حدث لبوسي. لإنقاذ الروح يجب علينا أن نذبح الجسد ثم نؤدي طقوس النفي المذكورة في موسوعة الشياطين، يمكننا أن نعيد توم العجوز إلى الجحيم حتى يختار أحمق ليستدعيه مرة أخرى".

قلب ساندر صفحات الكتاب ثم طلب من سارا أن تقترب.

كانت الصفحة مقسومة إلى لوحة تمثل ثلاث مآسٍ؛ الأولى تُظهر قرية مليئة بالأمهات المنتحبات أمام مهود فارغة، بينما يحمل المجذومون أطفالهم إلى الغابة حيث ينتظرهم توم العجوز، الثانية تُظهر نهرًا محترقًا، وأخيرًا صورة رجال يعتنون بالحقول حيث تحولت المحاصيل إلى ثعابين.

قالت كريسي في اشمئزاز وهي تشيح ببصرها: "أغلق الكتاب، أغلقه!".

تجاهلها ساندر وهو يقول: "بعد أن يعلن المنذرون عن حضور توم العجوز -كما حدث على الشراع- يتبع هذا ثلاث معجزات شيطانية، وكل معجزة تحمل علامته، إنها تكون مختلفة في كل مرة، ولكن من المفترض أن تقنعنا بقوته".

أضافت إيزابيل: "مثل العليقة المشتعلة التي ظهرت لموسى".

"بمجرد أن تبدأ المعجزات الشيطانية، سنسمع صوت توم العجوز يعرض علينا تحقيق رغباتنا نظير أفعال شنيعة".

قلب الصفحة.

كانت القرية محترقة والجثث متكدسة على الأرض، والقرويون يهاجم بعضهم بعضًا بالمعازق والمناجل، ويحرقون بيوتهم بالمشاعل.

بينما المجذومون يتحلقون من حولهم متشابكي الأيدي وهم يشاهدون المجزرة في بهجة، ومن خلفهم يطوف الشيطان وقد تدلى لسانه.

قال ساندر: "بعد تأدية المعجزة الشيطانية الثالثة فإن هؤلاء الذين لم يعقدوا صفقة مع توم العجوز سيذبحهم أولئك الذين فعلوا هذا، ومن يبقى على قيد الحياة يرسله الشيطان لزرع بذور الشر في مكان آخر، هذا ما ينتظر ساردام إن لم نتصرف".

مدت سارا يدها لتلمس اللوحة، ورغمًا عنها رسمت مخيلتها صورة هؤلاء الذين تحبهم بين الموتى، فاغرورقت عيناها بالدموع.

تساءلت وهي تبعد هذه الصورة عن مخيلتها: "متى ستبدأ هذه المعجزات الشيطانية؟".

قال: "لا أعرف على وجه اليقين، لذا يجب علينا ألا نضيع وقتًا. توم العجوز على متن هذه السفينة، وكلما تأخرنا في اكتشافه اقتربنا من الهلاك".

٢٥

ضرب هان بيده على الطاولة لترتجف الأطباق وقال: "أخبرني!".

قال آرينت محتجًّا: "عماه...".

قال يان ضاحكًا: "قلها، قل إنني كنت مخطئًا".

شعرت سارا بليا الجالسة إلى جوارها تميل إلى الأمام لتحدق إلى أبيها، بينما الحيرة واضحة على وجهها. كانوا قد اجتمعوا كالعادة من أجل الإفطار، وهي الوجبة الوحيدة التي يتشاركونها في اليوم. في معظم المرات تتبادل هي وليا الحديث بينما يأكل زوجها في صمت وبأسرع ما تسمح به اللياقة، حتى يتمكن من التحرر من عبء صحبتهما.

هذه المرة كان الأمر مختلفًا، فهما من كان انتباههما مشتتًا، لا تزالان تحاولان فهم ما قاله لهما ساندر كيرس، وعلى النقيض منهما كان زوجها مليئًا بالبهجة.

على عكس قاعة الطعام في القلعة التي تفوح منها رائحة الحجر والغبار، كانوا يتناولون الطعام في المقصورة الكبرى، التي تتدفق إليها أشعة الشمس عبر النوافذ الشبكية الأربعة. كان المحيط فيروزيًّا، بينما السفينة تترك في أعقابها أثرًا من الزبد يمتد عائدًا إلى باتاڤيا، أو هكذا تحب سارا أن تتخيل.

ولكن السبب الحقيقي لبهجة زوجها كان آرينت، فقد كان جالسًا قبالته على الطاولة، وقد شغل مساحة تكفي شخصين بحجم طبيعي.

كان غافلًا عن آداب العائلة، فبدأ على الفور يمزح مع زوجها ويتحدث إليه بطريقة لم ترَ أحدًا من قبل يجرؤ على التحدث بها معه. عادة ما يكون حضور زوجها على الإفطار رسميًّا، وقد وضع مسافة بينه وبين الآخرين، ولكنه استجاب بطريقة صاخبة، حيث راح يتذكر فريزيا التي ترعرع فيها هو وآرينت، فيروي حكايات عن خوض حرب الاستقلال ضد الإسبان، والمزيد من الحكايات حول تحوله إلى تاجر وبعد ذلك الحاكم العام لباتافيا.

لقد تحول إلى شخص مختلف في صحبة آرينت.

قال زوجها في إلحاح: "كيف كنت لتتعامل مع هذا النزاع بشكل مختلف؟ بربك يا آرينت أنت معروف بكونك رجلًا شريفًا، وكان جدك يعتقد أنك أكثر براعة مما يبدو عليك، ماذا كنت لتفعل؟".

"أنا لا أريد...".

تدخلت سارا قائلة بحذر: "زوجي".

قال وهو يرمقها بنظرة مغتاظة: "لا تخشَ شيئًا يا آرينت، هذه محادثات ودّية، وليس هناك غرض آخر وراء سؤالي".

قال آرينت بهدوء: "إن سفك الدماء طريقة سيئة لتسوية أي نزاع، من حق أي رجل أن يأكل مما يزرع، وأن يتلقى أجرًا مناسبًا إن قرر بيعه، لا أفهم لمَ لا تحترم الشركة هذا؟".

ارتشف الحاكم العام رشفة أخرى من النبيذ، وكما وعده لم يبدُ أنه قد شعر بأي إهانة، بل على العكس لقد بدا مستغرقًا في التفكير في الأمر.

قال: "ولكنك قتلت من قبل. ألم تطع أوامر بأن تقتل؟".

أجابه آرينت وقد بدا عليه بوضوح عدم الارتياح: "أجل، قتلت رجالًا يزحفون تحت رايات، رجالًا قد أرادوا قتلي أولًا".

"أقصد رجالًا قد تلقيت ثمن قتلهم، هذا هو عمل المرتزقة؟ أليس كذلك؟ إبرام عقود نظير مال".

"أجل".

قال زوجها وهو يميل للأمام ويشبك يديه: "إن سكان جزر باندا قد أخلوا بالعقد، لقد دفعنا لهم نظير زراعة التوابل وتسليمها لنا، وعندما وصلت السفينة لأخذ الشحنة قتلوا اثنين من رجالنا وطردوا السفينة".

تحركت شفتا سارا في جدال صامت، ولكن كلماتها لم تخرج من شفتيها، كانت أكثر حكمة من أن تعبر عن غضبها بصوت عالٍ، كثيرًا ما يذكر زوجها جزر باندا في محادثاته، إنه يرهب الناس للموافقة على ما قد فعله مهما كان فظيعًا.

ولسبب ما، بدا أنه يستمتع برؤيتهم يحجمون عن معارضته.

قال آرينت: "لأن العقد لم يكن عادلًا، كانوا يتقاضون أجورًا سيئة وقد خشوا أن يعيشوا حياتهم مقيدين بهذه الشروط، لقد حاول رجالك أن يأخذوا المحاصيل بالقوة".

قال الحاكم العام وهو يهز كتفيه: "لقد وقعوا على نفس العقد الذي أبرمته، وكانوا يعرفون الشروط".

غامرت سارا بأن قالت: "كان بمقدورك أن تدفع لهم بشكل عادل". ثم أحست بالرعب من جرأتها.

قال زوجها بازدراء: "إن جزر باندا مكان مزرٍ، ما نفعهم بالثروة إن كانوا سيضيعونها في شراء الخرز من الإنجليز، ليس لديهم فنون ولا ثقافة ولا فكر. إنهم بلا شك يعيشون كما كنا نعيش عندما خلقنا الله من الطين". ثم هز رأسه في أسى وهو ينظر إلى آرينت، كأنما المرتزق هو من قدم هذا الرأي. "هل كان علينا أن نتركهم على هذه الحالة، إن الشركة لا تمنح الثروة فحسب، بل تمنح الحضارة، إنها ضوء في الظلام. تُبنى المجتمعات على العقود، على الوعود التي نقطعها بعضنا لبعض، والأموال التي ندفعها نظير هذا. هناك عقود سيئة بالطبع، ولكن يجب أن نلتزم بها ونتعلم منها. هذا ما فعلته، وهذا ما فعله جدك، إن سكان جزر باندا قد خلطوا الحبر بالدماء، ولم أستطع أن أسمح بأن يمر هذا مرور الكرام، إن فعلت هذا ستقلدهم القبائل الأخرى، حينها فإن العقد -كلمة الشركة- لن يعني شيئًا، وسيكون مستقبلها مهددًا بالخطر".

قال آرينت: "لقد أبدتَ جزيرة برمتها". بدا عليه أنه غير قادر على فهم قسوة عمه.

ضرب بقبضته على الطاولة مع كل كلمة وهو يقول: "كل رجل وامرأة وطفل، أجل، مذبحة واحدة، لكيلا يكون هناك مذابح أخرى، ولم يكن هناك مذبحة أخرى منذ ذلك الحين".

لم يستطع آرينت أن يفعل شيئًا سوى التحديق إليه.

تحولت المحادثة إلى الصمت المعتاد فأولت سارا انتباهها إلى طبقها، لقد وُضع أمامها السمك المملح والجبن مع الخبز والقليل من النبيذ. إنها تكره مذاق هذا المشروب، وتفضل عصير الجامبيو الذي يقدمونه في باتاڤيا.

هز يان رأسه وهو ينظر إلى سارا، قبل أن يقول بلطف: "كنتِ محقة يا زوجتي، كان هذا موضوعًا سيئًا بالنسبة لهذا التجمع المبهج، ولكني نادرًا ما أتحدث إلى شخص أحترم رأيه". ثم أومأ برأسه وقال: "أقدم لك اعتذاري وشكري يا ابن أخي".

كادت سارا أن تختنق وهي تشرب النبيذ، فزوجها لا يعتذر، ولا يمدح ولا يجامل ولا يُذعن.

اعتصرت يد ليا من تحت الطاولة، فقد كان الملازم هايز ينعم بالعاطفة التي قضت ابنتها حياتها تتوق إليها.

تساءل الحاكم العام وهو ينتزع قطعة من الدجاج عن العظم: "كيف تجري التحقيقات؟ هل عرفت لمَ يترصد شيطان بهذه السفينة؟".

قال آرينت معترفًا وهو ينظر خلسة ناحية سارا: "ليس بعد، لقد عرفنا أن المجذوم كان اسمه بوسي، وأنه كان أحد أفراد طاقم ساردام قبل أن يقطع لسانه عريف الملاحين يوهانس ڤيك. عرفنا أنه قد عقد صفقة مع توم العجوز الذي عرض عليه ثروة كبيرة نظير خدمة خطيرة. يعتقد سامي أننا إن فهمنا موته فسنفهم كل شيء آخر".

قال زوجها محذرًا بينما رغيف من الخبز يوضع على الطاولة وإلى جانبه سكين كبيرة: "لا تخطئ بالظن أن هذا الوحش عدو تقليدي، عندما هاجم الأقاليم استخدم رغبات الناس ضدهم، أي شخص

يحمل ضغينة أو يطمع في ممتلكات شخص آخر، أي شخص يعتقد أنه قد ظُلم أو نُسي، هؤلاء الأشخاص هم فريسته، مما يجعل السفينة وليمة بالنسبة له". كان يمضغ الدجاج وهو يتحدث. "صدقني يا آرينت إنه أكثر دهاءً ومكرًا من أي مخلوق واجهتَه من قبل".

تبادلت سارا نظرة حذرة مع ليا. هل هذه هي كلمات توم العجوز؟ هل يتلاعب المخلوق بهم؟

قال آرينت بينما طبق من الفاكهة الباتاقية يوضع على الطاولة أمامه: "إذن يجب أن أتوسل إليك مرة أخرى أن تحرر سامي من زنزانته، أنا لا أستطيع التغلب على هذا التهديد وحدي".

ابتلع عمه الطعام ثم قال محذرًا: "ليس لدي رغبة في تكرار جدال أمس، أنت تعرف شعوري حيال الأمر".

خيم الاضطراب على بقية الإفطار الذي كاد أن ينتهي، وافق آرينت على مضض على الحضور مرة أخرى غدًا، ثم انصرف الحاكم العام إلى مقصورته، وبدا عليه الانزعاج من الحالة التي تفرقوا عليها.

ما إن خرج من الحجرة حتى دارت سارا حول الطاولة لتتحدث مع آرينت، الذي كان يحدق إلى كرسي عمه كأنما ينظر إلى أحجية مستحيلة.

قال آرينت عندما وقفت إلى جانبه: "إنه حقًّا لا يبالي. لقد ذبح كل هؤلاء الناس ويعتقد أن ما فعله هو عين الصواب".

تبادلت سارا نظرة مع ليا، لم يريا أحدًا من قبل يتفاجأ من قسوة الحاكم العام. قالت سارا: "لا يشغل زوجي نفسه بالضمير وما إلى ذلك".

قال آرينت وقد غرق في الذكريات: "كان يفعل عندما كنت صبيًّا، كان أطيب شخص عرفته في حياتي. منذ متى وهو على هذا الحال؟".

قالت سارا: "منذ أول يوم التقيته فيه قبل خمسة عشر عامًا".

قال آرينت في شرود: "إذن فشيء ما قد تغير فيه، إنه ليس الرجل الذي أذكره من طفولتي".

٢٦

مشى آرينت وسارا وليا معًا عبر الجناح الموجود تحت السطح الأوسط، ثم إلى ضوء الشمس. كان الجو دافئًا ورطبًا والسماء الزرقاء ممتدة في كل اتجاه. كانت ساردام تشق طريقها بسرعة معقولة، والرياح ثابتة وقوية وتدفع الأشرعة كما لو أنها تفعل هذا بكل سرور.

كان قائد الحرس دريخت يصفُّ فرسانه على خصر السفينة ويوزع عليهم الأسلحة من الصناديق المليئة بالقش. أدركت سارا أنه يعتزم تدريبهم يوميًّا، وهذا لإبقائهم مشغولين لا للحفاظ على لياقتهم، فالملل في مكان مقيد مثل السفينة يمكن أن يكون الشرارة التي ستحرق كل شيء.

تساءلت ليا: "ما الذي حدث في الليلة الماضية؟ لا يريد أحد أن يخبرني بأي شيء".

قال آرينت بينما يبدو عليه أنه لا يزال يفكر في عمه: "لقد ظهرت سفينة أخرى، ثم اختفت قبل الفجر".

قالت ليا: "توم العجوز؟".

"لا أحد يعرف، كانت بعيدة للغاية على أن نميز ألوان رايتها".

تمتمت وهي تعقد حاجبيها في تفكير: "لا شك أنه توم العجوز. كانت الرياح جنوبية في الليلة الماضية، والسفينة الهندية المحملة بالكامل تزن...".

قالت أمها محذرة: "ليا!".

قالت ليا في خجل: "قصدت فقط أنه من المستحيل أن تبحر خارج مرمى بصرنا في مثل هذا الوقت القصير".

نظر آرينت إليهما وقد لاحظ ما ساد بينهما من توتر، ولكنه اختار في تهذيب ألا يقول شيئًا. حاولت سارا أن تبعد الخوف عن وجهها، إن تعليقات يسيرة كهذه هي ما تفصح عن الذكاء الكامن بداخلها، وهي التي دفعت زوجها إلى حبس ليا داخل القلعة. لقد اتُّهمت بأنها ساحرة أكثر من مرة عندما كانت صغيرة، وهو اتهام يمكن بسهولة أن يشوه سمعتهم الحسنة إن انتشر بين الناس.

انتهزت سارا الفرصة لتغيير الموضوع فقالت: "هل أخبرت بيبس بما اكتشفته؟".

قال آرينت مصححًا: "بما اكتشفناه". ثم أضاف: "إن لديه بعض الأسئلة التي يريد منا أن نبحث عن إجابتها".

قالت في دهشة: "منا؟".

قال آرينت في حرج: "المعذرة، لقد افترضت أنك تريدين...". ثم بتر جملته وقد بدا عليه التردد.

قالت على الفور وهي تلمس ذراعه لتطمئنه: "أريد هذا بالطبع. أنا فقط لست معتادة على...". ثم تفحصت وجهه بعينيها الخضراوين

بحثًا عن أي كذب مختبئ فيه قبل أن تقول: "على أن يعهد أحد إليَّ بأي شيء أكثر من محادثة جانبية لوقت طويل".

قال آرينت وهو غير قادر على مبادلتها التحديق: "لا يمكنني أن أفعل هذا وحدي. لا أعرف ما يجب فعله، وأنتِ لديك موهبة في طرح الأسئلة الصحيحة، أريد مساعدتك إن كنتِ ستمنحينها لي".

"معظم الرجال سيقولون إن هذا عمل لا يناسب امرأة". كان هناك نبرة تحدٍّ واضحة في صوتها.

قال آرينت معترفًا: "كان أبي واحدًا من هؤلاء الناس، لقد علمني أن النساء مخلوقات ضعيفة، وأن الرب قد خلقهن ضعيفات عمدًا لكي يثبت الرجال صلاحهم من خلال حمايتهن، لقد بدا هذا صحيحًا بما يكفي حتى ذهبت إلى الحرب ورأيت رجالًا يتوسلون من أجل حياتهم، بينما أرى نساء يلوحن بالمعازق في وجوه فرسان يحاولون أخذ أراضيهن". ثم اكتسى وجهه بالصرامة وهو يقول: "القوي قوي والضعيف ضعيف، ولا يهم إن كنت ترتدي سروالًا أم تنورة، فإن كنت ضعيفًا ستسحقك الحياة".

وقعت كلماته على سارا كأشعة شمس تلمس نبتة بعد شتاء طويل. نصبت ظهرها وشمخت بأنفها بينما عيناها تلمعان وجلدها يتورد بالدماء. كثيرًا ما استيقظت في القلعة وهي تشعر بالخواء، كأنما تركت روحها في الفراش. في أيام كهذه تتجول في الأروقة بلا نهاية وهي تنظر إلى الغرف والنوافذ مشتاقة إلى العالم الكامن وراء الجدران.

عادة ما تجد طريقة للتسلل متجاوزة الجدران إلى البلدة، متقبلة أن زوجها حتمًا سيبرحها ضربًا عندما تعود بعد حلول المساء. ولكن

بينما تتحدث مع آرينت شعرت بنقيض الخواء، أحست أنها مفعمة بالحياة حتى تكاد أن تتفجر بها.

سألته: "كيف يمكنني أن أساعدك؟".

"بأكثر من طريقة، نحتاج إلى معرفة المزيد عن بوسي، من أين جاء، ومن هم أقاربه، ومن أصدقاؤه، وما الذي طلبه منه توم العجوز، إن سامي يعامله كضحية في هذا الأمر كلّه".

قالت سارا: "سأتحدث إلى كبار المسؤولين أثناء العشاء، سيرخي النبيذ ألسنتهم، هل هناك شيء آخر؟".

"يريد سامي أن يعرف لمَ يوجد على متن هذه السفينة عدد كبير من الأشخاص الذين لهم علاقة بتوم العجوز، بدءًا بعمي، هل تعرفين لمَ اختار أن يبحر على متن ساردام بدلًا من أي سفينة أخرى؟".

قالت وهي تثبت قبعتها التي تحاول الرياح انتزاعها: "إنه معجب كثيرًا بالقبطان كراوڤلز، لقد ذكر شيئًا لرينير ڤان شوتن بشأن الشحنة الموجودة على متن السفينة، لقد طلب منه أن يتحقق منها في اللحظة التي ركبنا فيها".

"الغنيمة؟".

"شيء آخر، شيء أكبر".

"لقد سمعت القبطان كراوڤلز يتذمر بشأن هذا، إن لدينا نقصًا في الطعام بسبب المساحة التي يشغلها. هل تعرفين ما هو؟".

"لا أعرف، ولكني سأسعى لمعرفة هذا. ماذا ستفعل أنت؟".

"سأحاول معرفة إن كان بوسي له أي أصدقاء على متن السفينة يمكنهم أن يخبرونا بشأن الصفقة التي عقدها، ومن عقدها معه، وبعدها يجب أن أجد طريقة لإقناع يوهانس ڤيك بأن يخبرني بما تعنيه لاكساجار".

"يمكنك أن تحاول رشوته، فلدي الكثير من المجوهرات التي يمكنني أن أتخلى عنها".

ابتسمت له ابتسامة ماكرة، فضحك رغمًا عنه وقال: "سأحرص على أن أجرب هذا. هل يمكنك أن تصعدي إلى السطح العلوي بعد العشاء مرة أخرى الليلة؟". ثم سعل وقد أدرك فجأة ما يتضمنه سؤاله فقال: "أعني أنه يمكننا أن نتشارك ما عرفناه".

قالت: "أفهم هذا، سوف آتي".

أومأت سارا برأسها، فرحل آرينت بينما إحساسه بالحرج يحثه على الإسراع مبتعدًا.

راقبته ليا وهو يحني رأسه ليمر عبر القنطرة قبل أن يختفي هابطًا السلم المؤدي إلى السطح السفلي، ثم قالت: "لا يبدو شيطانًا بالنسبة لي".

اعترفت سارا قائلة: "ولا أنا".

"بل إنني في الواقع أحبه".

قالت سارا: "أجل، وكذلك أنا".

"هل تعتقدين أنه يجب علينا أن نخبره بشأن خطتنا لـ...".

قالت أمها بحدة: "لا". ثم قالت بلطف: "هذه خطتنا وحدنا، نحن وكريسي". بدت حدة نبرة سارا كجبل يفصل بينهما، فقالت وهي تضع رأسها على كتف ليا: "المعذرة يا حبيبتي، ما كان يجب أن أصرخ في وجهك".

"لا، فهذه وظيفة أبي".

ابتسمت سارا في حزن وقالت: "ليس لوقت طويل". ثم تلاشت الابتسامة وهي تقول: "هل معك كل شيء تحتاجين إليه؟".

"أجل، إنها مهمة يسيرة".

قالت سارا: "بالنسبة لك أنتِ فحسب". ثم راحت تمسد شعر ابنتها الأسود وقد كانت يداها باردتين بشكل غريب في الهواء الرطب. "سنبدأ الليلة".

صعدتا إلى السطح العلوي حيث كان إيجرت -الفارس الذي يحرس مقصورات الركاب- مشغولًا بنزع القشور عن فروة رأسه. لم يلاحظهما إلا في اللحظة الأخيرة، وحينها كاد أن يسقط رمحه. تخبط في تحية خرقاء بينما يحاول منع رمحه من السقوط فكاد أن يطعن نفسه.

سمعتا صوت كريسي ودوروثيا تتبادلان الحديث على سطح الحظائر، وفي اتفاق غير معلن صعدتا درجات السلم لتجدا صديقتيهما جالستين وموليتين ظهريهما إلى حظائر الحيوانات. كانت كريسي تضع بكرة من الخيوط على حجرها ومظلة فوق رأسها، بينما دوروثيا تخيط إحدى سترات أوسبرت.

بينما تقتربان تساءلت كريسي: "هل آرينت هو شيطاننا؟".

قالت سارا: "إن كان هو فإنه يبلي حسنًا في إخفاء الأمر. أين الولدان؟".

قالت كريسي بنبرة مزدرية كما تفعل دومًا عندما تتحدث عن الحاجب: "يفرجهما ڤوس على مخزن البضائع".

"ڤوس؟ هل يعرف الولدين حقًّا؟".

"لا أعتقد هذا، ولكنه يحاول إثارة إعجابي، على أي حال لقد أرادا الذهاب، ومن المضحك رؤيته يصرخ بالأوامر في وجهيهما كأنهما كلبان".

قالت ليا في حسم: "أعتقد أن أبي هو الشيطان". بدا عليها أنها لا تزال تفكر في مناقشتهم السابقة.

قالت كريسي: "أبوكِ؟". ولكنها لم يبدُ عليها أنها تفاجأت بهذا التصريح لأكثر من اللحظة التي استغرقتها للتفكير فيه.

تدخلت دوروثيا قائلة بحكمة وهي تمتص إبهامها الذي وخزته بالإبرة: "ليس أباكِ، لقد عشت مع شره لوقت طويل، وصدقيني إن هذا شره وحده".

قالت سارا في تفكير: "يقول آرينت إنه قد تغير، هل تذكرين كونه مختلفًا يا دوروثيا؟".

"مختلف؟".

"أكثر لطفًا".

"لقد عملت معه بعد أن رحل الفتى إلى الحرب، إن كان فيه لطف فقد ذهب مع آرينت".

تساءلت ليا بفظاظة: "لمَ لا يكون أبي هو الشيطان؟ لقد قال البريديكانت إن توم العجوز شرير ولن يكون قادرًا على إخفاء هذا".

قالت سارا وهي تحدق إلى المياه: "الحقيقة هي أنه قد يكون أي شخص، أو قد لا يكون أحدًا، فنحن لسنا متيقنين أن ساندر كيرس لا يكذب، إن كنتُ توم العجوز فسأكون ماكرة بما يكفي لأشير بأصابعي إلى اتجاه آخر. أو قد يكون الأمر برمته خدعة ماكرة لتحقيق شر أعظم".

كان انعكاس صورة ساردام يتمايل على سطح المحيط، وتحتله أطياف بحارة، بل وحتى طيف سارا، من هذه الزاوية بدت سفينة جميلة، وبدا الطلاء الأخضر والأحمر طازجًا كاليوم الذي طُلي فيه. بل إن الصورة المنعكسة جعلت ساردام الحقيقية -بألواحها المنثنية وطلائها المتقشر- تبدو سفينة شبحية.

قالت كريسي وهي تميل برفق ناحية سارا: "سأضمن صحة موسوعة الشياطين، فقد كان لدى زوجي موسوعة مثلها، وإن كان ساندر يكذب فلمَ يقدم لنا الخطاب الذي استدرجه إلى هنا؟ بالتأكيد يعرف أننا سنكشف زيفه".

قالت دوروثيا بحزم: "إنه لا يكذب، فهناك نوعان من الأكاذيب، إما أن تكون فجة للغاية وإما طفيفة للغاية. لقد كان حازمًا وصادقًا، كما أنه بريديكانت". بدا هذا دليلًا كافيًا، بالنسبة لها على الأقل.

تمتمت سارا: "أو هذا ما يزعمه".

ضحكت ليا قائلة: "الآن أنتن جميعًا تتحدثن مثل بيبس، لطالما قال أشياء كهذه في قصصه".

لمست كريسي كتف سارا وقالت: "ما الذي تريدين منا أن نفعله؟".

التفتت سارا لترى وجوههن المتلهفة تنظر إليها. أدركت أنهن كالشموع المستعدة للاشتعال، أحست بالإثارة، هذه هي الحياة التي لطالما حلمت بها، الحياة التي حُرمت منها لأنها امرأة.

أحست بقشعريرة من الخوف تزحف على عمودها الفقري، فكرت أن توم العجوز لن يبذل جهدًا كبيرًا لكي يضيفها إلى قائمته، إن استطاع أن يعدها بهذه الحياة فستمنحه أي شيء تقريبًا.

قالت محذرة: "قد يكون الأمر خطيرًا".

قالت كريسي في سخرية: "نحن على متن سفينة مليئة بالأشخاص الأشرار". ثم نظرت إلى الثلاثة الأخريات ليؤكدن شعورها. "سيكون الأمر خطيرًا، حتى لو لم يكن هناك شيطان يتربص بالسفينة، إن لم نفعل شيئًا فسنهلك. والآن من أين نبدأ يا سارا؟".

٢٧

شقت سارا وليا طريقهما نحو مقصورتيهما، حيث كانت الشمعة الوحيدة الموجودة في نهاية الممر تذوب بشكل مزرٍ. تكره سارا الظلمة على متن ساردام، إنها قميئة وكثيفة، كأنما آلاف الأجسام القذرة التي مرت بها قد لطختها بطريقة ما.

كانت على وشك أن تخبر ليا بهذا عندما سمعت سعال الڤيكونتيسة الغامضة دالڤين يتسلل عبر بابها.

قالت ليا مفكرة: "هل تعتقدين أن دالڤين قد تكون توم العجوز؟".

حدقت سارا إلى المقصورة وهي تفكر في الأمر. تزعم دوروثيا أنها قد سمعت ضوضاء غريبة في مقصورتها هذا الصباح، ورغم مرور يومين لم يرها أحد، من الواضح أنها تعاني مرضًا موهنًا، ولكن لا يوجد شخص واحد على متن السفينة يعرف طبيعته. تأجج الفضول داخل كريسي فحاولت أن تستجوب القبطان كراوڤلز أثناء العشاء، ولكن ذكر اسم دالڤين وحده قد ألقى بظلاله على المحادثة. عند سماع رقم مقصورتها تشبث المسؤولون الآخرون بتمائمهم متجهمين وهم يزعمون أن هذه المقصورة ملعونة. هناك شخصان قد ماتا بالفعل بداخلها كما تروي الحكايات، وأن هناك خطوات أقدام تقطع الأرضية الخشبية حتى عندما تكون المقصورة شاغرة، يقولون إن كل سفينة بها حجرة كهذه، ويكون مكانًا قد أصيب فيه أحدهم

بشكل سيئ، أو احترق بشكل أسوأ، حيث قد أصيب خادم بالجنون وذبح سيده.

الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو إغلاق الباب بالألواح الخشبية والمسامير وهجر المقصورة، أن يتركوا الشر الكامن بداخلها وشأنه، ككلب صيد في كرسيه المفضل.

بشكل غريزي قرعت سارا الباب وقالت: "ڤيكونتيسة دالڤين؟ اسمي سارا ڤيسل، وأنا معالجة. كنت أتساءل إن كان هناك أي شيء...".

"لا!". كان الصوت عجوزًا وهشًّا. "وسأطلب منك ألا تزعجيني مرة أخرى".

تبادلت سارا نظرة دَهِشة مع ليا، ثم ابتعدت عن الباب وهي تسأل ابنتها: "أي أفكار؟".

"إن ساندر كيرس يمنحها فرصة للاعتراف كل ليلة، ربما يمكنه المساعدة".

قالت سارا: "سأتحدث إليه بشأن الأمر".

بعد أن ودعت كل منهما الأخرى دلفت ليا إلى مقصورتها وتركت أمها وحيدة عند بابها. ترددت يد سارا عند المزلاج، كانت الذكرى الشنيعة للمجذوم الذي يطل عليها من الكوة لا تزال حية في ذهنها.

قالت لنفسها: "تمالكي نفسكِ بحق السماوات". ثم رفعت المزلاج وخطت إلى الداخل.

كانت الشمس تتدفق عبر الكوة لتضيء ذرات الغبار في الهواء. خطت ناحية الكوة وحاولت أن تنظر إلى الخارج، ولكن طاولة الكتابة اعترضت طريقها. جذبت طيات فستانها الثقيل إلى فخذيها ثم صعدت على سطح الطاولة بشكل أخرق، قبل أن تطل برأسها من الكوة، بحثًا عن أي شيء يثبت ما قد رأته.

كانت الألواح المطلية باللون الأخضر منحنية للأسفل ناحية مقصورة زوجها التي كانت منبعجة من الهيكل كشرنقة عثة. من الأعلى سمعت ثلاث نسوة يتحدثن على السطح، ينادين أطفالهن ويتساءلن عما سيكون عليه الحال في المقصورات، أو إن كان أحد قد رأى الحاكم العام وسارا ڤيسل منذ صعودهم على متن السفينة.

قالت إحداهن إنها امرأة جامحة وإنها تعذب زوجها المسكين. قالت أخرى ساخرة، زوجها المسكين، لقد سمعت من إحدى الخادمات في القلعة أن مزاجه متقلب وأنه عندما يكون في حالة مزاجية سيئة يركل سارا عبر الأروقة كأنما يركل كلبًا، وأنه كاد أن يقتلها أكثر من مرة.

أجابت الأخرى أن هذا ما يفعله الأزواج فلمَ يجب عليهن أن يتعاطفن مع زوجة رجل ثري، معظم الناس يتحملون ظروفًا أسوأ ويعيشون تحت أسطح متداعية ويأكلون طعامًا عطنًا.

كانت سارا على وشك أن تنفجر غضبًا عندما لمحت بصمة يد قذرة تحت كوتها مباشرة.

مالت أكثر للأمام فرأت بصمة ثانية من تحتها، ثم ثالثة ورابعة.

مع التفحص من كثب أدركت أن ما يلطخ الخشب ليس أوساخًا بل رمادًا، إن الهيكل محترق كما لو أن يد المجذوم كانت مشتعلة بالنيران، وهناك ثقوب في الألواح الخشبية حيث غرس أصابعه أثناء تسلقه.

تتبعت عيناها البصمات هبوطًا إلى سقف مقصورة زوجها حيث اختفت إلى الجانب.

إن كان حدسها صائبًا فقد خرج المجذوم من المحيط وتسلق صاعدًا هيكل السفينة إلى كوتها.

٢٨

كان آرينت لا يزال مشغولًا بما حدث في الإفطار عندما هبط السلم إلى الظلمة الرطبة في السطح السفلي، لسنوات رباه عمه برقة شديدة، لقد علمه الصيد وركوب الخيل، بل وحتى المساومة في الصفقات. صحيح أنه كان سريع الغضب، ولكنه كان يهدأ بنفس السرعة، ونادرًا ما يلجأ إلى الضرب.

الرجل الذي عرفه ما كان ليذبح جزيرة مليئة بالناس ثم يتفاخر بالنفع الذي عاد عليه من هذا. لقد رأى آرينت مذابح كهذه في الحروب، ويعرف أولئك الذين يفعلون هذا ودوافعهم لهذا الفعل، وما الذي يصيرون عليه بعدها. إنه شيء يسمم الروح ويجعلها تتآكل مما يتركها جوفاء.

من المستحيل أن يكون هذا عمه، عمه الحكيم العطوف الذي علمه عن شارلمان، والذي كان يركض إليه عندما يكون جده قاسيًا للغاية أو يطلب منه ما يفوق طاقته.

كانت الأسِرَّة المعلقة الشاغرة تتأرجح برفق مع حركة السفينة، بينما الأحذية والإبر والخيوط والملابس الممزقة والأباريق والألعاب الخشبية ملقاة بإهمال على الأرض. معظم الركاب كانوا على سطح السفينة من أجل تريض الصباح. في غيابهم كان هناك دُمْيَتا راقصتين بحجم إصبع رجل بالغ، تتحركان جيئة وذهابًا على الأرضية

بينما تنورتاهما الخشبيتان تدوران. إنهما تحفتان رائعتان، متوازنتان بشكل مثالي، ولا تزالان تتحركان رغم أن ماركوس وأوسبرت قد تخليا عنهما.

كان هناك شظية خشبية قد اخترقت إصبع ماركوس، فراح أخوه يحاول انتزاعها بشكل أخرق.

كان الأخ الأصغر يئن ويكاد أن يبكي، بينما أخوه يهدئه لكيلا يكتشف ڤوس المكان الذي تسللا إليه.

عندما رأى آرينت الولدين إلى جانب الصناديق ناداهما ليقتربا منه. جاء أوسبرت مبتهجًا بينما ماركوس من ورائه يجر قدميه وهو يمسك بإصبعه المصابة. قال آرينت لنفسه إنهما يشبهان كل منهما الآخر بشكل مدهش، بشعر بني ينسدل على أذنين كبيرتين مستديرتين، وعينين زرقاوين كالمحيط بالخارج.

قال آرينت وهو يجثو على ركبتيه ليتفحص الشظية في إصبع ماركوس: "دعني أرى يدك".

تحسس آرينت يده برفق وقد أحس بالشفقة تجاهه.

قال بصدق: "أعتقد أنه بإمكاننا إنقاذها، ولكنك ستحتاج إلى أن تكون قويًّا لدقيقة، هل يمكنك هذا؟".

أومأ الصبي برأسه، بينما شقيقه يميل مقتربًا ليرى هذا العمل المروع بشكل أفضل.

بحرص شديد اعتصر آرينت الشظية بين إصبعيه الغليظتين ليجبرها على الخروج من الجلد. كان الجزء الأصعب هو التلطيف

من قوته لكيلا يؤذي الصبي. خرجت الشظية في بضع ثوانٍ فأعطاها آرينت لماركوس كتذكار.

قال أوسبرت متذمرًا: "ظننت أنه سيكون هناك دماء".

قال آرينت محذرًا: "إن انتزعت شظية من يدك فسأحرص على أن يكون هناك دماء". ثم اعتدل واقفًا وهو يتأوه، فقد أحس بالألم وهو يرفع جسده الثقيل.

قال وهو يومئ ناحية دميتي الراقصتين، اللتين لا تزالان تدوران جيئة وذهابًا على الأرضية: "هل هاتان لكما؟ إنهما مصنوعتان ببراعة".

قال ماركوس: "أجل، صنعتهما ليا...". ثم بتر جملته عندما وكزه أخوه بين ضلوعه، قبل أن يقول: "ليس مسموحًا لنا أن نقول".

"لماذا؟".

"إنه سر".

أجابه آرينت: "إذن فعليكما كتمه". كان لديه ما يكفي من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة دون أن يضيف أسئلة غير ضرورية إلى القائمة. "أعتقد أنه من الأفضل لكما الآن أن تذهبا أيها الولدان، أنا على وشك أن أفعل شيئًا أحمق، وقد يتفاقم بأسرع مما يمكنني السيطرة عليه".

أشرق وجها الولدين على الفور مع التفكير في مغامرة عظيمة، ولكن النظرة المتجهمة على وجه آرينت هايز المليء بالندوب كانت كافية لتغيير رأيهما.

أحنى آرينت ظهره ليمر من تحت السقف الخفيض، ثم اقترب من الحاجز الخشبي القابل للطي الذي يقسم السطح إلى نصفين ليخطو

إلى الجانب الخاص بطاقم السفينة. كان مقسومًا من المنتصف بقطعة من قماش الأشرعة، تتدلى من حبل، بينما يوجد الفرسان على جانب والبحارة على الجانب الآخر. كان هناك حصر قد بُسطت تحت الأسِرَّة المعلقة لتوفر أماكن إضافية للنوم من أجل البقية، بينما وُضعت ممتلكاتهم في أكياس تتدلى من السقف كأعشاش عنكبوت.

كان نصف السطح الخاص بالفرسان خاويًا، إنهم يتدربون على خصر السفينة بصحبة دريخت، فيضربون الهواء بسيوفهم، ويطلقون النار ناحية الأفق. لم يكن هناك الكثير من البحارة، حيث كانوا منتشرين ما بين الأسطح العلوية والورش. والرجال القليلون الذين تبقوا منهم كانوا يلعبون النرد أو يتبادلون الحديث، وآخرون يغرقون في النوم على الحصر. كان الهواء مشبعًا برائحة أجسادهم التي لم تغتسل، بينما شخص ما يحاول أن يعزف لحنًا على كمان بثلاثة أوتار فقط.

عندما اقترب آرينت توقفوا جميعًا عما يفعلونه وضيقوا أعينهم وهم يحدقون إليه.

قال آرينت بصوت عالٍ وهو يمسك كيس نقود: "هل من بينكم من يعرف بوسي؟ هناك احتمال أنه -أو شخص يعرفه- يركض في أرجاء السفينة متنكرًا في هيئة مجذوم. من الواضح أنه عقد صفقة مع شخص يدعى توم العجوز في باتافيا نظير بعض الخدمات". هز آرينت كيس النقود ليصدر رنينًا بينما يقول: "هل من بينكم من سمعه يتحدث عن الأمر؟ هل كان أحدكم صديقًا له؟".

حدق البحارة إليه وقد أطبقوا أفواههم. جاء صوت طقطقة نيران من المطبخ وخطوات تتحرك جيئة وذهابًا على السطح أعلاهم، ليتساقط الغبار من السقف.

في مكان ما بعيد كان هناك قرع طبول متناغم.

قال آرينت في إلحاح وهو ينقل بصره ما بين وجه صارم وآخر: "هل يعرف أحدكم من أين هو؟ أو ما الذي جلبه على متن ساردام؟ سأدفع بسخاء نظير أي معلومة".

اعتدل أحد البحارة واقفًا وقال: "ليس لدينا ما نقوله لجندي وضيع مثلك". ثم بصق.

تمتم الآخرون بالموافقة.

شخص ما ألقى بجرة من على يساره، فاضطر آرينت للانحناء ليتفادى الجرة بمقدار شعرة قبل أن تتحطم على الجدار.

أحاطت أصابع قوية بذراع آرينت فدار حول نفسه ليضرب هذا الذي يمسك به، ولكنه كان كونستبل مخزن البارود ذو الذراع الواحدة. ومثل أمس كان محني الظهر وساقاه متقوستان كأنما الرب قد نفخ الحياة في مدفع.

رفع بقايا ذراعه المبتورة في رجاء، ثم قال وهو يجذب آرينت خارجًا من الجناح: "تعالَ الآن قبل أن تسيل الدماء".

اقترب البحارة منه وهم يكورون قبضاتهم.

أدرك أنه لا فائدة من البقاء، فسمح للرجل بأن يجذبه إلى ما وراء الحاجز الخشبي الذي ارتج عندما ضربه البحارة بأيديهم وهم يسبون آرينت.

قال الكونستبل: "أنت وغد أحمق بلا شك". ولكنه جعل الأمر بطريقة ما يبدو وكأنه مجاملة. دون كلمة واحدة قطع سطح السفينة ناحية مخزن البارود، الذي فتحه بمفتاح يبقيه حول رقبته.

كان هناك عشرات من براميل البارود المكدسة على الأرضية، فلا تكاد تترك مجالًا للمشي. قال الكونستبل العجوز في استياء: "مئات الرجال قد حملوها إلى هنا عندما أمر القبطان بالتوجه إلى مراكز القتال الليلة الماضية، والآن يتوقعون مني أن أعيدها إلى أماكنها بمفردي". أشار إلى الأرفف الفارغة ببقايا ذراعه المبتورة ثم قال: "لا يوجد أي فكرة عقلانية لعينة على متن هذه السفينة".

انتظر ثم تنهد بطريقة ذات مغزى عندما لم يفهم آرينت تمليحه، قبل أن يقول بمكر: "الكثير من العمل بالنسبة لرجل عجوز بذراع واحدة".

حمل آرينت برميلين بسهولة ووضعهما على أحد الأرفف ثم قال: "ألهذا جررتني إلى هنا؟".

قال الكونستبل: "ليس هذا فحسب". ثم ألقى جسده بثقل على كرسيه وقال: "لقد رأيت شيئًا الليلة الماضية ظننت أنك ستريد معرفته، لأنه يتعلق بكون السفينة معرضة للخطر. ليس مجذومًا أو شيئًا من هذا القبيل، لذا لا تظن...".

قال آرينت وهو يضع برميلين آخرين على الأرفف: "أخبرني فحسب".

"حسنًا، كان هذا بعد قرع الجرسين قبل أن يأمر القبطان بالتوجه إلى مراكز القتال، عندما هبطت إلى مخزن البضائع لكي أتبول. دومًا ما أفعلها هنا بالقرب من آخر السلم، حيث يوجد بعض الضوء، لا أحب الذهاب إلى...".

قال آرينت: "أيها الكونستبل! ما الذي رأيته؟".

قال محتجًّا: "حسنًا، حسنًا. كنت فقط أحاول أن أمنحك بعض التفاصيل. لقد تسللت امرأة إلى الأسفل، عريضة المنكبين وذات شعر مموّج. لقد ظنت في الظلال أنني شخص آخر، فقد اندفعت وقالت إنها كادت أن تمسك بهم". عض الكونستبل على شفته مفكرًا ثم قال: "لقد أخافتني قليلًا، لذا أعدت جزرتي إلى الكيس، وخرجت إلى الضوء، حينها اندفعت هاربة كأرنب قد رأى ثعلبًا".

امرأة عريضة المنكبين بشعر مموج؛ يبدو أنها إيزابيل، حارسة البريديكانت. لا شك أنها قد هبطت إلى مخزن البضائع بعد أن أمسك بها لارم تسترق السمع إلى محادثتهما الليلة الماضية. لا شك أنها موهوبة في الإمساك بها حيث لا يُفترض أن تكون.

قال آرينت وهو يدفع بعض البراميل عبر الرف ليفسح مساحة: "سأستطلع الأمر، شكرًا لك أيها الكونستبل".

أومأ الكونستبل برأسه وبدا عليه السعادة لأنه أزاح هذه المشكلة عن عاتقه لتصير مشكلة شخص آخر.

أحس آرينت بوخزة في ظهره وهو يلف ذراعيه حول برميل آخر، لقد رفعه عن الأرض دون أدنى مجهود.

قال: "إنه فارغ".

قال الكونستبل وهو يشير بيده ناحية الزاوية حيث أُلقيت ثلاثة براميل أخرى: "ألقِ به هناك، من المحتمل أن أحد الفتيان قد أصيب بالذعر وعمَّر مدفعه دون أن ينتظر صدور أمر بإعداد المدافع". ثم قال ضاحكًا: "لا شك أنه قد استيقظ مع أول أضواء الصباح محاولًا

أن يفرغ البارود في البحر قبل أن يدرك أحد الأمر. يستحق الجلد إن أمسكوا به".

ألقى آرينت بالبرميل بعيدًا، بينما الكونستبل يضع قدميه الحافيتين على الصندوق الذي يحتوي على الغنيمة ويلقي بحجرين من النرد في الهواء.

سأله الكونستبل: "هل تعرف ما هذا؟ لم أرغب في طرح السؤال يوم أمس عندما كان ڤوس بالحجرة، إنه يبدو بالنسبة لي أشبه بجثة قد أُخرجت من قبرها".

تأمله آرينت قبل أن يومئ برأسه في موافقة، وفي النهاية قال: "إنه صندوق".

قال الكونستبل بمكر: "صندوق قد اختلق الحاجب ڤوس الأعذار لزيارته مرتين. أعتقد أن أيًّا كان ما بالداخل فإنه مهم". ثم لمعت عيناه وقال: "وثمين".

قال آرينت بينما السفينة تميل قليلًا مع تغير اتجاهها: "لا أصدق أنك لم تحاول فتحه".

قال الكونستبل وهو يحك بقايا ذراعه المبتورة: "إنه مقفل، ولم أعد قادرًا على كسر الأقفال كما كنت في الأيام الخوالي".

هز آرينت كتفيه وقال: "أنت تسأل الرجل الخاطئ، لم يخبرني أحد بمحتويات الصندوق، وأنا لم أسأل قط، ولكني سأقول لك شيئًا واحدًا، إن الحاكم العام يظن أنه مهم بما يكفي لاستدعاء ساموين بيبس من أمستردام عندما سُرق".

"ألا تشعر بالفضول حيال الموجود بداخله؟".

"الفضول هو مهمة سامي، لم أكن أفعل شيئًا حتى أمس سوى لكم الأشياء التي يشعر بالفضول تجاهها. وبالحديث عن الفضول؛ هل تعرف معنى لاكساجار؟".

"لا".

تذكر كيف لاحظ سامي أن تميمة نصف الوجه الخاصة بإيزاك لارم تُطابق تميمة بوسي. سأله: "في هذه الحالة هل تعرف ماذا يعني أن يحمل بحاران نصفين من نفس التميمة؟".

قال: "أجل، هذا يعني أنهم متزوجان".

صاح آرينت وقد ارتفع حاجباه: "متزوجان؟".

قال: "لا أقصد زواج اليابسة، بل زواج البحارة. إن مات أحدهما على متن الرحلة يحصل الآخر على أجره، وأي غنائم يستحقها، هذا بالإضافة إلى متعلقاته الخاصة".

"إذن فيجب أن تكون علاقتهما وثيقة".

وافقه قائلًا: "بالطبع، فأنت لا تُقدم على هذا النوع من الالتزام دون أن تكون متيقنًا، إن اخترت الشخص الخاطئ فسينتهي الأمر بدمائك على يديه وأموالك في جيبه".

توقف آرينت عن عمله ليمسح العرق عن جبينه ثم قال: "لماذا تتحدث بهذه الأريحية؟ بقية أفراد الطاقم يفضلون البصق في وجهي على الحديث معي".

ابتسم ليكشف عن فم خالٍ من الأسنان وقال: "هذا سؤال جيد، يبدو أنك بدأت تفهم طبيعة العيش على متن سفينة هندية، إن الجنود والبحارة يمثلون النار والفتيل، وهكذا كان الأمر منذ أن أبحرت أول سفينة، ولن يكون الأمر مختلفًا على متن هذه الرحلة". لمس خصلة الشعر التي يبقيها حول عنقه وقال: "هؤلاء الفتيان يكرهونك يا هايز، أما أنا فعجوز، عجوز للغاية على أن يخبرني أحد بمن يجب أن أكره. أريد فقط أن أعود إلى بيتي، إلى بناتي، واللعب مع أحفادي، وأن أعيش لفترة من الوقت بينما أشعر بالتربة تحت قدميَّ. إن حاول وغد إغراق هذه السفينة فسأكون أنا من يحاول إيقافه، سواء كان بحارًا أو جنديًّا لعينًا".

"إذن أخبرني كيف أجعل ڤيك يتحدث. إنه يعرف ما تعنيه لاكساجار وقد قطع لسان بوسي لسبب ما".

"ڤيك". طقطق الكونستبل بلسانه مفكرًا ثم قال: "الطريف هو أنني قد أكون قادرًا على مساعدتك فيما يتعلق بڤيك، فلتفتح هذا الباب من فضلك".

جذبه آرينت ليفتحه، فمال الكونستبل برأسه إلى الأمام وصاح: "هل هناك أحد من فتيان الخدمة بالخارج؟". ثم أصاخ السمع منتظرًا إجابة، فلم تأتِ أي إجابة. "أعلم أنك هناك بالخارج، هناك دومًا واحد منكم أيها الأوغاد الصغار يختبئ في الظلال هاربًا من واجباته، تعالَ إلى هنا على الفور".

جاء صوت خطوات مترددة على الأرضية الخشبية، قبل أن يظهر وجه صغير متوتر عند الباب.

قال الكونستبل آمرًا: "اذهب وأحضر لي ڤيك، سيكون في مقصورته، قل له إن الكونستبل يحتاج إليه في أمر عاجل".

بينما ينتظران سأله آرينت: "ما الذي تفكر فيه؟".

ولكن الكونستبل هز رأسه وهو يتدرب على ما يقوله عندما يأتي ڤيك.

لم يكن عليهما الانتظار طويلًا.

صرخ ڤيك من على الجانب الآخر من السطح السفلي، بينما يخطو على الأرضية الخشبية بخطوات ثقيلة: "ما الذي تظن نفسك فاعله؟ إياك أن ترسل في طلبي! إياك...".

اندفع ڤيك إلى مخزن البارود بجسده العملاق في حالة من الغضب وقد كوَّر قبضتيه ورفع كتفيه. عندما واجه آرينت ڤيك الليلة الماضية ساعد الظلام على إخفاء حجمه، ولكن في ضوء السطح السفلي كان ضخمًا. لم يكن في طول آرينت ولكنه بنفس عرضه تقريبًا، بذراعين وساقين غليظتين، ورأس أصلع، وجسد ممتلئ. بدا كانهيار صخري في منحدرات ملطخة بالبول.

أحس الكونستبل بالخوف، فقفز من مقعده وأسرع متراجعًا نحو الجدار بينما يرفع يده بشكل دفاعي.

قبل أن يتمكن ڤيك من أن يعتصر عنق الرجل المسكين، أغلق آرينت الباب بقوة من ورائه وقال: "ليس هو من أرسل في طلبك، بل أنا".

دار ڤيك على عقبيه وهو يستل خنجره بأسرع مما يستطيع ذئب أن يكشر عن أنيابه.

قال الكونستبل متوسلًا: "لا حاجة إلى هذا يا يوهانس". بينما لا يزال يحاول أن يبعد نفسه قدر الإمكان عن عريف الملاحين الغاضب.

انتقل بصر آرينت من وجه ڤيك المُنَقَّر إلى خنجره ثم إلى وجهه مرة أخرى قبل أن يسأله: "ما الذي تعنيه لاكساجار؟ ولمَ قطعت لسان بوسي؟".

رمش ڤيك وهو ينظر إليه ثم نظر إلى الكونستبل في حيرة وقال: "هل أيقظتني من أجل هذا؟".

قال الكونستبل: "لقد أيقظتك لأن هناك فكرة قد راودتني".

"أنت تضيع وقتي".

"ستتصارعان وسيخسر آرينت".

ضيق آرينت عينيه في دهشة، وأخيرًا ابتعد الكونستبل عن الجدار محاولًا أن يهدئ ڤيك كأنما هو ثور هائج.

"إن منصب عريف الملاحين يؤخَذ بالقوة وليس بالترقية، وقد سمعت أن بعض الفتيان يخططون لقتلك". لعق الكونستبل شفتيه في توتر وقال: "ما تحتاج إليه هو استعراض للقوة، أن تهزم آرينت في نزال، وسينضبط الجميع. أنت تعرف أن هذا ما سيحدث".

تغير التعبير المرتسم على وجه ڤيك، وبدا عليه بوضوح أن العرض قد أغراه.

قال الكونستبل في إلحاح: "لقد قلت بنفسك إن هذه آخر رحلة لك، لديك عائلة تعتمد عليك، وليس لديك ما يكفي من المال للاعتناء بعائلتك".

قال ڤيك مزمجرًا: "إن تحدثت عن أموري الخاصة مرة أخرى سأذبحك". ولكن من الواضح أن هناك ميزانًا بداخله قد بدأت كفته تميل.

يعرف آرينت تأثير حجمه على الناس، وقد تعلم كيف يعرف متى يرهب حجمه شخصًا ما ومتى يجعله عدوانيًّا، كأنما يهينه رفضه لأن ينكمش في حضوره.

راح ڤيك يرمقه بنظرة متفحصة من رأسه حتى أخمص قدميه، وقد لاحظ كيف اضطر لأن يحني رأسه لكي تسعه الحجرة، وكم هو عريض حتى إنه يحجب مدخل الباب بالكامل. تساءل وهو يحك أذنه بإصبع قذرة: "أفترض أنك تريد الإجابة عن أسئلتك نظير خسارتك في نزالنا".

أومأ آرينت برأسه.

"هل تريد شيئًا آخر؟".

قال آرينت: "لا أريد شيئًا آخر، وسأدفع ثمن إجاباتك بإذلال نفسي".

نظر ڤيك إلى الكونستبل وقال: "وما الذي ستناله من هذا أيها العجوز اللعين الجشع؟".

قال ضاحكًا: "سأراهن على خسارة آرينت، أنا واثق أنه لا أحد غيري سيفعل هذا".

ابتسم ڤيك ساخرًا ثم أومأ برأسه وقال: "غير مسموح بحدوث معارك على سطح هذه السفينة بدون مظلمة، وإلا فسيكون العقاب

هو الجلد، امنحني بضع ساعات لأفكر في شيء يمكنك أن تنقله إلى إيزاك لارم". ثم أخرج قطعة من الشمع من أذنه ألقاها بعيدًا قبل أن يقول: "إن حاول أي منكما أيها الوغدان أن يخونني فسأذبحه".

خرج ڤيك بخطواته الثقيلة من المخزن، فكاد أن يصطدم بدوروثيا التي كانت تتلفت حولها بشكل محموم. بمجرد أن رأت آرينت في مخزن البارود، حتى اكتسى وجهها بالارتياح وقالت: "كنت أبحث عنك أيها الملازم هايز، إن سيدتي لديها أخبار بشأن المجذوم".

٢٩

تدلى كراوڤلز بحبل معقود إلى الصاري الخلفي وهبط على سقف مقصورة الحاكم العام، بينما المياه المزبدة تندفع من تحته. كان قد تفحص النصف السفلي من الهيكل بحثًا عن أي أثر لمرور المجذوم.

نادته سارا ڤيسل من سطح الحظائر: "ماذا وجدت أيها القبطان؟".

قال وهو يغرس أصابعه في الفجوات التي تركها المجذوم وراءه عند تسلقه: "إنها تمتد من السور إلى سطح الماء، كنتِ على حق يا سيدتي، أعتذر عن أي شكوك كانت لدي في الليلة الماضية".

لم تكن سارا عادة من النوع الذي يشعر بالشماتة، ولكن ذكرى ابتسامة رينير ڤان شوتن الساخرة لا تزال تزعجها، فدارت على عقبيها لتنظر إليه وقالت: "وماذا عنك يا كبير التجار؟ هل ما زلت تعتقد أنني تخيلت وجود المجذوم عند كوة مقصورتي؟".

قال مزمجرًا وهو يضرب كاحليه: "لا". كان بالفعل في حالة من السكر، ورغم أنه ارتدى ثيابه بشكل صحيح إلا أن هذا أفضل ما يقال عن هيئته.

لقد زعمت كريسي أن كبير التجار كان يتألم الليلة الماضية، وتساءلت سارا عن سبب هذا.

بدا وكأنه يتمزق من الداخل.

قال الحاكم العام بحزم: "لقد اتهمت زوجتي بالهستيريا يا ڤان شوتن". نظرت إليه سارا بحدة، فهي تتذكر أن زوجها قد وافق كبير التجار الرأي. "ولا يمكنك الآن حتى الوقوف متزنًا. أنت مدين باعتذار".

تململ ڤان شوتن بشكل مثير للشفقة، ثم تمتم قائلًا: "أعتذر يا سيدتي".

أحست سارا بالخجل من انشغالها بصغائر الأمور، ثم نظرت ناحية مؤخرة السفينة حيث كان آرينت يساعد كراوڤلز في الصعود على متن السفينة، على الفور تفحص القبطان ملابسه الجميلة بحثًا عن أي لطخات، ثم فرك بقعة من القطران على قميصه بأسف عميق.

قالت: "اعتذارك مقبول يا كبير التجار، ولكن الأكثر أهمية هو ما تخطط لفعله تاليًا".

تدخل الحاكم العام قائلًا وهو يلوح لها بيده ذات الأظافر الحادة أن تنصرف: "هذا ليس من شأنك يا سارا، أنا واثق من أن لديك واجبات أخرى لتعتني بها".

"زوجي...".

أشار الحاكم العام لقائد الحرس دريخت وقال آمرًا: "فلتصطحب زوجتي إلى مقصورتها".

قال دريخت وهو يعدل من وضعية سيفه: "هيا بنا يا سيدتي".

مشت سارا على مضض وراء قائد الحرس وهي تشعر بالغضب، لقد كلفت نفسها عناء استدعاء الجميع إلى سطح السفينة لأنها أرادت أن ترى رد فعلهم على اكتشافها لبصمات الأيدي.

لقد جفل زوجها بينما انتظر ڤوس بصمت بالقرب من حظائر الحيوانات، وقد بدا عليه أنه منزعج لمقاطعة عمله. إن كانت بصمات الأيدي قد أثارت اضطرابه فإنه لم يُبدِ هذا. أما دريخت الذي زعم بإصرار أنه لا يؤمن بالشياطين فقد امتقع وجهه، ولكنه عدا ذلك لاذ بالصمت.

كان آرينت قد انحنى لينظر إلى البصمات بينما يصغي إلى حكاياتها كما قد يصغي جبل إلى الرياح التي تعوي من حوله، كان من المستحيل سبر أغواره، فهو لم يتململ أو يتزعزع، وكان وجهه خاليًا من التعبيرات كجلمود صخر. افترضت أن هذا ما يحدث عندما تعمل مع رجل يمكنه أن يقرأ أفكارك من أدنى ارتعاشة في شفتيك.

كان دريخت يتحرك على مهل هابطًا درجات السلم المؤدي إلى السطح العلوي، فقاومت سارا الرغبة في أن تدفعه أمامها، وبدلًا من هذا راحت تراقب مجموعات من فرسانه وهم يضربون الهواء بنصالهم. كان مشهدًا غريبًا كأنما لو أنهم يصدون جيشًا غير مرئي.

جاء صوت الحاكم العام من ورائها وهو يقول: "أنت المسؤول عن هذا التحقيق يا آرينت، ما الذي تأمر بفعله تاليًا؟".

أجابه: "يجب أن نفتش السفينة بحثًا عن ثياب المجذوم".

قال ڤوس: "لقد رأيت بصمات الأيدي، لقد خرج من الماء وصعد مباشرة إلى هيكل السفينة حتى وصل إلى الكوة، وعلى الأرجح فإن هذا المجذوم قد عاد بنفس الطريقة، لهذا لم نتمكن من رؤيته".

"ربما، ولكن ساmويل بيبس يقترح أن نفتش السفينة، وهو عادة ما يكون محقًّا".

عند آخر السلم فتح دريخت الباب الأحمر المؤدي إلى مقصورات الركاب، وأشار في تهذيب إلى سارا لكي تمضي قدمًا.

رفعت طرف فستانها وخطت إلى الظلمة.

تعالى صخب من بين صفوف الفرسان مما حجب المحادثة الدائرة بالأعلى، كان هناك اثنان يتقاتلان، وعلى الفور شكل الآخرون حلقة من حولهما وقد تعالى الصفير والهتاف.

قال دريخت في غضب: "إنه ثيمان، يبدو أنه لا يستطيع إبعاد نفسه عن المتاعب مؤخرًا. هل تأذني لي يا سيدتي؟".

أجابته: "بالطبع". وكانت مسرورة لرؤيته يندفع ناحية المعركة.

خطت سارا إلى داخل مقصورتها وأغلقت الباب وراءها بالمزلاج، ثم أسرعت ناحية الكوة. كان سطح الحظائر فوقها مباشرة، وكان بمقدورها سماع كل شيء يقولونه كما توقعت.

قال زوجها: "فلتنظم فرقة بحث عن ثياب المجذوم أيها القبطان، أريد تفتيش هذه السفينة جيدًا".

"أمرك يا سيدي". ثم أسرعت خطوات أقدامه مبتعدة، وبعد دقيقة كان يصرخ في طلب إيزاك لارم.

تساءل رينير ڤان شوتن في ريبة: "هل تعتقد حقًّا أن شخصًا ما على متن هذه السفينة يتظاهر بكونه مجذومًا ميتًا؟".

قال آرينت مصححًا: "سامي يعتقد هذا، وأيًّا من كانوا فإنهم بذلوا جهدًا كبيرًا في هذه التمثيلية".

تساءل ڤان شوتن وقد بدا قلقًا: "ما الذي يجعل بيبس متيقنًا من أن هذا ليس بوسي وقد عاد من الموت؟ عندما كنت صبيًّا جاءت ساحرة إلى قريتي بفظائع شيطانية، في كل مساء يجتمع الأطفال في الغابة ليغنوا باسمها، والحيوانات الأليفة صارت مسعورة، وفسد اللبن وتلفت المحاصيل".

لاذ بالصمت وقد بدا عليه أن يفكر في الأمر، ثم قال صوت زوجها: "ما رأيك في هذه المسألة يا ڤوس؟".

"هناك قوى على هذه الأرض لا يمكن لساموبل بيبس أن يكون ندًّا لها، وسأعترف أن هذا يبدو منطقيًّا بالنسبة لي أكثر من نظرياته بعيدة الاحتمال". كان هناك رعب في صوته الرتيب المعتاد. "تلك البصمات قد أحرقت الخشب، إن أصابع المجذوم كانت قوية بما يكفي لثقب هيكل السفينة. سواء كان متنكرًا أم لا فهذا ليس عملًا بشريًّا".

ند عن آرينت صوت اعتراض، ولكن ڤوس تحدث على الفور مضيفًا: "وإن كان تنكرًا فإنه تنكر سيئ، المجذوم سيثير الرعب والغضب أينما حل، فما النفع من التنكر كمجذوم؟".

قال آرينت مبديًا ملاحظته: "هذه هي الأسئلة التي عادة ما يسألها سامي ويجيب عنها، أيًّا ما كانت جرائمه في باتاڤيا فإنها غير ذات أهمية الآن".

أجابه زوجها: "من السهل قول هذا على رجل لا يعرف ما طبيعة هذه الجرائم". إنها تعرف هذه النبرة التي تدل على استغراقه في التفكير، سيغلق عينيه ويفرك جبينه محاولًا أن يحفز أفكاره.

عندما تحدث مرة أخرى فعل هذا بسلطة رجل يسمع كلمات الرب في أذنيه: "أنا آمر بتوقف هذا الأسطول يا كبير التجار. فلتأمر كل قبطان في كل سفينة أن يتفحص هيكل سفينته بحثًا عن آثار مرور المجذوم، واطلب منهم أن يفتشوا سفنهم بحثًا عن ثياب المجذوم. سيكون عليهم أن يقدموا لي تقريرًا شخصيًّا مع دق الأجراس الثمانية، هل هذا مفهوم؟".

تمتم من حوله بالموافقة.

"إذن فلتنصرفوا. فلتبقَ لحظة يا ڤوس، أريد أن أتحدث معك".

هبت الرياح على مقصورة سارا وكانت قوية بما يكفي لتحريك وتر في قيثارتها.

تعالى صوت خطوات الأقدام على السطح بالأعلى، بينما الحيوانات تصنع صخبًا في حظائرها. تعالى صوت طقطقة من السلالم بينما الأصوات تتلاشى.

انتظرت سارا في ترقب بينما نبضات قلبها تتسارع، لم تستطع أن تتخيل ما سيفعله زوجها إن أمسك بها تسترق السمع، ولكن هذا الفعل كان مثيرًا. نادرًا ما تجد فرصة لتحديه بأمان، ولكنها بطريقة ما تمكنت من فعل هذا مرتين اليوم.

قال مادحًا ڤوس: "لقد أبليت حسنًا".

"شكرًا لك يا سيدي".

ساد صمت طويل حتى كانت سارا لتعتقد أنهما رحلا، لولا أنها قادرة على سماع صوت أظافر زوجها الطويلة وهي تخدش الخشب، علامة أكيدة على أنه قلق.

قال أخيرًا: "هل تعرف ما هي مشكلة استدعاء الشيطان يا ڤوس؟".

اختنقت أنفاس سارا في حلقها.

أجابه بجمود: "يمكنني أن أخمن مشكلة أو اثنتين يا سيدي".

"أنه يخرج عن السيطرة". تنهد زوجها مضطربًا ثم قال: "إن توم العجوز قد حولني إلى الرجل الذي أنا عليه". اضطرت سارا لتغطية فمها لتمنع شهقة مصدومة. "والآن يبدو أن شخصًا آخر في هذه السفينة قد جلبه إلى متنها. السؤال هو من وراء هذا، وما الذي يريده؟".

قال: "كل شيء يحدث تمامًا كما كان يحدث قبل ثلاثين عامًا يا سيدي، أعتقد أن هناك صفقة ستُقدَّم قريبًا. من جانبنا يجب أن نتوقع ما سيطلبه، وما نحن مستعدون لدفعه".

"أفضِّل ألا أدفع أي شيء على الإطلاق، لقد مضى وقت طويل منذ أن أجبرني أي شخص على فعل أي شيء. هل جمعت الأسماء كما طلبت منك؟".

"قدر ما يمكنني تذكرها، لقد مضى وقت طويل منذ أن أطلقنا سراح توم العجوز، إنها على مكتبك، ولكن... إن كنت تسمح لي أن أتجرأ...".

"ما الأمر يا ڤوس؟".

"يبدو لي أن هناك مرشحًا واضحًا إن جاز التعبير".

أجابه الحاكم العام: "آرينت".

"من غير المعقول أن يكون ظهور العلامة عند عودته مجرد مصادفة".

"أفهم ما ترمي إليه، ولكني لا أرى سببًا منطقيًّا.".

"ربما قد تذكَّر أخيرًا ما حدث له في الغابة، ولماذا ظهرت علامة توم العجوز على هيئة ندبة على معصمه. ربما يعرف يا سيدي الثمن الذي اضطررت لدفعه لاستدعاء شيطانك".

٣٠

تردد في أرجاء السفينة أصوات البحث عن ملابس المجذوم، ففُتحت الصناديق عنوة، واشتكى أفراد الطاقم من بعثرة متاعهم. كانت الأشرعة قد طُويت والمراسي قد أُنزلت، والقوارب الشراعية تتمايل بالقرب من خصر السفينة، بينما القباطنة يصعدون سلالم الحبال.

كانوا مجموعة من الأشخاص المتذمرين متعكري المزاج، وقد حرص لارم على أن يختفي حتى رحيلهم.

انهمك في نحته متجهمًا.

كان جالسًا على تمثال الأسد الذي يبرز من مقدمة السفينة، وساقاه القصيرتان تتأرجحان في الهواء بينما ينحت قطعة من الخشب بسكينه، لا يمكن لأحد غيره أن يصل إلى هذا الحد، فهم لا يمتلكون رشاقته.

كما أن رائحة المكان كريهة.

كان من ورائه الجزء المدبب البارز من مقدمة السفينة، سطح صغير خشن حيث يقضي أفراد الطاقم حاجتهم في الماء بالأسفل، مما أدى إلى تلطيخ مقدمة السفينة بالكامل، جعلت الرائحة عينيه تدمعان ولكنه ثمن زهيد نظير تركه وشأنه.

أدار سكينه محاولًا إخراج شظية عنيدة من الكتلة الخشبية. كان

في حالة مزاجية سيئة للغاية. عادة ما يكون هكذا، ولكن هذه الحالة كان لها سبب، فإن التلكؤ عندما تكون البحار آمنة يجلب الحظ السيئ، كأنما يعطون الرياح انطباعًا بأنهم لم يعودوا في حاجة إليها. والأسوأ هو تهديد القراصنة، فهم يجوبون هذه المياه وسيتسلون بصيد أسطول تجاري مثقل بالبضائع، عالق بإنزال المراسي.

قال في حنق وهو ينتزع الشظية الخشبية: "مجذومون، كأنما ليس لديكِ ما يكفي من المتاعب". ثم ربَّت على هيكل السفينة كما قد يربت شخص على حيوانه الأليف.

لا ينظر المرء إلى ساردام على أنها مجرد مسامير وخشب، إلا كما قد ينظر إلى البقرة على أنها مجرد عضلات وأوتار. إن لها معدة مليئة بالتوابل، وأجنحة بيضاء عظيمة على ظهرها، وقرن كبير يوجههم ناحية الديار. في كل يوم يمسدون فراءها بالقطران ويصلحون لحمها الممزق، ويحيكون هذه الأجنحة الرقيقة المصنوعة من قماش القنب، ويوجهونها برفق عبر المخاطر التي قد لا تراها.

لم يكن هناك رجل على متن السفينة لا يحبها، وكيف يمكنهم ألا يحبوها؟ إنها بيتهم ومصدر رزقهم وحاميتهم. إنها تمنحهم أكثر مما قد يمنحهم أي وغد آخر.

يكره لارم العالم الواقع خارج السفينة، عندما يمشي في شوارع أمستردام يكون معرضًا للضرب أو السرقة أو السخرية، إنهم يركلونه من عمود إلى آخر، ثم يأمرونه أن يتشقلب على يديه لكي يسلي الناس.

في اللحظة التي يضع فيها قدمه على متن سفينة هندية يشعر أنه في بيته.

هذا عالم قد بُني ليناسب حجمه، لا يهم إن كان نصف طول أي شخص آخر، فهو يعرف كيف يحرك السفينة ويوجهها، أجل؛ قد يسخر منه أفراد الطاقم من وراء ظهره، ولكنهم يسخرون من الجميع، إنهم يفعلون هذا لكيلا يصابوا بالجنون بعد خمسة أشهر من رحلة مدتها عشرة أشهر.

إن أسقطته عاصفة في البحر فهو واثق أن أيًّا من هؤلاء الفتيان سيمد يده وينقذه، ولكنه إن تعرض للركل في أمستردام فهو واثق أن خمسة آخرين سيشاركون في ضربه.

سقطت قطعة من الخشب الذي ينحته، لم يكن واثقًا مما يحاول نحته بعد، فهو لا يمتلك من المهارة ما يكفي لكي يقرر هذا بشجاعة، ولكن لديه أرجل، أربعة منها، ولكن هذا أكثر مما استطاع نحته من قبل.

سمع خطوات أقدام من ورائه، فالتفت برأسه ليرى قائد الحرس دريخت يدفع فارسًا وبحارًا عبر السلم صاعدين إلى أعلى مقدمة السفينة.

أدرك لارم أن الفتى هو أحد مساعدي النجار، اسمه هنري. كان يوهانس ڤيك قد أبرحه ضربًا بعد أن اكتشف أنه حكى لسارا ڤيسل بعض الحكايات، وكان وجهه منتفخًا مثل ثمرة لفت كبيرة.

أما الفارس فكان ثيمان، الذي أثار حفيظة آرينت هايز بطرح صائد اللصوص أرضًا أثناء الصعود على متن السفينة. لقد خرج من الأمر سالمًا ذلك الصباح، ولكن ليس اليوم، فقد كانت عينه متورمة، ومن الواضح أن ثيمان وهنري كانا يتشاجران.

قفز لارم من على التمثال ثم توازن على طول الحافة الملطخة البارزة من مقدمة السفينة، قبل أن يقفز على السور، ومن ثم إلى سطح مقدمة السفينة.

ضيَّق دريخت عينيه من تحت حافة قبعته ويده تمتد إلى سيفه.

لم يكن إيزاك لارم من النوع الذي يمكن إخافته بسهولة، إن الجزء الأكبر من وظيفة مساعد القبطان هو أن يتلقى الكراهية بدلًا من القبطان، ولكنه تشبث بسكينه بإحكام أكبر. لقد مضى وقت طويل منذ أن التقيا آخر مرة، ولكن معظم الناس لا ينسون قزمًا قد رأوه.

تساءل قائد الحرس دريخت: "أهذا أنت يا لارم؟".

قال دون أن يكلف نفسه عناء إخفاء ازدرائه: "أجل هذا أنا".

قال دريخت مبتسمًا: "لم أنسَ وجهك العابس". ثم تلاشت ابتسامته عندما لم يبادله لارم الابتسام.

تساءل لارم: "هل كانا يتشاجران؟". ثم راح يفرك تميمة نصف الوجه المتدلية من عنقه، رغم أنه هذا لا يجدي نفعًا، أو على الأقل لم يجدِ نفعًا بالنسبة لبوسي الذي كان يحتفظ بالنصف الآخر. لم يبدُ الأمر منطقيًّا، ولكنه كان يستحق ما هو أفضل من أن يحرق على رصيف الميناء.

أجابه دريخت: "سمعت أن لديك طريقة خاصة للتعامل مع هذا على متن السفينة".

قال لارم مفسرًا: "تجري تسوية المظالم بالقبضات على السطح العلوي من مقدمة السفينة، ما هو الخطب؟".

قال هنري بغضب وهو يحدق ناحية ثيمان: "لقد سرق مسحجي"*.

تفحص لارم الرجلين بنظرة احترافية ثم تنهد، إنه يود أن يشاهد قتالًا ممتعًا، ولكن هذا الشجار لن يكون كذلك، مثل هذه المشاحنات تتحول عادة إلى صفعات، وهذان الاثنان لا يبشران بالخير.

تساءل لارم: "هل هناك دليل يثبت هذا؟".

قال هنري: "لقد رآه الناس".

"هل تنكر هذا؟".

قال ثيمان معترفًا وهو يضرب الألواح الخشبية بقدمه: "لا، لقد سرقته، وقد أمسكوا بي متلبسًا، يبدو الأمر عادلًا بما يكفي".

سأله لارم: "هل يمكنك أن تعيده؟".

"لقد ألقيت به في الماء".

قال دريخت: "بحق السماء يا رجل، لمَ فعلت هذا؟".

"لقد سمعته يقول أشياء غير لائقة عن الفرسان يا سيدي، فإما أن ألقي به في الماء، أو ألقي بالمسحج، وخمنت أنك ستفضل أن ألقي بالمسحج".

ابتسم دريخت من وراء لحيته.

قال لارم بنبرة شخص قد رأى مثل هذا الموقف مئات المرات: "فلتعودوا إلى هنا بعد أن نُنزل المرساة، لقد اعترفت بذنبك يا ثيمان لذا ستتلقى عقابك، ستكون إحدى يديك مقيدة وراء ظهرك".

---

* المسحج: آلة يدوية يستخدمها النجار ليبري بها الخشب.

حاول ثيمان أن يعترض قائلًا: "بحقك، هذا ليس...".

قال لارم مزمجرًا: "هذه هي القواعد، لقد غششت لذا ستدفع الثمن. ستتقاتلان حتى يسقط أحدكما أرضًا، أما بقيتنا فسنشاهد ونراهن، لذا فلتقدما عرضًا ممتعًا".

قال قائد الحرس دريخت: "هذا عين الصواب". ثم ضرب بيديه على كتفي الرجلين وقال: "انصرفا إذن".

بينما يبتعدان متذمرين أخرج دريخت حفنة من شيء كريه الرائحة من جعبته، وكان على وشك أن يضعه في أنفه، ثم تذكر أصول اللياقة فعرض على لارم بعضه.

أشاح القزم بيده رافضًا.

سأله دريخت: "هل صحيح أن كراوقلز يعرف متى تأتي عاصفة؟". ثم استنشق الخليط فجعل عينيه تدمعان.

قال لارم: "هذا صحيح".

"وهل يقول إن هناك عاصفة في طريقها إلينا؟".

أومأ لارم برأسه، فرفع دريخت عينيه إلى السماء الزرقاء، ثم قال ساخرًا: "أعتقد أنه مخطئ هذه المرة".

قال لارم معترضًا: "لم يخطئ مرة في حياته". ثم خطا ناحية السلم وهو يقول: "سأذهب للمساعدة في البحث".

صاح دريخت ملقيًا بالاتهامات من وراء لارم: "لقد كنتَ تفعلها أيضًا، لذا يمكنك أن تعفيني من ازدرائك. أمامنا طريق طويل معًا أنا وأنت، لذا من الأفضل أن تكون متسامحًا مع الأمر".

قال لارم وهو يهبط السلم: "فلتبقَ على جانبك من السفينة، وسأبقى متسامحًا قدر ما تشاء، بل ربما أبقي نصلي بعيدًا عن ظهرك".

راقبه دريخت يرحل، ثم انحنى ليلتقط المنحوتة التي أسقطها لارم أثناء ابتعاده متعجلًا، ثم عقد حاجبيه وهو يقلبها بين يديه، بدا عليه أنه لا يستطيع معرفة ما يفترض أن تكون، ولكن بدا أنه شيء له جناح.

ربما جناح خفاش.

٣١

فتحت سارا بابها قبل أن تجد إيزابيل فرصة لأن تطرق عليه، فقد سمعت خطوات أقدامها وهي تقترب.

قالت إيزابيل وعيناها تتفحصان المقصورة الفخمة: "قالت دوروثيا إنك تريدين لقائي".

سألتها: "هل هناك شيء في موسوعة الشياطين يصف طريقة استدعاء توم العجوز؟".

انتزعت إيزابيل الكتاب من حقيبتها، وبسرعة عثرت على الصفحة المنشودة.

قالت وهي تشير بإصبعها إلى فقرة من الكلمات المزخرفة: "ها هي".

قرأتها سارا بصوت عالٍ.

"هناك ثلاثة أشياء مطلوبة لاستدعاء توم العجوز. أن تسفك بنصل دم شخص عزيز عليك، ثم تستخدم النصل للتضحية بشخص تكرهه، وأن تقرأ الصلاة المظلمة بصوتٍ عالٍ على شرفه قبل أن تبرد الجثة".

زفرت سارا وهي تطوي زاوية الصفحة، فكرت أن والد آرينت هو الشخص الذي كان يكرهه بالتأكيد، وهو الوحيد الذي مات في تلك الغابة، لقد كان آرينت هو الشخص العزيز. واصلت القراءة.

"بمجرد استدعاء توم العجوز وتقييده سيضطر لتقديم هبة نظير حريته، سيساوم ويخادع، ولكن هؤلاء الذين يدركون حقيقة ألاعيبه يمكنهم أن يطلبوا أي شيء. الثمن هو معرفة أنهم قد أطلقوا شرًّا شنيعًا في هذا العالم ليعيث فيه فسادًا كما يحلو له، وهو شيء سيدفعون ثمنه غاليًا عندما يأتي يوم القيامة. بمجرد أن تمنح هذه الهبة الأولى، يجب على المستدعي أن يدفع العشر نظير أي خدمات أخرى. عادة ما تكون التكلفة مرتفعة، فتوم العجوز لا يحب أن يبدو أحمق".

صافحت سارا إيزابيل في امتنان وقالت: "لقد أسديتِ لي معروفًا كبيرًا. هل رأيتِ آرينت هايز؟".

"لقد هبط إلى السطح السفلي قبل بضع دقائق".

اندفعت سارا من مقصورتها إلى ضوء الشمس فكادت أن تصطدم بالقبطان كراوڤلز، الذي يراقب ساعة رملية ضخمة، بينما لارم يترك حبلًا معقودًا يتدلى من يديه إلى الماء، مربوطًا إلى جذع خشبي يتمايل وراء السفينة، حتى فرغت الساعة الرملية.

قال: "نحن نتحرك بسرعة ٢ , ١٠ عقدة يا قبطان".

"دعنا نأمل أن هذا سيكون كافيًا لكي نسبق العاصفة".

دارت من حولهما لتشق طريقها نحو السطح السفلي، فوجدت درجات السلم مزدحمة بالركاب العائدين على مضض من تريضهم. شقت طريقها بين الحشود حتى رأت آرينت يختفي في مخزن البضائع بالأسفل. تجاهلت النظرة الغريبة التي يرمقونها بها وهي تتوجه ناحية حافة السلم الذي هبط منه، فتصاعدت إلى أنفها رائحة كريهة عطنة. كان السلم يمتد إلى الأسفل أكثر مما تخيلت، حتى تختفي درجات

السلم عن ناظريها. لا شك أنه قد وصل إلى آخر السلم بالفعل لأنها لا تستطيع أن تراه.

نادت بصوت هامس خشية أن يسمعها أحد: "آرينت". لم يكن هناك إجابة، فأصاخت السمع حتى سمعت صوت تفتيش بعيد، حيث كان شخص ما يقلب الصناديق ويمزق السلال، لقد فتش البحارة بالفعل مؤخرة السفينة ولم يجدوا شيئًا، والآن انتقلوا إلى الأقسام الموجودة في مقدمة السفينة.

وضعت قدمًا على الدرجة الأولى المؤدية إلى الأسفل ثم ترددت وهي تتخيل رد فعل زوجها. حتى في هذه اللحظة لم تكن تعرف ما الذي استحوذ عليها لكي تجلس وتشرب بصحبة آرينت وياكوبي دريخت في الليلة الماضية، لن يقول دريخت أي شيء، ولكن الشائعات ستحمل نفسها مباشرة إلى أذن زوجها، الجميع يريدون أن ينالوا حظوة شخص ذي نفوذ.

إن عرف بالأمر... ارتجفت وهي تتخيل هذا. ورغم ذلك لم تستطع كتمان ما سمعته أكثر من هذا، إن لديها الكثير من الأسئلة.

هبطت إلى ظلمة مخزن البضائع، وشعرت بملمس زيتي على جلدها، مع الرائحة العطنة للماء الآسن ونشارة الخشب والتوابل والعفن. كانت قطرات الماء تتساقط من السقف لتطرق على الصناديق. بدا الأمر وكأن كل فكرة بائسة يتخيلها الناس على الأسطح بالأعلى تتسلل عبر السفينة لتجتمع هنا.

وجدت آرينت يتفحص فجوة في الدرجة السفلية على ضوء مصباح نحاسي. لقد تعرفت على هذا النهج من القصص التي

سمعتها، فوفقًا لتقدير بيبس يمكن لأي جماد أن يحكي حكاية إن فهمت لغته. إن نسيج العنكبوت المتكسر يشي بمرور شخص ما، بينما الحرير اللزج على كتفه سيشي بهويته.

"آرينت".

ضيق عينيه وهو ينظر إليها عبر الضباب المتدفق من المصباح، فقد كان يحرق زيت السمك، الرائحة لا لبس فيها. "سارا؟ ما الذي تفعلينه هنا؟".

قالت باندفاع: "لقد استدعى زوجي توم العجوز، سمعته يخبر ڤوس بهذا، لقد قتل أباك كجزء من الطقس، ومنحك هذه العلامة على معصمك".

احتاج لبضع ثوانٍ كي يستوعب ما قالته، ثم تحول التعبير المرتسم على وجهه من الحيرة إلى عدم التصديق ثم إلى الغضب.

"عمي...". لم يستطع أن يكمل الجملة. "لِمَ فعل هذا؟".

"السلطة، الثروة... الشخص الذي يستدعي توم العجوز يمكنه أن يطلب منه أي شيء، ما دام سيوافق على إطلاق سراح الشيطان".

"أين عمي؟".

"في المقصورة الكبرى".

وضع آرينت قدمه على السلم، ثم تعالى صوت زمجرة من مكان عميق في مخزن البضائع، وعلى الفور وجه آرينت الضوء ناحية متاهة الصناديق المتكدسة. كانت الصناديق مرتفعة كالجدران، والضوء يحاول عبثًا أن يخترق الخشب.

تساءلت سارا في توتر: "ما هذا؟".

قال آرينت مخمنًا: "ذئب؟".

"على متن سفينة هندية؟".

سألها: "هل جلبتِ خنجرك؟".

أشارت سارا إلى ثوبها وهي تقول: "خياطتي تكره الجيوب، هل نسيت هذا؟".

"فلتعودي إلى السطح السفلي".

"ما الذي ستفعله؟".

"سأرى ما الذي صنع هذا الصوت". ثم خطا ناحية متاهة الصناديق التي تملأ مخزن البضائع، بينما مصباحه يبدو ضئيلًا للغاية بين كل هذه الأخشاب والظلمة.

التفتت ناحية السلم، فقد تدربت على الانصياع إلى الأوامر. طيلة حياتها كان يقال لها ما يجب أن تفعله، فتفعله، هذا ما زُرع بداخلها. ومع ذلك أحست لسبب ما أنه ليس من الصواب تركه بمفرده.

بدا الأمر وكأنها تتخلى عنه.

بدلًا من أن ترحل ترجلت عن السلم لتضع قدمها مباشرة في الماء الآسن شديد البرودة. كان بارتفاع كاحلها، وقد بلل تنورتها بالفعل بينما يتحرك يمينًا ويسارًا مع تمايل السفينة.

نادته: "آرينت، انتظر".

قال بحدة: "فلترجعي".

قالت بإصرار وبنبرة تحسم الجدال: "أنا آتية".

كان هناك ممرات ضيقة بين أكوام الصناديق تسمح للبحارة بالمرور بينها، ولكن الممرات لا يرسمها إلا طريقة وضع الصناديق، فلم يكن هناك خطوط مستقيمة أو مسارات واضحة. كانت الممرات تضيق وتتسع، فلا يمكن أن يعرف المرء طريقًا سوى باستخدام حاسة الشم. لقد وُضعت البضائع في المخزن بحسب طبيعتها، حتى إنك في لحظة قد تسعل من الفلفل، وفي اللحظة التالية قد تختنق بسحب كثيفة من البابريكا.

تتبعت سارا آرينت عبر الممرات التي يضيئها المصباح، وهي تحدق إلى ظهره الضخم وكتفيه الهائلتين المنحنيتين.

سرعان ما تخلت عنها أعصابها.

يمكنه أن يفعل بها أي شيء يحلو له، ولن تتمكن من مقاومته، إن كانت مخطئة وكان ساندر كيرس محقًّا فقد سلمت نفسها لتوم العجوز، دون أن يعرف أحد مكانها. وقد فعلت هذا بتهور ودون تفكير، وهي تلك الصفات التي فقد زوجها الأمل في أن تتخلص منها.

قال آرينت: "فلتبقي بالقرب مني".

كيف يُعقل أن تكون بمثل هذا الغباء، إنها لا تعرف هذا الرجل، أو بالأحرى لا تعرف باطنه. لقد رأت طيبته على رصيف الميناء، وافترضت أنه لا يوجد سوى هذه الطيبة، والآن سمحت لنفسها بأن تنقاد إلى هذا الموقف المحفوف بالمخاطر.

عضّت على نواجذها وهي تنحي هذه الأفكار جانبًا، أدركت في غضب أن هذا الخوف لا ينبع منها، بل من ساندر كيرس، وقد أصيبت به كالعدوى.

إنها تعرف آرينت، تعرف باطنه تمامًا، لقد رأته عندما اندفع لمساعدة المجذوم بينما كل شخص آخر وقف مكتوف اليدين. عرفته من عزفه على الكمان، واستمتاعه بهذا الأمر، عرفته من الخنجر الذي منحه لها بعد أن ظهر المجذوم، عرفته من ولائه لساميول بيبس، والنيران التي تتقد في هاتين العينين عندما يتحدث عنه، عرفته من خلال انخراطه في تفتيش السفينة. إن كان آرينت هايز شيطانًا فقد تنكر ببراعة حتى صار شخصًا صالحًا دون أن يقصد.

سألته: "هل تحمل علامة توم العجوز يا آرينت؟".

جفل كأنما قد ضربته، وارتجف المصباح في يده بينما يلتفت إليها ويقول: "أجل، أصبت بها بعد اختفاء أبي، ولكني لا أعرف كيف، أتمنى لو عرفت".

قالت وقد شعرت بجرح في كرامتها: "هناك شيء يربطك بعدونا، لمَ أخفيت عنا هذه الحقيقة؟".

قال معترفًا وهو يحدق إلى معصمه: "لم أعرف كيف أخبرك، لقد طلب مني أبي أن أُبقي هذا الأمر سرًّا عندما كنت صبيًّا، وقد فعلت هذا لوقت طويل للغاية، حتى إنني أجد صعوبة في الحديث عن الأمر حتى إليكِ".

تعالى صوت زمجرة أخرى من بين الممرات فتجمدا في موضعهما. وبعد دقيقة من التوتر ساد الصمت مرة أخرى.

قالت سارا والدماء تنبض في أذنيها: "بحق السماء، أتمنى لو أنني كنت في مثل حجمك".

قال وهو يبدأ في السير مرة أخرى بينما يلوح بمصباحه يمينًا ويسارًا بحثًا عن الخطر: "في معظم الأماكن التي أذهب إليها يجعلني حجمي هدفًا للآخرين، صدقيني لا تريدين أن تكوني أضخم رجل في ساحة القتال، فكل رامٍ في صفوف العدو سيضعكِ نصب عينيه".

"هل تفتقد الأمر؟".

"استخدامي كهدف للتدرب على الرمي؟".

"الحرب".

هز رأسه وهو يتفحص الظلمة بحذر، ثم قال: "لا أحد يفتقد الحرب يا سارا، سيكون هذا أشبه بافتقاد مرض قد أصابك".

"ماذا عن المجد والشرف؟ إن أفعالك البطولية في معركة بريدا...".

قال وقد تسلل الغضب إلى صوته: "معظمها أكاذيب، لا يوجد مجد باستثناء ما يصنعه الشعراء لكي يشعر النبلاء بالرضا عن المذبحة التي تسببوا فيها. إن وظيفة الجندي هي أن ينتهي به المطاف ميتًا بعيدًا عن دياره، وأن يقاتل من أجل ملك لن يعطيه إلا الفتات".

"إذن لِمَ فعلت هذا"؟

قال: "كنت بحاجة إلى وظيفة. لقد تركت بيتي دون أن أفكر فيما سأفعله تاليًا، وخطوة تلو الأخرى وجدت نفسي ملطخًا بالوحل. لقد حاولت أن أكون كاتبًا، ولكن جدي كان يعثر عليَّ دومًا، لذا بحثت

على عمل ليس له صلة به. ولكن ما الذي كنت أعرفه عن العالم الذي خرجت إليه؟ لم أشعر بالبرد حقًّا إلا في ذلك الشتاء الأول الذي قضيته بمفردي، لم أشعر بالجوع يومًا، لم أكن مضطرًّا حتى لأن أجلب طعامي بنفسي. لقد قبلت أول نقود دفعها لي شخص ما، وقد كان عملًا له علاقة بصيد اللصوص".

كانا قد تعمقا كثيرًا في المتاهة، وقد امتص فستان سارا الكثير من الماء الآسن، حتى إنه بدأ يثقلها.

"كيف كانت حياتك عندما كنت صائد لصوص؟ أنت لم تتحدث في قصصك قط عن حياتك قبل سامي".

قال بصوت دافئ مفعم بالحنين: "في معظم الأحيان كنت أعمل على فض مشاجرات صغيرة، إن مهمتي الأولى كانت إقناع إسكافي بأن يفي بوعده لامرأة قد حملت منه. تحدثتُ إلى الرجل لساعة قبل أن أدرك أنه يجب عليَّ أن ألكمه ثم أجره فاقد الوعي إلى البريديكانت".

"كيف انتهى بك المطاف إلى خدمة بيبس؟".

"هذه حكاية طويلة".

"نحن في متاهة طويلة".

ضحك مقرًّا أنها محقة. تفاجأت سارا من قدرته على الضحك في موقف كهذا، من الواضح أن الخطر يؤثر على كل واحد منهما بشكل مختلف، كانت تعرف أنها تتكلم لتشتت انتباهها، مدركة أنها إن توقفت فستفر عائدة إلى السلم.

على النقيض منها كنت يد آرينت متزنة ونبرته حازمة، أي شخص يراهما قد يفترض أنه قد خرج من أجل نزهة ممتعة.

قال آرينت: "كنت أعمل صائد لصوص لسنوات عندما أُرسلت لتحصيل دين من رجل إنجليزي يدعى باتريك هايز، لقد باغتني فقتلته. لم أقصد هذا...". تفحص يديه الضخمتين المليئتين بالندوب وقال: "لا يمكنني السيطرة على قوتي عندما أفقد أعصابي".

"لهذا لا تفقد أعصابك مطلقًا؟".

"أنتِ لم تريني أحاول عزف أغنية ساموويل بيبس على الكمان، أيًّا كان العازف الذي ابتكرها فلا شك أنه كان يمتلك تسع عشرة إصبعًا".

"لمَ سميت نفسك باسمه؟".

"العازف؟".

تنهدت وقالت: "هايز، الرجل الذي قتلته".

نظر وراءه وقال: "بدافع من الإحساس بالعار، لقد أردت شيئًا ليذكرني بما شعرت به عندما قتلت رجلًا".

"هل نجح الأمر؟".

"ما زلت أفكر في هذا الرجل حتى الآن؟". تساقطت قطرات من المياه الزيتية من السقف البعيد لترتطم بالمصباح. "ظننت أن هذا سيكون كافيًا، ظننت أن كل ما عليَّ فعله هو أن أشعر بالذنب، وأن أعد بأنني لن أسلب إنسانًا حياته مرة أخرى، وأن هذا سيفي بالغرض. المشكلة أن هايز كان له أخوة، وقد جاؤوا من أجل الانتقام، وهؤلاء لديهم أصدقاء، والأصدقاء لديهم أخوة. لا أحد يخبرك أنك إن سلبتِ

حياة واحدة فسيكون عليكِ قتل الحشد الغاضب الذي سيرغب في الانتقام".

إن مقدار ما ينتابه من ندم جعلها تشعر بالحماقة لأنها شكت فيه.

قال وهو يختلس النظر عند أحد التقاطعات في الممرات: "مشكلة الحزن هو أن كل موت يجعل الكومة أخف، إن موتًا واحدًا أثقل من عشرة، والمئة لا وزن لها. بحلول الوقت الذي قتلت فيه كل شخص قد حاول قتلي أدركت أن الارتزاق سبيل لكسب المال. بعد أن أنقذت عمي في بريدا استأجرني، لذا لم أعد مضطرًّا إلى خوض المعارك. ثم التقيت سامي". ابتسم وتابع: "هناك شيء يتعلق بسامي، وهو أنه بمجرد تفكيك الشبكة لا يهتم إلى أين أسرع العنكبوت هاربًا. لسوء حظه نادرًا ما يشاطره عملاؤه شعوره، لذا استأجرني لكي أتولى ما لا يرغب في فعله من مطاردة وقتال".

كادت سارا أن تتوقف في موضعها، في قصص آرينت كثيرًا ما يقفز سامي من النوافذ ليهبط على ظهر الخيل ويطارد المجرمين، لقد كان دومًا شجاعًا ومقدامًا، فيضرب الظلم كصاعقة من السماء. أكثر من مرة تتخيل نفسها جنبًا إلى جنب مع الدب والعصفور، مسرعين نحو مغامرة جديدة. إن معرفة أن بيبس شخص مختلف تمامًا جعلتها تشعر بشيء من الحزن والقليل من الحماقة.

سألتها: "إذن لماذا تفعلها أنت؟".

أجابها متحيرًا من السؤال: "لأن هذا هو الشيء الصحيح لفعله. إن سامي يصحح الأخطاء التي لا يكترث بها الآخرون أو لا يرونها، لا يهم إن كنت فقيرًا قد فقد عملتين، أو نبيلًا قد اختفى أطفاله من

أسِرَّتهم. إن كانت القضية مثيرة فسيحقق فيها سامي، تخيلي لو كان هناك المزيد من الأشخاص مثله؟ تخيلي لو أن الجميع يساعدون أي شخص يحدث له شيء سيئ؟".

بدا آسفًا، ونبرة الاشتياق في صوته تستحضر عالمًا كاملًا.

"كان جدي يرى أن معظم الناس يمكن التخلص منهم، أن يلقي بهم جانبًا من أجل السعي وراء المزيد من الثراء أو النفوذ، لم يقف أحد يومًا في وجهه أو يحاول حمايته. إن لم تكن ثريًّا وقويًّا فإنه يرى أنك تستحق كل الظلم الذي تراه الحياة مناسبًا لك، هذا ما كنت أكرهه بشأنه. وقد كرهت حقًّا أنه كان محقًّا".

تعالى صوت الزمجرة من جديد، قريبًا بما يكفي لكي ينتصب الشعر على عنق سارا. حرك آرينت مصباحه فسقط ضوءه للحظة على شيء يخمش الخشب. تشبثت سارا بساعده لتحرك اللهب ناحية أقرب الصناديق، وعندما سقط عليه الضوء أحست بقبضة باردة تعتصر معدتها.

كان محفورًا على الصندوق عينٌ لها ذيل.

قال آرينت باشمئزاز: "علامة توم العجوز". قطع خطوة لا إرادية إلى الوراء، ولكن الضوء تحرك ناحية صندوق آخر على مسافة قريبة منهما. اقترب منه ببطء ليكشف عن علامة أخرى ثم أخرى ثم أخرى.

تعالت زمجرة من نهاية الممر.

بينما يقتربان شاهدا المجذوم ينتظرهما وفي يديه شمعة صغيرة.

كان يراقبهما.

لقد منحهما وقتًا لرؤيته، ثم مشى على مهل مبتعدًا. أمسكت سارا بذراع آرينت وقد ارتاحت لأنه بدا أخيرًا غير متيقن.

قالت: "إنه يريد منا أن نلحق به".

"ربما إلى فخ".

"إذن، لماذا لم يهاجمنا خلسة؟ لمَ يتكبد كل هذا العناء؟".

التصقا أحدهما بالآخر وهما يقطعان الممر إلى آخر بقعة رأيا فيها المجذوم، وعندما انعطفا عند أحد التقاطعات وجدا أنه ينتظرهما مرة أخرى، وهذه المرة كان أقرب، وقد أحنى رأسه بتبجيل فوق شمعته الصغيرة.

ناداه آرينت: "ما الذي تريده؟".

دار على عقبيه ومشى مبتعدًا، وهذه المرة لم يترددا، بل أسرعا الخطى في ملاحقته. دغدغت رائحة التوابل أنف سارا، واندفعت الفئران مبتعدة عن خطواتهما التي تثير الاضطراب في المياه.

بعد أن تعمقا في المتاهة وجدا أن العلامات تغطي كل صندوق، وأن الخطوط تبدو وكأنها آلاف العناكب التي تندفع صاعدة الجدران.

عضّت سارا على نواجذها، فقد كانت خائفة حد النخاع، ولكنها كانت تشعر بمثل هذا الخوف معظم حياتها. على الأقل يمكنها أن ترى نهاية هذا الأمر، أو على الأقل يؤدي هذا الخوف إلى مكان ما.

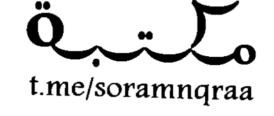
توهج ضوء كغطاء قد أزيل عن شمعة.

توترت أعصاب آرينت، ثم خطا بحذر ناحية الضوء بينما سارا تلحق به على مسافة قريبة.

رفع ذراعيه ليحمي وجهه كأنما يتوقع هجومًا، ثم خطا بسرعة لينعطف عند التقاطع. كان هناك ثماني شموع متقدة عند مذبح مرتجل، وقد رُسمت عليه علامة توم، بينما مئات العلامات الأخرى تغطي الجدران المحيطة به.

قالت سارا في ذعر: "إنها كنيسة، لقد صنع توم العجوز لنفسه كنيسة".

قال آرينت: "مما يعني على الأرجح أن هناك أتباعًا له بين أفراد الطاقم".



٣٢

تراجع آرينت وسارا عبر المتاهة في حالة من الذهول، كان الظلام لا يزال دامسًا في مخزن البضائع والهواء نتنًا والرائحة الكريهة تثير الحكة في جلدهما، ولكنهما يعرفان أن الخطر قد تلاشى منه، في الوقت الحالي على الأقل.

لقد أنهى المجذوم مهمته.

تساءل آرينت: "ما الذي يريده توم العجوز؟".

أجابته سارا: "الإخلاص. أي شيء آخر قد تحتاج مذبحًا من أجله؟".

"أضحية؟". راحا يفكران في الأمر ثم تحدث آرينت من جديد وقد غرق في أفكاره الخاصة: "أتساءل إن كان المذبح هو سبب مجيء إيزابيل إلى هنا".

"إيزابيل؟".

أخبرها آرينت بشأن لقاء الكونستبل وإيزابيل الليلة الماضية.

قالت سارا ضاحكة: "أعاد جزرته إلى الكيس؟ هل استخدم هذا التعبير؟".

قال آرينت مبتسمًا: "كاد أن يجعلني أتقيأ عندما سمعته. ولكننا نعرف أن إيزابيل تتسلل في أرجاء السفينة ليلًا، وهذا المذبح قد يكون

سببًا وجيهًا، ربما تمكن توم العجوز من جعل حارسة البريديكانت تؤمن به".

قالت سارا: "هذا يبدو منطقيًّا، ساندر كيرس يتعقب توم العجوز، ويؤمن أن الشيطان يستحوذ على شخص ما على متن السفينة، هذا ما قاله لي في الصباح".

"من؟".

"أنت".

"أنا؟".

"هذا محتمل، فيبدو أننا نتعقب شخصًا ما له ماضٍ دامٍ".

قال آرينت ساخرًا:" هذا يضيق دائرة الشبهات". ثم نفخ في اللهب ليمنحه بعض الحياة وقال: "هل يتصادف أن ساندر كيرس يريد قتل هذا الشيطان؟ ربما قد وجد ذريعة مقنعة لارتكاب جريمة قتل".

"إنه يريد هذا، ولكني لا أعتقد أنه يكذب".

من أعلاهما انعكس الضوء على الشبكات التي تستخدم لإنزال البضائع، وكان هناك خطوات تتحرك جيئة وذهابًا بينهما. ربما يكون الخروج أسرع إن تسلقا أكوام الصناديق ودفعا إحدى هذه الشبكات لفتحها.

ثم تذكرا مدى ثقل فستانها.

أكملت حديثها قائلة: "شخص ما قد استدرج ساندر إلى هنا أيضًا، لقد تلقى رسالة من زوج كريسي، يطلب منه أن يلحق به إلى

باتاقيا لمقاتلة توم العجوز، ولكن بيتر كان ميتًا بالفعل عند كتابة هذه الرسالة".

قال آرينت: "قطعًا نحتاج إلى معرفة المزيد عن ساندر وإيزابيل".

"اترك هذا الأمر لي، سأسأل...".

من مكان ما قريب سمعا صوت احتكاك ثم ارتطام وشخصًا ما يسب.

قالت سارا وهي ترفع حاجبًا: "يبدو هذا صوت إيزاك لارم".

صاح آرينت: "هل هذا أنت يا لارم؟".

أجابه مناديًا: "أنا هنا".

تتبعا الصوت حتى وجداه يتفحص علامة توم العجوز على إحدى الصواني باستخدام ضوء شمعة. كان هناك سكين في يده، وحافته قد صارت مسننة بفعل الصدأ.

كان يلهث قليلًا كأنما أنهى للتو عملًا شاقًّا. عندما رآهما نقر على العلامة وقال: "هل رأيتما هذا؟ نفس الرمز الذي كان موجودًا على الشراع".

لاحظت سارا شظية من الخشب لا تزال عالقة بطرف سكين لارم.

قال آرينت: "هذه علامة توم العجوز، أينما تظهر تحل كارثة. هذا ما حاولت تحذيركم بشأنه".

قالت سارا وهي تشير ناحية قلب المتاهة: "إنها في كل مكان، لقد بنى المجذوم مذبحًا. توم العجوز قد أحكم قبضته على هذه المدينة".

نظر لارم إلى العلامة مرة أخرى، ثم غمد سكينه في حذائه وقال: "أو إن أفراد الطاقم يمزحون بشكل سخيف". نظر إلى سارا من رأسها حتى أخمص قدميها، وبدا أنه لا يبالي بمكانتها، ثم قال: "لا يُفترض بكِ أن تكوني هنا، هذا ليس مكانًا مناسبًا للنساء".

قال آرينت: "لقد سمعنا صوت احتكاك ثم صوت ارتطام".

ظهر الإحساس بالذنب للحظة عابرة على وجه لارم، ثم قال بشكل غير مقنع: "إنها على الأرجح عملية البحث".

قالت سارا في اعتراض: "لقد بدا الصوت أقرب من هذا".

"لم أسمع شيئًا".

تلفتت سارا حولها محاولة أن تجد تفسيرًا للأمر، ولكن مخزن البضائع كان مظلمًا للغاية، والشمعة ساطعة للغاية. إنها تُظهر هيئة لارم، ولكنها تعمي بصريهما عن كل شيء آخر.

سأله آرينت: "لِمَ لم تخبرني أنك كنت صديق بوسي؟".

"لم أكن".

قال آرينت: "لديك نصف تميمته، وسمعت أن هذا يعني أنك ستحصل على أجرته في نهاية هذه الرحلة، لا شك أن هناك علاقة وطيدة كانت تربط بينكما".

قال لارم: "هذا ليس من شأنك". ثم تراقصت شعلة الشمعة عندما رفع الطبق الموضوعة فيه.

قالت سارا: "ألا تريد أن تعرف من قتله؟ ألا تريد أن تعرف من وضعه فوق هذه الصناديق ثم أحرقه حيًّا؟".

لعق لارم شفتيه في توتر.

قال آرينت ببطء: "أو ربما أنت تعرف بالفعل، ولا تريد أن نعرف".

قال لارم غاضبًا: "أنت تهرف بما لا تعرف".

قال آرينت: "فلتخبرنا أنت إذن".

"ألا تعتقد أنني أريد أن أعرف؟ هل تعتقد أنني سعيد بأن شخصًا ما يريد إغراقنا جميعًا؟ لا يمكنني أن أتحدث إليك لأنك جندي".

قالت سارا: "أنا لست كذلك".

"أنتِ امرأة، لست أفضل بكثير".

قالت وهي منزعجة من عناده: "بحق السماء، لا يوجد سوى ثلاثتنا هنا في الظلام، فما الداعي للقلق؟".

هز رأسه في غضب ثم لوح بإصبعه ناحيتهم وقال: "يعتقد الجميع أن الإبحار يتعلق بالرياح والأمواج، هذا ليس صحيحًا، الإبحار يتعلق بأفراد الطاقم، مما يعني الكثير من الريبة والكراهية، الرجال الذين تعتمدون عليهم لإيصالكم إلى بيوتكم قتلة ولصوص وساخطون، ولا يمكنهم أن يفعلوا في الحياة أي شيء آخر. إنهم على متن هذه السفينة فقط لأنهم إن ذهبوا إلى أي مكان آخر فسيشنقون، إنهم متقلبو المزاج ويتسمون بالعدوانية، وقد حبسناهم جميعًا في مكان سنشعر فيه بالذنب إن احتجزنا قطيعًا من الماشية. القبطان كراوفلز يبحر بهذه السفينة، وأنا أمنع الطاقم من التمرد، إن ارتكب أي منا خطأً فسنموت جميعًا". ثم شمخ بأنفه بشكل مشاكس كرجل يستعد لسكب شراب شخص آخر في حانة. "هل تعرفون لمَ يكره الطاقم الجنود كثيرًا؟ هذا

لأننا نأمرهم بهذا، إن لم يكرهوهم فسيدركون كم يكرهون بعضهم بعضًا، وحينها لن نصل إلى الديار أبدًا". ثم ثبت ضوءه وقال: "إن أجبت عن أسئلتك وإن ساعدت أيًّا منكما على أي نحو، فهذا سيعني أنني قد انحزت إلى صفكم وليس إلى صفهم، لذا أمامي خياران، إما بوسي وإما هذه السفينة. أيهما ستختاران؟".

لم يتلقَّ إجابة، فتنهد ومشى مبتعدًا.

راحت سارا وآرينت يصغيان إلى خطوات أقدامه وهي تتلاشى، ثم مشى آرينت إلى حيث كان لارم يقف وقال: "ما الذي أصدر صوت الاحتكاك والارتطام الذي سمعناه؟ وما الذي كان لارم يفعله هنا؟".

قالت سارا مقترحة: "يحرك الصناديق؟".

دفع آرينت صندوقين فوجد أنهما مثبتان بثقل الصناديق المكدسة فوقهما. قال: "هل هناك أي اقتراحات أخرى؟".

قالت مخمنة: "ربما يمكن إزالة جانب أحد الصناديق".

حاول انتزاع بعضها، ولكنها كانت مثبتة بإحكام.

ضربت سارا الأرضية بقدمها لتتناثر المياه على ساقيها، لطالما استمتعت بهذا الجزء في قصص بيبس حيث يجد بابًا سريًّا وكانت تأمل في أن تكتشف واحدًا بنفسها. شعرت بخيبة الأمل، إن كانت ألواح الأرضية تحوي سرًّا فإنها لن تبوح به.

حدق آرينت إلى العوارض الثقيلة في هيكل السفينة التي تنحني للأسفل ناحيتهما، ثم حرَّك أصابعه على الألواح الخشبية الخشنة.

سألته سارا وهي تنضم إليه: "ما الذي تبحث عنه".

"أي شيء قد فاتني، أي شيء كان سامي لـ...". ثم صفق قائلًا: "لارم قزم! ما كان ليصل إلى هذا القسم الذي نفتش فيه من الجدار".

جثا على ركبتيه في الماء الآسن، فبلل سرواله. كانت الرائحة شنيعة.

نظرت سارا إلى المياه القذرة في اشمئزاز، ولكنها كانت قد اتسخت بالفعل. ارتجفت وهي تنضم إليه في الوحل.

سرعان ما وجدت أصابعها الأصغر حجمًا وتدًا.

صاحت في انتصار: "وجدتها".

الحقيقة أنه لم يكن مخفيًّا بشكل جيد، أيًّا كان من وضعه فقد كان واثقًا أن الظلمة ستخفيه دون الحاجة إلى بذل مجهود كبير.

انتزعته فانخلع لوح خشبي من موضعه بصوت احتكاك، ثم سقط مرتطمًا بالأرضية.

كان هناك خزانة من ورائه.

قرب آرينت المصباح لكي ينظرا إلى ما بالداخل.

قالت سارا في خيبة أمل: "أوه!". كانت خاوية. كلما فعل بيبس هذا يكون هناك شيء بالداخل، عادة ما تكون مجوهرات. على الرغم من أنه ذات مرة كان الأمر دمويًّا، حيث وجد رأسًا مقطوعًا. قالت: "لا شك أن لارم قد أخذ أيًّا ما كان موجودًا هنا، لقد جاء إلى هنا لكي يخفي شيئًا ما".

٣٣

وصل آرينت إلى المقصورة الكبرى ليجد أن جميع القباطنة جالسين حول الطاولة، يضربون بقبضاتهم وأصوات صياحهم متداخلة، موبخين أدريان كراوڤلز لإصداره أمرًا بالتوجه إلى مراكز القتال. تجادلوا بشأن أن ضوءًا واحدًا يظهر في ليلة واحدة قد يعني أي شيء. لم يكن هناك حاجة لإخراجهم في ذعر من أَسِرَّتهم.

الشخص الوحيد الذي لم يكن يصيح هو كراوڤلز نفسه، بل راح يدخن غليونه ويعبث بالقرص المعدني الذي يحمله، وهو يمرر ظفره على خطوط الطائر ذي الرأسين.

قال آرينت لنفسه إن هناك حكمة في صمته. إن إزعاج عمه أسهل بكثير من إثارة إعجابه. في غضون عام فإن نصف هؤلاء الرجال سيحملون الفحم في قوارب متهالكة وهم يتساءلون متى ضاعت ثرواتهم.

أخيرًا صرخ فيهم الحاكم العام: "أيها السادة! أيها السادة!". خيم الصمت على المقصورة. "الليلة سنطفئ مصابيحنا، ولن نمنح السفينة الغامضة أي ضوء لتطارده. إن عادت السفينة فستضع ساردام قاربًا شراعيًّا في الماء وترسله للتحقيق في الأمر. عودوا إلى سفنكم وكونوا مستعدين. طاب يومكم!".

انتظر آرينت حتى خرج قباطنة الأسطول وهم يدمدمون، ثم دلف إلى المقصورة. كان عمه جالسًا على كرسيه ويناقش شيئًا ما مع ڤوس الواقف إلى جانبه شابكًا يديه وراء ظهره. أما قائد الحرس دريخت فكان واقفًا إلى جوار باب المقصورة وقد أومأ برأسه بودية إلى آرينت.

فكَّر آرينت أنهم يبدون كسيدٍ وكلبي صيده.

عندما سمع الحاكم العام صوت خطوات أقدام آرينت التفت ناحيته، وعلى الفور ابتسم في بهجة لرؤية ابن أخيه، فقال: "مرحبًا يا آرينت، أنا...".

سأله آرينت وهو يرفع معصمه: "كيف حصلتُ على هذه العلامة؟ ما الذي حدث لأبي؟".

جعلت نبرته دريخت يضع يده على مقبض سيفه، بينما حدجه ڤوس بنظره بالنيابة عن سيده. اما الحاكم العام فقد اكتفى بأن مال إلى الوراء وهو يشبك يديه.

قال بهدوء: "لو كنت أعرف لأخبرتك".

"لقد سمعتك تتحدث إلى ڤوس". قالها آرينت محاولًا أن يحمي سارا من الاتهامات. "أعرف أنك قد استدعيت توم العجوز، وأن حياة أبي كانت ثمنًا لهذا".

تجهم الحاكم العام وهو يحدق إلى الحاجب الذي انكمش على نفسه أمام هذه النظرة الحادة. كان الأمر أشبه بمراقبة صقر يلمح فأرًا في الحقل البعيد بالأسفل.

قال آرينت بإلحاح: "هل هذا صحيح؟ هل ضحيت بأبي لتجلب توم العجوز إلى هذا العالم؟".

تأمل الحاكم العام ابن أخيه وقد بدا عليه أنه غارق في الحسابات، بينما كان من الصعب سبر أغوار عينيه الزرقاوين القاتمتين.

قال أخيرًا: "لقد أمر جدك بقتل أبيك. كان أبوك رجلًا مجنونًا ومتعصبًا دينيًّا، يؤمن أنك من عمل الشيطان منذ لحظة ولادتك. بعد أن ضربك حتى فقدت الوعي أدرك جدك أنه سيقتلك في نهاية المطاف، لم يستطع كاسبر أن يسمح بحدوث هذا، فقد أحبك كثيرًا، وطلب مني أن أتخذ التدابير اللازمة، ففعلت ما أمرني به".

أحس آرينت بالعالم يدور من حوله، إن غموض اختفاء أبيه قد طارده طيلة طفولته، ودفعه لترك بيت أمه. كان خدم جده يتهامسون بشأنه عندما يظنون أنه لا يسمعهم، وابتكر أطفالهم الألعاب لتعذيبه، فيهمسون عبر الأبواب أنهم روح أبيه وقد عادت لكي تخطفه.

ودومًا ما كان هناك تساؤل عما إن كان آرينت هو الشخص الذي أطلق سهمًا على ظهره، وما الذي جعله يفعل هذا إن كان قد فعله. أن يعرف جده وعمه الإجابة طيلة هذا الوقت كانت أعظم خيانة يمكن أن يتخيلها.

قال متلعثمًا وهو لا يزال يشعر بالدوار: "لمَ لم تخبرني؟".

"أن تأمر بقتل ابنك فهذا ليس بالأمر الهين يا آرينت". كان هناك تعاطف في صوته، ولكنه لم يعرف إن كان تجاه كاسبر ڤان دين بيرج أم تجاهه. "لقد أحس جدك بالعار مما صار عليه ابنه، وبالعار لأنه لم يستطع أن يفعل هذا بنفسه. إن جدك يمقت الضعف من أي نوع، وخصوصًا الضعف الذي يجده في نفسه".

مال الحاكم العام للأمام ليغمره ضوء الشمس وقال: "الماضي سم، لقد أراد أن يتركه وراءه، وقد أقسمت على أن أحفظ السر".

"لماذا إذن أمتلك هذه العلامة؟".

قال وهو يزم شفتيه: "القاتل قد فعلها. لقد فعل القاتل العديد من الأشياء الفظيعة. كان من المفترض أن يقتل أباك على مسافة قريبة من البيت، لا أن يتركك تتجول في الغابة لثلاثة أيام، لم نكن حينها نعرف حقًّا ما قد حدث لك".

"وماذا عن القاتل؟".

"لقد اختفى". ضم قبضته ثم بسطها وقال: "لقد رحل بعد أن أوصل مسبحة أبيك إلى جدك وقبض الثمن. لم نسمع عنه منذ ذلك الحين".

"كانت المسبحة هي الدليل على موته؟".

"أجل، كانت أعز ممتلكات أبيك، وعرف كاسبر أنه لن يتخلى عنها طواعية".

"ولكنك استدعيت توم العجوز؟ سمعتك تعترف بهذا".

سعل قوس محذرًا، كانت المحادثة محتدمة للغاية حتى إنه نسي تمامًا وجود الحاجب. تجاهل الحاكم العام مستشاره وهو يحدق إلى آرينت بمكر ويسأله: "هل تؤمن بالشياطين يا آرينت؟".

أجابه بحزم: "لا".

"كيف يُمكنني أن أستدعي شيئًا لا تؤمن به؟ أنت تطرح هذه الأسئلة لأن حياتك قد تغيرت في تلك الغابة، وتريد أن تعرف ما

غيرك. دعني أخبرك بشيء، إن كل قرار اتخذتَه وأدى بك إلى هنا كان قرارك، ليس قراري، أو قرار جدك أو الرب أو توم العجوز. صدقني، كلانا كان يتمنى عكس هذا، ولكنك دومًا ما تسلك طريقك الخاص".

"أنت لم تجب عن السؤال".

أجابه عمه وهو يفرك عينه بمفصل إبهامه: "لقد أجبت عن سؤال، وأحيانًا يكون هذا أفضل ما يمكن أن تتمناه".

"هذه جملة من إحدى قصصي".

قال وهو ينقر على الطاولة: "هل تعتقد أنني غفلت عنك طيلة هذه السنوات؟ هناك الكثير مما لا يمكنني أن أخبرك به".

"عماه...".

"إن إجابتي عن أسئلتك بكل صدق هي دليل على حبي لعائلتك، لا يمكن لأي رجل آخر أن يطلب هذا مني".

شعر آرينت بالتوبيخ في صوته، فوفقًا لمعايير عمه، كان هذا أشبه بالتعرض للضرب في زقاق خلفي. لن يدوم صبره أكثر من هذا.

سأله آرينت: "هل يعرف جدي بشأن توم العجوز؟".

"أنا لا أخفي شيئًا عن كاسبر".

"لماذا يحدث هذا يا عمي؟ من الذي يدبره؟ لماذا كانت علامة الشيطان على الشراع؟".

"لأنني أردت أكثر مما عُرِض عليَّ، وقد عهدت إليك بأن تكشف عن بقية الأمر بالنيابة عني". ثم صمت قليلًا قبل أن يضيف: "هل تؤمن أنني أحبك يا آرينت؟".

قال آرينت بدون تردد: "أجل".

زفر الحاكم العام ثم قال: "إذن فلتعرف أنني أكتم عنك أسراري لحمايتك، وليس بدافع الشك أو الخوف، أنا أثق فيك أكثر من أي شخص آخر على متن هذه السفينة، وأنا فخور بما صرتَ عليه".

اعتدل واقفًا وضرب على ذراعي آرينت في اعتزاز، ثم ابتسم بحزن مبهم قبل أن يمشي ناحية مقصورته دون أن ينطق بكلمة واحدة. لحق به ڤوس إلى الداخل وهو يغلق الباب بهدوء.

حدق دريخت إلى آرينت في دهشة، ولكنه لم يقل شيئًا.

غادر آرينت وهو يشعر بغضبه المشتعل يتحول إلى رماد. لقد تعرض للكذب طيلة حياته، رغم أن هذا كان لأسباب وجيهة. إن عمه محق، كان أبوه وحشًا وبالتأكيد كان سيقتله، لقد قتله كاسبر ويان هان لحماية آرينت، ثم كذبا بشأن الأمر لحماية نفسيهما.

كانت سارا تنتظره في قلق بالخارج، وما إن رأته حتى ركضت ناحيته وقالت: "لقد سمعت كل شيء، أنا آسفة يا آرينت".

قال آرينت محذرًا: "لا تشفقي عليَّ، بل اشفقي على ساردام". ثم نظر وراءه ناحية المدخل وقال: "إن كان لتوم العجوز أي سيطرة على عمي فإنه يسيطر على هذه السفينة، ربما نكون قد خسرنا هذه المعركة بالفعل".

٣٤

"كانت الخزانة السرية في مخزن البضائع فارغة؟". تساءل دريخت وهو جالس على كرسي ويشحذ سيفه بحجر. كان قائد الحرس عاري الجذع ويغطي صدره خصلات كثيفة من الشعر الأشقر، وكالعادة كان يرتدي تلك القبعة ذات الحواف العريضة والريشة الحمراء.

كان قد دلف إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط قبل نصف ساعة، ليجد آرينت جالسًا بمفرده ويحدق إلى الخواء. لم يذكر دريخت ما سمعه في المقصورة الكبرى، بل اكتفى بوضع جرة نبيذ على البرميل الذي يستخدمونه كطاولة، وسأل آرينت دون أدنى سخرية كيف كان يومه. أخبره المرتزق بشأن مذبح المجذوم -الذي أصدر كراوڤلز أمرًا بتدميره- والخزانة التي عثر عليها هو وسارا.

قال آرينت مؤكدًا وهو ينتزع سدادة من جرة أخرى: "فارغة تمامًا".

كانت حرارة ما بعد الظهيرة تضرب سطح السفينة، فاختبأ البحارة بالداخل أو في أي مكان يجدون فيه أي بقعة من الظل. والنتيجة هي أن ساردام -التي عادة ما تكون نابضة بالحياة والأصوات- كانت صامتة بشكل مخيف، باستثناء صوت تلاطم الأمواج.

سأله دريخت: "ما حجم هذه الخزانة؟".

"يمكنك أن تضع بداخلها كيسًا من القمح".

قال دريخت بنبرة العالم ببواطن الأمور وهو يمرر الحجر على سيفه: "خزانة تهريب، لا شك أن ساردام مليئة بها، كل سفينة هندية كهذا. يستخدمها كبار المسؤولين لكيلا يدفعوا للشركة نظير استغلال مساحة للشحن".

أخذ آرينت جرعة من النبيذ ثم بصقها، كانت ساخنة حد الغليان بعد أن وضعها في صندوقه لوقت طويل. سأله وهو يمسح شفتيه: "ما الذي ينقلونه؟".

"أي شيء يجني ربحًا".

قال آرينت مفكرًا: "كان بوسي ولارم صديقين، وكان بوسي نجارًا، إن بنى بوسي خزانة للتهريب فربما يستخدمها لارم لنقل البضائع بشكل غير قانوني ثم يتقاسم الأرباح مع صديقه، ولكن ما الذي أخذه منها هذا الصباح".

هز دريخت كتفيه وقد فقد اهتمامه بالأمر.

فجأة سأله آرينت: "هل تعرف لمَ أمر عمي بسجن سامي بيبس؟".

"إنها خدمة لشخص ما حسبما أعرف، ولكني لا أستطيع أن أخبرك من، فالحاكم العام لا يخبرني بأشياء كهذه". ثم عقد حاجبيه وهو ينظر إلى رقاقة مكسورة في النصل وقال: "إنه يُبقي أسراره مع ڤوس، أنا فقط أقتل من يفشي هذه الأسرار".

فكر آرينت، من بحق السماء سيفعل له عمه مثل هذه الخدمة؟ أيًّا كان فمن الواضح أن لديه غرضًا خبيثًا.

قال دريخت: "سأقايض سؤالك بسؤال؛ هل تعرف ما هذه الشحنة السرية التي جلبوها على متن هذه السفينة؟".

"الغنيمة؟".

"لا، شيء آخر، شيء أكبر بكثير".

قال آرينت: "لم أسمع به قط".

توقف دريخت عن شحذ سيفه وقد بدا عليه الانزعاج وهو يقول: "أيًّا ما كان فقد استغرق نقله ثلاثة أيام، لقد أخرجه من القلعة في ظلمة الليل، ويشغل الآن نصف مساحة مخزن البضائع".

"لمَ تشغل بالك بالأمر؟".

"لا يمكنني أن أحميه إن لم أعرف لمَ قد يرغب الناس في قتله، وأيًّا ما كانت هذه الشحنة فإنها مهمة". ثم هز رأسه بانزعاج وقال: "هناك الكثير من الأسرار اللعينة على متن هذه السفينة، وأقسم أنهم جميعًا يزحفون ناحيته مشهرين سيوفًا في أيديهم".

"منذ متى وأنت تحرسه؟".

أجابه بشيء من المرارة: "منذ وقت طويل للغاية حتى إنني لم أعد أتذكر. متى استولينا على باهيا؟".

"قبل سبعة عشر عامًا تقريبًا".

قال متجهمًا وهو يتذكر: "منذ ذلك الحين إذن. كان عمك بحاجة إلى شخص يحرسه أثناء خروجه من إسبانيا، وكنت لا أزال محتفظًا بكل أطرافي على عكس العديدين ممن نجوا من المعركة، أخبرت زوجتي أنني سأعود في غضون ستة أشهر، ولكني معه منذ ذلك الحين. منذ متى وأنت مع بيبس؟".

قال آرينت: "خمسة أعوام". ثم أخذ جرعة أخرى من النبيذ الفظيع. "لقد سمع أغنيات عني، فقرر أنه بحاجة إلى شخص مثلي يقف أمامه عندما يتهم الناس بالقتل".

ضحك دريخت وقال: "أنت لم تذكر هذا في قصصك قط".

هز آرينت كتفيه الضخمتين وقال: "أحيانًا ما يبدو المنطق السليم وكأنه جبن عندما تكتبه".

قال دريخت وهو يمرر الحجر على نصله مرة أخرى: "كيف هو حقًّا؟".

أجابه آرينت بحرص: "هذا يعتمد على اليوم، لقد ولد وهو لا يمتلك من حطام الدنيا شيئًا، ويخاف أن يعود إلى هذا. أنا لا أكتب إلا عن القضايا المثيرة للاهتمام، ولكنه يقبل أي لغز يجني منه مالًا جيدًا. معظم القضايا يحلها في غضون بضع دقائق، ثم يكتئب لأنه يشعر بالملل، فينفق المال الذي جناه منغمسًا في أي رذيلة في متناول يده".

بدت خيبة الأمل على دريخت وهو يقول: "الحكايات تجعله يبدو نبيلًا للغاية".

"يمكنه أن يكون نبيلًا عندما تكون الشمس في الموضع الصحيح والرياح في ظهره". زفر آرينت طويلًا، الحقيقة هي أن سامي شخص متقلب المزاج، ودائمًا ما يتصرف بدون تفكير، ولكن مواهبه كان لها تأثير قد غيرت حياته تمامًا. ذات يوم سمع سامي امرأة عجوزًا تبكي زوجها الميت الذي تعرض للضرب في أحد الشوارع وسُرقت محفظته، في غضون ساعة حل سامي جريمة القتل ووجد العملات المعدنية ووضع عليها مئة من جيبه، لقد زعم أن الغموض ممتعٌ للغاية

حتى إنه يستحق دفع المال من أجله، ولكن آرينت قد رأى النظرة المرتسمة على وجه المرأة العجوز. لقد مد سامي يده وقلب العالم رأسًا على عقب.

وكان هذا هو الجزء الصعب، لقد أراد دريخت أن يعرف طبيعة سامي، ولكنه سؤال صغير للغاية، يُمكن لآرينت أن يقول إن سامي بارع وفريد واستثنائي، ولكنه يمكنه أيضًا أن يقول إنه مغرور وجشع وكسول وأحيانًا قاسٍ. كل كلمة ستكون صحيحة، ولكن أيًّا منها لن تكون كافية.

إن السماء ليست زرقاء فحسب، والمحيط ليس رطبًا فحسب، وسامي لا يشبه أي شخص آخر، فلا يهمه الثروة أو النفوذ أو التمتع بالامتيازات، إن رأى أن شخصًا ما قد ارتكب الجريمة التي يحقق فيها فسوف يوجه إليه إصبع الاتهام. إن سامي هو ما يأمل آرينت أن يكون عليه العالم بأسره. إن تعرضت امرأة عجوز للظلم فستتلقى تعويضًا، سواء كانت غنية أو فقيرة، قوية أو ضعيفة، لا يجب على الضعيف أن يخشى القوي، ولا ينبغي للأقوياء أن يأخذوا ما يريدونه دون عواقب، يجب أن تكون القوة عبئًا لا درعًا، ويجب أن تُستخدم لتحسين حياة الجميع، وليس فقط الشخص الذي يحوزها.

هز آرينت رأسه، إنه يكره أن تنجرف أفكاره إلى هذه الحفرة، فهذا يجعله يكتئب. لقد عاش حياة طويلة وسافر بعيدًا على أن يؤمن بالحكايات الخيالية، ولكن بينما سامي على قيد الحياة فهناك شخص يخافه الملوك والنبلاء، وهذه فكرة مريحة.

مرر آرينت جرة النبيذ إلى دريخت وسأله: "كيف انتهى بك المطاف إلى باتافيا؟".

ارتشف جرعة ثم أجابه بمرارة: "البديل هو معركة لعينة أخرى، وقد رأيت الكثير من المعارك على أن أتمنى العودة إلى واحدة مرة أخرى. كما أنه وعدني أنه إن أوصلته سليمًا إلى ساردام فسيجعلني ثريًّا. يمكنني أن أحصل على خدم، وأن أنقذ زوجتي من حياة الشقاء في الحقول، وسيكون لأطفالي شيئًا ليتطلعوا إليه أكثر مما كان يتطلع إليه أبوهم. أجل سيكون هذا شيئًا رائعًا".

رفع سيفه لينظر من كثب إلى حافته، فتراقصت أشعة الشمس على النصل.

سأله آرينت: "هل منحك عمي هذا؟".

ضيق دريخت عينيه وقد وصل أخيرًا إلى المغزى الحقيقي من هذه الزيارة، ثم قال: "مكافأة نظير ولائي طيلة السنوات الماضية. إن عمك قوي، والرجال الأقوياء لديهم أعداء أكثر من الأصدقاء، وأعتقد أن هناك عدوًّا واحدًا على وجه التحديد".

"من؟".

"لا أعرف، ولكن أيًّا من كان فإنه يخشاه منذ زمن بعيد، حتى صار لا يغادر القلعة. ولهذا السبب فإن كل واحد من حرسه الشخصي يبحر معه على متن هذه السفينة، بدلًا من أن يجلب مجموعة صغيرة تكون أكثر ملائمة لهذه السفينة. إنه خائف من شيء ما، وهو الرعب الذي لا تمحوه حتى الأسوار العالية وصحبة الجنود. والآن أخبرني ما الذي يمكن أن يفعل به هذا".

قال آرينت مخمنًا: "توم العجوز؟".

تنهد دريخت ثم عاد إلى شحذ سيفه.

٣٥

مع عودة قباطنة الأسطول إلى سفنهم راحت سارا تعزف على قيثارتها، لا يمكنها أن تجد السكينة في أي شيء آخر، تعزف أصابعها على الأوتار بسهولة، ولكنها لم تكن تفكر في الموسيقى، إنها موجودة فحسب، تحيط بها كما يحيط البحر بساردام. بعد مرور بعض الوقت نسيت تمامًا أنها هي من يعزف الموسيقى.

ومن فوق الموسيقى تطفو أفكار مظلمة ومخيفة.

لقد اعترف زوجها بنفسه أنه قد استدعى توم العجوز. مخلوق قد تسبب في معاناة لا توصف في جميع أنحاء الأقاليم، والآن يبني مذبحًا لنفسه على متن ساردام. تساءلت عن الصفقة التي أبرمها، وكم عدد الفظائع التي ارتكبها طيلة هذه السنوات ليسدد دينه.

نظرت سارا من بين أوتار قيثارتها إلى كريسي وليا، كانت صديقتها ترتدي ثوبًا من الحرير الدمشقي، الذي ستذهب به إلى العشاء، بينما تجثو ليا على ركبتيها عند قدميها بدبابيس خياطة في فمها وقطعة قماشية في يدها، وإلى جانبها حافظة لفافة فارغة.

سألتها ليا: "هل يمكنك أن تمشي عبر الغرفة مرة أخرى؟".

قالت كريسي بانفعال: "لقد مشيت عبر الغرفة خمس مرات، سيكون الأمر على ما يرام".

قالت ليا في إلحاح: "ماذا لو غيرت الحافظة من مشيتك فلاحظ الناس الأمر؟".

"إن مشيتي ليست هي ما يلاحظه الرجال في هذه السفينة بشأني".

قالت ليا: "أرجوك".

حذرتها كريسي في غضب: "ليا!".

قالت ليا متوسلة: "أماه".

تدخلت سارا قائلة: "فلتمشي عبر الغرفة مرة أخرى من فضلك يا كريسي، دعيها ترى".

بينما تواصلن استعداداتهن عادت أفكار سارا إلى زوجها؛ إنه رجل ثري وصاحب نفوذ، وهذا منذ وقت طويل. إن كان هذا هو ما طلبه من توم العجوز فإلى أي مدى كان الثمن باهظًا إذن؟ راحت ببطء تفكر في كل شر قد ارتكبه أثناء معرفتها به، لقد ذبح سكان جزر باندا من أجل عقد، هل كان هذا بإلحاح من توم العجوز؟ هل كانت نجاته في بريدا من فعل ذلك المخلوق؟ ماذا عن المرات الثلاثة التي كاد فيها أن يضربها حتى الموت؟ هل هي فتات يلقيها للوحش لكي يبقيه شبعان؟

فوتت أصابعها وترًا فانهارت الموسيقى كمنزل سيئ البناء، ثم بدأت من جديد.

تمتمت ليا وهي تحدق إلى فستان كريسي: "أعتقد أنني يجب أن أجعل الحلقة أكبر".

قالت كريسي وهي تنتزع طرف الثوب من ليا: "الحلقة كبيرة بما يكفي".

"هل يمكنك أن ترفعيه بسهولة أم أنه ثقيل للغاية؟".

صاحت كريسي: "كفاكِ قلقًا. هلا أخبرتِ ابنتك الشيطانية يا سارا أن كل شيء على ما يرام وأنها يجب أن تتوقف عن القلق".

لم تسمعها سارا، فقد كانت قلقة للغاية.

إنها تعرف كيف يفكر زوجها، إن لم يستطع التغلب على أعدائه فسوف يقتلهم، وإن لم يتمكن من قتلهم فسيحاول شراءهم، وإن لم يتمكن من شرائهم فسيساومهم. إن كان توم العجوز على متن هذه السفينة، وإن كان يهددهم حقًّا، فإن أول فكرة ستراوده هو أن يعرض عليه شيئًا.

ولديه الكثير مما يمكن أن يعرضه.

إنه يبحر عائدًا ليصير واحدًا من السادة السبعة عشرة، أقوى مجموعة رجال في العالم. ومن خلالهم سيسيطر على أساطيل الشركة وجيوشها، سيكون قادرًا على أن يحيق الدمار في أي مكان بمجرد أن يضع إصبعًا على الخريطة. إن كانت المعاناة هي ما يتوق إليها توم العجوز فإن زوجها سيصير منذرًا مثاليًّا.

صارت الموسيقى غير متناغمة مع ارتجاف يدها.

في القلعة كانت تلعب دور ساموِيل بيبس، ولكنها على الأقل كانت تضمن أنها سواء فشلت أو نجحت، فإنها ستجد إجابة للأسئلة. سيُحل اللغز وسينتصر الأخيار ولن يَلحَق ضررٌ بأي شخص تحبه.

ولكن لم يعد هذا هو الحال، إن توم العجوز مختبئ في أحد الركاب، وإن لم تستطع تحديد هويته قريبًا فسيُذبح كل شخص تحبه.

"ليا؟".

"أجل يا أمي؟".

"هل تفهمين القواعد التي تبقي هذه السفينة طافية؟".

"إن الأمر متعلق حقًّا بالتوازن و...".

قاطعتها سارا التي لم يكن لديها وقت للانغماس في أعماق معرفة ليا: "رائع، هل ستكونين قادرة على تحديد أفضل مكان لصناعة خزانات سرية في الهيكل؟".

قالت ليا وعيناها تلمعان: "سأحتاج إلى بناء نموذج مصغر".

"إن جلبتُ لكِ بعض الخشب فكم سيستغرق منك الأمر؟".

قالت ليا في بهجة: "أسبوع أو أكثر، لمَ تحتاجين إلى هذا؟".

"إن كان بوسي قد صنع خزانة تهريب فإنه على الأرجح قد صنع المزيد. أيًّا كان ما يخبئه لارم فربما قد نقله إلى خزانة أخرى".

قالت كريسي مخاطبة ليا: "أوه، رائع، لديك مشروع جديد، ربما ستتركينني وشأني أخيرًا".

٣٦

مر بقية النهار بخمول بينما الحرارة تثقل السفينة.

انتهى البحث بعدم العثور على أدنى أثر لثياب المجذوم، مما جعل أفراد الطاقم مضطربين ومنزعجين دون أن يسفر هذا عن أي شيء.

مع اكتساء الشمس بالحمرة وانخفاضها في الأفق أمر كراوقلز بإنزال المرساة وطي الأشرعة. اثنتان من سفن الأسطول واصلتا المضي قدمًا عبر الغسق، لقد فقدوا الإحساس بمرور الوقت وكانت المياه هادئة. من الواضح أنهم قرروا مواصلة الإبحار أثناء الليل.

راقب كراوقلز السفينتين تختفيان عند الشمس الحمراء ثم تمتم: "يا للحمقى الملاعين، يا للحمقى الملاعين المتهورين".

٣٧

كان المضيف يضع أدوات المائدة من أجل العشاء عندما دلفت سارا إلى المقصورة الكبرى، وطرقت على باب مقصورة زوجها بنفس التخوف الذي طالما شعرت به في مثل هذا الوقت.

لم تأتها إجابة.

طرقت الباب مرة أخرى. لا إجابة.

نظرت ناحية قائد الحرس دريخت الذي كان يدخن غليونه بينما يقف للحراسة، وسألته: "هل هو بالداخل؟". قليل من الرجال يمكنهم أن يقفوا للحراسة مثل قائد الحرس دريخت، لقد بدا وكأن الهواء نفسه قد مُنح سيفًا وقبعة، وبالكاد يبدو عليه أنه يتنفس.

قال بتؤدة: "ما دمت أنا هنا فهو بالداخل".

طرقت الباب للمرة الثالثة ثم فتحته قليلًا لتختلس النظر إلى الداخل، فوجدت زوجها جالسًا بظهر متيبس إلى شمعة آخذة في الذوبان، بينما ينظر إلى سجل الركاب.

قالت في تردد: "زوجي".

لطالما أحست بالخوف منه، ولكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة، لقد عقد صفقات مع الشياطين. وحسبما تعرف فقد سلم نفسه لتوم العجوز، ستدفع أي ثمن تقريبًا لكيلا تدخل هذه الحجرة.

قال وهو ينتبه: "هممم". رمش بعينيه ليبعد عنهما القلق بينما ينصب اهتمامه عليها، ثم نظر إلى الشمس الأرجوانية وراء الكوة وقد ارتسمت الدهشة على وجهه. قال في شرود: "لم أشعر بمرور الساعات، ولم أدرك أن الوقت قد حان لتأدية واجباتنا".

اعتدل واقفًا وهو يفك رباط سرواله.

قالت متوسلة: "لحظة من فضلك". ثم توجهت ناحية رف النبيذ وأنزلت واحدة من الزجاجات البرتغالية التي يفضلها.

تساءلت وهي تريه الزجاجة: "هل نتشارك الشراب أولًا؟".

قال متجهمًا: "هل ترين أنني مثير للاشمئزاز حقًّا حتى إنك تحتاجين إلى تخدير حواسك بالنبيذ قبل أن تعتني بمسؤوليتك؟".

أجل. نحت الفكرة جانبًا.

قالت كاذبة: "كل ما أعرفه هو أنني أشعر بالعطش، فالسفينة خانقة".

أولته ظهرها وهي تخرج قارورة العقَّار المنوم من كيس صغير قد خبأته في كمها. انتزعت سدادتها ثم أمالتها على قدحه. إنه نفس العقَّار الذي استخدمته للتخفيف من معاناة بوسي على رصيف الميناء، وبنفس البطء المؤلم تجمعت قطرة واحدة على طول الحافة.

رأت على المكتب قطعة من الورق بارزة من وراء سجل الركاب، وكان هناك ثلاثة أسماء مرئية، رغم أنه من الواضح أن هناك أسماء أخرى من تحتها.

باستيان باس — ١٦٠٤

توكيهيري — ١٦٠٥

غيليس ڤان دي سيولين — ١٦٠٧

عقدت حاجبيها، لم يعنِ لها أول اسمين شيئًا، ولكن ڤان دي سيولين كان لقب عائلة عريقة حتى أسقطهم العار.

حاولت أن تتذكر طبيعة هذا العار، ولكنها لم تكن واثقة من أنها تعرف، لقد كانت طفلة عندما حدث هذا، ولم تتلقَّ عن أسئلتها سوى إجابات مبهمة، كانت إشاعات أكثر منها حقائق. هذا هو حال النبلاء؛ يلتهمون الفضيحة بنهم، ولكن سرعان ما ينسون ما أكلوه، فعلى أي حال هناك دومًا المزيد من الفضائح التالية.

سألها زوجها بينما الألواح الخشبية تصدر صريرًا تحت قدميه وهو يعتدل واقفًا: "هل السدادة عالقة؟".

قالت على الفور: "لا، هناك عنكبوت في قدحي وأحاول إخراجه، هذا كل ما في الأمر".

"اسحقيه وانتهي من الأمر".

"لا حاجة لإيذائه".

ضحك من رقة مشاعرها وقال: "من السهل جرح قلب المرأة، لا عجب أن معظمكن تفضلن المدفأة والبيت".

معظمكن. كانت الكلمة نافذة على روحه، ومن خلالها استطاعت أن ترى المشهد البائس لحياتهما معًا. نظرت إلى القنينة.

لقد سألها آرينت ما ستفعله قطرة واحدة، ثم اثنتان، ثم ثلاث، لم يسألها قط ما الذي ستفعله خمس قطرات.

خمس قطرات ستقتل.

سيكون شيئًا يسيرًا، تحتاج فقط إلى أن ترج القنينة بقوة أكبر بعض الشيء وسيتدفق السائل، سيكون ميتًا في غضون ساعات.

راحت تقاوم هذه الرغبة الماكرة.

إن كان توم العجوز كامنًا بداخل زوجها، فسيؤدي ساندر طقس النفي وسينتهي الخطر. حتى لو لم يكن توم العجوز قد استحوذ عليه فإنه قد أطلق شره في هذا العالم، والموت هو أقل ما يستحقه.

ارتجفت يدها وهي تشعر برغبة شديدة في أن تفعل هذا. قالت لنفسها إنها مجرد روح دنسة واحدة مقابل حياة ليا، حياة واحدة ستضع حدًّا للخوف الذي أصابها طيلة الخمسة عشر عامًا الماضية.

ولكنها لم تمتلك الشجاعة الكافية. ماذا لو لاحظ الأمر وصاح مناديًا دريخت؟ ماذا لو لم ينجح الأمر؟ ماذا لو نجح الأمر؟ ستنفي توم العجوز، ولكن من سيصدق أنها قتلت زوجها لتخلصهم من شيطان؟ بموجب قانون الشركة سيكون لدى ڤان شوتن السلطة لرميها بين أفراد الطاقم لبقية الرحلة ثم إعدامها في أمستردام، هذا على افتراض أنهم سيصلون إلى هذا الحد.

ستكون ليا وحدها.

نحت خطتها جانبًا وهي تشعر بالخجل من نفسها.

سألته: "ما الذي كنت تفكر فيه عندما دلفت إلى الحجرة؟". كانت تحاول أن تكسب بعض الوقت بينما قطرة العقَّار المنوم الثقيلة تتجمع عند الحافة.

"لماذا؟".

"لقد طرقت على الباب ثلاث مرات، ولكنك لم تجب". نفد صبرها فهزت القنينة مما جعل قطرة ثانية من السائل تسقط في القدح.

توقف قلبها. إن قطرة واحدة ستجعله يخلد إلى نوم عميق، ولكن ليس أكثر من المعتاد، قطرتان ستجعلانه ينام حتى يتجاوز وقت الإفطار بكثير، هذا سيثير التساؤلات بالنسبة لرجل يستيقظ عادة قبل الفجر. فكرت في أن تختلق بعض الأعذار لتحاول مرة أخرى، ولكنه سيلاحظ تلكؤها بالتأكيد، بدلًا من هذا صبت النبيذ وهي تأمل أنه سيعزو تعبه إلى هواء البحر.

قالت وهي تجلب إليه السائل: "أنت تبدو مشتت الانتباه على غير عادتك".

قال بريبة وهو ينقر على القدح بظفر طويل حاد: "لم تكترثي من قبل براحة بالي".

أحست بأول لمسة من الذعر، وأدركت أنها قد بالغت في لعب الدور، إنها لم تلعب دور الزوجة الصالحة لسنوات عديدة، وحتى عندما كانت تفعل هذا كان بدافع من النكاية.

قالت في ضعف وهي غير قادرة على أن تفكر في كذبة أفضل: "لقد كان يومًا غريبًا".

قال وهو ينظر إليها بمكر: "لقد سمعت بهذا، أم تظنين أن أحدًا لم يلاحظ جولتك في مخزن البضائع بصحبة آرينت؟". ضرب بقدحه على الطاولة ثم قال وهو يعتدل واقفًا: "ما الذي كنتِ تسعين إليه يا سارا؟ أن تمرغي أنفي في التراب؟ ما الذي كنتِ تطمحين إلى كسبه؟".

تعاظم الذعر في قلبها، فجفلت وقد توقعت أنه سيضربها، ولكنه اكتفى بالتحديق إليها.

تلوى وجهه في ابتسامة شيطانية وهو يقول: "هل كنتِ تعتقدين أنني كنت غافلًا عن منادمتك له الليلة الماضية؟ أخبريني، هل استمتعتِ بعزفه على الكمان؟".

"زوجي...".

قاطعها في غضب وهو يلوح بيده: "لقد انتهى الأمر يا سارا، لن تريه بعد اليوم. آرينت لا يصلح لكِ، ولن أسمح لكِ بأن تلحقي بي العار بافتتانك به. لن نتناول الإفطار معًا مرة أخرى، ولا أريد أن أسمع المزيد من الأسئلة. فلتعتبري حريتك قد انتهت، ستقضين أيامك في مقصورتك، باستثناء الأوقات التي ستؤدين فيها واجباتك تجاهي، وبعدها ستعودين إلى مقصورتك على الفور".

تمالك أعصابه وهو يتجرع نبيذه ويضع القدح جانبًا مرة أخرى، ثم قال آمرًا وقد بدا أن كل غضبه قد تبخر: "اخلعي ثيابك".

أحست بقشعريرة باردة وهي تطرق بعينيها وتفك العقد عند كتفيها. أنزلت ثوبها على الأرض وتلا هذا صدريتها ومشد بطنها حتى وقفت عارية أمامه. تفحصها بازدراء وهو يفك الأحزمة الجلدية الستة التي تثبت درع صدره في موضعه، قبل أن يعلقه على حامل الدروع في الزاوية. لاحظت من طرف عينها أن هناك قطعة ورق مطوية خلف الإبزيم.

وبعدها انتزع سرواله ليكشف عن ساقيه الشاحبتين النحيلتين، وعضوه المنتصب.

أشار إليها أن تستلقي على الفراش ثم جثم فوقها.

لم يستغرق الأمر منه سوى لحظات.

بعض الزمجرات والعض على الأسنان قبل أن يسكب سائله.

راح يلهث وشعرت بأنفاسه الكريهة على وجهها.

أحست سارا بالذل وهي تترك الملاءات التي كانت تتشبث بها. حدقت إلى رقبته النحيلة وهي تتخيل إحساسها وهي تراقبه يكافح من أجل أنفاسه الأخيرة.

أمسك زوجها بذقنها وهو يحدق إليها بهاتين العينين السوداوين ثم قال: "فلتنجبي لي ابنًا وسينتهي واجبك تجاهي".

تمتمت: "أنا أكرهك". كان هذا تهورًا وحماقة، ما كان يجب عليها أن تقول هذا، ولكنه كان يتعاظم بداخلها كالإحساس بالغثيان، فلم تستطع أن تبقيه بداخلها أكثر من هذا.

"أعرف هذا، لماذا اخترتكِ أنتِ من بين جميع أخواتك من وجهة نظركِ؟". ثم تدحرج من فوقها وتوجه ناحية مكتبه ليصب المزيد من النبيذ. "لقد اتخذني أبوكِ عدوًّا يا سارا، فأرسلت القراصنة ليحرقوا مستودعاته وينهبوا سفنه. وبعدما دمرته أخذت إحدى بناته العزيزات غنيمة، تلك التي لا يمكن أن تحبني، تلك التي ستكرهني أكثر من غيرها".

تجرع النبيذ دفعة واحدة، ثم تجشأ قبل أن يقول: "كيف تشعرين بمعرفتكِ أن معاناتكِ أمر ثانوي، وأن عذابكِ ليس من صنيع يديكِ؟". راقبها باهتمام منتظرًا رد فعلها.

قالت وقد تغلب عليها اشمئزازها: "أعرف أنك عقدت صفقة مع توم العجوز، أعرف أنك استدعيته".

ومض شيء في هاتين العينين، ليس الصدمة أو الغضب، ليس الحزن أو المفاجأة.

بل الفخر.

قال: "لقد كنت الابن الرابع لعائلة متعثرة تتوجه ناحية الخراب المحتوم بسبب عدم كفاءة أبي. لم يضع الرب أي خطط عظمى من أجل مستقبلي، لذا رسمت هذه الخطط بنفسي، بصحبة الشيطان الذي سينفذها. لن تجعليني أشعر بالعار يا سارا، ولن تجدي أي ندم. بعدما أوصل الغنيمة سيُسطر اسمي في التاريخ بينما أنتِ -غير الملحوظة والمملة- سيطويكِ النسيان".

أشار لها بيده أن تنصرف وهو يقول: "والآن اذهبي، لم أعد بحاجة إليكِ".

٣٨

في مهجعه الضيق ارتدى آرينت زيه العسكري القديم، بينما ذراعاه وساقاه تبرز من آن لآخر من بين الستائر. كان السروال ضيقًا على خصره، واتضح أنه من الصعب ربط الصدرية ذات اللون الأخضر الباهت.

كان مستاءً رغم أنه لم يكن متفاجئًا، فرغم ملاحقته لكل هؤلاء الأشخاص إلا أن الحياة التي يعيشها الآن أكثر رخاءً مما اعتاد عليه، فيتناول أطايب الطعام ويشرب أفخر أنواع النبيذ، ويقضي أسابيع بدون أن يبذل مجهودًا كبيرًا. لم يكن الحال هكذا في الجيش، حيث كانوا يتدربون أو يقاتلون كل يوم تقريبًا. وإن لم يكن هناك عدو كانوا يتقاتلون فيما بينهم. كانت حياة بائسة وغير مريحة وفي بعض الأيام لا يفتقدها على الإطلاق.

وأخيرًا تمكن من ربط أزرار صدريته ثم دس الحافة البالية في بنطاله، ثم تفحصها بحثًا عن البقع فوجد بعض القطرات من الدم الجاف بالقرب من الرقبة.

سيفي هذا بالغرض. فرغم حالته الرثة إلا أن هذا الزي الرسمي هو أفضل حلة في ثيابه، والشيء الوحيد الذي يصلح لارتدائه من أجل العشاء. لقد اشتراه له عمه عندما استأجره. وعلى الرغم من أخطاء يان هان التي لا تحصى إلا أنه الشخص الوحيد الذي فهم لمَ

أراد آرينت أن يترك بيت جده. كان الشخص الوحيد الذي لم يصرخ في وجهه أو يحاول منعه، الشخص الوحيد الذي نظر إلى عيني آرينت فرأى الخوف كامنًا فيهما. لقد اضطر بدافع من الولاء أن يحاول إثناءه عن الرحيل، ولكن عندما اتضح أن عزيمته لن تلين فعل كل ما بوسعه لكي يضعه بقوة على مساره الجديد.

مرة أخرى شعر آرينت باشتياق إلى الرجل الذي كان يعرفه، وصدمة حادة لتذكر ما صار عليه. لم يستطع آرينت أن يقنع نفسه بالتصديق في الشياطين، ولكنه يتفهم كم أن هذه الفكرة مغرية، سيكون من المريح أن يجد شيئًا يلقي عليه باللوم، شيئًا يمكنه أن ينفيه، وأن يعيد عمه -الرجل الذي رباه- إلى طبيعته بمعجزة ما.

فرك آرينت ندبته، يزعم عمه أن القاتل هو من أصابه بها، ولكن لماذا؟ ومن غيره يعرف بشأنها؟ أيًّا كان من يعرف ماضيه فقد وضع علامة توم العجوز على الشراع، لقد جندوا بوسي للعمل على متن السفينة لغرض ما، فألبسوه ثياب المجذوم ووضعوه على هذه الصناديق ليوجه التحذير.

شيء كهذا سيحتاج إلى سلطة وتخطيط وتنظيم، لقد بدا هذا جزءًا كبيرًا لإضاعته على مرتزق متواضع.

هندم آرينت سترته، ثم شق طريقه عبر حجرة الدفة الفارغة إلى المقصورة الكبرى. كان هناك خدم عابسون يقدمون الشراب، بينما الركاب والمسؤولون يمتزجون مثل الماء الدافئ والماء البارد في حوض الاستحمام. فيكون هناك بعض المزاح يليه صمت محرج، ومحادثات مصطنعة تتمدد نحو الصمت الحتمي.

كان ساندر وإيزابيل يتحدثان إلى ليا وسارا، وعينا سارا تلمعان بما يشي بأنها كانت تبكي قبل قليل. عندما رأته واقفًا عند عتبة الباب ابتسمت له مرحبة.

شعر آرينت بقلبه يخفق.

ظهر ڤوس في نطاق رؤيته يحدق إلى شيء ما على الجانب البعيد من المقصورة وقد تلوى وجهه في بؤس، تتبع آرينت نظرته فأدرك أنه يراقب كريسي، التي بدت أنها الشخص الوحيد -من بينهم جميعًا- الذي يحظى بالمرح. كانت تتبادل الحديث مع القبطان كراوڤلز، ولم يستطع آرينت أن يقرر أيهما أكثر تأنقًا. ترتدي كريسي ثوبًا من الحرير الدمشقي مرصعًا بالخرز، ويتدفق الدانتيل على صدرها كما يتدفق شعرها الأشقر على ظهرها. أما كراوڤلز فيرتدي سترة جلدية ومن تحتها قميص حريري، ويزين الريش أطراف سرواله البرتقالي وحرملته البرتقالية.

ضحكت كريسي فظهرت أسنانها الجميلة، ثم جذبت وشاح القبطان بشكل لعوب وهي تقول: "أخبرني أيها القبطان، من أنت حقًّا؟ قبطان تاجر على غير العادة أم سيد نبيل؟".

"ألا يمكنني أن أكون كليهما؟".

قالت وهي ترمي بشعرها إلى الوراء: "هذا مستحيل، الأول يجمع الثروة ولا يبالي إلا بالحفاظ عليها وكسب المزيد، أما الآخر فينفق الثروة ولا يبالي بكيفية اكتسابها، بل يبالي فقط بأن المال يتدفق إليه. إنهما مسعيان متناقضان ومع ذلك ها أنت ذا".

نفخ صدره في فخر، وقد أعجبه أن تمتدحه كريسي ينس.

"والآن قل لي أيها القبطان كيف صرت إلى مثل هذا التناقض المثير للاهتمام؟".

كان آرينت واثقًا أن كراوڤلز لا يرى الأمر على حقيقته، لقد كان مفتونًا للغاية حتى إنه لم يلاحظ أنها تستجوبه. لقد قال له سامي ذات يوم إنه من الأفضل أن تغلف الأسئلة القاسية بالكلمات المعسولة. إن سامي بارع، ولكن كريسي أكثر براعة.

تساءل ما الذي تسعى إليه.

قال وهو يميل مقتربًا منها في افتنان: "سأخبرك يا سيدة ينس، فأنا أعتقد أنك ستستمتعين بالحكاية. كانت عائلتي نبيلة ذات يوم، حتى بدد جدي -لعنه الله- ثروتنا. أثناء نشأتي كانت بقايا مجدنا السابق في كل مكان من حولنا، فقد أبقت أمي قطعًا من الأثاث في حجرات صغيرة للغاية على أن تحويها. وكانت تتصرف بآداب الطبقة الاجتماعية التي هبطنا منها. وأحيانًا ما تتواصل مع شخص لم تنقطع معه العلاقة تمامًا بعد، أو تتذكر دَيْنًا قديمًا لم يُسترد بعد. هكذا حصلت على وظيفتي، قبطانًا في الأسطول، وكانت آخر خدمة من صديق سابق للعائلة، لم يعد راغبًا في أن يقدم المزيد لهؤلاء الذين لا يمكنهم أن يقدموا أي شيء في المقابل".

غطّت كريسي فمها بيدها في دهشة.

قال متفاخرًا وقد أعجبه رد فعلها: "اتضح أنني بحار بالفطرة، لا يوجد من هو أفضل مني في الملاحة أو قراءة البحر والسماء، يمكنك أن تسألي أي واحد من أفراد طاقمي. لا أسمح لأي شخص غيري أن يلمس خريطة على متن ساردام خشية أن يقودنا إلى الوجهة الخاطئة. ومع ذلك تبدو هذه المهارات بديلًا هزيلًا مقابل كل شيء قد خسرته،

لذا أتشبث بما يمكنني التشبث به؛ سلوكي وملابسي وتعليمي. أتشبث بكل هذا على أمل أن أستأنف الحياة التي خسرتها عندما أعيد بناء ثروة عائلتي".

منحته كريسي نظرة تعد بالكثير، حتى إن آرينت أشاح ببصره خشية أن يتطفل عليهما. قالت: "أنت رجل استثنائي أيها القبطان العزيز. أخبرني من فضلك كيف ستعيد بناء هذه الثروة، وإن جاز لي أن أسأل، فهل سيكون هذا قريبًا؟".

خفض كراوڤلز صوته وقال: "أشعر أن هذا قريبًا بما يكفي. هناك دومًا فرص على متن سفينة كهذه". ثم نظر نظرة ذات مغزى ناحية مقصورة الحاكم العام.

لم تستطع كريسي أن تستخلص منه المزيد مهما حاولت، ثم تحولت محادثتهما إلى ثرثرة فارغة.

أدرك آرينت أن الوقت قد حان ليخطو مبتعدًا عن المدخل، فأخذ نفسًا عميقًا.

قال صوت ثمل من ورائه: "لقد فعلت الشيء ذاته".

التفت آرينت وراءه ليرى رينير ڤان شوتن متكومًا عند زاوية حجرة الدفة، وقد بسط ذراعيه أمامه ووضع زجاجة بين فخذيه. بدا عليه أنه قد حاول أن يرتدي ملابس لائقة من أجل العشاء، ولكن المحاولة باءت بالفشل، فقد سكب النبيذ على قميصه ومن الواضح أنه ارتدى صدرية لتغطية هذا، ولكنه وضع الأزرار في الحلقات الخاطئة، كما أن الأشرطة على كاحليه وسرواله كانت ملطخة بالبول، وتفوح منه رائحة الكحول والعرق وليالي الندم الطويلة.

سأله آرينت: "ما الذي حدث لك؟".

قال: "لقد ارتكبت خطأً". ثم ازدرد لعابه، كان هناك هالة من اليأس تحيط به، شيء فظيع وحزين. "لقد حاولت بشدة أن أكون مثلهم".

"مثل من؟".

صاح ڤان شوتن وهو يشير بيده ناحية المقصورة الكبرى: "مثلهم! النبلاء الملاعين. أردت أن أمتلك ما يمتلكونه، وقد كدت أن أنال هذا". ثم تهاوى رأسه فضغط ذقنه على صدره، وقال: "لم أكن أدرك ما يفعلونه لكي ينالوا ما يمتلكون، وما مقدار ما سيطلبونه منك، وماذا سيكون الثمن".

قطع آرينت خطوة ناحيته، إن توم العجوز يعرض على المرء تحقيق رغبات قلبه نظير خدمة، إنه يعرف من تحذير بوسي على رصيف الميناء أنه يخطط لجلب خراب وحشي على ساردام، وأن سيد السفينة سيكون حليفًا ممتازًا في مثل هذه الحالة.

سأله: "ماذا كان الثمن يا ڤان شوتن؟".

رفع ڤان شوتن رأسه فجأة وقال: "لِمَ تبالي؟ الفتى الذي تخلى عن كونه واحدًا من عائلة بيرج ليصير ماذا؟ ماذا أنت الآن؟ كلب بيبس المدلل؟".

قال آرينت بإلحاح: "ماذا كان الثمن؟".

ضحك ڤان شوتن وهو يجذب ثيابه الملطخة كأنما يراها للمرة الأولى ثم قال: "أنا أكره هذه الشركة، لطالما كرهتها، الأرباح تسبق الكرامة والمبادئ والبشر. كانت أمي لتشعر بالعار إن رأتني الآن، كانت لتشعر بالعار مما فعلتُ".

كان آرينت دهِشًا لإيجاد أرضية مشتركة بينهما، فكر أن أباه كان ليشعر بالشيء ذاته، كل يوم أحد في القداس كان يهاجم شركة الهند الشرقية المتحدة، واصفًا إياها بشركة العوز. كان يؤمن بأن الرب قد أعطى البشرية كل ما تحتاج إليه مجانًا، الطعام يتدلى من الأشجار وينبت في التربة ويملأ الغابات. يعظهم قائلًا إنها هبة الرب التي مُنحت لهم بحق المولد، والشيطان هو من جلب العوز، فيُغري الناس بالأشياء المبهرجة؛ السكر والتبغ والكحول، الأشياء التي تشتت انتباههم وتختفي بسرعة كبيرة فتحتاج دومًا لاستبدالها، أشياء تصاب بالجنون وأنت تلاحقها. لقد رأى صنيع الشيطان في شركة الهند الشرقية المتحدة، فيحبس الإنسانية بالعوز ويغريهم بشراء أغلالهم من جديد كل شهر.

لقد كره آرينت أباه، ولكن انتهى به المطاف بالاتفاق إلى حد ما مع هذا الوغد العجوز المجنون. لقد رأى الفلاحين يعملون حتى الموت في الحقول، لأنهم يتلقون أجرًا زهيدًا نظير ما ينتجونه، هؤلاء الذين رفضوا العمل أُجبروا عليه، وهؤلاء الذين وقفوا في طريقهم قد قُتلوا لأن التقدم يتطلب التضحيات.

إن ڤان شوتن محق، الشركة لا تكترث بالبشر، إنهم سلع مثل أي شيء آخر، إنتاجهم مجاني واستبدالهم رخيص، ليس هناك قيمة إلا لما يخرجونه من الأرض.

قال ڤان شوتن بلسان ثقيل: "أتعرف، سأكون سعيدًا عندما يُغرق توم العجوز هذه السفينة في أعماق المحيط، لا يوجد شخص على متنها يستحق الإنقاذ".

قال آرينت معترضًا: "لن يصل الأمر إلى هذا الحد".

"لأنك ستوقفه؟". كان هناك شيء أشبه بالشفقة في صوته. "دب بيبس الراقص يعتقد الآن أنه الشخص الذي يمسك باللجام، يا لها من دعابة". ثم ضيق عينيه وصارت نبرته حادة وهو يقول: "لقد سمعت حكايات عنك، عن آخر قضية عملت عليها، شيء له علاقة بشخص يُدعى إدوارد كويل وماسة مفقودة".

قال آرينت في توتر: "كان هذا قبل وقت طويل".

"ولم يستعِد أحد الجوهرة قط، هل سرقتها يا آرينت؟ هذا ما يقولونه".

"لقد وصلتُ إلى ليل بعد سرقتها بثلاثة أشهر، ووصل سامي بعد هذا بشهر. كان قد مضى على الأمر وقت طويل، وكان بحوزة كويل آلاف الجيلدرات في حقيبة تحت فراشه".

"ثروة العائلة".

قال آرينت وهو يعض على نواجذه: "هذا ما اكتشفه سامي، لقد ارتكبت خطأً".

"ما الذي حدث لكويل؟".

"لا أعرف".

صاح ڤان شوتن: "لقد أفسدت سمعة رجل ولا تعرف ما الذي حدث له؟".

"لقد هرب قبل أن يكشف سامي براءته، لا نعرف إلى أين ذهب".

أحس آرينت بشخص يدفعه جانبًا، وعلى الفور عرف من الرائحة العطرة أنه القبطان كراوڤلز.

قال كراوڤلز وهو ينظر إلى ڤان شوتن بشفقة: "بحق السماء يا رينير، ما الذي حدث لك؟ لقد كنت مثل البغل طيلة الأسبوعين الماضيين".

نظر إليه ڤان شوتن متوسلًا والدموع تترقرق في عينيه ثم قال: "أنا...".

قاطعه صوت خطوات أقدام قبل أن ينفتح الباب بعنف ويندفع إيزاك لارم إلى الداخل. قال وهو يلهث: "لقد عاد أيها القبطان، المصباح الثامن قد عاد!".

٣٩

ما إن انفتح باب الزنزانة حتى خرج سامي مسرعًا وراح يعب الهواء النظيف عبًّا. رغم رطوبة الجو إلا أنه كان متعرقًا. كانت عيناه متسعتين كطبقين وشعره أشعث ورائحة أنفاسه كريهة. كان متشبثًا بقنينة العقَّار المنوم التي منحتها له سارا.

قال بينما يمسك بذراع آرينت الممدودة لكي يقف على قدميه: "بحق السماء، كم يسعدني أن أكون بالخارج".

حاول آرينت أن يبعد اليأس عن ملامح وجهه.

إن وظيفته الوحيدة هي أن يحمي سامي بيبس من الأذى، ولكن كل ساعة يمضيها محتجزًا في هذه الزنزانة هي ساعة أخرى يفشل فيها في مهمته. أمس، كان مقتنعًا أن عاطفة عمه تجاهه ستكون كافية لكسب حرية سامي، واليوم يعرف أنها لن تكون كافية حتى لنقله من زنزانته إلى مقصورة. مثل الليلة الماضية طلب سامي من آرينت أن يولي ظهره عندما وصلا إلى الأسطح المكشوفة، لكي ينزل سرواله ويقضي حاجته من على جانب السفينة.

قال وهو يحصي ألسنة اللهب في الأفق: "أرى أن المصباح الثامن قد عاد".

قال آرينت: "إنهم ينزلون قاربًا شراعيًّا إلى الماء للتحقيق في الأمر. إن انتهيت سريعًا فيمكننا أن نراقبهم".

قال سامي موبخًا بينما يتبول من على جانب السفينة: "لا تستعجل رجلًا أثناء وجوده في المرحاض. أخبرني بما قد عرفته".

"لقد التقيت المجذوم اليوم، وقد اقتادني إلى مذبح قد بناه في مخزن بضائع ساردام".

"ألا يزال هناك؟ هل يمكنني تفحصه".

"لقد أمر القبطان كراوڤلز بتدميره".

تنهد وقال: "بالطبع فعل هذا، أي شيء آخر؟".

"نعتقد أن بوسي قد بنى خزانات تهريب في أرجاء ساردام، وأنه كان يعمل مع إيزاك لارم، مساعد القبطان. نحن وجدنا...".

"ماذا تقصد بنحن؟".

"سارا ڤيسل".

قال بنبرة عارفة: "آه، سارا ڤيسل".

"أجل، سارا ڤيسل".

"ممتاز".

رمش آرينت بعينيه وقال: "ما هو الممتاز؟".

بسط سامي ذراعيه في بهجة وقال: "إن عقلك سميك كالجبل الذي اقتطعت منه". ثم نظر إلى صديقه وهو يشعر بالأسف تجاه الحالة الميئوس منها الماثلة أمامه، وقال: "ما الذي كان بداخل خزانة لارم السرية؟".

"كانت فارغة. لقد أخذه لارم بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إليه، ولكنه بدا مدهوشًا لرؤية علامات توم العجوز من حولها".

"إذن، لقد استخدم توم العجوز بوسي لتهريب بعض الأشياء دون معرفة لارم".

وافقه آرينت قائلًا: "ثم قتله ليمنعه من إفشاء الأمر. وأيضًا هناك سر يأكل رينير ڤان شوتن من الداخل، لقد كدت أن أعرفه، ولكن...". أشار ناحية المصباح الثامن.

جذب سامي سرواله ثم انضم إلى صديقه، فمنحه قطعة من طائر لم يمسه أحد قد سرقه من على طاولة العشاء، مع قطعة من الخبز وجرة من النبيذ.

قال وهما يقطعان خصر السفينة: "وأعتقد أنني قد وجدت طريقة لجعل يوهانس ڤيك يخبرني لمَ قطع لسان بوسي".

"كيف؟".

"عليَّ أن أخسر نزالًا".

ازدرد سامي الخبز الذي كان يمضغه ثم قال: "هل فعلت هذا من قبل؟".

"أعتقد أن الأمر أشبه بالانتصار، باستثناء أن عليَّ أن أنهزم في النهاية".

كانا قريبين بما يكفي لرؤية إنزال القارب الشراعي في الماء. كان يبدو أكبر حجمًا مما كان يبدو عليه تحت الغطاء، وبداخله ثلاثة مقاعد كل مقعد يستوعب ثلاثة بحارة، مع مساحة كافية في المقدمة لجلوس بحار آخر. من الواضح أن كراوڤلز لم يرغب في المخاطرة بهذا العدد الكبير، لأنه لم يكن هناك سوى ثلاثة يهبطون سلم الحبال.

لم يبدُ عليهم السعادة وهم يفعلون هذا.

طقطق إيزاك لارم بلسانه كأنه دجاجة وقال: "لا تجدفوا أبعد من مرمى البصر، ولا تقتربوا أكثر من اللازم، فلتلاحظوا ألوان رايتها واللغة التي يمكن أن تسمعوهم يتحدثون بها على متن السفينة قدر المستطاع".

كان لارم يتحدث عن السفينة وكأنه يتحدث بالفعل عن سفينة شبحية، هذا هو مقدار الرهبة التي أثارها في قلوبهم المصباح الثامن.

خرج ڤوس من الجناح الواقع تحت السطح الأوسط إلى ضوء القمر، وقد بدا شاحبًا بشكل مريع.

سأل كراوڤلز: "أين الحاكم العام؟".

قال ڤوس: "لا يمكنني إيقاظه".

وكز سامي آرينت في ذراعه وهو يومئ بذقنه ناحية السطح العلوي، حيث كانت ليا وسارا يراقبان ما يحدث بصحبة كريسي. من الواضح أن السيدات لم يكن مهتمات بالبقاء بالداخل من أجل مشروبات بعد العشاء.

من تحتهم ارتطم القارب الشراعي بالماء، مع صوت تناثر خافت.

صاح إيزاك لارم: "انظر أيها القبطان!".

كان يشير ناحية المصباح الثامن حيث تحول الوهج البرتقالي إلى لون أحمر قانٍ.

بعد ثانية تعالت صرخة عذاب في الهواء قبل أن تنقطع بشكل مفاجئ.

غطى الجميع آذانهم، ولكن آرينت فهم الأمر أكثر منهم.

كانت الصرخة مجرد تحذير.

عليك أن تركض ناحيتها، أو تركض مبتعدًا عنها، أما التظاهر بأنك لم تسمعها فهذا لن يساعد أحدًا.

صاحت سارا من السطح العلوي: "إنها قادمة من ورائنا يا آرينت".

صعد السلم في بضع خطوات سريعة بينما سامي يركض من ورائه. لحقت بهما سارا إلى سطح الحظائر وقد أعاق فستانها حركتها. ومن ورائها ليا وكريسي بخطوات متخبطة.

انزلقت قدم آرينت على شيء في الأرضية، فمد يده ليلمسه، ولكن صوت سامي منعه وهو يقول: "إنها دماء، يمكنني أن أشتم رائحتها". بدا عليه الإحساس بالغثيان.

لطالما كان شديد الحساسية تجاه هذه الأشياء.

فتح آرينت الباب المؤدي إلى الحظائر فوجد كل الحيوانات ميتة وقد تناثرت أحشاؤها على القش، وكان الخنزير المسكين هو الأسوأ حالًا، لا شك أنه من سمعوه يصرخ.

ركضت كريسي ناحية سور السفينة وراحت تتقيأ، بينما قطعت سارا خطوة إلى الوراء في رعب.

قالت: "آرينت".

التفت إليها وقد توقع أنها بحاجة إلى المواساة، ولكنها كانت تشير ناحية أقدامهما. فقد كان مرسومًا بالدماء عين وذيل.

همست ليا في ذعر: "علامة توم العجوز".

قالت سارا وهي تنظر وراءها إلى حيث كانوا واقفين: "لقد كنا نقف على مسافة عشرين خطوة، كيف يمكن لشيء أن يذبح الحيوانات ويرسم هذه العلامة دون أن نسمعه؟".

نظرت إلى آرينت كأنما تأمل أن يكون لديه الإجابات التي تفتقدها.

لم يكن لديه أي إجابات، بل كان متوترًا مثلها، فطيلة هذه السنوات التي عمل فيها مع سامي -ورغم كل الأشياء المستحيلة التي رآها- لم يرَ قط شيئًا يبدو مستحيلًا إلى هذا الحد، أو شيئًا لا يفهم الغرض منه على الفور. إن الجثة تعني أن أحدهم أراد أن يقتل هذا الشخص، والسرقة تعني أن أحدهم قد أراد سرقة ذلك الشيء. قد تكون طريقة تنفيذ الأمر مثيرة للحيرة، ولكنه على الأقل يفهم ما الذي يحدث.

هذا أمر مختلف.

هذا شيء فوضوي وحاقد. إن العلامات الغريبة والحيوانات المذبوحة ليست أدلة، بل رسائل. أيًا كان الفاعل -سواء كان شيطانًا أو لا- فإنه يريد منهم أن يعرفوا مدى عجزهم، أنهم محاصرون، يريد منهم أن يعرفوا كيف يمكن أن يضربهم بسهولة، إنه يحاول إخافتهم.

وقد نجح في هذا. شعر آرينت بالقشعريرة تزحف على جلده، أراد أن يقفز من السفينة وأن يسبح عائدًا إلى باتاڤيا، ولم يكن واثقًا من عدد الأشخاص الذين يستطيع أن يحملهم على ظهره.

قالت ليا وهي تتشبث بأمها: "هذه هي، أليس كذلك؟ أولى المعجزات الشيطانية. الأمر يحدث تمامًا كما وصفه البريديكانت".

تساءل آرينت: "ما هي المعجزات الشيطانية؟".

قالت سارا: "لقد حذرنا ساندر من أنه سيكون هناك ثلاثة منها، والغرض منها إقناعنا بقوة توم العجوز، لكي يقبل المزيد من الناس صفقاته، وكل معجزة تحمل علامته".

سألها سامي: "لماذا ثلاثة فحسب؟".

"لأنه بعد المعجزة الثالثة فإن هؤلاء الذين لم يعقدوا صفقة مع توم العجوز، سيذبحهم أولئك الذين فعلوا هذا".

وأخيرًا نفض القبطان كراوڤلز الصدمة عن نفسه ونادى القارب الشراعي قائلًا: "فلتصلوا إلى ذلك المصباح بسرعة مضاعفة، أريد...".

قال ڤوس: "فات الأوان أيها القبطان، لقد اختفى بالفعل".

نظر القبطان إلى ما وراءه، فحيث كان هناك توهج أحمر لم يعد هناك سوى الظلمة.

٤٠

بعد أن جلب سامي مصباحًا إلى خصر السفينة عاد إلى حظائر الحيوانات، وأشار بصبر نافد إلى آرينت كي يعطيه حجر الصوان، وبينما يحاول أن يصنع شرارة أمسك القبطان كراوڤلز بكتف إيزاك لارم وقال: "فلتجلب بعض فتيان الخدمة إلى هنا بصحبة المماسح، واجعلهم ينظفون كل شيء". بدا هدوؤه متناقضًا بشكل فظ بالمقارنة مع المشهد الماثل أمامهم.

قال ڤان شوتن وقد جعلته الصدمة يفيق من سكره: "فلتؤجل هذا الأمر، لا يمكننا أن نغامر بأن يرى أحد هذا، ستمزق السفينة نفسها في حالة من الذعر".

قال كراوڤلز وهو ينظر ناحية حبال الأشرعة: "ليس هناك أسرار على متن أي سفينة هندية. صدقني هناك أعين بالأعلى، لا شك أن هذه الأخبار قد جابت السفينة بالفعل".

قال سامي مقترحًا: "ربما قد رأوا ما حدث". تمكن أخيرًا من أن يرسل شرارة إلى فتيل المصباح فتقافز الضوء في أرجاء السطح.

قال كبير التجار وهو على حافة الهيستيريا: "نحن نعرف ما حدث! يمكننا أن نرى ما حدث! هذه السفينة اللعينة قد قتلتهم، توهجت بالضوء الأحمر وذبحتهم، وسيكون دورنا هو التالي".

قال كراوڤلز: "فلتصعد حبال الأشرعة يا لارم، واجلب لي أيًّا من تجده هناك، لدينا أسئلة لنطرحها عليهم". ثم وكز جسد الخنزير بقدمه وقال: "واجلب لي البريديكانت والطاهية، أريد مباركة هذا اللحم، وأن يُقطَّع ويُملَّح على النحو الصحيح".

عندما لمح نظرة كبير التجار المذهولة قال: "اللعنة على قوى الظلام، لن أضيع لحمًا جيدًا، فنحن نفتقر إلى المؤن على أي حال".

شعر آرينت بيد توضع على ذراعه، فالتفت ليجد سارا تضم ليا إلى صدرها. كانت الفتاة تنتفض وهي تنتحب بينما لم يكن هناك أدنى أثر لكريسي أو ڤوس، أدرك أنهما قد غادرا بلا شك أثناء الاضطراب.

قالت سارا: "سأعيد ليا إلى مقصورتها، هل يمكننا أن نتحدث بعدها؟".

أومأ آرينت برأسه ثم أولى اهتمامه من جديد إلى سامي، الذي كان قد زحف إلى داخل الحظائر حيث لم يعد يبدو منه سوى مؤخرته.

قال كراوڤلز مخاطبًا سامي: "حسنًا يا صائد اللصوص، ما رأيك في كل هذا؟".

قال سامي من داخل الحظائر: "أجد أنه من الغريب أن الكوة التي ظهر فيها المجذوم في تلك الليلة الأولى تحتنا مباشرة. هل عثرتم على ملابسه؟".

"لقد قلبنا السفينة رأسًا على عقب، ولكننا لم نجد شيئًا".

تدخل كبير التجار قائلًا: "هل يُعقل أنك ما زلت تصدق أنه مجرد مخادع يحتال علينا؟ لقد تحول المصباح إلى اللون الأحمر في

اللحظة التي لمس فيها القارب الماء، وقد ذُبحت الحيوانات بعدها بثوانٍ". أشار ناحية الخنزير وقال: "لقد سمعنا هذا المخلوق المسكين يصرخ، ومن المستحيل أن يفعل أحد هذا ويهرب دون أن نراه، وإن كان قد فعل هذا لسمعنا صوت ارتطامه في الماء".

تلوى سامي متراجعًا إلى الوراء، وهو يحمل شيئين على طرف عصا.

سأله كراوقلز وهو يضيق عينيه: "ما الذي وجدته؟".

رفع المشكلاتي العصا إلى الضوء ليكشف عن قصاصة من ضمادة دامية ومسبحة.

صاح ڤان شوتن: "إذن فقد كان المجذوم حقًّا، هذه إحدى ضماداته. لا شك أنه قد أسقط المسبحة بينما يهاجم الحيوانات".

قال سامي في شك وهو يتفحص المسبحة: "هذه مِلك رجل ثري قد انحدر به الحال إلى الفقر، لقد سافر كثيرًا وكان مخلصًا للدين، ربما بريديكانت".

حدق إليه ڤان شوتن في انزعاج وقال: "كيف يمكنك...".

"إن الفجوات في الخرزات الخشبية واسعة للغاية على الخيط الذي يربطها معًا، وإن نظرت بداخلها سترى خدوشًا قد صنعتها حلقات معدنية، هذه الخرزات كانت تتدلى ذات يوم من سلسلة. معظم المسابح المعدنية يمتلكها الأثرياء، ويكون لها خرزات معدنية، غالبًا ما تكون مطعمة بالمجوهرات، لذا فإن هذه المسبحة قد بدأت كشيء أعظم بكثير. على الأرجح قد بيعت هذه الخرزات واستبدلت ببديل أرخص مع تدهور حال مالكها، وأخيرًا باع السلسلة المعدنية

واستبدلها بالخيط. إن الشخص الفقير سيبيع المسبحة المعدنية على الفور، ويشتري مسبحة رخيصة بجزء من ثمنها. هذا الشخص قد انحدر إلى الفقر ببطء، ولكن انظروا كم أن الخرزات الخشبية ملساء، لقد تآكلت مع الاحتكاك المتكرر أثناء تلاوة الصلوات، مما يشي بالإخلاص الديني، والخرزات مصنوعة من أخشاب مختلفة، يمكنني من النظرة الأولى أن أرى الأخشاب الصلبة واللينة من مجموعة من الأشجار المنتشرة في أرجاء الأقاليم وألمانيا وفرنسا، لقد كان شخصًا كثير الأسفار كما قلت". أفاق من غرقه في الأفكار وتفحص وجوههم المدهوشة قبل أن يقول مفسرًا: "إن حضارتنا بأسرها مبنية من الخشب والأحجار وبعض أنواع المعدن، إن تمكنت من التعرف عليها ستُدهش من مدى وضوح العديد من الأشياء. من الذي يعتني عادة بالحيوانات أيها القبطان كراوڤلز؟".

قال متلعثمًا وقد أبهره هذا الاستعراض: "في الأغلب فتيان الخدمة، ولكن في بعض الليالي يأتي المضيف ليطعمها أي فتات قد تبقت من العشاء".

"هل يمكنك أن تسأل إن كان أي منهم يرتدي ضمادات أو قد فقد مسبحة؟".

صاح كبير التجار وهو يلوح بيديه في الهواء: "هذا شيء سخيف، الحقيقة واضحة ومع ذلك ترفض أن تقبلها".

تجاهله سامي وهو يواصل حديثه مع القبطان قائلًا: "من يعرف مسار السفينة في رحلة عودتها إلى أمستردام؟".

قال بفخر: "لقد رسمته بمجرد أن رأيت النجوم بالأعلى، والسفن الأخرى تسترشد بنا بأفضل ما تستطيع".

"ألا تقلق من أنكم قد تتفرقون؟".

"من المستحيل أن نبقي الأسطول معًا لثمانية أشهر، لن تسمح لنا الرياح أو الأمواج بهذا. وحتى لو كان الطقس هادئًا فعلينا أن نُبقي مسافة بيننا من أجل الأمان. هناك سفينتان واصلتا المضي قدمًا من دوننا هذا المساء، وسنفقد السفن الأخرى بمرور الوقت، ليس هناك ما نفعله لكي نحول دون هذا".

قال سامي وهو ينظر ناحية البقعة التي اختفى فيها المصباح الثامن: "ومع ذلك فملاحقنا الغامض ما ينفك يجدنا، إنه إنجاز مثير للإعجاب".

كرر كبير التجار في عناد: "إنه عمل شيطاني، ولن أكتفي بالوقوف مكتوف اليدين وأتركه يلتهمنا. أنا آمرك أيها القبطان أن تعود بنا إلى باتاڤيا مع أول ضوء".

عض القبطان على نواجذه من أجل الجدال، ولكنها الغريزة أكثر منه التفكير المنطقي. تنهد وقال في إذعان: "أجل، أعتقد أن هذا هو الصواب، سأرسل رسالة إلى الأسطول مع حلول الفجر، ولكننا سنحتاج إلى موافقة الحاكم العام".

قال ڤان شوتن وهو ينصرف: "ستحصل عليها".

وبينما يحسمون التفاصيل، جذب آرينت سامي بعيدًا وقال له هامسًا: "لا نحتاج إلى البحث عن هوية صاحب المسبحة، فأنا أعرف صاحبها بالفعل".

صاح سامي: "هذا مذهل! هل رأيت شخصًا يحملها؟".

قال آرينت: "أجل، أبي، في اليوم الذي اختفى فيه".

٤١

اشتمت كريسي ينس رائحة عطرها محاولة أن تُبعد عن عقلها ذكرى الحيوانات المذبوحة، كانت الدماء هي ما يعذبها، ليس المشهد بل الرائحة. لقد علقت بشعرها وجلدها، وشعرت بها تتقاطر من على فستانها رغم أنها لم تلمسها، ومع ذلك شعرت وكأنها قد انغمست فيها.

قال ڤوس في قلق: "أنتِ ترتجفين".

قالت كريسي وهي تهبط الدرج إلى السطح العلوي: "إنها الصدمة، لم أقترب من شيء ميت إلى هذا الحد من قبل".

لقد انصرفت لتذهب إلى الحاكم العام كما هو واجبها، ولكنها وجدت ڤوس يمشي وراءها في صمت. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها، وكالعادة شعرت أن وجوده غير مريح إلى حد كبير.

قال بنفس النبرة الخالية من المشاعر التي يستخدمها في كل شيء: "هل يمكنني أن أسألك عن أمر شخصي؟".

شعرت وكأنه مصنوع من تروس ونوابض، فبعد كل شيء قد رأياه يتحدث وكأنهما في نزهة. لم لا يرى أنها مستاءة وتريد أن تكون وحدها؟

"ألا يمكن للأمر أن ينتظر حتى الغد؟ أنا...".

قاطعها قائلًا: "أنا على وشك أن أنال مبلغًا من المال سيغير مكانتي إلى حد كبير". ثم نظر إلى وجهها ليرى رد فعلها.

لم تجد كريسي شيئًا تقوله سوى: "كيف؟".

قال: "أنا أرسم الخطط منذ وقت طويل، وسأحصل على ثروة عندما نصل أمستردام، وباستخدام ثروتي الجديدة أنوي أن أثبت للسادة السبعة عشرة أنني صالح لأكون الحاكم العام القادم لباتاڤيا، وأعول بالطبع على دعم يان هان".

حدقت إليه مدهوشة من هذه المعلومات الجديدة ثم قالت: "لـمَ تخبرني بهذا يا ڤوس؟".

"لأنني أنوي أن أطلب يدك من أجل الزواج".

حدقت إليه وقد فغرت فاها.

"أعرف أنك قد وعدتِ دوق أستور، ولكن بحثي يشير إلى أن ما يفصل بينه وبين الإفلاس هو حرب واحدة، والدوق ليس بعيدًا عن الحرب مطلقًا".

اكتفت كريسي بالتحديق إليه، إن هذا المعداد البشري يعرض عليها الزواج.

عندما رأى حيرتها قال بإلحاح: "إن دوق أستور زوج مناسب، ولكن ماذا ستفعلين عندما يموت في ساحة الحرب في غضون ثلاثة أعوام؟ أنتِ جميلة، ولكن الجمال يتلاشى، فكيف تعيشين عندما يحدث هذا؟ كيف ستأكلين ومن أين ستكسبين المال؟ ما أعرضه عليكِ هو المنفعة المتبادلة عن طريق الزواج. أنا معجب بك. سأطلق لك العنان بينما تساعدينني في بناء مسيرتي المهنية التي أعتبرها قدري".

"أنا... أنا...". لم تجد كريسي الكلمات المناسبة، لم تكن حتى واثقة من أنها ستتعرف عليها إن وجدتها.

وأخيرًا قالت متلعثمة: "ظننت أنه كونت؟".

"أنتِ تستحقين ما هو أكثر من الزواج من مجرد كونت".

تفحصت كريسي وجه ثوس الخالي من التعبيرات كأنما تراه للمرة الأولى، ثم قالت وقد بدا عليها الاهتمام أخيرًا: "لم أكن أدرك أنك طموح إلى هذا الحد".

"الحاكم العام لا يتسامح مع هذا، وأنا لست أحمق لكي أثير استياءه".

"إن الثروة التي ستحتاج إليها...".

"لقد أجريت الحسابات، أعرف ما أطلبه وما أعرضه، يمكنني أن أريكِ الأرقام إن أردتِ".

مرا بشكل محرج عبر حجرة الدفة إلى المقصورة الكبرى، كان الشمعدان قد أُطفئ وأُزيل من موضعه مع كل الأطباق والإحساس بالبهجة. كانت الكراسي متراصة والمقصورة لا يضيئها سوى ضوء القمر، والنوافذ الشبكية ترسم شباكًا في الظلال.

قالت كريسي وهي تخفض صوتها بينما تنظر إلى ضوء الشموع المتسلل من تحت باب الحاكم العام: "أنت تفهم ما مدى خطر عرضك، أنا على متن ساردام فقط لأن يان هان يريد هذا، لقد اشترى لي تذكرة ودفع لي ثمن إقامتي". عبس ثوس قليلًا لسماع هذا بينما أصابعه ترقص بشكل غريب على جانبيه، كما لو أنه لم يفكر في هذه

المحرمات من قبل. "لو اكتشف أنك تحاول التودد إليَّ بينما أنا لا أزال عشيقته...".

قال ڤوس: "لا أطلب منك ردًّا الآن، ولكن إن وعدتني بالتفكير في الأمر فسوف أنام بطمأنينة أكثر".

قالت كريسي وهي تومئ له برأسها: "أعدك بهذا". فتهللت أسارير ڤوس وأومأ لها بدوره ثم اختفى عائدًا من حيث جاء.

تنفست كريسي الصعداء بينما حججه لا تزال تحاوط أفكارها. فكرت أنه عرض جيد، لقد خفف من وطأة كل شك راودها، وأشعرها بالارتياح. ولأول مرة تجد نفسها تبتسم وهي تفكر فيه.

قطعت الحجرة حتى وقفت أمام باب الحاكم العام.

قال قائد الحرس دريخت بنبرته المستاءة قليلًا التي لطالما خاطبها بها: "طاب مساؤك يا سيدتي".

إن قوة كريسي هو أنها تكون مرغوبة لدى أي رجل تلتقي به، لذا عندما واجهت ازدراء دريخت لأول مرة عدته تحديًا، لقد غازلته وجلبت له الطعام ودعته إلى الحفلات، ولكن كل محاولاتها قد باءت بالفشل.

الشيء الوحيد الذي يريده من كريسي هو جدار يفصل بينهما. عرفت من أحد رجاله أن لديه زوجة وابنة في دَرِنتة*، وأنه يحبهما حبًّا جمًّا. لقد مضت ثلاث سنوات منذ أن رأوا بعضهم بعضًا، ولكن قلبه لم يتعلق بأي امرأة في أي مكان آخر. لقد زعم الجندي -بنبرة من

* دَرِنتة: هي مقاطعة شمال شرق هولندا، على الحدود الألمانية.

لا يصدق- أن دريخت لا يتفاخر بالأمر كما لا يتفاخر بأنه يتنفس أو قدرته على الحديث، إنه فقط عهد قد قطعه على نفسه.

ومع هذه الكلمات استسلمت كريسي عن المحاولة، إن الرجال مثل قائد الحرس دريخت نادرون وخطيرون، سيؤدون واجبهم بغض النظر عما يسببه لهم -أو لمن حولهم- من بؤس. إنه لا يريد أحدًا سوى زوجته.

خطا دريخت جانبًا ليسمح لها بالدخول.

ما إن أغلقت الباب وراءها حتى تبدل وجهها، فتخلت عن الابتسامة الفاتنة وصارت عيناها متقدتين كالجمر.

كما وعدتها سارا فقد أسلم العقار يان هان إلى نوم عميق، فراح صدره النحيل يعلو ويهبط مظهرًا كل ضلع من ضلوعه.

نظرت إليه بلا اكتراث كما لو أنه ذبابة زرقاء ترفرف لآخر مرة عند حافة النافذة. أيًا ما كانت القوة التي حازها يان هان ذات يوم فإنها قد تخلت عنه منذ وقت طويل، ولكنه يخفي هذه الحقيقة بإنجازاته وطريقته الفظة واستعداد كلاب صيده -مثل دريخت وڤوس- للانصياع لكل نزوة من نزواته. حاولت أن تتخيل ما الذي سيفكرون فيه إن عرفوا سبب استدعائه لها كل ليلة، لم يكن هذا بسبب فحولته أو شهيته أو التي لا تشبع.

بل لأنه يخاف من الظلام.

في معظم الليالي تكتفي بخلع ثيابها والنوم إلى جواره، لكي يجد من يحضنه بذراعيه النحيلتين عندما يستيقظ خائفًا.

من آن لآخر يمارسان الجنس، ولكن كريسي مقتنعة أن يان لا يدعوها إلا لأن سارا لا تقضي الليل معه.

إن التفكير في عناد صديقتها يملؤها بالفخر.

أي امرأة أخرى كانت ستخضع لرغباته دون شكوى، مؤمنة أن هذا ثمن عادل نظير الحياة التي ستتلقاها في المقابل.

ولكن ليس سارا.

رغم أنها تتعرض للضرب والتوبيخ والإذلال، ونوبات الغضب، إلا أنها صامدة بقوة، كجلمود صخر يرفض أن يلين أمام مطرقة النحات. في العديد من الليالي تأتي كريسي لتجد يان في ثورة من الغضب بسبب عناد زوجته، مظهرًا مشاعر سيكون خائفًا من إظهارها أمام العامة. لقد أقنعه كبرياؤه أنه كان يعذبها طيلة هذه السنوات، ولكن كريسي تعرف أن العكس هو الصحيح، أن سارا هي العدو الوحيد الذي لم يتمكن قط من التفوق عليه.

تمتم يان أثناء نومه مما أيقظها من أفكارها.

أسرعت ناحية المكتب فوجدت قائمة الأسماء التي رأتها سارا باكرًا بعد ظهيرة هذا اليوم، لقد طلبت منها صديقتها أن تنسخها. وكانت كريسي معتادة على فعل كل ما تطلبه سارا دون نقاش. الحقيقة هي أن سارا أشبه بزوجها أكثر مما تحب أن تعترف، بيد أن سلطتها مبنية على أساس من الطيبة لا الجشع.

أمسكت بالريشة ولكن بصرها وقع على حامل دروع يان. كان هناك قطعة من الورق موضوعة وراء حزام في درع صدره.

تساءلت: "تُرى ما هذا؟".

٤٢

لم تسمع سارا الهمسة في البداية.

كان الفجر قد أوشك على البزوغ، والعقَّار المنوم قد أغرق عقلها، لا تتناول في المرة أكثر من قطرة واحدة، رغم أنها في بعض الأيام في باتاڤيا كانت تتوق للمزيد، أيام كئيبة، أيام مظلمة، عندما يسحقها الملل، فتحدق إلى الأفق وهي تتمنى لو أن بمقدورها أن تختار حياة أخرى غير الحياة التي أُرغمت عليها.

في هذه الأيام تحدق سارا إلى هذه القنينة لما يبدو أنه ساعات قبل أن تأمر دوروثيا في النهاية بإخفائها، بعيدًا عن اشتياقها.

ــ سارا ــ

زحفت الهمسة عبر الجدران وعلى السقف، ثم ركضت على جسدها بألف ساق.

استيقظت وهي ترمش بعينيها دون أن تدرك في البداية ما الذي أيقظها.

كانت الحجرة لا تزال مظلمة، فلم تعرف كم الساعة. إن الكوة مغلقة لذا ربما نامت ساعة أو سبع ساعات.

كان الجو خانقًا وأحست بحلقها جافًّا، فمدت يدها إلى الجرة الموضوعة إلى جانب فراشها.

ــ سارا ــ

جعلتها الهمسة تتجمد في موضعها وقد أحست بالوخز في جلدها.

تساءلت وهي تشعر بالدماء تنبض في أذنيها: "من هناك؟".

ــ كل ما تتمنينه نظير ثمن ــ

كان الهمس خشنًا، بينما الكلمات تخمش جسدها. تحسست سريرها ببطء بحثًا عن الخنجر، حتى التفت أصابعها حول المقبض.

في الليلة السابقة بدا ثقيلًا بشكل مطمئن، ولكنه الآن بدا عديم الجدوى.

استجمعت شجاعتها وقفزت من فراشها لتفتش أركان المقصورة الأربعة، كانت خاوية. ولم يكن بصحبتها إلا القمر الذي جعلته حواف السحب المدببة يبدو وكأنه يمتلك أسنانًا.

ــ ما الذي تتوقين إليه؟ ــ

أسرعت ناحية الباب لتفتحه بعنف.

كان هناك شمعة تذوب في كوتها تكشف عن ممر خاوٍ.

ــ ما الذي تتوقين إليه؟ ــ

وضعت يديها على أذنيها وهي تصرخ: "اتركني وشأني!".

ــ ما الذي تتوقين إليه؟ ــ

الحرية. كادت أن تقولها بصوتٍ عالٍ، أرادت أن تذهب إلى حيث تشاء دون أن يقول لها أحد أنها لا تستطيع هذا، أرادت أن تقرر كل يوم

كيف تريد أن تعيشه، أرادت أن تنمي مواهبها دون انتقاد، وأن تكون الأم التي تتمنى أن تكونها بدلًا من الأم المرغمة على أن تكونها.

ــ ما الذي تتوقين إليه؟ أخبريني وسأرحل ــ

قالت بصوت خافت: "أريد الحرية".

ــ وما الذي ستدفعينه مقابلها؟ ــ

فتحت فمها ثم أغلقته. رغم أنها في الظلمة، ورغم خوفها، إلا أنها لا تزال زوجة تاجر، وتعرف كيف تبدو المساومة.

"ما الثمن؟".

في ثياب نومه، كان قوس يضع يديه على أذنيه وهو يحاول ألا يصغي إلى الهمس.

ــ سترفضك ــ

قال بصوت كالفحيح وهو يعض على نواجذه: "لن ترفضني".

ــ ستسخر منك ــ

"لا".

ــ إن أرقت الدماء وختمت الصفقة ستكون ملكك ــ

***

ــ سأضع الخنجر تحت الفراش ــ

اتسعت عينا ليا في ضوء الشموع وهي تتشبث بالنموذج المصغر لساردام الذي كانت تنحته. فكرت أنه مجرد عرض صغير، مجهود يسير نظير مكافأة عظيمة.

***

ـ ما الذي تتوق إليه؟ ـ

تدحرج يوهانس ڤيك على حصيرته والتفت ناحية الباب وقد أشهر نصله منتبهًا على الفور، لا يمكن لأي عريف ملاحين أن ينام ملء جفنيه، هؤلاء الذين يفعلون هذا عادة ما يموتون بينما يغطون في النوم.

إن حجرة ڤيك واقعة تحت مقدمة السفينة حيث يقضي أفراد الطاقم أوقات استراحتهم، كان بمقدوره أن يسمع العزف على الكمان ورمي أحجار النرد من فوقه.

ـ ما الذي تتوق إليه؟ ـ

تساءل: "من هناك؟". بينما يفتح الباب المؤدي إلى حجرة صانع الأشرعة. هذا اللعين عديم الجدوى كان يغط في نومه في فراشه المعلق كالمعتاد.

ـ توم العجوز ـ

تغير التعبير المرتسم على وجه ڤيك وهو يكرر: "توم العجوز". عاد إلى حجرته، كان الظلام دامسًا، ولكنه لا يبالي بالظلام، فهناك تفاهم بينهما.

نقر على رقعة عينه وهو يقول: "أجل. أنا أعرفك منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟ كنت أتساءل متى ستأتي للبحث عني، رغم أنني لم أتوقع أن يكون اللقاء هكذا".

لم يجبه سوى الصمت.

قال ڤيك في شماتة: "هل تعتقد أنني لم أتعرف عليك على سطح السفينة؟ لقد كتمت سرك ذات يوم وخسرت عينًا نظير هذا. كان هذا آخر شيء شريف أفعله على الإطلاق. أعرف ما الذي تفعله على متن هذه السفينة، وأعتقد أنني أعرف لمَ تفعل هذا".

دار ڤيك حول نفسه في دائرة ليفتش المقصورة، وقد ارتسم المكر على وجهه. الشياطين لا تخيفه، ليس بعد الحياة التي عاشها، لم يكن هناك خطيئة لم يستمتع بها من قبل، ولا شهوات جديدة يمكنها أن تغريه، لقد جرب كل شيء فظيع قد فكَّر في تجربته، ويعرف أن الجحيم ينتظره، مهما فعل. إنه على مسار مختلف الآن.

بدا أن الصمت يتململ ويستجمع نفسه.

ــ ما الذي تتوق إليه؟ ــ

قال وهو يلمس رقعة عينه مرة أخرى: "شيء ستمنحه لي، شيء تدين لي به".

***

في السطح السفلي تقلبت إيزابيل في حصيرتها، فوجدت نفسها تحدق مباشرة إلى وجه دوروثيا النائم الذي يضيئه القمر المكتمل

مما جعلها تبدو وكأنها جنية، حتى توقعت أن تستيقظ المرأة العجوز وتعرض عليها تحقيق أمنية.

كانت الخادمة قد نقلت حصيرتها إلى جانب حصيرة إيزابيل بعد ظهيرة هذا اليوم، وقالت لها إنها ستشعر بالمزيد من الأمان عندما تنام إلى جانب وجه مألوف. أدركت إيزابيل على الفور أنها تكذب، فكما قالت دوروثيا بعد ظهيرة أمس إن هناك نوعين من الأكاذيب، وهذه الكذبة فجة للغاية.

لا شك أن سارا قد أرسلتها.

على السطح بالأعلى تردد دوي الجرسين، وعلى الجانب الآخر من الستارة الخشبية سمعت البحارة يتحركون ويتذمرون وهم يستيقظون. تعالى صوت خطوات الأقدام على السلم مع تبديل وردية الحراسة.

أبقت عينيها على وجه دوروثيا وهي تنهض في صمت، بينما الغطيط يتعالى من الحصر والأفرشة المعلقة المحيطة بها. كان الضوء الوحيد منبعثًا من تحت الباب المؤدي إلى مخزن البارود، حيث يغني الكونستبل لنفسه بصوت خفيض.

لقد صادفته في الليلة الماضية ولم تتوقف عن سب نفسها منذ ذلك الحين، وعلى الأرجح هذا هو سبب نوم دوروثيا جانبها الآن. قطعت إيزابيل على نفسها عهدًا بأن تكون أكثر حذرًا الليلة، يجب عليها أن تكون حذرة وإلا فعليها أن تتوقف عن الخروج في الليل.

ألقت ناحية دوروثيا نظرة حذرة أخيرة، ثم اختفت هابطة السلم إلى مخزن البضائع.

***

كانت سارا قد خطت إلى الممر لتطمئن على ليا، عندما اندفعت كريسي خارجة من المقصورة لتلقي بنفسها بين ذراعيها وهي تنتحب.

قالت في رعب وهي تتشبث بصديقتها: "لقد همس لي توم العجوز".

قالت سارا وهي لا تزال ترتجف: "وهمس لي أيضًا. ما الذي وعدك به؟".

قالت: "أن ينجو الولدان إن قتلت زوجك!". ثم أخذت نفسًا عميقًا محاولة أن تستجمع شتات نفسها وقالت: "ما الذي أراده منك؟".

قالت سارا: "الشيء ذاته، بل إنه حتى أخبرني كيف أفعلها".

قالت كريسي في رعب: "خنجر تحت فراشه. إن كان زوجك قد استدعى توم العجوز فلمَ يريده أن يُقتل".

٤٣

كان الفجر قد بزغ عندما عاد آرينت أخيرًا إلى مهجعه، ومسبحة أبيه تحيط بمعصمه. لقد أراد رينير ڤان شوتن أن يرميها في الماء بعد أن زعم أنها ملعونة، ولكن سامي أمسك بيده ليمنعه وقد قال إنها مهمة في تحقيقاته. إنه لم يقدم أي فرضية عن كيفية وصولها إلى ساردام، فبحسب ما قاله عمه فإن المسبحة كانت الدليل الذي أخذه القاتل ليثبت أنه قد نفذ عقده وقتل والد آرينت، مما يعني أن كاسبر ڤان دين بيرج هو آخر من امتلكها، فكيف جاءت إلى حظيرة الحيوانات؟

إن مثل هذه الألغاز تبهج سامي، ولكن بالنسبة لآرينت فإن الأمر أشبه بأن ترفع نفس الحجر وأنت تأمل في كل مرة أن تجد شيئًا تحته.

أحس بدفء على عنقه، كان هناك شعاع من ضوء الشمس يصل إليه. كانوا ينزلون قاربًا شراعيًّا، وقد أمر رينير ڤان شوتن بالتجديف حتى أقرب سفينة في الأسطول، وإخبارهم بأنهم سيعودون بمجرد أن يمنحهم الحاكم العام الموافقة، وبعدها ستُنزل هذه السفينة قاربًا شراعيًّا تُرسله إلى السفينة التالية، وهكذا، حتى تصل الرسالة إلى بقية الأسطول.

بينما البحارة يفكون العقد التي تثبت القارب الشراعي في موضعه راحوا يتبادلون الشائعات بشأن السفينة الشبحية التي هاجمتهم الليلة الماضية، وكيف وسمتهم بوسمها الشيطاني. لاحظ آرينت أن البحارة

يضفون بعض المبالغات على الحكاية بينما يتناقلونها، لقد صار المصباح الثامن شيئًا أثيريًّا، ضبابيًّا وغير مميز الملامح، بدلًا من كونه بعيدًا فقط. وطاقم السفينة مكونًا من الأرواح الضائعة في البحر. قالوا إن ساردام قد وُسمت بعلامة توم العجوز، وبدلًا من كونها ساكنة قالوا إن العين راحت تغمز وهي تلوي ذيلها قبل أن تختفي.

صحبت الشائعات آرينت حتى عاد إلى مهجعه. جذب الستارة ثم حدق في حيرة إلى فراشه المعلق.

سرعان ما تحولت دهشته إلى غضب، شخص ما قد استخدمه كمرحاض.

تعالت الضحكات على سطح السفينة بينما ڤيك وبعض البحارة الآخرين جالسون على حبال الأشرعة بوجوه مبتهجة. أدرك أن هذه هي المظلمة التي يجب أن يحملها إلى لارم.

تمتم آرينت: "كان بمقدوره أن يفكر في شيء أكثر نظافة".

أسرع مبتعدًا متوجهًا ناحية لارم على السطح العلوي، وقال دون أي مقدمات: "لديَّ مظلمة".

زفر لارم وقال: "كيف عرفت بحق الجحيم بشأن قانون التظلم؟".

"هل هذا مهم؟".

"ليس حقًّا، ولكن ليس هناك رجل على متن السفينة ليس لديه مظلمة، إذن ما الذي يجعل مظلمتك استثنائية؟".

"لم يقل لي أحد إنها يجب أن تكون استثنائية، بل مظلمة فحسب".

تلفت لارم حوله ليرى إن كان هناك أحد يسمعهما ثم قال مراوغًا: "هذا ينطبق على البحارة فحسب".

أجابه آرينت: "هناك فارس قد صارع بحارًا بالأمس".

قال لارم وقد لانت نبرته: "كان هذا بسبب مسحج لعين، وقد كانت مهزلة بالفعل. مع من مظلمتك؟".

"يوهانس ڤيك".

حدق إليه لارم بعدم تصديق وقال: "من بين كل الرجال على متن السفينة تريد أن تتشاجر مع يوهانس ڤيك؟".

"يبدو أنه هو من يريد أن يتشاجر معي".

"هل لديك أي دليل يثبت أنه الجاني؟".

"ضحكاته فحسب".

صفر لارم ناحية حبال الشراع ليستدعي ڤيك، فهبط عريف الملاحين مسرعًا برشاقة مذهلة، وقد ارتسم على وجهه تجهمه المعتاد تحت رقعة العين.

سأله لارم بدون مقدمات: "هل تغوطت في فراش هذا العملاق؟".

أجابه ڤيك: "لم يكن أنا".

أمره لارم: "فلتصافحه إذن وتنهي هذا الأمر".

قال آرينت في عناد: "لدي مظلمة، وبحسب قوانين السفينة فأنا أطلب نزالًا باللكمات عند مقدمة السفينة".

قال لارم محذرًا: "لن يكون هناك أي أفضلية، ليس لديك دليل لذا لا يمكنني...".

صاح ڤيك في عدم تصديق: "لن يكون هناك أفضلية! إن حجمه هو الأفضلية".

قال لارم محتجًّا: "لا تتظاهر بأنك ضئيل الحجم، سيكون الأمر أشبه بأن يتبادل الصاري الرئيسي والصاري الخلفي اللكمات".

قطع ڤيك خطوة للوراء ورفع يديه كأنما ليصد هجومًا وهو يقول: "لقد سمعت الحكايات، إنه بطل معركة بريدا، لقد قاتل جيشًا إسبانيًّا بأسره وحده".

"كان يجب أن تفكر في هذا عندما استخدمت فراشه كمرحاض، ربما كان هذا ليجعلك تحجم عن الأمر".

قال ڤيك مطالبًا وهو يحدق إليهما في عناد: "أريد شيئًا يجعلنا متكافئين وإلا فلن أقاتل".

حدق لارم إليه وقال: "إنه يطالب بحق التظلم".

"وأنا أقول لك إنني لم أفعل شيئًا، أنت تطلب مني أن أقاتل دبًّا دون أي دليل، هذا ليس عدلًا".

حك لارم تحت إبطه، من الواضح أنه يتمنى أن يتوجه إلى فراشه في أسرع وقت.

سأله: "ما الذي تريده؟".

"النصال".

أحس آرينت بقشعريرة باردة تزحف على عموده الفقري، لمَ يغير قيلك الصفقة؟ إن الخسارة بشكل مقنع ستكون أكثر صعوبة عندما يكون هناك أسلحة معدنية، لأن الأمر سيتطلب الكثير من الدماء.

نظر عريف الملاحين بعينه السوداء كالسخام وقال: "ما رأيك أيها الجندي؟ هل هذا يجعل الأمر عادلًا؟".

قال آرينت: "لا بأس بالنصال". لم يجد شيئًا آخر يمكن أن يقوله. "متى؟".

قال لارم وهو يهز رأسه: "عند الغسق، بعد أن ننزل المرساة. أنتما وغدان لعينان، سأكون مسرورًا عندما يموت أحدكما".

٤٤

راح المصلون يتمتمون في ارتباك، لقد اجتمعوا أمام الصاري الرئيسي، في انتظار عظة من البريديكانت، ولكنه لم يأتِ. لقد ذهبت إيزابيل لإيقاظه، ولكن سريره المعلق كان خاويًا.

بدأ المطر في السقوط، وكان بمقدورهم أن يروا خيوطًا من أشعة الشمس هنا وهناك، ولكنها لم تتمكن من اختراق السحب السوداء.

همسوا إن هذا نذير شؤم.

كانت سارا واقفة إلى جانب كريسي وليا، تراقب اضطراب المصلين. لقد همس لها شيطان في الليل، وقد همس لكريسي وليا، ولا شك أنه قد همس لهؤلاء الناس أيضًا. ومن الواضح أنه قد أغواهم، بالحكم على الإحساس بالذنب المرتسم على وجوههم.

تساءلت إن كان قد منحهم نفس العرض الذي منحه لها هي وكريسي وليا.

سأضع خنجرًا تحت فراشه. كان هذا ما قاله الصوت.

نظرت عيناها إلى ما وراء الصاري الرئيسي، كان البحارة يراقبونهم بنظرات جائعة. كم عدد من خرجوا منهم هذا الصباح متوقعًا أن يرى الحاكم العام بين المصلين؟ كم واحد منهم يفكر في قتله؟ ما الذي قد عُرض عليهم ليفعلوها؟ عندما نظرت إلى أعينهم التي ترصد كريسي وليا شكت في أنها قد عرفت الإجابة.

كان يوهانس ڤيك بالأعلى عند مقدمة السفينة، لا تعرف لمَ اختار هذه البقعة، فهو لن يتمكن من سماع العظة، ولكنها تمنحه رؤية شاملة للركاب.

هل سمع صوت توم العجوز في الليلة الماضية؟ جزء منها قد افترض أن ڤيك والشيطان بينهما عقد دائم.

شقت إيزابيل طريقها بين الحشد ناحية سارا، ثم قالت في اضطراب: "لقد فتشت السطح السفلي، لا يمكنني أن أجد ساندر. لم يرَه أحد".

قالت سارا: "إن مهجع آرينت مجاور لمهجعي، ربما يعرف شيئًا".

سعلت كريسي وهي تشير إلى سارا أن تنتظر لحظة، ثم قالت: "قبل أن تتحدثي إلى آرينت لدي شيء يجب أن تريه. في الليلة الماضية، في مقصورة زوجك، رأيت قطعة من الورق مطوية تحت درع صدره. أنتِ تعرفين أنني كنت أشعر بالفضول تجاه سبب سجن بيبس... حسنًا". أعطتها قطعة الورق وقالت: "لقد نسختها أثناء نوم يان".

ضع الأغلال في يدي ساموبل بيبس. لقد وصلني اتهام بأنه جاسوس لصالح الإنجليز، إنه ليس خائنًا لمشروعنا النبيل فحسب، بل لأمتنا بأسرها. هذا الأمر ليس معروفًا للجميع بعد، ولكني تيقنت من المزاعم وسأعرضها على زملائي قريبًا. الإعدام ينتظره. فلتجلبه ليمثل أمام السادة السبعة عشرة وستتحسن مكانتك كثيرًا. افعل هذه الأشياء وتعالَ بسرعة.

مع خالص مودتي

كاسبر ڤان دين بيرج

شهقت سارا وقالت: "بيبس جاسوس؟".

قالت كريسي محذرة: "لا يمكنك أن تدعي آرينت يرى هذه، إن عرف زوجك أنني أسرق وثائق من مقصورته فسيلقي بي من على جانب السفينة".

قالت سارا: "إذن سأفكر في كذبة ما لكي أشرح الأمر. يجب أن يعرف آرينت بهذا يا كريسي، إنه يعبد بيبس".

ذهبت النسوة الأربعة إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط، ولكن سارا وجدت نفسها مترددة عند المدخل. لقد منعها زوجها منعًا باتًّا من رؤية آرينت أو الحديث معه. لقد منحته جرعة مضاعفة من عقار النوم مما يعني أنه لا يزال نائمًا بالتأكيد، ومع هذا كانت مخاطرة أن تتحداه بشكل صريح هكذا.

قد يراها ڤوس، إنه يعد بشكل عملي عيني زوجها.

راح قلبها يدفعها للأمام بينما خوفها يدفعها للوراء. إن كانت تريد أن تستمر في التحقيق بشأن توم العجوز فسيكون عليها أن تتصرف بطريقة لا تثير الريبة. نظرت إلى ليا وقالت: "هل يمكنك أن تذهبي إلى حجرة الدفة يا عزيزتي وتراقبي تحسبًا لمجيء أبيك أو ڤوس أو دريخت؟".

ابتسمت ليا وقالت: "هذا أشبه بأن أكون في واحدة من قصص بيبس". ثم توجهت إلى موضعها.

كانت الستارة المحيطة بمهجع آرينت مفتوحة لتكشف عنه وهو يغط في نومه على إحدى الحصر. كانت الأرضية المحيطة به مبتلة بما يشي أنها قد نُظفت مؤخرًا، ولكن كان هناك رائحة غريبة لا تزال عالقة في الهواء.

نظرت كريسي إلى صدر آرينت الضخم وذراعيه السميكتين وقالت: "رباه، كم ستحظين من متعة". فاحمر وجه سارا خجلًا.

قالت سارا بصوت رقيق محاولة أن توقظه: "آرينت".

لم يتململ.

ركلت سارا قدمه في صبر نافد وقالت: "آرينت! استيقظ".

قال بلسان ثقيل وهو يبعد ساقه عن نطاق ركلاتها: "الوقت مبكر، أنا فقط... كنت نائمًا".

"ساندر كيرس مفقود، نحتاج إلى مساعدتك".

نهض آرينت على مضض وهو يمسح عينيه الغائمتين لينظر إليهن. كان الهواء معبقًا برائحة البابريكا، لا شك أن أحدهم قد كسر صندوقًا في مخزن البضائع.

قال وهو يعتدل على مرفقيه: "لقد شاهدت ساندر يخرج من هنا، وسمعت خطوات أقدامه على السلم المؤدي إلى السطح السفلي".

قالت إيزابيل بنبرة اتهام: "لقد فتشت السطح السفلي".

جلس آرينت وهو يضع رأسه بين يديه في تعب ثم قال: "ربما هبط إلى مخزن البضائع، أو تجاوز الحد الفاصل. هل بحثتِ على الجانب الآخر من الصاري الرئيسي؟".

قالت إيزابيل في عصبية: "غير مسموح لي بالذهاب إلى هذا الحد".

قال: "سأذهب للسؤال عنه بمجرد أن أتمكن من ارتداء حذائي".

أعطته سارا قطعة الورق التي نسختها كريسي وقالت: "قبل أن تفعل هذا عليك أن تقرأ هذه؛ إنه خطاب من جدك إلى زوجي، ويفسر سبب سجن سامي".

انتبه وهو يأخذ منها الرسالة، فقرأها مرتين قبل أن يضحك فجأة ويقول: "لا أعرف كيف حصل جدي على هذه المعلومة، ولكنها كذبة، سامي ليس جاسوسًا". بدت نبرة آرينت وكأنه يجد الأمر طريفًا. "سيكون جاسوسًا عديم الجدوى، فهو لا يبالي بالشعوب أو الملوك، بل يبالي بالألغاز المثيرة للاهتمام وأن يملأ جيبه بالمال".

قالت سارا: "فلتسأله عن الأمر، ولا تخبر زوجي بما عرفته، لقد سرقتها من مقصورته".

ألقى آرينت بالرسالة من النافذة فحملتها الرياح بعيدًا، ثم قال: "بالطبع لن أخبره، شكرًا لك يا سارا".

عادت سارا وليا وإيزابيل وكريسي إلى السطح، حيث ازدادت الأمطار قوة بما يكفي لتفريق المصلين خائبي الأمل. قالت إيزابيل: "ما زلنا لا نعرف على وجه اليقين إن كان آرينت ليس الشيطان".

قالت سارا بنبرة تحسم الجدال: "إنه ليس كذلك".

دُهشوا جميعًا من يقينها، ولكنها واجهت شكوكهم بثقتها. بعد يومين بصحبة آرينت صارت تعرفه أكثر مما تعرف زوجها بعد خمسة عشر عامًا من الزواج.

قالت: "صدقوني، إن كان هناك أحد قادر على إيجاد ساندر فإنه آرينت، ولكن يجب علينا أن نتحدث إلى رينير ڤان شوتن، فقد أراد أن يعترف لساندر، وربما يعرف أين ذهب البريديكانت هذا الصباح".

قالت كريسي بينما الأمطار تصفعهن: "ألا يمكننا إرسال الولدين إلى الداخل أولًا؟ لم يعد الجو محتملًا بالخارج".

كان ماركوس وأوسبرت في السطح العلوي يلاحقان أحدهما الآخر في دوائر، ويلعبان نسخة من لعبة الغميضة لا يعرف أحد قواعدها سواهما. كانت دوروثيا تراقبهما بقلق معتقدة أنهما في نهاية المطاف سيركضان مباشرة نحو الفجوات الموجودة في السور ويسقطان من على حافة السفينة.

وبالنظر إلى موهبة الفتيين في التورط في الحوادث المؤسفة فإن هذا القلق له ما يُسوِّغه.

كنا قد وصلنا إلى أول السلم عندما هبط الولدان مسرعين بتعليمات من دوروثيا. قالت وهي تثبت قبعتها البيضاء بيدها في مواجهة الريح: "أعتقد أنه من الأفضل أن نحتمي بالداخل يا سيدتي".

أمسكت سارا بذراعها وقالت: "هل يمكنك أن تصنعي لي اليوم بعض الملابس العملية يا دوروثيا؟". ثم أشارت إلى قميص إيزابيل القطني الفضفاض وتنورتها المصنوعة من قماش القنب وهي تقول: "شيء كهذا. وأحتاج إلى قبعة أو قلنصوة، أو شيء له حافة تغطي وجهي وشعري".

قالت دوروثيا: "تقصدين تنكرًا؟". كانت معتادة على مثل هذه الأشياء، فقد ساعدت سارا على التسلل خارج القلعة أكثر من مرة.

"بالضبط".

قالت محذرة: "سيكون عليَّ التضحية بفستانٍ أو اثنين".

قالت سارا: "فلتمزقي أيًّا ما يحلو لكِ".

بعد أن اقتادت دوروثيا الولدين إلى الداخل، تنحنحت كريسي بشكل محرج ثم بدأت حديثها بنبرة استفهامية قائلة: "سارا...".

"أجل".

"آرينت هايز".

ظل الاسم عالقًا بينهما.

كررت سارا: "أجل". ولكن ببطء أكثر هذه المرة، بنبرة تحذيرية أكثر منها مرحبة.

"إن دفاعك عنه كان..."

ساعدتها ليا قائلة: "حماسيًّا للغاية".

قالت كريسي وهي تزيح خصلة من شعرها الأشقر من على عينيها: "أجل، حماسيًّا للغاية".

"هل كان كذلك حقًّا؟".

"وقد قضيتِ الكثير من الوقت معه مؤخرًا".

قالت سارا مدافعة عن نفسها: "لديّ مُسوِّغاتي".

"هل تبالين بشأنه؟".

شكل فم سارا اعتراضًا، ثم فكرت فيمن تطرح السؤال وقالت معترفة وقد تجهم وجهها قليلًا: "أجل". كانت المرة الأولى التي تعترف فيها بهذا بصوت عالٍ، فشعرت كأنما تجذب بقرة قبيحة إلى السوق.

ابتسمت ليا، ولكنها تركت كريسي تتسلل ببراعة ناحية هدفها وهي تقول: "هذه المشاعر التي تنتابك... أنتِ تعرفين أنها مستحيلة".

قالت سارا وهي تجذب ياقة فستانها بانزعاج: "بالطبع أعرف". كان على دوروثيا أن تغسل كل شيء في مياه البحر، مما يجعل الملابس قاسية ومثيرة للحكة. ومع ذلك يظل هذا ما يفعله البحارة، فهم لا يغسلون ثيابهم إلا على فترات متباعدة، وعندما يفعلون هذا فإنهم يغسلونها ببولهم. في غضون خمسة أشهر أخرى ستصير رائحة السفينة بأسرها مثل المرحاض. أكملت سارا: "أنا... ينتابني شعور جيد عندما أكون بصحبته، إنه يتركني أكون على طبيعتي بدلًا من أن يجبرني على أن أصير شخصية أخرى لست بارعة في تقمصها. هذا كل ما في الأمر. من السهل أن أنحيه جانبًا".

سألتها ليا في فضول: "هل أنتِ واثقة من أن عليكِ هذا؟ إنه يجعلك سعيدة، لقد رأيت هذا".

خفضت صوتها وهي تقول: "ليس هناك أمل في علاقتي بآرينت. إن نجحت خطتنا فسوف أختفي وآرينت سوف...". بترت جملتها، إنها لا تعرف أين سيذهب بمجرد إعدام سامويل بيبس. هل سيعود إلى الحرب؟ ومض أمل بداخلها.

إنه مرتزق، والأكثر أهمية أنه رجل، لا يوجد هناك أي التزامات مفروضة عليه. لا يتوقع منه أحد شيئًا، يمكنه أن يذهب أينما شاء. ربما سيرحب بفرصة أن يلحق بها ويبدأ حياة جديدة بعيدًا عن كل شيء. ربما ستكون قادرة على أن ترسل له خبرًا بمجرد أن ترسو السفينة لتخبره أين ستذهب.

هزت رأسها في غضب. هل يفكر حتى بشأن هذا؟ لقد اقتربت كثيرًا من أن تكتسب حرية ليا. هل يمكنها أن تفكر في المخاطرة بهذا من أجل افتتان طفولي؟

أدى إيجرت التحية العسكرية وهو يفتح الباب لهن.

بالداخل طرقت سارا على باب مقصورة رينير ڤان شوتن.

ظهر كبير التجار وهو يرتدي سروالًا قطنيًّا رقيقًا ولا شيء آخر تقريبًا، فأشحن بوجوههن في اشمئزاز في الوقت نفسه. كانت حجرته عبارة عن حانة، مع عشرات من جرار النبيذ المتناثرة على الأرضية وطاولة الكتابة.

قالت سارا لنفسها إنه هكذا يغرق اليائس نفسه في الشراب.

قال وهو ينظر إلى السيدات الواقفات أمامه: "كان توم العجوز يصغي لي حقًّا في الليلة الماضية".

ابتسمت كريسي في سخرية، مما جعل سارا تبتسم رغمًا عنها، ثم سألته: "هل ذهبت إلى ساندر كيرس من أجل الاعتراف يوم أمس؟".

أشار إلى مقصورته وقال: "ما الذي أحتاج إلى أن أعترف به؟ إن الحاكم العام هو سيد هذه الرحلة، مما يجعلني مجرد راكب ثري آخر مع خزانة مليئة بالنبيذ".

قالت سارا: "لقد ساعدتَ زوجي على تهريب شيء على متن السفينة سرًّا". راقبت ملامحه وهي تتغير. "لا يبدو أن أحدًا يعرف ماهيته، ولكن بحسب كل الشهود فأنت تفرط في الشراب منذ ذلك الحين".

تلوَّت ملامح وجهه حينها وقد غلبه الخوف والشك والإحساس بالذنب. للحظة خُيل إلى سارا أنها ستسمع ما تود سماعه، ولكنه بدلًا من هذا لم ينطق إلا بالهراء.

سألها وهو يميل برأسه جانبًا: "هل يعرف زوجك أنك تلعبين دور صائد اللصوص بصحبة آرينت هايز؟ هل يعرف أنك تجرين ابنتك إلى هذه المغامرات؟". ثم حدجها بنظره وقال: "ربما يجب أن أخبره...".

قاطعته إيزابيل وهي تتقدم لتقف أمامه: "ساندر كيرس مفقود، إن كان قد جاء إليك من أجل الاعتراف فأنت آخر من...".

"لا أعرف شيئًا، وإن كنت أعرف فما كنت لأقوله لمرديكرية لعينة".

ثم صفق الباب ليغلقه في وجوههن.

٤٥

قالت إيزابيل بينما يبتعدن عن مقصورة ڤان شوتن: "ما الذي يجب علينا فعله الآن؟".

فكرت سارا في الأمر ثم قالت مخاطبة ليا التي تمشي وراءها: "ما مدى التقدم الذي أحرزتِه في النموذج المصغر للسفينة وخزانات التهريب بها؟".

"لم أبدأ إلا للتو. لماذا؟".

"لقد جلب أبوكِ شيئًا على متن السفينة ويريد أن يبقيه سرًّا، وقد ساعده ڤان شوتن في هذا. إن كان قد اعترف لساندر بما فعله وعلم أبوك بالأمر فربما يكون هذا سبب اختفائه. قد تكون الشحنة على متن السفينة في أي مكان، وخزانات التهريب الخاصة ببوسي تبدو مكانًا جيدًا لبدء البحث، علينا فقط أن نعرف أين هي".

قالت كريسي محذرة: "لا تنسي الخطاب، هناك من استدرج ساندر على متن ساردام. إن كان توم العجوز هو الفاعل فربما يكون مسؤولًا عن اختفائه".

قالت سارا: "على أي حال لا يوجد شيء آخر لنفعله في الوقت الحالي سوى انتظار أن ينتهي آرينت من بحثه".

كان من الواضح أن هذه الإجابة لم ترضِ إيزابيل، ولكن لم يكن هناك مسار واضح للتصرف. إن حريتها مقيدة مثل بقية الركاب.

انتزعت كريسي قصاصة ورق أخرى من كمها وأعطتها لسارا ثم قالت: "من ناحية أخرى يجب أن يبهجك هذا، إنها قائمة الأسماء التي رأيتِها في مقصورة زوجك".

باستيان بوس – ١٦٠٤

توكيهيري – ١٦٠٥

غيليس ڤان دي سيولين – ١٦٠٧

هيكتور دايكسما – ١٦٠٩

إيميلي دي هاڤيلاند – ١٦١٠

قالت إيزابيل وهي تنظر من فوق كتف سارا: "أنا أعرف بعض هذه الأسماء من موسوعة الشياطين، إنها جميعًا عائلات قد سقطت تحت نير عبودية توم العجوز، وكان بيتر فليتشر يحقق بشأنها".

كان هناك رائحة بابريكا خفيفة تفوح من الفتاة لم تكن رائحة مزعجة، بل في الواقع جعلت سارا تشعر بشيء من الجوع، تساءلت لمَ لم تلاحظ هذا من قبل. هناك صناديق من البابريكا في مخزن البضائع، لا شك أنها تقع مباشرة تحت المكان الذي تنام فيه إيزابيل.

تساءلت كريسي: "هل تعرفين سبب اهتمام يان بهذه الأسماء؟".

قالت سارا ببطء محاولة أن تجيب عن السؤال لنفسها: "لقد سمعته يتحدث إلى ڤوس البارحة. لم أسمع إلا القليل، ولكنه اعترف بإطلاق سراح توم العجوز قبل ثلاثين عامًا نظير السلطة التي يتمتع بها. إنه يعتقد الآن أن شخصًا آخر قد ألب الشيطان عليه. لقد واجهه آرينت ولكنه لم يقل أي شيء آخر".

امتقع وجه كريسي وهي تتشبث بذراع سارا قائلة: "يان هو من استدعاه؟".

قالت: "هذا ما قاله". ثم أولت اهتمامها إلى إيزابيل من جديد وقالت: "هل تعرفين ما حدث للأسماء الموجودة في هذه القائمة؟".

قالت وهي تنقر على حقيبتها: "لقد كتب بيتر فليتشر تقارير تفصيلية عن الأمر، يجب أن تحتوي موسوعة الشياطين على إجابات".

قالت سارا: "إذن دعونا نذهب إلى المقصورة ونلقي نظرة". ثم التفتت إلى كريسي وقالت: "هل اكتشفت أي شيء بشأن القبطان كراوڤلز الليلة الماضية؟".

قالت كريسي: "لا أعتقد أنه الشيطان الذي نبحث عنه إن كان هذا ما تسألين عنه. كان أفراد عائلته من النبلاء ذات يوم ويحاول أن يستعيد ثروتهم، ويعتقد بطريقة ما أن يان قادر على مساعدته".

"هل عرفتِ كيف؟".

"لا، ولكني سأحاول مرة أخرى الليلة، وأيضًا قد أكون قادرة على الحصول على معلومات من ڤوس بشأن علاقة زوجك بتوم العجوز".

قالت سارا في شك: "إنه شديد الولاء. لا أشك في فتنتك الأسطورية، ولكن...".

قاطعتها كريسي وعيناها تلمعان: "لقد طلب مني أن أتزوجه".

صاحت ليا: "ڤوس عرض عليك الزواج!".

"أجل، الليلة الماضية، بعد أن هاجمنا المصباح الثامن".

قالت سارا: "ولكن أنتِ...". راحت تفتش عن الكلمة المناسبة قبل أن تقول: "أنتِ أنتِ، وهو...".

"هو". وافقتها كريسي وهي تفكر في الأمر. "أجل، ولكن من الواضح أنه قد حاز على ثروة عظيمة، وبعدها سيحاول أن يصير الحاكم العام التالي لباتاڤيا".

صار وجه سارا متلهفًا وهي تسألها: "ثروة؟ من أين؟".

"لا أعرف، قال إنه يخطط للأمر منذ وقت طويل... أوه...". أدركت الأمر فجأة فقالت: "ليس ڤوس، بالتأكيد ليس ڤوس، إنه...". راحت تفتش عن الكلمة قبل أن تقول: "ضيق الأفق".

"إن لديه نفوذًا، وأحواله على وشك أن تتبدل. إن كان توم العجوز يستحوذ على شخص ما فإن ڤوس مرشح محتمل مثل أي شخص آخر. لقد منحه زوجي استقلالًا كبيرًا على مدى السنوات، لقد كان ثاني أقوى رجل في باتاڤيا، ويبدو أنه يتطلع للمزيد، يجب أن نحقق بشأن هذه الثروة التي حازها".

قالت كريسي: "أجل بالطبع، كنت سأسأله عن هذا على أي حال، يجب أن أعرف كل التفاصيل إن كنت سآخذ عرضه للزواج على محمل الجد".

صاحت ليا: "أنتِ لا تفكرين في الأمر حقًّا، أليس كذلك؟".

قالت كريسي: "ولمَ لا؟ إنه مفتون وضعيف ويفتقر للخيال. أفكر في الحياة التي يمكن أن أصنعها لابنيَّ باستغلال هذه العيوب، كما أن جمالي لن يدوم إلى الأبد، يجب أن أبيعه بأفضل ثمن ممكن".

نظرت سارا ناحية إيزابيل التي تخلفت عنهن وسألتها بلطف: "هل تمانعين أن تأخذي موسوعة الشياطين إلى مقصورتي بينما أتحدث مع كريسي؟".

فعلت إيزابيل ما أمرتها به، وما إن ابتعدت حتى أمسكت سارا بذراع كريسي، وسألتها في قلق: "ماذا سيحدث لخطتنا إن تزوجتِ ڤوس؟ ماذا عن فرنسا؟ ماذا عني أنا وليا؟".

قالت كريسي بهدوء: "لا تخافي يا عزيزتي، يمكن ترتيب هذا الأمر بسهولة، إن الغنيمة أثمن بكثير من أن تكون رهينة لخطط زواجي، ولن أتخلى عن أي منكما أبدًا".

حدقت سارا إلى صديقتها، إنها جميلة ومخلصة، ولكنها تعيش كل يوم بيومه، لن تضع سارا وليا في الحسبان عندما تفكر في عرض الزواج، ليس بدافع من أنانية أو حقد، بل فقط لأنها ستفترض أن كل شيء سيسير في صالحها. إنها تريد حريتها، لذا ستنالها. ولكيلا تظلم كريسي فإن هذه هي الطريقة التي تسير بها حياتها عادة.

سألتها سارا لتغير الموضوع: "هل حصلت على المخططات في الليلة الماضية؟".

تلفتت كريسي حولها لتحرص على أن أحدًا لا يراهن، ثم رفعت تنورتها لتكشف عن حافظة لفافات مثبتة إلى الجزء الداخلي من

فستانها بثلاث حلقات معدنية، ثم قالت: "بالطبع، لقد نام يان نومًا عميقًا طوال الليل، يجب أن أحييك على كفاءة عقاقيرك".

سألتها سارا: "بحق السماء يا كريسي، لِمَ لم تتركيها في مقصورة ليا؟".

"ماذا لو رآها أحد فتيان الخدمة؟ أو قرر زوجك زيارة المقصورة؟ لا، لا، فكرت أنه من الآمن أن أبقيها معي".

قالت ليا وهي تمسك بحافظة اللفافات بكلتا يديها: "هذا ليس الفستان الذي عدلته".

قالت كريسي بفخر: "لا، لقد أعددت هذا الفستان بنفسي".

"وكنتِ تمشين في الأرجاء طوال الصباح بينما حافظة اللفافات مثبتة إلى ساقك؟".

"كنت أنتظر الوقت المناسب لكي أمنحها لكِ".

قالت ليا: "سأبدأ العمل على المخطوطات على الفور، ولكني أحتاج إلى بعض الشموع الجديدة".

قالت سارا: "سآمر المضيف بجلبها لكِ على الفور".

قالت ابنتها محذرة: "ربما سترغبين في أن يجلبها شخص آخر، ما بين نموذج السفينة المصغر وهذه المخطوطات سأعمل كثيرًا حتى وقت متأخر، لا تريدين أن يتساءل لمَ أستهلك الكثير من الشموع".

اختفت ليا في مقصورتها وهي تمسك بحافظة اللفافات، بينما دلفت المرأتان الأخريان إلى مقصورة سارا.

كانت موسوعة الشياطين مفتوحة بالفعل على طاولة الكتابة.

كانت إيزابيل تتفحص القيثارة، وقد أمالت رأسها في تعجب؛ لا يوجد في حانات باتاڤيا سوى المزامير والكمانات والطبول، والغالبية يعزفون بحماس لا بمهارة.

بدا من الواضح من التعبير المنبهر المرتسم على وجهها أنها لم ترَ من قبل آلة بهذه الأناقة، الأوتار مصنوعة من أشعة الشمس، والخشب مصقول للغاية حتى إنها قادرة على رؤية انعكاسها يتموج على سطحها، كروح عالقة تحت جلدها.

مدت إصبعًا قذرة لتعزف على أحد الأوتار، ولكنها سمعت صوتهما فأعادت يدها إلى الوراء على الفور. لأول مرة منذ أن رأتها سارا تشعر أنها تبدو فتاة حقًّا.

قالت سارا بلطف: "لا أمانع أن تعزفي عليها، ويمكنني أن أعلمكِ إن أردتِ".

احمر وجه إيزابيل خجلًا من هذا العرض، ثم قالت وهي غير قادرة على النظر إلى عيني سارا: "لا أقصد الإهانة، ولكن هذا ليس مكاني، وهذا العرض يبدو في غير موضعه. أصابعك مثالية من أجل القيثارة، إنها ناعمة وطويلة، وعندما أراها أعرف أن الرب قد خلقها من أجل العزف". ثم رفعت يديها لتتفحصهما، كانتا خشنتين وقاسيتين وقذرتين بفعل التسلق في أرجاء السفينة. "هاتان اليدان قد خلقتا من أجل الحقول، من أجل الكدح والحياة الشاقة. عندما رأيت ساندر لأول مرة كان يتعرض للضرب على يد اثنين من قطاع الطرق في أحد الأزقة في باتاڤيا، عندما رأيت أنه بريديكانت استللت سكيني

وذبحتهما قبل أن يشعرا بوجودي، لم أكن أنتظر مفاجأة، ولكن ساندر رأى أن مجيئي إليه عناية إلهية، لقد أخذني وعلمني كيف أصير صائدة ساحرات". تسلل الفخر إلى صوتها وهي تقول: "إن مهمتي إلهية، أنا الشخص الذي سيضع حدًّا لتوم العجوز، هذا ما خلقت من أجله هاتان اليدان، وليس اللعب على آلة موسيقية لن أراها بمجرد أن أهبط من على هذه السفينة".

فتحت سارا فمها غير واثقة إن كانت يجب أن تحتج أم تعتذر، ولكن إيزابيل أعفتها من حسم قرارها بأن نقرت على غلاف موسوعة الشياطين وقالت: "لقد جلبت الكتاب كما طلبتِ".

أبقت سارا عينيها على إيزابيل وهي تقول: "كريسي، هل يمكنك أن تري إن كانت موسوعة الشياطين ستساعدنا، بشأن تلك الأسماء التي نسختِها من على مكتب زوجي؟ أريد أن أتفحص طفل إيزابيل إن كانت راغبة في هذا".

شهقت إيزابيل وهي تضع يديها على بطنها ثم قالت: "كيف عرفتِ؟".

قالت سارا برفق: "لقد رأيت الولع الذي كنتِ تحدقين به إلى ماركوس وأوسبرت أثناء عظة أمس. كنتِ تحلمين بأن يكبر طفلك ليصير في مثل هذا العمر. كان لدي ثلاثة أطفال وأعرف هذه النظرة، كما أنك لا تستطيعين إبعاد يديك عن بطنك".

راحت سارا تتمتم في رضا بينما تتحسس بطن إيزابيل برفق. أما كريسي فراحت تقلب صفحات موسوعة الشياطين وهي تتمتم في اشمئزاز.

قالت كريسي: "إن جميع الأسماء لأشخاص كان زوجي يشتبه في أن توم العجوز قد استحوذ عليهم". ثم تنحنحت قبل أن تبدأ القراءة بصوت عالٍ: "كان باستيان بوس تاجرًا ثريًّا، ولكن التحقيقات كشفت أن ثروته مستمدة من أمثلة عديدة نادرة من الحظ الحسن، كل واحدة تزامنت مع حدث شنيع في القرى المحيطة بأراضيه. كان النمط واضحًا، لقد اختطفناه من على الطريق ذات ليلة، وبعد ثلاثة أيام من التحقيقات انكشف لنا وجه توم العجوز. لقد أدينا طقس طرد الأرواح الشريرة، ولكننا لم نتمكن من إنقاذ بوس. لقد طهرناه باستخدام...". صار صوت كريسي خافتًا وهي تقول بضعف: "النار".

"كريسي؟".

"قال لي زوجي إنه لم...". ترددت قبل أن تضيف: "لقد زعم أنه لم يقتل أحدًا قط، قال إن الطقوس كافية لطرد توم العجوز".

أخذت نفسًا عميقًا لتستجمع شتات نفسها ثم انتقلت إلى الاسم التالي: "كان توكيهيري بنَّاء سفن بارعًا من بلاد أجنبية، وكانت سفنه أخف وزنًا من سفن بلادنا الهندية، وأسرع منها، ومع ذلك كانت أكثر منها متانة. عندما تفحص عمال سفن مسيحيون الأمر أكدوا أنه لا شيء يمكن أن يبقيها طافية سوى عمل شيطاني، وبالفعل وجدنا أسحار شنيعة منقوشة على هياكل السفن. أنكر توكيهيري ومات أثناء استجوابنا له. لم نتمكن من إنقاذ روحه".

نهضت كريسي فجأة وتوجهت ناحية الكوة وهي تغطي فمها بيدها.

أنهت سارا تفحصها لإيزابيل وقالت مبتسمة للفتاة: "هذا الطفل محظوظ لأنك أمه، يبدو أن كل شيء يسير على ما يرام، سنراقبك

طيلة الرحلة، ولكن إن شعرتِ بعدم الارتياح فلديَّ بعض العقاقير التي ستساعدك".

توجهت ناحية المكتب ونظرت إلى موسوعة الشياطين.

كان كل شيء مكتوبًا بإنجليزية غير متقنة، وقد تكونت النصوص من أجزاء عديدة جُمعت معًا في محاولة يائسة لكي تصير راقية. كانت سارا قادرة على قراءتها، ولكن بشكل غير مريح، ووجدت نفسها تنطق بعض الكلمات بصوت عالٍ. بذلت مجهودًا كبيرًا للسيطرة على أعصابها وهي تقرأ تقارير التحقيقات، والطريقة الجافة التي تُسرد بها الفظائع التي قد رآها صائد الساحرات، والفظائع التي ارتكبها استجابة لذلك.

قالت كريسي وهي تحتضن نفسها بالقرب من الكوة: "لم يكن بحاجة إلى قدر كبير من الإقناع، أليس كذلك؟ هل وصلتِ إلى التقرير الذي يذكر فيه كيف أدان إيميلي دي هاڤيلاند بمجرد أن أنكرت كونها ساحرة؟ كانت مجرد فتاة!".

بحثت سارا بعينيها عن التقرير حتى وجدته، ثم قرأت بصوت عالٍ: "لم يكن هناك شيء سوى التناقض في شهادتها، كذبة فوق كذبة لتخبئ الشيطان الكامن بداخلها. كان طقس طرد الأرواح الشريرة مطلوب لتحريرها من الشيطان، ولكن كان الأوان قد فات، عندما سمع مجموعة من القرويين الغاضبين بأفعال دي هاڤيلاند الشيطانية اندفعوا إلى بيتها ليحرقوا ويقتلوا، مدمرين ما كان ذات يوم عائلة كبيرة".

تلا هذا اسمان، هيكتور دايكسما، وغيليس ڤان دي سيولين. يبدو أنهما قد نجوا من محنتهما وعاشا حياة سعيدة.

كانت كريسي ترتجف والدموع تسيل على وجنتيها، وعندما توقفت سارا عن القراءة قالت: "لا أتعرف على زوجي في هذه الصفحات، هذا ليس الرجل الذي كان يعود إلى البيت من أجلي، إن عزيزي بيتر ما كان ليفعل هذه الأشياء، ليس لباستيان بوس، أو توكيهيري أو إيميلي دي هاڤيلاند، أو أي من الآخرين، لم يكن زوجي قاتلًا".

٤٦

كان القبطان كراوڤلز يحدق من إحدى النوافذ بالمقصورة الكبرى، شابكًا يديه وراء ظهره وهو يحرك أصابعه في صبر نافد. كان الوقت في منتصف الصباح، ولكن ساردام لم ترفع المرساة، وكذلك بقية السفن في الأسطول.

كان البحر يزداد اضطرابًا مع مرور كل دقيقة، بينما الأمطار تنقر على الزجاج والبرق يرقص بشكل منذر بالشر في الأفق. يجب عليهم أن يرفعوا المرساة قبل أن يصل البرق إليهم، وإلا فسيمزقهم إربًا قبل أن يتمكنوا من رفع الأشرعة.

الصواب هو محاولة أن يسبقوا البرق، ولكن ڤان شوتن مصر على عودتهم إلى باتاڤيا، بيد أنهم بحاجة إلى موافقة الحاكم العام. ولكن يبدو أنه قد قرر أن يتأخر في النوم. كان الموقف غير معتاد، حتى إن الحاجب ڤوس قد أطل برأسه داخل حجرة نومه بضع مرات ليتيقن من أنه ما زال يتنفس.

لقد استجاب القباطنة الآخرون للأمر بغضب متوقع، فباستثناء رؤية المصباح الثامن لم يبلغ باقي الأسطول عن أي حوادث غريبة منذ مغادرة باتاڤيا، وهم متحمسون للمضي قدمًا. إنهم لا يربحون إلا ثمن ما يوصلونه إلى أمستردام، وإن عادوا إلى باتاڤيا فستفسد الشحنة.

سمع كراوڤلز ڤوس يقطع الحجرة من ورائه ليطرق على باب مقصورة الحاكم العام، ولكن قبل أن يصل إلى هناك انفتح الباب وخرج منه يان هان وهو يرمش بعينيه ناظرًا إلى الضوء. بدت هيئته مريعة، ولم يربط إلا أربعة من الأبازيم الجلدية الستة لدرع صدره، الذي تدلى بشكل أعوج على قميص لم يدسه في سرواله. كانت أربطته غير مستوية، وسرواله قد انحسر عن ساقيه، والنوم لا يزال كامنًا في زوايا عينيه الحمراوين.

"سيدي".

"أيها الحاكم العام...".

"سيدي يجب علينا أن...".

رفع يده ليشير إلى ڤوس مترنحًا.

قال آمرًا بصوت لا يزال فيه أثر النوم: "أخبرني بما يحدث في إيجاز".

"القبطان كراوڤلز وكبير التجار ڤان شوتن يرغبان في العودة بالسفينة إلى باتاڤيا يا سيدي".

قال الحاكم العام وهو يتثاءب: "لا، فلتأمر بإرسال الإفطار يا ڤوس".

انحنى له ڤوس ثم غادر الحجرة.

تدخل ڤان شوتن قائلًا: "لقد ظهر المصباح الثامن مرة أخرى ليلة أمس يا سيدي، عندما حاولنا أن نضع قاربًا شراعيًّا في الماء كما أمرت ذبح جميع الماشية لدينا".

كان يتحدث بسرعة، ولكن بكلمات واضحة، فأدرك كراوڤلز أنه ليس ثملًا لأول مرة منذ وقت طويل. لا يمكنه أن يتذكر آخر مرة رأى فيها ڤان شوتن بدون جرة نبيذ في يده، لا شك أن هذا كان قبل بدء رحلتهم بأسبوع عندما صعد قائد الحرس دريخت على متن السفينة ليفتشها. كان ڤان شوتن حينها رجلًا طبيعيًّا مفعمًا بالحيوية، مزعجًا، ولكنه أحيانًا ما يكون لطيفًا. تساءل ما الذي حدث ليسوء حاله إلى هذا الحد.

ألقى الحاكم العام بجسده على أحد الكراسي وهو يفرك البقعة الصلعاء في رأسه بينما لا يزال نصف نائم، ثم سأل: "كيف قُتلت الماشية؟".

قال كراوڤلز: "إنه المجذوم يا سيدي، لقد شق بطونها. البارحة وجد الملازم هايز مذبحًا قد بناه المجذوم في مخزن البضائع. إنه يجند أتباعًا من بين أفراد الطاقم بالفعل".

"وكيف ستساعدنا العودة إلى باتاڤيا على مقاتلته؟".

قال كراوڤلز: "يجب علينا أن نفرغ السفينة ونفتش كل جزء في...".

قاطعه الحاكم العام قائلًا: "إن فعلنا ما تقترحه فستفسد شحنتنا، وستصير هذه الرحلة بأسرها بلا جدوى. أنا عائد إلى أمستردام لألتحق بالسادة السبعة عشرة، وسأفعل هذا منتصرًا، ولن يكون هذا بمخزن بضائع فارغ، وفائض من الأعذار".

"ولكن بالتأكيد يا سيدي هناك أوقات يكون علينا فيها...".

قاطعه الحاكم العام بازدراء: "تريد أن تهرب عائدًا إلى عشك بعد أن رأيت بعض الدجاج الميت؟ من معرفتي السابقة بك ما كنت لأصدق أنك ضعيف القلب أيها القبطان كراوڤلز".

احتقن وجه كراوڤلز غضبًا، ولكن الحاكم العام تجاهله وهو ينقر بأصابعه على الطاولة.

"إن كان هناك شيطان يتربص بهذه السفينة فسيجده آرينت".

مادت السفينة تحت أقدامهم، فسقط الحاكم العام من كرسيه بينما ارتطم كراوڤلز وڤان شوتن بالطاولة. وما إن وقفوا على أقدامهم حتى مادت السفينة مرة أخرى، ولكن كراوڤلز كان قد أسرع متعثرًا بالفعل ناحية النوافذ.

كانت السماء مظلمة والمحيط هائج ومزبد.

سأله الحاكم العام في غضب كأن سلطته قد تعرضت للإهانة: "ما الذي يحدث؟".

قال كراوڤلز مزمجرًا: "العاصفة التي حذرتكم بشأنها، إنها تنقض علينا سريعًا".

قال: "إذن أقترح أن ترفع الأشرعة وأن توجهنا في الجهة المعاكسة أيها القبطان".

عندما رأى كراوڤلز أنه قد خسر الجدال خطا خارجًا إلى حجرة الدفة، ثم أطفأ الشمعة الموجودة في الكوة بسبابته وإبهامه.

رأى إيزاك لارم قادمًا من الاتجاه المعاكس فقال: "أطفئوا كل ضوء، آخر شيء نريده هو حريق يجب علينا مكافحته بينما نحاول إبقاء هذه السفينة طافية".

"ما هي أوامرك أيها القبطان؟".

"أنزلوا كل الأشرعة، سنحاول أن نسبق العاصفة".

***

راحت العاصفة تتعقبهم كالذئب.

طوال اليوم كانت ساردام تتمايل وتتأرجح بينما تبحر بشكل متهور. كان مسارهم عشوائيًّا للغاية، حتى إن إيزاك لارم شبَّه هذا المسار بخيط متشابك قد أُلقي بلا اكتراث على خريطة. ولكن مهما بذلوا من جهد تكون العاصفة دومًا في أعقابهم، فاغرة فمها الأسود، بينما البرق يفرقع.

كان البحر مضطربًا والطقس متقلبًا، وحتى البحارة كانوا يبذلون جهدًا كبيرًا لكيلا يسقطون أرضًا. أُمر النبلاء بالعودة إلى مقصوراتهم، وطُلب منهم البقاء بداخلها، إلى أن يتجاوزوا الطقس السيئ بأمان. أما الركاب في السطح السفلي فقد مُنعوا من الصعود خشية أن يسقطوا من على جانب السفينة.

استمرت العاصفة يومًا آخر، ثم آخر، ثم آخر. كان كراوڤلز بارعًا بما يكفي لإبقائهم خارج فكي العاصفة، ولكنه لم يستطع أن يسبقها.

راحت العاصفة تطاردهم أسبوعين في غضب لا يهدأ، حتى إن أفراد الطاقم بدؤوا يرون حقدًا في العاصفة. بعد أن يشعروا بالإنهاك من الجهد المبذول كانوا يهوون بأجسادهم متشبثين بحبال الأشرعة مع تغير نوبة المراقبة وهم يتحسسون تمائمهم، على أمل أن هذا

هو اليوم الذي ستغيب فيه العاصفة عن أعينهم تمامًا كما غابت عن أعينهم سفينة أخرى في الأسطول.

كان تخوفهم ملموسًا في كل ركن في ساردام، وفي السطح السفلي كانت الكوات مغلقة، بينما الركاب منكمشون على أنفسهم وهم يتلون الصلوات، والنبلاء في مقصوراتهم قد ضاقت صدورهم بالقلق.

على السطح العلوي كان القبطان كراوڤلز يرمي بالشتائم في وجه الرياح، وقد تزايد غضبه مع تزايد خوفه. مهما كان إبحارهم متهورًا، ومهما كان المسار الذي يقطعونه جريئًا، فإن مطاردهم يكون دومًا على نفس المسافة.

شعر في غضب وكأن العاصفة تتعقب رائحتهم.

أدرك البحارة القدامى أنه شيء قد حل بهم؛ لعنة لن تكتفي حتى ينال الهمس ما يبتغيه. لا عجب أن ساندر كيرس قد اختفى، هذا ما يزعمون. إنهم لا يحبون رجال الدين، ولكن ليس من المعقول أنه قد اختفى قبل هبوب العاصفة بلحظات. كان آرينت هايز قد بحث عنه لثلاثة أيام، حتى والسفينة المترنحة تقذف به ليرتطم بالجدران.

لم يستطع أن يجد أدنى أثر له، لقد اختفى كيرس وكأنما لم يصعد على متن السفينة قط.

خمن البحارة أن الهمس قد عرض على شخص ما ثروة نظير أن يمزق البريديكانت إربًا إربًا، وأن يلقي به في المحيط. إن كل شخص تقريبًا قد سمع صوته الخشن وهو يعرض صفقاته في الليل. تحقيق رغباتهم نظير خدمة، هذا ما وعد به. كانت أشياء متواضعة بالنسبة لبعضهم، وأشياء خطيرة بالنسبة لبعضهم الآخر. لم يبدُ أن هناك نمطًا لما يطلبه أو ما يعرضه.

عندما تحدثوا عن العروض التي تلقوها ذلك الصباح تشبث بعضهم بتمائمهم ليدرؤوا الشر، بينما غرق الآخرون في التفكير وأعينهم مليئة بالأحلام. لمَ لا؟ هكذا تساءلوا بصوت هامس. أي ثمن سيكون أعظم من هذه الحياة المطلوب منهم بالفعل أن يعيشوها؟ من مواقع عملهم كانوا يحدقون إلى مؤخرة السفينة، إلى المقصورات التي ينام فيها النبلاء. ما الذي فعلوه ليجنوا مثل هذا القدر الكبير من المال؟ إنهم لا يعرفون كيف يحيكون شراعًا أو كيف يدقون مسمارًا في سفينة، إنهم أثرياء لأن عائلاتهم كانت ثرية، وسيصير أبناؤهم أثرياء لأنهم أثرياء، جيلًا بعد جيل في حلقة لا تنتهي.

وعلى الجانب الآخر فهم فقراء لأنهم كانوا دومًا فقراء، ليس لديهم شيء ليتطلعوا إليه ولا شيء ليورثوه. إن الثروة مفتاح والفقر سجن، وقد وُلدوا مكبلين بأغلال لا ذنب لهم فيها.

هذا غير معقول وغير عادل، ويمكن للبشر أن يتحملوا أي شيء إلا الظلم.

هكذا راحوا يشتكون بعضهم لبعض، ويؤجج بعضهم غضب بعض.

إن كانت هذه خطة الرب فربما يستحق توم العجوز الإنصات إليه. لأنه لا يمكنه أن يطلب منهم ثمنًا أكبر من هذا، ولا أن يعدهم بمكافأة أقل من هذه. علاوة على ذلك فقد لا يكون لديهم خيار.

لقد استدعى المصباح الثامن ليعذبهم، والآن هذه العاصفة التي تزأر في ظهورهم، حتى لو استطاعوا أن يسبقوها فهناك مجذوم يتربص بهم في مخزن البضائع إلى ما لا نهاية، ويحفر علامته على الصناديق.

لقد رأوا لمحات منه، ثيابًا ممزقة وضمادات دامية، شمعة واحدة تقود البحارة عبر المتاهة إلى مذبح في قلب السفينة. بغض النظر عن عدد المرات التي يأمر فيها القبطان بتدمير المذبح فإن المجذوم يعيد بناءه.

بعضهم يقول إنه بوسي، وبعضهم الآخر يسخر من هذا. لقد رأوه على رصيف الميناء، وشاهدوه يحترق بألسنة اللهب وآرينت هايز يجهز عليه. ولكن ألم يشاهدوه يجر ساقه بينما تفوح منه رائحة المراحيض؟ أليس لديه خصومة مع هذه السفينة بعد ما فعلوه به؟ بعد ما فعله به يوهانس ڤيك؟

سواء كان بوسي أو لا، فقد اتفق الجميع أنه يحمل معه سوء الحظ أينما ذهب. هناك من مات بالفعل في الظلام؛ أحد فتيان الخدمة ومساعد صانع الأشرعة ونافخ بوق. فتى الخدمة قد تعثر على سلم وكسر رقبته. مساعد صانع الأشرعة ونافخ البوق قد ماتا ميتة دامية، فقد مزق كل منهما الآخر بخنجره إلى أشلاء. كان هناك كراهية محتدمة بينهما منذ فترة من الوقت، ولكن كل شيء دفين صار يطفو إلى السطح.

يزعمون أن البحارة الذين قضوا أوقاتًا طويلة في مخزن البضائع قد عادوا مختلفين، شاردين بشكل ما وغرباء الأطوار. بعضهم كان هكذا عندما صعد على متن السفينة بالطبع، ولكن ليس هذا ما يهم. إن الشائعات تدور حولهم جميعًا. يقولون إنهم قد ركعوا عند المذبح وأعلنوا عن ولائهم. لا أحد يقترب منهم.

يزعم البحارة القدامى أن شيئًا ما يتململ في المياه المظلمة، شيئًا يدعو نفسه توم العجوز.

٤٧

صاح القبطان كراوثلز بينما العاصفة تنقض عليهم أخيرًا: "أسبوعان كسمكة لعينة في خطاف، والآن يُجذب الخيط".

كان أفراد طاقمه منهكين، لقد انتهى القتال، لقد فعلوا كل شيء وأجهدوا كل عضلة ووتر، ولكن العاصفة كانت مثابرة. إنه فخور بهم، لا يمكنه أن يطلب منهم المزيد. أراد أن يقول لهم هذا، ولكنه لم يستطع أن يرفع صوته فوق الرياح.

خرج كراوثلز إلى السطح العلوي ورفع رأسه ناحية السماء. لم يكن قادرًا على تمييز النهار من الليل، كانت الرياح تهب والأمطار تنهمر بغزارة وترتد من على سطح السفينة بقوة كبيرة.

قال مشتكيًا للارم: "لا يمكنني أن أرى شيئًا لعينًا". ضيق عينيه وهو ينظر عبر المطر الغزير ناحية الصورة الضبابية للسفن الأخرى في الأسطول. ثلاث منها فقط قد تمكنت من البقاء بالقرب منهم أثناء مناوراتهم، والآن يتمنى لو أنهم لم يتمكنوا من هذا.

صاح: "اذهب إلى الدفة ووجهنا بعيدًا عنهم. إن اقتربنا بعضنا من بعض في هذه العاصفة فستحطمنا الرياح جميعًا".

اندفع لارم كالثعلب، ولكن عندما حاول كراوثلز أن يلحق به مادت السفينة من تحته فاختل توازنه. ألقى بنفسه ناحية أقرب سور

وتمكن من أن يتشبث به بذراعيه، بينما يراقب بحارين يُقذفان في الهواء قبل أن يرتطما بالسقف.

من وسط السفينة دق جرس بشكل يائس، اندفع كراوڤلز بخطوات متعثرة، ليجذب فتى خدمة مذعورًا من الزاوية التي حشر نفسه فيها.

صرخ فيه رافعًا صوته فوق تحطم الأمواج: "فلتجعل أحدًا يكتم هذا الجرس". يعرف الجميع أن ترك الجرس يدق من تلقاء نفسه هو أمر يجلب سوء الحظ. كان من المفترض أن يكون هذا أول ما يفعلونه عندما رأوا تقلب البحر.

صرخ كراوڤلز من فوق عواء الرياح: "يا عريف الملاحين!".

جر يوهانس ڤيك قدميه على خصر السفينة متشبثًا بحبل وهو يقول: "أمرك أيها القبطان".

قرب كراوڤلز فمه من أذنه ثم قال وهو يمسح المطر الذي يصفع وجهه: "أي بحارة ليسوا في الخدمة يجب عليهم الالتزام بالبقاء في السطح السفلي".

أومأ ڤيك برأسه وهو يجذب أقرب بحارين من عنقيهما ويصرخ فيهما بالأمر، قبل أن يدفعهما ناحية الأبواب المؤدية للأسفل.

ملأت الأمواج المتلاطمة السطح بالمياه المزبدة، فجر كراوڤلز قدميه عائدًا إلى المقصورة الكبرى، حيث كان آرينت يصلح غطاء كوة قد انخلع من موضعه ليكشف عن المياه المضطربة التي تضغط على الزجاج بالخارج. كل الركاب الآخرين قد التزموا بالبقاء في مقصوراتهم طيلة الأسبوعين الماضيين، ولكن لم يكن هذا مجديًا مع هايز، إنه يذهب ويجيء كما يشاء، دون أن يلتفت إلى ما يُقال له.

يعرف كراوڤلز على وجه اليقين أنه يتردد على زنزانة سامي ومقصورة سارا ڤيسل بانتظام، رغم أنه ليس لديه الكثير ليقوله لأي منهما.

مالت السفينة بشكل حاد فتحطمت الأواني الفخارية.

قال كراوڤلز وهو يستند إلى الجدار: "أحتاج إليك في أمر يا هايز، أريد ذراعين قويتين على مضخة طرد الماء. إن الماء يتدفق بأسرع من قدرتنا على التخلص منه".

صاح: "سيكون عليَّ أن أُخرج سامي أولًا".

"لقد قال الحاكم العام...".

"إن بقي في هذه الزنزانة أثناء العاصفة فسيهلك، وأنت تعرف هذا".

حاول كراوڤلز أن يحدق إليه ليثنيه عن هذا، ولكن لم يكن هناك جدوى.

قال كراوڤلز مستسلمًا على مضض: "يمكنه أن ينتظر في السطح السفلي، ولكن أبقه بعيدًا عن ناظري الحاكم العام، وبعدها فلتعتنِ بالمضخة".

غادرا المقصورة الكبرى معًا، وما إن وصلا إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط حتى كادت السفينة أن تسقطهما أرضًا. استخدم كراوڤلز طاولة عمل لكي يقف على قدميه مرة أخرى، ثم رأى سارا تترنح وهي تعبر القنطرة التي تؤدي إلى الخارج، ولَيا من ورائها على مقربة منها.

رمش بعينيه ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة. لقد ارتدت سارا ثياب الفلاحين، بعد أن خلعت عنها ثيابها الفاخرة لتستبدل بها تنورة

بنية متواضعة ومئزرًا وقميصًا من الكتان وصدرية، وتغطي رأسها بقلنسوة قطنية، وكان هناك خنجر معلق على خاصرتها. بينما ترتدي ليا ثيابًا مماثلة.

كانت مبتلة تمامًا بالماء. بالنسبة لشخص متأنق مثل كراوڤلز لم يكن هناك أذى يمكن أن يلحقه المرء بنفسه مثل ارتداء ثياب الفلاحين.

صاح: "من الخطير أن تغادري مقصورتك يا سيدتي". كان عليه أن يصيح مرتين لكي تسمعه من فوق الأمواج التي تضرب السفينة.

قالت سارا وهي تستند إلى القنطرة: "الوضع خطير في كل مكان أيها القبطان، وأنا بمقدوري المساعدة، فأنا معالجة ماهرة والناس بحاجة إلى مهاراتي قبل نهاية اليوم. سأهبط إلى مشفى السفينة".

مشى آرينت بخطوات متعثرة ناحية سارا ثم قال وهو يعطيها مفتاح خزانته: "ستجدين بداخلها أدوات الخيمياء الخاصة بسامي، هناك مرهم برائحة البول مفيد من أجل الشفاء".

لمست ذراعه بحب ثم قالت وهي تقرب فمها من أذنه: "فلتضع بيبس في مقصورتي إن أردت".

حدق إلى عينيها الخضراوين وقال: "كيف عرفتِ أنني ذاهب إلى بيبس؟".

قالت: "لأنه في خطر، أي مكان آخر يمكنك أن تذهب إليه؟".

قال آرينت محذرًا دون أن يُبعد عينيه عن عينيها: "فلتبقِ خنجرك في يدك، هناك دومًا شخص مستعد لاستغلال الفوضى".

قالت: "سأكون بأمان، عليك أن تحرص على أن تكون بأمان كذلك".

توجهت سارا ناحية مهجع آرينت بينما المرتزق يهبط السلم، أما كراوڤلز فقد أسرع عائدًا إلى الخارج في الوقت المناسب لأن يرى جدارًا ضخمًا من المياه يرتفع أمامه قبل أن يهوي متحطمًا على سطح السفينة.

صرخ البحارة وقد اختفوا في المياه المتلاطمة.

كانت السماء عبارة عن رماد ونيران، بينما ألسنة لهب خضراء تندلع من أطراف الباحة والصواري. شقت ألسنة البرق السماء وضربت المحيط. معظم أفراد الطاقم ثبتوا أنفسهم إلى الصواري مستعدين للموجة التالية.

تشبث كراوڤلز بالسور وهو يجر نفسه صاعدًا السلم، ليحتل موقعه المعتاد على سطح الحظائر، فوجد الحاكم العام هان تمامًا حيث تركه. لقد ظهر بعد وقت قصير من الموجة الهائلة الأولى ليحتل موقعه في صمت، دون أن يقدم أي تعليق أو تفسير لوجوده.

كان الماء يسيل على وجهه ويتقاطر من على أنفه الطويل وذقنه. رمش بعينيه بحدة وهو يراقب سحب العاصفة السوداء والأرجوانية تدور فوق رؤوسهم وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة.

رأى كراوڤلز هذه النظرة من قبل، لقد نال منه البحر.

إن البحر المضطرب كامن وراء عينيه، ويتردد مع أنفاسه. كل رجل على متن السفينة يعرف هذه النظرة، عندما يملؤك الخواء البارد للمحيط. ما إن يصير البحر بداخلك فلن تنال راحتك.

يغرق الناس وهم واقفون على أقدامهم.

انقلبت إحدى السفن على جانبها وسقط أفراد طاقمها في الماء، راحوا يلوحون بأذرعهم ويصرخون من أجل النجدة، ولكن كراوڤلز لم يقدر على سماعهم فوق عواء العاصفة.

لم يفكر حتى في إنقاذهم، فأي قارب شراعي لن يصمد دقيقة في هذه الأمواج، هؤلاء الرجال في عداد الموتى، ولكن البحر سيلعب بهم أولًا.

نقر الحاكم العام على كتفه ثم أشار للأعلى. نظر كراوڤلز إلى حيث يشير بإصبعه فرأى سفينة أخرى تعلو موجة عملاقة تحملها مباشرة ناحية السفينة المنكوبة.

أشاح كراوڤلز ببصره غير قادر على أن ينظر، ولكن وجه الحاكم العام أخبره بالحكاية جيدًا بما يكفي. لقد ارتطمت السفينة الثانية بالسفينة المقلوبة واخترقت هيكلها مباشرة لكي تقسمها إلى قسمين.

تساءل كراوڤلز لِمَ قد يرغب في مشاهدة هذا؟ بدا الأمر وكأن العاصفة عدو لا يمكنه أن يولي ظهره إليه.

وفقًا لحساباته فإن الأسطول الذي غادر باتاڤيا لم يبقَ منه سوى ساردام وسفينة أخرى. تلفت كراوڤلز حوله باحثًا عن السفينة الأخرى في يأس وهو يأمل أن يراها بخير، ولكنها كانت تتعثر في الأفق. عرف من ألوان الراية أنها ليوواردن. لم يعتقد أن لديها فرصة في النجاة أكبر من ساردام.

في مواجهة أمواج بطول الصاري الرئيسي صرخ كراوڤلز بتوجيه ساردام ناحيتها مباشرة، فصعدت السفينة المنحدرات المائية الحادة قبل أن تهوي نحو الوديان شديدة الانحدار على الجانب الآخر.

تشبث البحارة بحبال الصواري والأسوار. لقد نجوا من كل هجوم وهم يبصقون المياه ويكافحون لئلا يسقطوا من على جانب السفينة، وقد اقتنعوا أكثر من ذي قبل أن توم العجوز هو من جلب عليهم هذه العاصفة.

لم يعطِ كراوڤلز أي أوامر أخرى، لقد فعل كل ما يمكن فعله، إن كانت ساردام قوية بما يكفي فستنجيهم، إن كان أحد ضلوعها قد انثنى أو أن الهيكل قد تعفن دون أن يلاحظوا هذا فستتشقق كالبيضة، إن كل العواصف متشابهة، فتعيش أو تموت بناء على مقدار الاهتمام الذي أولاه لها شخص غريب وهو يصنعها في أمستردام. عندما ضربت ألسنة البرق سطح السفينة صلى كراوڤلز للرب لكي ينجيهم من هذا. وعندما لم يتلقَّ إجابة راح يصلي لتوم العجوز.

قال لنفسه في مرارة: إذن فهكذا يسلم البشر أرواحهم للشيطان. في رمقهم الأخير وقد فقدوا كل أمل دون أن تستجاب صلواتهم.

٤٨

شق آرينت طريقه هابطًا إلى السطح السفلي وهو يتشبث بكل ما يستطيع التشبث به. كانت الأمواج قد خلعت أغطية الكوات فتدفق ماء البحر منها ليبلل هؤلاء الموجودين تحتها. البحارة المصابون بالدوار تشبثوا بالأعمدة وقد غطاهم الدم والقيء، بينما العالم ينقلب رأسًا على عقب.

انكمش الركاب بعضهم على بعض وهم يهدئون أطفالهم أو يصرخون في خوف. بعيدًا في إحدى الزوايا كانت إيزابيل مرعوبة وهي تلهث، وإلى جانبها جلست سارا على ركبتيها لتخفف عنها.

لقد منعتهم العاصفة من تنظيم بحث شامل عن ساندر، وعرف آرينت أن سارا قد صارت عزاءها الوحيد.

ومع ذلك كان مدهوشًا من مدى قربهما.

قالت سارا: "أنتِ تحملين كلمة الرب، وهؤلاء الناس يحتاجون إلى سماعها، فلتجلبي لهم الطمأنينة التي كان ساندر ليجلبها".

من الواضح أن إيزابيل أرادت هذا، ولكن السفينة تمايلت فصرخت وهي تضم ركبتيها إلى صدرها.

صاحت سارا: "الشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل هي الضوء الذي نجده عندما لا يكون حولنا سوى الخوف، إنهم يحتاجون إليك الآن، إذن فلتجدي شجاعتك".

راحت إيزابيل تمشي بخطوات مترددة متعثرة عبر سطح السفينة، قبل أن تنضم إلى مجموعة من الركاب، الذين مدوا أذرعهم لتطويقها.

عندما ذهبت سارا إلى المشفى على الجانب المقابل من سطح السفينة، مشى آرينت مترنحًا ليتجاوز الحاجز الخشبي بين قسمي السفينة، ليشق طريقه بين حصر البحارة إلى مقصورة صانع الأشرعة. كانت لفات الأشرعة قد سقطت من على الجدران لتكسو المقصورة باللون الأبيض. رفع الباب ونزل السلم إلى المخزن بالأسفل وطرق على باب زنزانة سامي.

لم تأتِه إجابة.

"سامي!".

حاول في ذعر أن ينتزع المزلاج من فتحته، ولكن يديه كانتا مبتلتين وتأرجح السفينة جعل التشبث به صعبًا.

صرخ: "سامي!". كان الصمت مرعبًا.

وأخيرًا تمكن من انتزاع المزلاج، فواجهه ظلام المقصورة الدامس.

حاول أن يحشر جسده إلى الداخل، ولكن الفتحة كانت صغيرة للغاية، فلم يتمكن إلا من إدخال رأسه وكتفيه. "سامي!".

لا شيء.

"سامي!".

حاول أن يلتقط أنفاسه وأن ينظم أفكاره، لقد غلبه رعب الخسارة، محاولًا أن يتخيل ما يمكن أن يفعله إن كان سامي ميتًا بالداخل. كانت

حماية صديقه هي الهدف الوحيد النافع في حياته. كان يشعر بالفخر لأن له دورًا فيما يحققه سامي من إنجازات. لأول مرة منذ أن غادر بيت جده يشعر آرينت بأنه يفعل الخير بدلًا من القتل من أجل النقود، أو أن يغزو أرضًا أجنبية ليموت ميتة قاسية نظير هدف خسيس.

لهذا أدرك أن الادعاء بأن سامي جاسوس ادعاء أجوف، يعرف سامي ثمن السلطة، ومن ثم يرتاب فيها، لقد شعر سامي بالحيرة من التهمة عندما عرضها عليه آرينت، رغم أنه لم يجد الأمر مضحكًا مثل صديقه. إن كونه إنجليزيًّا قد صنع بعض التعقيدات أثناء عمله لصالح الشركة، ولكنه لم يتوقع أن ينتهي به الأمر في زنزانة بسبب هذا.

قال سامي متألمًا وهو يمد يده ناحية الضوء: "آرينت".

أراد آرينت أن يصرخ في فرحة، ولكنه بدلًا من هذا أمسك بسامي وجذبه إلى الخارج، وقد لاحظ أن الدماء تتقاطر من جبهته.

"هل أنت بخير؟".

قال سامي مترنحًا: "أشعر بالدوار، ولكني ما زلت أتنفس. هل هذا من صنيع توم العجوز؟".

قال وهو يضع يدي سامي على السلم: "ظننت أنك لا تؤمن بالشياطين".

قال وقد بدا مرعوبًا: "لقد همس لي الليلة الماضية يا آرينت، وهو يعرف أشياء، أشياء سرية. لقد أراد مني أن...".

قال آرينت مخمنًا وهو يدفعه لكي يصعد السلم: "أن تقتل الحاكم العام؟ لقد عرض نفس الشيء على سارا وكريسي".

"لقد عرض عليَّ أن يحررني وأن يبرئ اسمي. ما الذي عرضه عليك؟".

"لم أسمع أي شيء، يبدو أنني الشخص الوحيد الذي لم يسمع شيئًا بحسب ما بلغني من حديث أفراد الطاقم".

من أعلاه على السلم تمكن سامي من رسم ابتسامة شاحبة وقال: "يبدو أن كون المرء مملًا في الحديث له بعض المميزات".

خرجا عبر الباب ثم سمعا صرخة معاناة. كان الحلاق-الجراح ينشر قدم النجار هنري المكسورة. بينما سارا وليا تعتنيان بالمرضى في المشفى. لم يكن هناك شيء يميز هذه المقصورة المحاطة بالستائر إلا طاولتين لإجراء العمليات، والمثاقيب والنصال غريبة الشكل المتدلية من أوتاد على الجدران.

صاح آرينت: "سارا".

عندما رأت سامي هرعت إليه، ثم قالت وهي تتفحص إصابته: "لا تقلق، إنها مجرد كدمة، فلتساعده على الاستلقاء هنا، سأعتني به".

قال سامي وهو يبذل مجهودًا لإبقاء نفسه منتصبًا: "لا حاجة لهذا، لدي بعض المهارات في هذا الصدد بنفسي، يمكنني أن أساعدك إن سمحتِ لي بهذا".

قالت ليا وهي تندفع ناحيته في حماس: "سيد بيبس، أنا من أشد معجبيـ...".

حدق سامي وراءها ناحية أدواته الموضوعة على الطاولة، ثم قال وقد تسلل الغضب إلى صوته: "هذه أدوات الخيمياء الخاصة بي".

قالت سارا: "وسنكون ممتنين إن ساعدتنا على استخدامها، لا يمكنني فهم العديد من هذه المركبات".

واصل سامي التحديق.

قالت سارا في ارتباك: "لم أقصد إهانتك، آرينت هو من اقترح أن الأدوات قد تساعدنا في إسعاف المصابين و...".

قاطعها سامي في خجل: "أجل، بالطبع، رجاءً اغفري لي. لقد أفنيت عمري في هذه المركبات، لقد ساعدتني في حل قضايا لا يمكنني أن أحصيها، وقد أبقيت أسرارها لنفسي. إن رغبتي الأنانية في أن أحتفظ بحيلي لنفسي قد غلبتني للحظة. تعالي، دعيني أريكِ ما سينفعك بشكل عملي".

تبادل آرينت نظرة متعجبة مع سارا، ثم هبط إلى مخزن البضائع حيث كان الماء بارتفاع أربعة أقدام ويتدفق عبر الممرات التي صنعتها الصناديق، بينما الفئران الغارقة تطفو على سطحه. كان النجارون يعملون بشكل محموم على وضع ألواح خشبية جديدة فوق التسريبات في الهيكل. بينما البحارة والفرسان يستخدمون المضخة لطرد الماء. رغم أنهم يبذلون قصارى جهدهم إلا أن هذا كان بلا نفع في مواجهة المياه التي ترتفع باستمرار. كان دريخت بينهم عاري الجذع.

مالت السفينة بعنف، فسقطت الصناديق من شباكها فوق البحارة الذين يعملون أسفلها.

ضاعت صرخات الألم بين ضجيج ارتطام الأمواج بهيكل السفينة.

اصطبغت المياه بالدماء.

صرخ آرينت وهو يخوض الماء ناحية المضخة: "دريخت!". نظر إليه قائد الحرس في ارتياح، فقال وهو يشير إلى الأجساد: "فلتعتنِ بهم، وأنا سأشغل المضخة".

عادة ما يتطلب الأمر ثلاثة رجال لتحريك الروافع الضخمة، ولكن آرينت أمرهم بالابتعاد وأن يعتنوا برفاقهم.

من مكان ما في الأفق تعالى صوت طلقات مدافع طلبًا للنجدة.

لا شك أن إحدى سفن الأسطول في ورطة أسوأ من ساردام. ولكن لا طائل من هذا، لا يمكن مساعدتهم، ليس في مثل هذه العاصفة، وكل شخص على متن تلك السفينة يعرف هذا.

راح يحرك المضخة بشكل أسرع محاولًا أن يشتت أفكاره بالعمل.

واصل العمل ساعة تلو الأخرى، وقد تمزق الجلد في راحتيه. حاول دريخت أن يقنعه بأن يستريح، ولكنه إن توقف فلن يكون قادرًا على البدء من جديد.

لم يغلبه الإرهاق إلا عند مطلع الفجر فهوى على ركبتيه.

لقد توقفت ساردام عن التمايل، ولم يعد الماء يندفع عبر شقوق هيكل السفينة. هوى النجارون بأجسادهم على الجدران، وأيديهم المتشبثة بالمطارق لم تعد قادرة على تركها.

لقد تخلصوا من معظم المياه، لذا صارت بارتفاع الكاحل فقط بدلًا من ارتفاع الخصر.

لمست يد كتفه، ثم ظهر أمام عينيه المتعبتين كوب من يخنة الشعير ورغيف من الخبز. رفع رأسه الثقيل فرأى سارا واقفة أمامه.

قالت: "نحن بأمان". ثم توقعت سؤاله فأضافت: "الجميع بأمان؛ سامي، وليا، وكريسي، ودوروثيا، وإيزابيل. لقد نجا أصدقاؤنا".

كانت هناك ندبة في جبهتها وشعرها الأحمر المُموّج قد خرج من دبابيسه وانسدل على وجهها وكتفيها. كانت قد شمَّرت عن كميها بينما تغطي الدماء ثيابها وساعديها.

أمسك بيدها، فقد كان متعبًا للغاية على أن يبالي إن كان هذا لائقًا أم لا، ثم سألها: "هل أي من هذه الدماء دماؤك؟".

قالت مبتسمة لاهتمامه: "القليل فقط".

"ما تنفكِ ترتقين في عينيَّ يا سارا ڤيسل".

ضحكت ثم لاحظت راحتيه اللتين تشققتا بفعل ساعات من تشغيل مضخة المياه فقالت: "يمكنني أن أعالج يديك إن أتيت إلى المشفى".

قال: "إنهما ليستا بهذا السوء الذي تبدوان عليه".

جلس قائد الحرس دريخت إلى جانب آرينت، ثم ضربه على كتفه قبل أن يقول مخاطبًا سارا في انبهار: "كان يجب عليك أن تريه، لقد شغَّل المضخة بمفرده طوال الليل دون أن يستريح، لم أرَ شيئًا كهذا من قبل، لقد بدا وكأن السماء قد أرسلته".

كان آرينت منشغلًا للغاية باستنشاق رائحة اليخنة اللاذعة على أن ينتبه إلى المجاملة.

سألته سارا: "ما هذا؟ إن الطاهي يوزعه على الجميع؟".

قال دريخت وهو يزر أنفه: "يخنة الشعير، أبشع شيء تضعينه في جسمك".

قال آرينت وهو يبتسم في سعادة: "هذا هو مذاق كونك على قيد الحياة".

إن يخنة الشعير هو الشيء الذي يمنحونه لك عندما تعود من المعركة مرتجفًا من البرد ومغطى بالطين والدماء وقد فقدت صديقًا أو اثنين. إنها ساخنة ومالحة ومبهجة، والأهم من هذا أنها رخيصة. إن المراجل تغلي في معسكر في أراضي الشركة، يبقيها الطهاة تغلي ليلًا ونهارًا، ويلقون بداخلها بقايا اللحم وأطراف اللفت وعظام الدجاج، أي شيء كريه وغير مرغوب. كل شيء في هذا المرجل سيتعفن على الأرجح، وسيوقظ تنينًا في أحشاء أي شخص شجاع بما يكفي لتجربته.

ابتسم ابتسامة عريضة، ثم ارتشف جرعة كبيرة قبل أن يمسح السائل الزيتي من على شفتيه.

سأل سارا: "هل ترغبين في تجربته؟".

أخذته بحذر شديد، وقربته من شفتيها. اجتاحها الاشمئزاز وبصقت السائل على الفور، ثم انتزعت جرة النبيذ من بين يديه لتمحو الطعم من فمها.

قالت بصوت مختنق: "هذا شنيع".

قال آرينت في سعادة: "أجل، ولكن هكذا فقط تعرفين أنك على قيد الحياة".

٤٩

هدأ البحر وانقسمت السماء إلى نصفين؛ نصف أسود وراءهم، ونصف أزرق أمامهم. لا تزال الأمطار تهطل، ولكنها أمطار رقيقة دافئة، ولم تعد مليئة بالأشواك. كانت حبال الأشرعة المقطوعة متدلية كالأغصان وتضرب الأشرعة الممزقة. امتلأت أسطح السفينة بالشقوق، ولكن لم يكن هناك أحد يبالي بإصلاحها، لقد هوى الجميع أرضًا في إرهاق، ووجوههم خالية من أي تعبيرات عدا الصدمة.

لم ينطق أحد بكلمة واحدة.

مال كراوڤلز من على جانب السفينة ليتفحص الضرر، قميصه الباهظ قد تمزق ليكشف عن شعر صدره الأسود من تحته. كان يرتجف وينزف من جرح في ذراعه ولا يكاد يقدر على الوقوف.

سأله الحاكم العام وهو يخطو ناحيته: "ما حجم الضرر؟". بطريقة ما قد تجاوز هذه المحنة دون أن يُصاب بأذى. ومن جديد صار الحاجب ڤوس يمشي في عقبي سيده.

قال كراوڤلز وهو يشير نحو الأشرعة عديمة الجدوى: "إن السفينة الآن أشبه بطوف. قدَّر صانع الأشرعة أنه سيحتاج إلى يومين لإصلاحها، والوقت ذاته تقريبًا لإصلاح الأسطح. إن هيكل السفينة يبدو سليمًا لحسن الحظ".

"ولكننا قد نجونا".

قال متألمًا وهو يلمس جرح ذراعه: "أجل، ولكن العاصفة دفعتنا بعيدًا عن خطوط الملاحة، ليس لديَّ فكرة أين نحن، ولا توجد سفينة واحدة أخرى. نحن وحدنا الآن".

قال الحاكم العام وهو يحدق إلى البحر الخاوي: "آخر ما رأيته هو أن ليوواردن لا تزال طافية، إن تمكنا من العثور عليها فقد تساعدنا".

قال كراوڤلز محتجًّا وقد أزعجه هذا الأمل الواهي: "بعض الرجال يقولون إنهم قد رأوها تنقلب، وحتى لو نجت فستكون متضررة مثلنا وضائعة مثلنا. ومع حظنا هذا فإننا لن نجدها".

نظر إليه الحاكم العام مفكرًا وقال: "أشعر أنك تريد أن تطلب مني خدمة".

"نحتاج إلى الغنيمة".

"هذا أكثر من مجرد خدمة أيها القبطان".

أجابه: "أنا أعرف قوتها، لقد جربتها من أجلك. من دونها سأعتمد على النجوم ولا شيء سواها. سينتهي بنا المطاف بالإبحار في حلقات مفرغة ونحن نبحث عن اليابسة لكي نتمكن من تحديد موضعنا. وأنا وأنت نعرف أننا لا نمتلك من المؤن ما يكفي لهذا التأخير، وخصوصًا بعد أن غاب عن أعيننا بقية الأسطول".

سالت قطرة دماء من أنف الحاكم العام، فأعطاه ڤوس على الفور منديلًا لكي يمسحها.

قال الحاكم العام: "سآخذك إلى هناك بنفسي".

توجه ثلاثتهم ناحية مخزن البارود، فقابلهم قائد الحرس دريخت وهو يصعد السلم.

سأله الحاكم العام: "كيف يجري الأمر يا قائد الحرس؟".

قال: "لقد فقدنا أربعة فرسان في العاصفة".

فكر الحاكم العام في هذا بينما يهبطون إلى السطح السفلي، ثم جعلهم حجم الضرر يتوقفون في موضعهم في صدمة. كان الماء يتقاطر من السقف في برك من الدماء والقيء، والمدافع قد انقلبت على جانبها، وتناثرت الأمتعة في أرجاء السطح، بما في ذلك قارب صغير يتدلى من وتد في السقف، كأن العاصفة قد اجتاحته أثناء هياجها ثم أبعدته عن طريق الأذى.

كان البحارة والركاب المنهكون يسعلون ويتقيؤون ماء البحر، ممددين على الأرضية وهم يحتضنون أذرعهم وسيقانهم المكسورة، بينما ينتظرون أن يعتني بهم الحلاق-الجراح أو سارا أو ليا أو سامي. كان آرينت يتحدث إلى أصدقائه.

عند هبوطهم لمح كراوفلز المرأتين والسجين يندفعان للاختباء وراء ستار المشفى، لا شك أنهم يخشون رد فعل الحاكم العام عندما يكتشف وجودهم هنا بالأسفل. لحسن الحظ كان اهتمامه منصبًّا على أحد فتيان الخدمة وهو يضع الملاءات على الموتى، بينما يبدو عليه التعب الشديد. تساءل كراوفلز إن كان قد تلقى أمرًا لفعل هذا أم إنه يفعله من تلقاء نفسه. في كلتا الحالتين سينال حصة إضافية من الجعة هذه الليلة.

كان هناك جثة في آخر السلم، فخطا قائد الحرس دريخت من فوقها، ثم راح يطرق في حيوية على باب مخزن البارود.

قال: "هل لا تزال على قيد الحياة بالداخل أيها الكونستبل؟".

انزاح اللوح الخشبي جانبًا ليكشف عن حاجبين أبيضين كثين، قبل أن يقول متذمرًا: "في الأجزاء التي ما زلت أشعر بها من جسمي، وهي ليست كثيرة. من أنت؟".

خطا الحاكم العام ليقف أمام دريخت وقال: "إنه معي، افتح الباب، نحن هنا لأخذ الغنيمة".

ومض الخوف في وجه الكونستبل، ولكنه أطاع الأمر، وببطء راح يزيح المزلاج قبل أن يخطو جانبًا.

قال دريخت: "لا أفهم كيف يمكن لصندوق ضخم لعين أن يساعدنا".

قال كراوڤلز مفسرًا: "ستسمح لنا الغنيمة بتحديد موقعنا في البحر، هذا الشيء سيخبرني بموضع باتاڤيا والاتجاه الذي يجب أن أسلكه للتوجه إلى هناك مباشرة".

قالت دريخت في خيبة أمل: "ظننت أنه سلاح".

قال ڤوس مفسرًا: "باستخدام الغنيمة يمكن لسفن الشركة أن تبحر إلى ما وراء خطوط الملاحة دون خوف، وأن نستكشف الأماكن التي لم يذهب إليها أحد من قبل في المحيط".

لم يبدُ أن هذا قد خفف من خيبة أمله، فأكمل ڤوس قائلًا: "أنت لم تستوعب الأمر بعد يا قائد الحرس. باستخدام الغنيمة يمكن لأساطيلنا أن تتغلب على أعدائها بسهولة، وستكون قادرة على أن ترسم خرائط دقيقة للمحيطات غير المطروقة، وتكتشف شعوبًا وأماكن لم يرها

أحد من قبل. باستخدام الغنيمة سيحكم السادة السبعة عشرة قبضتهم على العالم".

أشار الحاكم العام إلى الرجلين لكي يبدآ في حمل الصندوق قائلًا: "فلتمسك بهذا الطرف يا ڤوس، وأنت يا دريخت أمسك بالطرف الآخر، سنحتاج إلى حمله إلى سطح السفينة بالأعلى".

زمجر الرجلان وهما يحملان الصندوق، ولكنهما ما إن قطعا خطوة حتى صرخ الحاكم العام: "أنزلاه!".

نظرا إلى حيث ينظر في رعب. كانت علامة توم العجوز موسومة على ألواح الأرضية الخشبية حيث كانت الغنيمة موضوعة. على الفور رسم دريخت الصليب على صدره، بينما أطلق ڤوس سبة وهو يقفز إلى الوراء.

كان شيئًا شنيعًا، العين جاحظة والذيل يلتوي مبتعدًا عنها. وبدت تحت المصباح المتأرجح وكأنما تنبض بالحياة.

قال الحاكم العام آمرًا: "افتح الصندوق". ثم أخرجَ مفتاحًا حديديًّا كبيرًا من حول عنقه وألقى به إلى قائد الحرس. "افتحه الآن!".

كان القفل صدئًا بفعل الرطوبة، واحتاج إلى بضع محاولات قبل أن ينفتح ويسقط أرضًا بصوت ارتطام ثقيل.

قال وهو يدفع الصندوق الفارغ ليواجه الحاكم العام: "لا يوجد شيء بالداخل". لم يكن هناك سوى ثلاث قطاعات فارغة، حيث كانت أجزاء الغنيمة الثلاثة موضوعة فيها.

جذب الحاكم العام الكونستبل من ذقنه ورفع وجهه ليحدق إلى عينيه.

سأله: "أين الغنيمة؟".

قال الكونستبل منتحبًا: "لا أعرف".

قال بصوت أقرب إلى الصراخ: "هل كنت تظن أننا لن نلاحظ؟ ما الذي فعلته بها؟".

"لا أعرف يا سيدي، صدقًا لا أعرف. لم أعرف ما بداخل الصندوق يا سيدي، بالنسبة لي كان مجرد صندوق".

زمجر الحاكم العام ثم دفعه ليسقطه أرضًا قبل أن يقول: "أعتقد أن عشرين جلدة ستنشط ذاكرتك".

قال الكونستبل منتحبًا: "لا، أرجوك يا سيدي، الرحمة". رفع يده متوسلًا، ولكن دريخت كان يجذبه بالفعل إلى خارج مخزن البارود.

***

قضى آرينت وقتًا مرحًا بصحبة سامي وسارا وليا قبل أن يأتي عمه. كانت سارا تحكي لآرينت كل شيء قد عرفته عن توم العجوز، بما في ذلك اعتقاد ساندر كيرس أنه قد يكون آرينت. كان رد فعل سامي لا يصدق، حيث راح يسرد ببهجة سمات صديقه الأكثر إثارة للضجر، ومن ثم الأكثر شيطانية. هذا جعلهم جميعًا يضحكون.

ما إن خرج الحاكم العام من مخزن البارود حتى لاذوا جميعًا بالصمت، منكمشين على أنفسهم خشية أن يكشف أمرهم، ومن ورائه جاء دريخت ويده تحيط بذراع الكونستبل الوحيدة.

قال آرينت وهو يخطو خارجًا من المشفى: "ما الذي يحدث يا عماه؟".

أجابه الحاكم العام دون أن يتوقف: "هذا الرجل سرق الغنيمة".

صرخ الكونستبل بينما لا يزال دريخت يجره: "لست أنا من فعلها يا سيدي، بل الشيطان الذي يتحدث الجميع عنه، لقد رأيت العلامة بنفسي، الشيطان هو من فعلها". ثم نظر إلى آرينت بعينين متوسلتين وقال: "أرجوك ساعدني أيها الملازم هايز".

"أنا أعرف هذا الرجل يا عماه، إنه...".

نظر إليه الحاكم العام مشفقًا وقال: "لقد منحتك فرصة لإيقاف توم العجوز يا آرينت، قل لي إنك لست أهلًا للمهمة وكان يجب عليَّ أن أصدقك. هذا ليس خطأك، بل خطئي، ولكن لا تخف، سأضع حدًّا لهذا الأمر بطريقتي".

حاول آرينت أن يعترض، ولكن دريخت وضع يده بودية على صدره وهز رأسه محذرًا قبل أن يدفع الكونستبل صاعدًا السلم.

ما إن ابتعدوا عن ناظريه حتى جذب سامي وقال: "هيا بنا، هذا الرجل الذي يجرونه بريء، يجب عليك أن تعرف ما الذي حدث قبل أن يجلدوه".

قال سامي متذمرًا بينما آرينت يدفعه ناحية مخزن البارود: "لقد عثرت على هذا الشيء اللعين مرة من قبل بالفعل". ولكن رغم ما قاله إلا أن عينيه أفصحتا عن هذا الحماس المخيف الذي ينتابه عندما تُعرض عليه قضية جديدة. "كم لديَّ من وقت؟".

"الوقت الذي سيستغرقونه للعثور على سوط وسط كل هذه الفوضى".

دفعه آرينت إلى داخل مخزن البارود كأنما يدفع سجينًا إلى زنزانة، ثم عقد ذراعيه وانتظر عند الباب، بينما سارا وليا تختلسان النظر من ورائه.

قال سامي متذمرًا وهو يتشمم الهواء: "هذا المكان العطن تفوح منه رائحة الجعة والضراط والبول. هل لديكم أي معطر؟".

منحته سارا المعطر الذي كان يتدلى من خصرها، فقبله بامتنان قبل أن يعود إلى عمله.

تساءلت سارا وهي تنضم من جديد إلى آرينت وليا: "ما الذي يجب عليَّ فعله؟".

قال آرينت في حماس: "فلتراقبي فحسب". إن رؤية سامي وهو يحل مشكلة مستحيلة لهي واحدة من أعظم المتع في حياته، ولم يكن الأمر مختلفًا في هذه اللحظة.

استلقى سامي على بطنه وراح يتفحص ألواح الأرضية في المخزن ثم الصندوق، وهو يمرر يده على كل قطعة من الخشب. أحس بعدم الرضا فراح يقطع الحجرة متفحصًا كل برميل بارود على الأرفف بينما يهز كل واحد فيها على حدة، قبل أن يومئ برضا كأنما هناك فكرة قد ومضت في ذهنه.

قفز فوق الصندوق ونقر على العارضة التي تربط عصي التجديف في الدفة بالموجهات. قبل أن يتفحص السقف المغطى بالقصدير بتمعن.

تمتم بشيء لنفسه قبل أن يقفز من على الصندوق.

"من يحمل مفاتيح الحجرة والصندوق يا آرينت؟".

اعتصر آرينت ذاكرته بحثًا عن إجابة، لقد طرح السؤال بينما يحقق في التهديدات الموجهة إلى السفينة، ولكن الكثير قد حدث في الأسبوعين الماضيين، ولم ينم إلا القليل.

قال سامي وهو يفرقع بأصابعه في صبر نافد: "بسرعة يا آرينت، بسرعة. إن الوقت ينفد من الكونستبل العزيز".

قال آرينت: "عمي وڤوس وحدهما من يحملان مفتاح صندوق الغنيمة، والقبطان كراوڤلز وإيزاك لارم والكونستبل وحدهم يحملون مفاتيح الحجرة. لا يوجد شخص يحمل مفتاح الصندوق ومفتاح الحجرة معًا".

"أجل، ولكن الحصول على مفتاح هذه الحجرة سيكون أسهل من الحصول على مفتاح صندوق الغنيمة".

لأول مرة يلاحظ سامي الجمع المحتشد وراء ظهر آرينت ليراقب هذا الاستعراض، فقال: "أيها السيدات والسادة، يشرفني حقًّا اهتمامكم بعملي، ولكن يجب التعامل مع هذا الأمر بحذر شديد. من فضلك يا ليا أغلقي الباب".

تعالت تمتمات خيبة الأمل، ولكن غمرها على الفور صوت قرع طبول في الأسطح المكشوفة، كان الإيقاع بطيئًا ورتيبًا، كأنما صار فجأة من الممكن سماع نبضات قلب ساردام.

قال آرينت: "سيجلدون الكونستبل بعد وقت قصير، ما الذي عرفته؟".

قال سامي وهو يفرك يديه: "لديَّ فرضيتان، ولكن أيًّا منهما لا ترضيني".

لاحظ آرينت أن ليا نظرت في حماس إلى أمها، التي بادلتها الحماس رغمًا عنها. كان يعرف أنهما تستمتعان بقصصه، ويمكنه أن يتخيل بهجتهما لرؤية هذه القصص تنبض بالحياة.

أكمل سامي حديثه قائلًا: "الفرضية الأولى هي أن الغنيمة قد سُرقت في قلعة باتاڤيا، ولم يُجلب إلا الصندوق على متن ساردام. بعد أن استعدنا الغنيمة نُقلت إلى الخزانة في القلعة، هذه الخزانة تحوي أثمن ممتلكات العائلة، ولا يمكن أن يصل إليها سوى الحاكم العم وڤوس و...".

وسارا، هكذا فكر آرينت وهو يختلس النظر إليها. لقد أخبرته أنها كانت تحتفظ بدبابيسها المرصعة بالمجوهرات في الخزانة، وأنها قد ذهبت لجلبها صباح يوم رحيلهم. كان من السهل عليها أن تأخذ مفتاح زوجها مسبقًا وتستخدمه لإخراج قطع الغنيمة من صندوقها قبل أن تغلق الصندوق مرة أخرى.

ولكن هذه الفرضية لا تفسر ما فعلته بالقطع بعد أن سرقتها، فما زال عليها أن تحملها من الخزانة. هل هناك من ساعدها؟

قالت سارا كأنما أحست بأفكاره: "لقد كنت في الخزانة صباح اليوم الذي أبحرنا فيه، وكان الصندوق مفتوحًا على يد...". تلاشى الاسم على شفتيها. "على يد خبير لضمان أن الغنيمة لم تتضرر. لقد جُلبت على متن السفينة بالتأكيد".

قال سامي دون أن يشعر بأن آرينت قد غرق في أفكاره الخاصة: "فرضيتي الثانية بها نفس القصور، رغم أنها بارعة بالنظر إلى الوقت القصير الذي احتجته للتفكير فيها. الغرفة نفسها مصمتة بلا أي أبواب سرية من أي نوع، لذا ما رأيكم في هذه الفكرة؟ لقد سرق ڤوس مفتاح القبطان أو مفتاح إيزاك لارم ثم استخدمه لدخول مخزن البارود".

قالت سارا في دهشة: "ڤوس؟ لماذا هو من بين كل الأشخاص؟ لا أعتقد أن لديه هذه المخيلة، كما أنه يعرف الضرر الذي سيُحدثه هذا لزوجي، فارتقاؤه للسادة السبعة عشرة يعتمد على إيصال الغنيمة".

"عندما كنت أعمل على استعادة الآلة في باتاڤيا لاحظت أن الحاكم العام وڤوس لا يُبعدا مفتاحي الصندوق عن ناظريهما، بل يحتفظ كل منهما بمفتاحه معقودًا حول رقبته. ولاحظت أن الحاكم العام لا يزال يفعل هذا عندما مغادرته للتو. ولكن لا يبدو أن مفتاح مخزن البارود يُعامل بنفس القدر من الاهتمام. عندما صعدنا على متن السفينة لم يكن إيزاك لارم يحمله بالتأكيد، فقد كان عاري الصدر وسرواله لا يحتوي على جيوب".

ألقى سامي بجسده على كرسي الكونستبل ثم قال: "إن افترضنا -كما يجب علينا أن نفترض بالنظر إلى الوقت المتاح لدينا- أن مفتاح مخزن البارود هو الذي سُرق، فلا يكون لدينا مشتبه سوى الحاكم العام وڤوس، ولكن ليس لدى الحاكم العام شيء ليجنيه من هذا. إن الغنيمة بحوزته بالفعل، وستفيد الشركة التي يبحر لكي يتولى قيادتها".

سأله آرينت: "ولكن ما دافع ڤوس لارتكاب هذه الجريمة؟ إنه مخلص ككلب صيد".

تسارع إيقاع الطبول من فوقهم.

قال سامي: "الغنيمة لا تُقدر بثمن، لقد سمعت ڤوس يتحدث عن الأمر، أي أمة تمتلكها يمكنها أن تعيد تشكيل العالم، يمكنهم استكشاف المياه التي لم يستكشفها أحد من قبل، ورسم مسارات تجارية جديدة، ومهاجمة أعدائهم من ضباب خريطة فارغة. أي ملك سينفق كل خزائنه ليحوز مثل هذه القوة".

قالت سارا لتدعم فرضيته: "عندما عرض ڤوس الزواج على كريسي أخبرها أنه سيحوز ثروة كبيرة. إن كان قد سرق الغنيمة فهذا سيفسر ما اعتراه فجأة من شجاعة لكي يطلب منها الزواج بعد كل هذه السنين الطويلة".

قال آرينت: "وقد دمر عمي شركته، ينكر ڤوس أنه يشعر بأي شيء حيال الأمر، ولكن ربما كان يحمل ضغينة طيلة السنوات السابقة".

قال سامي: "إذن فلنتهم ڤوس بالسرقة في الوقت الحالي، وسيكون سؤالنا هو كيف أخرج الغنيمة من حجرة مغلقة خاضعة للحراسة دون أن يراه الركاب على الجانب الآخر؟".

"لقد قال لي الكونستبل أنه يذهب للتبول والتمشية في نفس الوقت كل ليلة، إن كان هناك من يراقبه فسيلاحظ هذا النمط بسهولة".

قفز سامي من على الكرسي وفتح الباب المؤدي إلى الحشد على الجانب الآخر وقال: "هل رأى أي منكم رجلًا وحيدًا يجذب شيئًا ضخمًا من هنا عند...". ثم نظر إلى آرينت وقال: "في أي وقت يذهب للتبول؟".

أجابه آرينت: "عند الجرسين".

قال لهم سامي: "عند الجرسين! وربما حدث هذا في أي وقت منذ أن أبحرنا".

تبادلوا النظرات، ولكن لم يبدُ على أي منهم أنه يعرف شيئًا، فأغلق سامي الباب في وجههم مرة أخرى.

"إذن فقد عرفنا الوقت الذي فعل فيه ڤوس هذا، ولكننا لا نعرف كيف. هل يتعامل ڤوس بودية مع أي شخص على متن السفينة؟".

قالت سارا: "ليس شخصًا أعرفه".

قطع سامي الحجرة جيئة وذهابًا وهو يفكر ثم قال: "ثلاثة من براميل البارود كانت فارغة عندما هززتها".

قال آرينت: "أخبرني الكونستبل أن هذه البراميل قد أُفرغت لأن البحارة قد عمَّروا مدافعهم بدون أوامر".

"ثلاثة براميل، والغنيمة مكونة من ثلاث قطع منفصلة". توجه ناحية الأرفف وحاول أن يُنزل أحد البراميل الفارغة، ولكنه فشل في هذا، فأشار لآرينت أن يفعل هذا بدلًا منه. ثم انتزع الغطاء وتفحص البرميل من الداخل.

قال سامي: "هنا". قبل أن يتوجه لبرميل آخر ويقول: "وهنا أيضًا. هل يمكنكم أن تروا العلامات التي تركتها أسنان التروس في الخشب عند دفعها بقوة إلى الداخل؟".

نصب قامته وقد أحس بالرضا عن عمله ثم قال: "سرق ڤوس مفتاح مخزن البارود ثم استخدمه لكي يدخل بينما يقضي الكونستبل حاجته، وباستخدام مفتاحه سرق قطع الغنيمة الثلاثة من الصندوق

قبل أن يخفيها في البراميل الثلاثة، مما يعني أنه قد أفرغ البارود مسبقًا". غرقت عيناه في التفكير ثم فرقع بإصبعيه في بهجة وقال بإعجاب: "يا له من رجل حاذق".

"سامي؟".

قال سامي وهو ينظر إليه: "الأمر بالتوجه إلى مراكز القتال! إن أي سفينة هندية في رحلة قدرها ثمانية أشهر ستأمر بالتوجه إلى مراكز القتال بضع مرات على الأقل، وڤوس يعرف هذا، لذا خطط للأمر على هذا الأساس. لا يهم متى سيستولي على الغنيمة، ما دام سيستولي عليها قبل وصولنا إلى أمستردام. لذا أخفى القطع في البراميل وانتظر. ومع أول أمر بالتوجه إلى مراكز القتال تنكر في هيئة بحار، ثم ذهب بصحبة اثنين من المتواطئين معه إلى مخزن البارود. في حالة الارتباك لن يلاحظه أحد وهو يرتدي قبعة".

تساءلت سارا: "لمَ يحتاج إلى اثنين من المتواطئين؟ لمَ لا يأخذ الثلاثة بنفسه؟".

"لا يمكنه أن يغامر بأن يأخذ أحد أيًّا من البراميل الثلاثة قبل أن يصل إليه".

أسرع آرينت ناحية الباب فسأله سامي: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"لكي أخبر عمي".

أسرع سامي وراءه وهو يقول: "لن يصغي إليك، توقف يا آرينت! لن يصغي عمك إليك، إن ڤوس هو أكثر خادم يثق فيه، ولن يصدق أنه قد يفعل هذا أكثر من تصديقه أن ساردام ستنبت جناحين وتطير، نحتاج إلى دليل".

قال آرينت مزمجرًا وهو يصعد السلم: "إنهم على وشك أن يجلدوا رجلًا بريئًا، رجلًا صالحًا".

قال سامي في أسى: "لن يكون الأخير. كما أن فرضيتنا لا تبرئ صديقك، بل ربما تورطه أكثر في المؤامرة، سيكون مخطط ڤوس أفضل إن كان قد دفع للكونستبل لكي يضع البراميل التي يحتاج إليها جانبًا. إن حاولت أن تخبر الحاكم العام بشكوكك فهذا سينبه ڤوس. إن بقيت صامتًا واكتفيت بالمراقبة فسيفعل شيئًا أحمق، سيمنحك ما تريد".

سألته سارا: "كيف تعرف هذا؟".

قال سامي: "لأن القتلة لا يمكنهم منع أنفسهم من القتل، والمبتزين لا يمكنهم منع أنفسهم من الابتزاز، واللصوص لا يمكنهم منع أنفسهم من السرقة. إنها حاجة ملحة، حاجة ملحة تقتلهم جميعًا".

تهدل كتفا آرينت.

إن سامي محق كالعادة.

إن الإحساس بالذنب أشبه بالغبار، يتسلل تحت جلدك ولا يمكنك أن تنظف نفسك منه، إنه يجعل الناس يشكون في كل شيء، يجدون خللًا حيث لا يوجد خلل، ويتخيلون أخطاءً لم تُرتكب. سرعان ما يلتهمهم القلق ويتغذى على شكوكهم، وقبل أن يمضي وقت طويل يجثو المرء على يديه وركبتيه في مسرح الجريمة بحثًا عن أدلة لم يتركها أحد.

لقد قبض سامي على الكثير من المجرمين بسبب هذه الحاجة الملحة.

سأله آرينت: "إذن ما الذي يجب علينا فعله الآن بحق الجحيم؟".

قال سامي: "الشيء الذي لا تجيد فعله على الإطلاق، ألا تفعل شيئًا. فلتبقِ عينك على ڤوس، إن كان معه متواطئون كما نشك فمن المؤكد أن معرفتهم باختفاء الغنيمة ستدفعه للإسراع إليهم أو تدفعهم للإسراع إليه، ما إن يحدث هذا سيكون لدينا كل شيء نحتاج إليه".

أضافت سارا: "بما في ذلك توم العجوز". عندما نظروا إليها في فضول أضافت: "قال ساندر كيرس إنه سيكون هناك ثلاث معجزات شيطانية، وسنعرف كل واحدة بعلامة توم العجوز. عندما ذبح المصباح الثامن الماشية ترك علامة توم العجوز على الماشية، وها هي العلامة هنا مرة أخرى، إن كان ڤوس من فعلها فربما نكون عرفنا الراكب الذي استحوذ عليه الشيطان".

قال آرينت معترضًا: "أو قد سمع إحدى الهمسات في الظلام، ربما يكون هذا هو الثمن المطلوب منه من أجل...".

سكن قرع الطبول من فوقهم.



٥٠

أخذ آرينت زجاجة نبيذ من صندوقه، ثم مشى عبر الجناح الواقع تحت السطح الأوسط وهو يحمي عينيه بيده من وهج الشمس.

لا تزال ليا وسارا تعتنيان بالمصابين في السطح السفلي، وقد عاد سامي إلى زنزانته خشية أن يلاحظوه الآن وقد انتهى الاضطراب. أراد آرينت أن يصطحبه إلى هناك، ولكنه لم يستطع أن يترك الكونستبل يعاني وحيدًا، لسبب ما يشعر أنه مسؤول عما يحدث لهذا الرجل العجوز.

كان أفراد الطاقم محتشدين عند خصر السفينة وهم ينتظرون في صمت. كانوا عراة الجذوع ولا يرتدون إلا السراويل القصيرة، فكان من الصعب التمييز بين بحار وآخر. إن بعضهم طويل وبعضهم قصير، ولكن الحياة في البحر قد شكَّلتهم جميعًا في نفس الشكل الذي يعاني من سوء التغذية، أكتاف قوية وسيقان مقوسة، فلا يصلحون لأي مهنة أخرى.

كانوا قد مزقوا قميص الكونستبل ليكشفوا عن ظهره، بينما دريخت ينتظر بالقرب منه وهو يمسك بالسوط ملفوفًا في يده، من الواضح أن الحاكم العام قرر أن يعهد بالمهمة إلى شخص يثق به.

صرخ الكونستبل: "أرجوكم أيها السادة، أقسم ببناتي الخمسة، أنا لم أفعلها، أنا لم...".

نهرته أصوات لكي يصمت، خشية أن لسانه الثرثار سيُضيف إلى عقوبته عشر جلدات أخرى.

شق آرينت طريقه ناحيته، بينما همسات التهديد تتعالى من الحشد.

أراد أن يقول لهم: هذا ليس بيدي، أنا أعترض على هذا. لكنه يعرف أن هذا لن يصنع فارقًا، ففي رأي أفراد الطاقم لا يوجد سوى "هم" و"نحن"، الركاب والطاقم، الأثرياء والفقراء، المسؤولين وعامة البحارة.

لا يهم ما يلبس أو كيف يتحدث، فآرينت واحد من "هم".

الفارق الوحيد هو أن الآخرين كانوا مجتمعين على السطح العلوي يراقبون الاستعراض بالأسفل، كأنهم في مقصوراتهم بأحد المسارح اللعينة.

كان عمه واقفًا إلى جانب ڤوس، الذي يراقب ما يحدث دون مشاعر. فكَّر آرينت أنه سيكون من الأفضل لو بدا عليه بعض الشر، بعض البهجة أو الكراهية أو أي شيء. ولكنه لم يجد شيئًا من هذا، كان الوجه جامدًا، وهاتان العينان الخضراوان خاليتان من أي مشاعر.

كان القبطان كراوڤلز وبقية المسؤولين واقفين من ورائهم، ووقفتهم تشي بوضوح أنه ليس لهم علاقة بأي من هذا.

وحده ڤان شوتن كان غائبًا، من الواضح أن كبير التجار قد اختار أن يختلي بنفسه في مقصورته مع زجاجة من النبيذ حتى ينتهي الأمر.

خرج إيزاك لارم من بين الحشد وهمس للكونستبل: "كن شجاعًا. سأحرص على أن تنال ضعف حصتك من الطعام عندما ينتهي هذا الأمر".

وقعت عينا الكونستبل على آرينت وهو يقترب فامتلأتا بذعر جامح.

قال الكونستبل متوسلًا والدموع تسيل على وجنتيه المتغضنتين: "هايز! أرجوك يا سيدي، لا تجعلهم يفعلوا هذا بي، ليس لدي القوة الكافية لتحمل الأمر".

قال آرينت برفق: "لا يوجد شيء يمكنني فعله". ثم أدار له ظهره ورفع قميصه لكي يتمكن الكونستبل من رؤية الندوب على ظهره. "هذه آثار خمسين جلدة، ولقد صرخت من الجلدة الأولى حتى الأخيرة، ويجب أن تفعل المثل، اصرخ بأعلى ما تستطيع، وإلا فلن يجد الألم مكانًا ليذهب إليه".

انتزع سدادة النبيذ ثم وضع الجرة على شفتي الكونستبل، ولم يبعدها إلا عندما سعل الرجل لكي يتنفس. قال آرينت: "سيأتي يوم نقتص فيه من أوغاد مثل الحاكم العام وڤوس، ولكنه ليس اليوم، اليوم سيكون عليك أن تتحمل، هل تفهمني؟ يجب عليك أن تتحلى بالقوة لكي تعود إلى بيتك وبناتك الخمسة".

أومأ الكونستبل برأسه، وبدا أنه قد استمد الشجاعة من هذه الفكرة.

لأن الكونستبل له ذراع واحدة لم يكن البحارة قادرين على عقد يديه وراء الصاري، لذا استخدموا خصره بدلًا من ذلك، فتدلت بطنه

على الحبال، وكلما مر أحدهم من جواره همس معتذرًا للرجل العجوز الذي لا حول له ولا قوة.

وضع آرينت جرة النبيذ على سطح السفينة، حيث يُمكن لعيني الكونستبل أن تراها وقال: "ما تبقى من النبيذ من أجلك عندما ينتهي الأمر".

خطا آرينت مبتعدًا وهو يراقب دريخت يحشو فم الكونستبل بقطعة قماشية قذرة، ولكن لم يبدُ على ملامحه ما يشعر به تجاه الأمر، إنه مجرد جندي يؤدي واجبه.

راحت الأشرعة تخفق بقوة في مهب الرياح والأمواج تضرب هيكل السفينة، بينما الجميع يحدقون إلى الحاكم العام، في انتظار أن يصدر هذا المخلوق النحيل القاسي أمره.

بمجرد تكميم فم الكونستبل قال: "لقد ارتُكبت جريمة شنيعة، وسُرق شيء ثمين". منحهم وقتًا لاستيعاب هذا الاتهام ثم قال: "أؤمن أن الكونستبل هو الجاني، ولكني لا أعتقد أنه تصرف بمفرده، لذا حتى يعود الشيء المسروق سأجلد فردًا عشوائيًّا من أفراد الطاقم في صباح كل يوم".

صرخ البحارة في احتجاج.

قال آرينت لنفسه إن الحاكم العام قد أضرم النار في ساردام للتو.

قال الحاكم العام آمرًا: "عشرين جلدة عندما تكون مستعدًّا يا قائد الحرس". ثم أومأ إلى قارع الطبول لكي يبدأ من جديد.

بسط دريخت السوط وأرجع ذراعه إلى الوراء.

ضبط توقيت ضربته مع إيقاع الطبول، رغم كونه شيئًا يسيرًا إلا أنه فعل رحيم، فمعرفة متى سيأتي الألم من شأنها أن تساعد الكونستبل على الاستعداد له.

فرقع السوط ومزق لحم الكونستبل، فتعالت صرخة عذاب وتأوهات اشمئزاز مع تناثر الدماء على وجوه أقرب البحارة.

قال الحاكم العام: "هل يرغب أحد في الاعتراف بارتكابه الجريمة أو بما يعرفه عنها؟". كأنما ليجعل عرض الموت البطيء المؤلم يبدو كرمًا منه.

لم تأتِ إجابة، فرفع دريخت السوط مرة أخرى.

لقد صدر الأمر عشرين مرة بعشرين جلدة، رغم أن الكونستبل قد انهار فاقدًا الوعي بعد الجلدة الثانية عشرة.

كانت هذه رحمة من السماء.

عندما انتهى الأمر ألقى دريخت السوط أرضًا.

هبت الرياح الباردة لينتصب الشعر على جلد الكونستبل الذي صار زلقًا ومتعرقًا.

استل آرينت خنجره ومزق الحبال التي تربط العجوز إلى الصاري، ثم أمسك بجسده المرتخي قبل أن يسقط أرضًا. ثم حمله برفق عبر الحشد ناحية مشفى السفينة.

توقف قرع الطبول وتفرق أفراد الطاقم عائدين إلى مهامهم وهم يحملون كراهيتهم معهم.

كان قوس يراقبهم من السطح العلوي شابكًا يديه وراء ظهره، ووجهه قناع جامد تموج الأفكار من ورائه على نحو مظلم.

٥١

كانت ليا منكبة على طاولة الكتابة وهي تدندن بسعادة، بينما تنسخ تعليمات الصانع من ورقة لأخرى. كانت الورقة الأصلية عند يدها اليسرى، ومغطاة برسومات غريبة من تروس ومسارات وشموس وأقمار ونجوم، والتعليمات مكتوبة باللاتينية. معظم الناس سيعتقدون أن هذه الرموز شيطانية أكثر من تلك الموجودة في موسوعة الشياطين.

لم تسمح ليا لهذه الأفكار بأن تشتت انتباهها وصبت تركيزها على ما هو أمامها، فقد كانت وثيقة دقيقة ومثالية في كل التفاصيل، لقد استغرق منها الأمر ثلاثة أسابيع لكتابة النسخة الأصلية في باتاقيا، وقد ذكَّرها كل حرف ملطخ وكل قطرة عرق وكل بقعة حبر بتلك الفترة الشنيعة. وكان والدها قد حبسها في حجرة مغلقة رغم الحرارة الشديدة رافضًا أن يسمح لها بالخروج حتى ينتهي العمل.

لم يكن مسموحًا لها بأي صحبة خشية أن هذا سيشتتها وسيجعلها ترتكب خطأً. ولكن أمها كانت تأتي لها على أي حال لتغني برقة وتحتضنها عندما يغلبها التعب، وتختبئ تحت الفراش عندما يأتي أبوها.

حتى في هذه اللحظة فإن التفكير في أمها، وهي تخرج من تحت الفراش مغطاة بالتراب، قد ملأها بحب غامر كاد ألا يتبقى له مكان بداخلها.

تعالى صوت طرقات ملحة على الباب.

على الفور راحت ليا تغطي كل شيء، ولكن صوت كريسي هدأ من روعها وهي تقول: "هذه أنا يا عزيزتي". ثم فتحت الباب قليلًا وانسلت إلى الداخل بسرعة.

رأت ليا من ورائها ماركوس وأوسبرت يلعبان بالدميتين الراقصتين اللتين صنعتهما من أجلهما في باتاڤيا. كانا يلاحقان الدميتين عبر الممر جيئة وذهابًا تحت ملاحظة دوروثيا. يظن الولدان أنهما دميتان سحريتان، أما ليا فترى أنهما عمل بارع من النحت. أحيانًا تتمنى لو أنها صغيرة بما يكفي لأن تشاركهما. لقد حاولت أمها أن تشغل وقتها، ولكن القلعة مكان موحش لكي تترعرع فيه طفلة صغيرة.

ومع ذلك قد منحها هذا المزيد من الوقت للابتكار.

اقتربت كريسي من طاولة الكتابة والتقطت نموذج ساردام المصغر الذي كاد أن ينتهي وراحت تقلبه بين يديها. كان مثاليًّا في كل التفاصيل، حتى ترتيب حبال الأشرعة.

سألتها في تعجب: "هل هذا ما طلبت منك سارا صنعه؟".

قالت ليا: "أجل". ثم مدت يدها لتفك مشبكًا خفيًّا يسمح للسفينة أن تنقسم إلى قسمين، وبداخلها ميزت كريسي جميع الأسطح.

فتحت ليا بابًا صغيرًا وقالت: "لقد حسبت المساحات الفارغة في الهيكل، حيث يمكن بناء خزائن التهريب وتخزين البضائع دون أن يؤثر هذا على توازن السفينة".

قالت كريسي: "هناك العشرات منها".

وافقتها ليا قائلة: "أجل".

أنزلت كريسي السفينة الخشبية ثم حدقت إلى المخطوطات المتناثرة على الطاولة، قبل أن تمرر يدها في حنان على شعر ليا الأسود الطويل وهي تقول: "أنتِ أعجوبة في عينيَّ، يمكنك أن تصنعي مثل هذه المعجزات".

احمر وجه ليا خجلًا وقد أبهجها هذا الإطراء.

هندمت كريسي فستانها ثم جلست على طرف الفراش وقالت: "أريد أن...". أعادت التفكير في الأمر مليًّا ثم قالت: "سأرى أباكِ الليلة، هل يجب عليَّ أن أجلب المزيد من المخطوطات؟".

قالت ليا وهي تتصفح الوثائق: "أجل من فضلك، أحتاج إلى ساعة أخرى أو أكثر للعمل على هذه المخطوطات، وبعدها سأكون قد انتهيت".

سعلت كريسي في حرج ثم قالت: "لم أسألك عن هذا من قبل... أعني، هل تشعرين بالارتياح تجاه ما نفعله؟".

سألتها ليا: "الارتياح؟". وقد أمالت رأسها جانبًا كما تفعل أمها عندما لا تفهم سؤالًا قد وُجِّه إليها.

سألتها كريسي بصراحة: "هل هذا ما تريدينه؟ إن والدتك عنيدة للغاية، ولكنني ظننت أنك ربما قد يكون لديك أفكار أخرى".

قالت ليا وهي تحاول فهم ما ترمي إليه كريسي: "تقول أمي إننا إن عدنا إلى أمستردام فسيزوجني أبي حقًّا إلى شخص لا أريده".

قالت كريسي وهي تميل للأمام: "هذا ما تقوله أمك، ولكن ما رأيك أنت؟ هل تعتقدين أنه من السيئ أن تتزوجي شخصًا قد اختاره أحد بالنيابة عنك؟".

قالت ليا بحذر وهي تشعر أن هذه المحادثة كالمتاهة: "لا أعرف. لقد تزوجتِ بهذه الطريقة من قبل، أليس كذلك؟".

"زوجي الأول، أما الثاني فقد اخترته، وربما الثالث إن تخليت عن عرض الكونت أستور لصالح ڤوس".

"إنه دوق يا عمتي كريسي".

"يقول ڤوس إنه كونت".

"أنا واثقة من أنه قال إنه دوق. عادة يمكن الثقة فيما قاله".

واصلت كريسي حديثها وهي تشيح بيدها بلا اكتراث: "حسنًا إذن، وحينها سأرفض عرض دوق".

"ولكني ظننت أنك تكرهين ڤوس".

اعترفت قائلة: "أجل، جزء مني يكرهه". ولكن نبرتها تشي بأن هذا الجزء منها غير ذي أهمية. "لطالما رأيت أنه رجل ضئيل، ولكن عرضه مغرٍ للغاية، ويُظهر طموحًا لم أعتقد أنه يتمتع به، وهو الشيء الذي لم أكن أحبه فيه".

قالت ليا في حيرة: "ولكنك لا تحبينه".

قالت كريسي وهي تنظر إليها في حنان: "أنتِ ابنة أمك حقًّا، يمكن التظاهر بالحب يا عزيزتي، يمكنك حتى أن تقنعي نفسك به إن حاولتِ بجدية، ولكن من المستحيل إنفاق ثروة خيالية. الزواج قائم على المنفعة المتبادلة، إنه القيد الذي نقبله نظير إحساسنا بالأمان".

"تقول أمي إنها تفضل أن تكون حرة على أن تكون ثرية في قفص".

قالت كريسي ساخرة: "وهو الجدال الذي طالما استمتعت به. على عكس والدتك لا أؤمن أن المرأة يمكن أن تكون حرة، ليس والرجال أقوى منا. ما نفع الحرية إن كانت الواحدة منا ستتعرض للاعتداء في أول زقاق مظلم تمشي فيه؟ لا يمكننا أن نقاتل، لذا نغني ونرقص، وهكذا ننجو. كورنليوس ڤوس يهيم بي حبًّا، وإن صار ثريًّا فسيكون هذا زواجًا رائعًا. سيتلقى ابناي التعليم والحماية، وسينتظران مستقبلًا يليق بهما. إن تخليت عن تلك الحماية من أجل حرية تخيلية فما الذي سيحدث لهما؟ أين سيعيشان؟ وماذا سيأكلان؟ وماذا سيكون مستقبلهما؟ وماذا عني؟ سأكون تحت رحمة أي رجل شهواني لديه القوة الكافية لأن يضع يديه عليَّ. لا، لا، لا، الزواج هو الثمن الذي أدفعه من أجل أن أحظى بامتيازات النبلاء، وهو شيء يستحق الثمن الذي سأدفعه. الفقر هو أخطر شيء بالنسبة للمرأة، نحن لا نصلح لحياة الشوارع".

"ولكن هل تحبين كونك متزوجة؟".

قالت كريسي معترفة والضوء ينعكس على شعرها الأشقر: "ليس دومًا".

نظرت ليا إلى شعرها في حسد، فقد كان أشبه بالذهب المغزول.

قالت كريسي بدون مشاعر: "كان زوجي الأول حقيرًا، ولكن زوجي الثاني بيتر كان حب حياتي". صار صوتها مفعمًا بالحيوية كشجرة امتلأت فجأة بتغريد العصافير: "كان لطيفًا ولبقًا وقادرًا على الرقص والغناء وأن يجعلني أضحك".

قالت ليا وقد جعلها الأسى في صوت كريسي تشعر فجأة بالحزن: "أنتِ لا تتحدثين عنه كثيرًا".

قالت: "الحديث عنه مؤلم، في كل صباح أمد يدي متوقعة أن أجده في فراشي، أسمع صوت الباب بالأسفل فأعتقد أنه عاد من إحدى رحلاته، أنا أفتقده كثيرًا".

"هل تعتقدين أنه كان ليقدر على إيقاف توم العجوز؟".

"لم يكن يعتقد هذا عندما أجبرنا على الهرب من أمستردام، ولكنه قد ارتكب الكثير من الأخطاء". كان هناك مرارة في صوتها. "ورغم إعجابي به يؤسفني أن أعترف بأنه لم يكن ببراعة أملك، ومع ذلك فإن إيجاد شيطان من بين هؤلاء الرجال ليس مهمة سهلة، إن على متن ساردام ما يكفي من الشر لإسقاط السماء على رؤوسنا".

انفتح الباب بقوة ثم اندفعت سارا إلى الداخل وهي تلهث.

قالت مخاطبة كريسي: "أوه، مرحبًا". ثم انتزعت نموذج السفينة من على الطاولة وقالت: "لا تقلقا، لقد راودتني فكرة فحسب".

جاء صوت من على الطرف الآخر للممر وهو يصيح: "سارا! ما الذي تريدين مني أن...".

قبَّلت سارا ليا على جبهتها وقالت: "شكرًا لكِ على هذا يا عزيزتي، إنه جميل".

ثم خرجت وهي تصفق الباب وراءها.

ابتسمت ليا وهي تنظر إلى الموضع الذي كانت فيه أمها، ثم قالت: "لم أرَ أمي بهذه السعادة من قبل".

وافقتها كريسي قائلة: "هذا لطيف، أليس كذلك؟". بدا عليها السعادة لتغيير الموضوع. "ولكنه شيء مؤسف. إن أمك رائعة، ولكنها لا تناسب أباكِ".

"لماذا؟".

فكرت كريسي في الأمر للحظة ثم قالت أخيرًا: "لأنه لا يحتاج إلى شريك، بل يحتاج إلى زوجة، وأمك لا تحتاج إلى زوج، بل تحتاج إلى شريك".

"ألهذا يضربها؟".

جفلت كريسي من البرودة في صوت ليا، ثم قالت معترفة: "أعتقد هذا".

قالت ليا بإلحاح وقد ارتسم على وجهها تعبير حاقد: "ألهذا يؤذيها بشدة حتى لا تقدر على المشي؟".

أجابتها كريسي وقد بدا عليها عدم الارتياح: "أنا لا أحاول إقناعك أو إثناءك عن هذا الأمر، أريد منك فقط أن تتخذي قراراتك لأسباب مقنعة بعد أن تُوضح لكِ كل الحقائق. إنه لأمر فظيع أن نخون أقاربنا، وخصوصًا عندما لا نفهم السبب. إن الندم هو أسوأ شيء يمكن أن نفعله بأنفسنا".

قالت ليا وهي تومئ برأسها: "أفهم هذا".

وأخيرًا فهمت الأمر. لقد اعتقدت كريسي أن ليا تفعل كل هذا لأنها لا تريد أن تُجبر على الزواج بمجرد وصولهم إلى أمستردام. لقد اعتقدت أن إيذاء ليا لوالدها هو خطوة مؤسفة في طريق طويل. بالطبع فهمت كريسي الأمر بشكل خاطئ.

هندمت كريسي تنورتها ثم قطعت خطوة ناحية الباب.

سألتها ليا: "هل تعتقدين أن هناك أشياء لا تغتفر؟".

تجهم وجه كريسي كأنما تحاول أن تفهم السؤال، ثم قالت بخواء: "أجل".

قالت ليا: "جيد، هذا ما أعتقده أيضًا".

وبهذا عادت إلى المخططات على طاولة الكتابة.

٥٢

ما إن وصلا إلى السطح العلوي حتى وضعت سارا نموذج ساردام بين يدي آرينت. تحولت الحيرة إلى انبهار وهو يدير العجلة الرحوية المصغرة بإصبعه. لم تكن هذه الإضافة ضرورية تمامًا، ولكن ليا تستمتع بكل شيء تصنعه، هذه واحدة من سماتها التي تحبها سارا كثيرًا.

اتسعت عينا آرينت وارتسمت ابتسامة حمقاء على شفتيه، فرأت الطفل الذي كان عليه في الماضي.

قال: "هذا مذهل، من أين حصلتِ عليه؟".

ترددت، إنها تثق في آرينت، ولكن أسرار ليا خطيرة، لقد كتمتها قدر ما تتذكر، منذ أن سمعها ذلك العجوز وهي تتمتم بشأن إضافة ماسورة إلى مدافع القلعة لكي تصل إلى مدى أبعد.

قبل أن تستوعب الأمر كان هناك حشد يحيط بها، لم يسمعوا بها من قبل، ناهيك بأن تقولها طفلة تبلغ ثمانية أعوام. تمكنت سارا من إبعادها قبل أن يطرحوا المزيد من الأسئلة، ولكن الأمر حدث مرة أخرى بعد بضعة أيام، بعد أن اقترحت ليا على البَنَّاء تصميمًا أقوى لجدران القلعة.

لقد رأى المنطق في اقتراحها على الفور، ولكنه لم يستوعب أن تقوله طفلة صغيرة.

أخذها في خوف إلى الحاكم العام، وكانت هذه آخر مرة يُسمح لليا بالخروج من القلعة.

عندما لاحظ آرينت اضطرابها قال بصوت خافت: "ليا هي من صنعته، إن براعتها واحدة من تلك الأشياء التي يتخبط الناس أثناء اندفاعهم لإخفائها. لا تقلقي، لقد رأيت المتاعب التي تورط فيها سامي بسبب ذكائه، سأُبقي الأمر سرًّا". ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يسألها: "هل هي من اخترعت الغنيمة؟".

فتحت سارا فمها لتكذب، ولكن غلبها تعبيره الصادق فقالت: "كيف عرفت هذا؟".

قال آرينت: "لقد رأيت الغنيمة بعد استعادتها، كان من الواضح أنها شيء بارع، ولكنها أيضًا كانت جميلة وأنيقة، هناك شيء مرح حيالها جعلني أفكر أنها لعبة، وهذا له نفس السمات".

تفحص آرينت النموذج المصغر بحرص ثم تمتم: "ليا اخترعت الغنيمة، مما يجعلها أثمن شيء على متن هذه السفينة. إن كان توم العجوز يعرف بالأمر فقد تكون في خطر".

قالت: "لقد فكرت في الأمر، إن كان توم العجوز يسعى وراء زوجي فلا أشك أنه قد يدفع ليا ثمنًا لحياته".

حدق آرينت إليها في عدم تصديق، لطالما شعر عمه وجده بالقلق حيال أن يقتله أبوه، حتى إنهما استأجرا قاتلًا لكي يقتله في الغابة، لقد كان تفانيًا مرعبًا نابعًا عن حب أسود، ولكنه حب رغم ذلك. كيف يمكن لعمه ألا يكون مستعدًّا لأن يتفانى بنفس القدر تجاه ابنته؟ إلى أي مدى صار قلبه فارغًا لكيلا يرى ليا سوى مجرد درع آخر على صدره؟

قال بنبرة خاوية: "لا أصدق أننا نتحدث عن نفس الرجل الذي رباني".

"السلطة تغير الناس يا آرينت".

نظر آرينت إلى البحر الخاوي وهو يشعر بالاضطراب، لا يزال غير معتاد على الأمر. طيلة الأسابيع الماضية كان هناك المشهد المطمئن للسفن الأخرى، من دونها بدا البحر فجأة شاسعًا للغاية والسماء مخيفة للغاية، وساردام ضعيفة للغاية.

أدار آرينت دفة الحديث إلى موضوع آخر، لكي يركز على خوف يمكنه أن يفعل شيئًا حياله. "ما الهدف من هذا النموذج المصغر؟ تقولين إنه يمكن أن يساعدنا".

"لقد طلبت من ليا أن تكتشف المساحات الموجودة على متن السفينة التي يمكن وضع خزانات تهريب بها". ثم مدت أصابعها إلى السفينة وفتحت بابًا صغيرًا قبل أن تقول: "ظننت أننا سنكون قادرين على التحقق منها واحدة تلو الأخرى. بوسي هو من صنعها، لذا إن كان توم العجوز متورطًا في سرقة الغنيمة، فربما هذا هو المكان الذي أُخفيت فيه القطع".

"إن أعدنا الغنيمة إلى عمي فربما يمنعه هذا من جلد أفراد الطاقم بلا داعٍ".

"وقد نكون قادرين على منع التمرد".

كانا قد اقتربا من الجناح الواقع تحت السطح الأوسط، عندما تردد صوت خطوات أقدام لارم السريعة القصيرة من ورائها وهو ينادي: "آرينت".

التفت المرتزق إليه.

"إن أفراد الطاقم يلحون عليَّ بشأن القتال الذي نظمناه بينك وبين ڤيك. الآن وقد مرت العاصفة فهم متلهفون لرؤية الدماء التي وعدناهم بها". قبل أن يجيبه آرينت رفع إصبعه محذرًا وقال: "أنا أطلب منك أن تعيد النظر في الأمر، لقد مر أسبوعان وأعتقد أن هذا وقت كافٍ لشفاء كبريائك الجريح. لقد تغوط في فراشك، ولكن لم يكن هناك أي ضرر آخر، وهذا أهون مما يوقعه بمعظم الرجال. فلتنسَ أن الأمر قد حدث يا هايز، لا شك أنه قد عثر على شخص آخر ليعذبه بحلول هذا الوقت، أنا أعرفه".

قال آرينت: "أنا أريد أن أقاتله".

"أنت تتصرف بعناد وهذا سيودي بك إلى التهلكة. إنه أفضل رجل قد رأيته يستخدم النصل، كما أنه سريع الغضب؛ إن جعلته ينزف فعلى الأرجح سيقتلك نظير هذا".

قال آرينت: "أحتاج إلى إجابات على أسئلتي، هل يمكنك أن تفكر في طريقة أخرى لاستخلاص الإجابات منه؟".

حدجه لارم بنظره، ثم قال معترفًا على مضض: "لا".

"إذن، سأراك عند الغسق".

نظرت سارا إليه في تخوف، ولكنها لم تقل شيئًا، ليس هناك طائل من هذا، كل منهم يحقق في الأمر بطريقته، وباستخدام الأدوات التي منحها لهم الرب؛ سامي يراقب، وكريسي تغازل، وليا تخترع، وسارا تطرح الأسئلة، وآرينت سوف يقاتل كما يفعل دومًا.

إنها واثقة من أنه قادر على فعل ما هو أكثر من هذا، لقد استطاع تخمين هوية مبتكر الغنيمة بعد أن رآها لوقت قصير، ولكنه لسبب ما لا يثق في هذه المهارات. تساءلت عما حدث لكي يشك في نفسه إلى هذا الحد.

قضوا بقية ما بعد الظهيرة في مخزن البضائع، مسترشدين بضوء شمعة، محاولين أن يطابقوا الأماكن الموجودة في النموذج مع الأماكن المقابلة لها في السفينة. كان عملًا بطيئًا ومخيبًا للآمال. من الواضح أن بوسي ولارم لم يمتلكا نفس القدر من المخيلة مثل ليا، ولم يصنعا خزانات التهريب إلا في أماكن قليلة واضحة.

لم تكن أي منها تحتوي على الغنيمة، أو أي شيء آخر.

قال آرينت عندما وصل إلى قطاع كبير من الجدار: "لا شك أن هذه هي الأخيرة، سيكون عليَّ أن أصعد إلى مقدمة السفينة من أجل القتال الوشيك".

كانت كل الخزانات مغلقة بأوتاد، وقد استطاعت العثور عليها بسهولة، فتحرر الوتد ثم يرفع آرينت اللوح الخشبي من الجدار.

انتشرت رائحة كريهة في الظلام مما أجبرهما على التراجع إلى الوراء بخطوات متعثرة وكل منهما يغطي فمه.

سعل آرينت وقد دمعت عيناه، ثم قال: "ما الموجود بالداخل؟".

اقتربت سارا ببطء وهي تمد الشمعة أمامها. كان هناك جثة محبوسة في الظلام، وقد ذُبح حلقها... جثة ساندر كيرس.

٥٣

تغيرت نوبة الحراسة مع حلول الغسق، بينما مساعد القبطان يقرع الجرس في وسط السفينة. لقد استمرت الإصلاحات طوال النهار، فبدت السفينة متماسكة، وإن لم تكن صالحة للإبحار. تحت السماء البرتقالية الأرجوانية تبع آرينت حشدًا من البحارة والفرسان إلى أعلى مقدمة السفينة، بينما سارا تمشي من ورائه.

لقد أخبرا القبطان بشأن جثة ساندر، وقد أمر البحارة بجلبها إلى سطح السفينة ثم التخلص منها، لقد طلب منه آرينت أن يؤجل الأمر حتى يفحص سامي الجثة في المساء، ولكن كراوڤلز رفض هذا. يعرف الجميع أن الجثث تجلب الطاعون إن تُركت لتتعفن، أي سفينة يُشتبه في أنها موبوءة بالطاعون ستُحتجز في الميناء لستين يومًا، وسيُجبر الركاب وأفراد الطاقم على تحمل هذه المدة على متنها حتى ينتهي الطاعون أو يقتلهم.

لا يريد كراوڤلز أن يغامر بالأمر.

قدرت سارا أن ساندر كان هناك لأسبوعين، مما يعني أنه مات في ليلة اختبائه، الليلة التي هاجمهم فيها المصباح الثامن.

لقد أخبرت إيزابيل التي تلقت الخبر بأفضل مما توقعت، لقد ترقرقت عيناها بالدموع، ولكن ظهرها ظل منتصبًا. ثم سألتها إلى أين قد أخذوه، قبل أن تتوجه لكي تصلي على جثته.

قالت سارا وهي تشير إلى نقاط في ساقي آرينت وصدره: "لا تدعه يجرحك هنا أو هنا، ستنزف وسيستمر النزيف ولن يكون بمقدوري أن أفعل شيئًا حيال الأمر".

"سارا...".

تجاهلته. كانت تتحدث بسرعة وتوتر، ومن الواضح أنها تخاف عليه.

كان خصر السفينة مزدحمًا بالمتفرجين، الذي تفرقوا للسماح لهما بالمرور وهم يصيحون بالسباب وكلمات التشجيع بناءً على الجانب الذي يراهنون عليه. تجاهل الركاب حظر التجوال وخرجوا من السطح السفلي ليجتمعوا عند الصاري الرئيسي وقد اشرأبوا بأعناقهم ليروا بوضوح أكثر، أو وقفوا على الأسوار ليروا بشكل أفضل. كانت كريسي قد جلبت ماركوس وأوسبرت، وقد وجد الولدان بعض من لا يمانعون حملهما على أكتافهم.

وحتى الحاكم العام سيأتي لكي يتفرج بحسب ما تقوله الشائعات. كان آرينت ممتنًّا لأن سارا ترتدي ملابس الفلاحين التي ارتدتها من قبل، ولكنه لا يزال خائفًا من كشف أمرها، لقد توسل إليها ألا تأتي، ولكنها رفضت نصيحته بشكل قاطع.

عندما وصل آرينت إلى مقدمة السفينة، رأى ڤيك عند الجزء البارز من المقدمة يتدرب على استخدام خنجره.

قالت سارا: "إنه بارع".

قال آرينت مصححًا: "إنه بارع للغاية".

كانت يداه تتحركان بسرعة شديدة، وتغيران نقطة الهجوم مع كل ضربة وطعنة، والأكثر أهمية هو أن قدميه لا تتوقفان عن الحركة.

شعر آرينت بشيء من التوتر لأول مرة، فرغم حجمه إلا أن ڤيك سريع ورشيق، سيكون من الصعب إصابته، وفي الوقت ذاته فإن حجم آرينت يجعل المراوغة صعبة. لا يهم إن كان هذا قتالًا وديًّا أم لا، إن أصابه النصل في المكان الخاطئ بالصدفة فسيموت.

ظهر دريخت أمامه، وقد دلَّى قبعته على عينيه والغليون يبرز من لحيته. نظر قائد الحرس إلى سارا بتوتر، ولكنه أكثر عقلانية من أن يجادلها. استل خنجرًا من خصره وأعطاه لآرينت.

قال محذرًا: "فلتحمِ جسدك قدر المستطاع، واغرس النصل في حلقه". ثم رفع حافة قبعته ليحدق إلى آرينت بهاتين العينين الزرقاوين القاسيتين وقال: "كلما طال هذا القتال سيستغل الأمر لصالحه".

قال آرينت محتجًّا: "قلت لك إنني سأخسر، لا يجب أن يموت أحد".

قال دريخت: "هذه هي خطتك، أما خطته فهي أن يكذب عليك. سيقتلك بسرعة، وإن فشل في هذا فسيقتلك ببطء. أنا أعرف رجالًا مثله، لا يمكنك أن تثق فيهم".

أخذ آرينت السلاح ثم أعطى سارا مسبحة أبيه وقال: "هل يمكنكِ أن تحتفظي بهذه من أجلي؟".

"ستكون بانتظارك عندما تعود".

نظرا أحدهما إلى الآخر طويلًا، ولكن آرينت كان قادرًا على الشعور بڤيك وهو يحدق إليه. لمس ذراع سارا ثم خطا إلى الحلبة، حيث كان ڤيك يتقافز على أطراف أصابعه.

زأر الحشد لكي يبدأ القتال، فربض آرينت وهو يضع ذراعيه أمامه محاولًا أن يحمي أكبر قدر ممكن من جسده. إن كونك طويلًا وعريضًا له مميزاته، ولكن ليس في قتال بالخناجر، حيث يكون أهم شيء هو أن تجعل إصابتك صعبة قدر الإمكان.

دار ڤيك حوله محاولًا أن يجد ثغرة للهجوم. اندفع بسرعة، ولكن آرينت تفادى حافة النصل وهو يراوغ بسرعة ويضرب بدوره.

قفز ڤيك مبتعدًا وهو يضحك ساخرًا من هذه المحاولة.

أدرك آرينت أن القتال معه مثير للغيظ مثل الحديث معه.

صرخ البحارة وهم يحثون عريف الملاحين على الهجوم، بينما راح الفرسان يشجعون آرينت.

هجم عريف الملاحين من جديد وهو يضرب ويطعن، تفادى آرينت الضربة الأولى ثم صد الثانية بنصله فتعالى صليل احتكاك المعدن بالمعدن، بينما يحاول أن يدفع ڤيك للوراء، ولكنه كان قويًّا.

قال ڤيك ساخرًا: "توم العجوز يرسل إليك تحياته".

استغل ڤيك دهشة آرينت فلكمه في جانبه، ثم حاول أن يغرس نصله في معدته.

تعثر آرينت للوراء ثم تفادى الطعنة فلم يصبه سوى جرح سطحي.

زأر الحشد في استحسان.

إن دريخت محق، هذا ليس نزالًا وديًّا، لن يكون هناك رحمة ولا تردد. ڤيك ينوي حزّ عنقه، وسيفعل هذا بأمر من توم العجوز.

صرخت سارا: "يجب عليك أن توقف هذا، لم يعد هذا نزالًا صوريًّا. ڤيك سيقتلك".

تمنى آرينت لو أن باستطاعته طمأنتها، ولكنه لم يجرؤ على إبعاد عينيه عن ڤيك. ظن الجميع أنه يدافع عن نفسه في يأس، محاولًا أن يُبقي نفسه على قيد الحياة حتى يشعر ڤيك بالتعب. ولكن هذه لم تكن خطته، لم يكن يدافع عن نفسه، بل يراقب كيف يقاتل ڤيك، ويستنبط إلى أي مدى تصل ضرباته، ومتى يترك نفسه مكشوفًا عندما يهاجم.

إن ڤيك يقاتل، ولكن آرينت يخطط.

رأى عريف الملاحين أن آرينت مشتت الانتباه فاندفع للأمام مزمجرًا. هذه المرة لم يخطُ آرينت خطوة للوراء، ولم يراوغ، بل دار حول نفسه قليلًا تاركًا نصل ڤيك يتجاوزه، ثم هوى بنصله على وجه خصمه.

تلقى عريف الملاحين الضربة على ساعده فتناثرت الدماء على ملابس آرينت.

بدلًا من أن يتراجع للوراء لوح ڤيك بذراعه ناحية عيني آرينت ليعميه لحظيًّا بدمائه.

ركل آرينت في يأس فأصاب معدة ڤيك مما جعله يشهق بقوة، وبينما ڤيك يلهث من أجل الهواء مسح آرينت أكبر قدر ممكن من الدماء عن عينيه. كانت رؤيته ضبابية ولكنها جيدة بما يكفي لأن يرى

إيزاك لارم يومئ إلى شخص في الحشد، ألقى نظرة خاطفة في نفس الاتجاه فرأى بريق سكين يخرج من كم أحد البحارة.

راح ڤيك يدور حول نفسه وهو يوجه ضربات مفاجئة، محاولًا أن يدفع آرينت لأن يولي ظهره إلى النصل الخفي.

منحه آرينت ما يريد، ولكنه أبقى بضع خطوات بينه وبين البحار الذي يسعى لقتله غيلة.

عندما انقض ڤيك مرة أخرى كان آرينت مستعدًّا، وبدلًا من أن يراوغ تلقى الضربة بساعده، ثم تجاهل الألم الحارق وهو يجذب ڤيك ليقربه منه متشبثًا بمعصمه، ثم راح يزأر وهو يلقي بعريف الملاحين ناحية البحار الذي يمسك بالنصل ليرتطما أحدهما بالآخر.

وصل إليهما آرينت في خطوتين ثم انتزع السكين الذي سقط على الأرضية، وغرسه مباشرة في يد البحار الثاني، ليثبته إلى الأرضية الخشبية. ألقى بجسده على جسد ڤيك وراح يلكمه، ثم مال مقتربًا من أذنه واخترقت رائحة البابريكا النفاذة أنفه.

سأله: "ما الذي تعنيه لاكساجار؟".

انتزع ڤيك الخنجر من يد البحار، ثم غرسه مباشرة في فخذ آرينت.

زمجر المرتزق وهو يمسك بذراعه ويضربها في الأرضية، فانتزع الخنجر من يده. وقبل أن يتمكن من فعل أي شيء آخر ضربه آرينت بمرفقه في وجهه مما أصابه بالدوار.

سأله: "ما الذي تعنيه لاكساجار؟".

سعل ڤيك دماءً وزاغت عيناه قبل أن يقول: "فليأخذك توم العجوز".

ضربه آرينت من جديد، فهوت قبضته على وجهه كضربة مدفع وسمع شيئًا يتشقق في وجه ڤيك.

صرخت سارا فيه أن يتوقف.

"ما الذي تعنيه لاكساجار؟".

"اذهب إلى...".

لكمه آرينت من جديد، فارتطمت رأس ڤيك بالأرضية. كان هناك جزء صغير مظلم خبيث بداخل آرينت يستمتع بالأمر. لقد كبح جماح قوته لوقت طويل، خائفًا من القتال لأنه يعرف كيف سينتهي الأمر، كان هناك كرة من الغضب محتجزة في أعماقه منذ وقت طويل للغاية. هنالك احتفظ بكل إهانة، كل سخرية، كل استهزاء، فكانت وقودًا للأتون المظلم الذي يُبقيه عادة مغلقًا.

رفع قبضته من جديد.

"ما الذي تعنيه...".

قال ڤيك وهو يسعل ويبصق الدماء: "فخ، إنها تعني فخ".

خيَّم الصمت على الحشد.

نظر آرينت حوله وهو يزفر كالمنفاخ. كان الحشد يراقبونه برعب جنود يرون قصفًا للمرة الأولى.

فباستثناء توم العجوز كان ڤيك أكثر شيء عنيف ومخيف على متن هذه السفينة، كل من يغضبه يعاني معاناة شديدة.

إن الأسوأ هو ما حدث لبوسي، ولكنه لم يكن الوحيد، فجميعهم يحملون ندوبًا.

إن ڤيك هو كابوس هؤلاء القتلة والساخطين والمغتصبين، وآرينت قد أسقطه.

هناك توازن دقيق حرج على متن ساردام، قد تبدَّل.

بينما البحارة يفكرون في الأمر شقت سارا الحشد واحتضنت آرينت بقوة.

"سارا، ما الذي...".

قالت له: "اصمت". ثم وضعت رأسها على صدره، وأخيرًا مسحت دموعها وقالت: "ظننت أنك ستقتله".

رفع آرينت ساعده ليتفحص الجرح، لم يكن عميقًا، ولكنه سيؤلمه لأسبوع. قال لها: "لاكساجار تعني فخًا باللغة النورنية. عندما سأل البحارة الآخرون بوسي ما الذي يعمل عليه، كانت هذه هي إجابته".

اندفع دريخت من بين الحشد وقال: "لمَ لم تقتله أيها الأحمق اللعين؟".

أجابه آرينت وهو يعيد إليه خنجره: "الموتى لا يجيبون عن الأسئلة".

قال دريخت: "ولا يمكنهم طرحها أيضًا. القوة تتبع القوة، لقد جعلته يبدو ضعيفًا أمام رجاله، سيسعى وراءك الآن، يجب عليه هذا".

قال آرينت وهو يحدق ناحية إيزاك لارم: "دومًا ما يكون هناك من يسعى ورائي، ومن الأفضل لهم أن يتحركوا بسرعة وإلا فسأجدهم أولًا".

٥٤

جرَّ آرينت قدميه إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط، والدماء تتقاطر من أصابعه. كان هناك شمعة واحدة تحترق على برميل، وتملأ الهواء بدخان كثيف كريه الرائحة.

تعالى ضحك إيزابيل من الظلال عند آخر الجناح، حيث كانت جالسة على كرسي تتحدث إلى دوروثيا. لاذتا بالصمت عندما رأتاهما وقد اتسعت أعينهما في قلق.

سألته دوروثيا: "هل انتصرت؟".

قالت سارا: "لقد انتصر". ثم فتحت صندوق أدوات العلاج الذي تركته هنا باكرًا، لتكشف عن مجموعة من الضمادات والمراهم والقوارير وأكياس المساحيق. ومن تحتها أخرجت إبرة معقوفة وخيطًا مصنوعًا من أمعاء القطط.

قربت الشمعة لتتفحص الجرح، ثم قالت مخاطبة آرينت: "عليك أن تخلع قميصك لكي يكون عملي أسهل".

فعل ما طلبته ليكشف عن خليط من الندبات والحروق وجروح الطعنات، وثقوب الطلقات التي التأمت بشكل سيئ.

تمتمت إيزابيل بصلاة، ثم قالت في إخلاص: "لقد جعلك الرب تدفع ثمنًا كبيرًا لكي تصل إلى هنا".

قال معترضًا: "لم يضع الرب سيفًا في يدي".

كانت يد سارا زلقة بفعل الدماء، فطلبت من إيزابيل أن تضع الخيط في الإبرة من أجلها. تساءلت إيزابيل: "هل علاج الناس شيء يمكن أن تعلميه لي؟". ثم عقدت حاجبيها وهي تنظر إلى ثقب الإبرة محاولة أن تضع الخيط فيه.

قالت سارا وهي تأخذ الإبرة منها: "إن كنتِ ترغبين في هذا فسأكون مسرورة لتعليمك. هل هناك جرة نبيذ مغلقة في أي مكان؟".

قالت إيزابيل: "يمكنني أن أجد لكِ واحدة يا سيدتي".

قالت: "ناديني سارا. إن لم تجدي زجاجة فاسألي المضيف وأخبريه أنني من يطلب هذا".

غادرت إيزابيل، فأمسكت سارا الخيط بين أسنانها بينما تغرس طرف الإبرة في حافة جلد آرينت الممزق، ثم صنعت غرزة قبل أن تبدأ من جديد. كاد ألم الوخزة أن يجعله يشتاق إلى الأيام التي كان يترك فيها الجرح وشأنه، ثم يستلقي لأسبوع أو اثنين وهو يأمل ألا يموت.

هذا ما تعلمه من الحلاق-الجراح العجوز النتن في الجيش، حيث قال له إن عليه السماح للسوائل السيئة بالتسلل إلى الخارج، وبمجرد أن تنمحي سيتعافى الجسد بنفسه.

هذا لم يعجب سامي، في المرة الأولى التي رأى فيها آرينت مصابًا خيَّط جراحه كسترة ممزقة. حاول آرينت أن يحتج وهو يخبره بشأن السوائل السيئة ونصيحة الجراح، ولكن سامي لم يتقبل الأمر، بل إنه قد وخزه بالإبرة مرتين إضافيتين للتأكيد على انزعاجه.

كان مدهوشًا لأن سارا بارعة في هذا الأمر بدورها.

سألها وهو يراقبها تعمل: "أين تعلمتِ هذا؟".

قالت واهتمامها لا يزال منصبًّا على عملها: "من أمي، كان جدي معالجًا مشهورًا، لقد علَّمها وهي علمتني".

"هل يمكن لأبيكِ أن يفعل هذا؟".

هزت سارا رأسها، ثم قالت وقد صار صوتها باردًا: "كان تاجرًا، لقد استغلت أمي هباتها لإنقاذ حياته عند إصابته بالمرض أثناء مروره من قريتها، ثم أُغرم بها. كانت على بعد ثلاثة جيلدرات فقط من أن تصير فلاحة، ولكن أبي النبيل لم يبالِ بالأمر. لقد تزوجا وعاشا بسعادة وهناء، باستثناء كل الأصدقاء الذين خسرهم لأنه تجاهل بناتهم ذوات الحسب والنسب".

أنهت غرزة أخرى ثم قالت بجمود: "كاد الحب أن يدمر عائلتي، ولكن على الجانب الآخر صار لديهما خمس بنات، لذا نال أبي فرصًا كثيرة لتدارك أخطائه".

راحت سارا تعمل في صمت بعدها وهي تُسكت آرينت كلما حاول أن يتكلم.

وعندما عادت إيزابيل وهي تحمل النبيذ استخدمته سارا لغسل الجرح، ثم قدَّمت الجرة لآرينت لكي يخفف من ألمه.

لم يرتشف من النبيذ إلا أقل القليل.

إن تمالك نفسه بينما سارا جاثية على ركبتيها أمامه هكذا، حتى في ظل هذه الظروف، لهو أمر صعب، والألم هو الشيء الوحيد الذي يُبقي كل شيء في موضعه الصحيح.

اندفع إيزاك لارم إلى الجناح وألقى بكيس نقود عند قدمي آرينت وقال: "أرباحك". ثم نظر إلى سارا وقال: "ولكني أعتقد أنك كسبت ما يكفي بالفعل".

قالت سارا دون أن تبعد عينيها عن الغرز: "أنا امرأة نبيلة ذات حسب وثروة وخنجر حاد للغاية، لذا قليل من الاحترام من فضلك".

قال لارم وهو يخفض بصره: "المعذرة يا سيدتي".

قال آرينت: "لقد ألبت هؤلاء الفتيان في الحشد ضدي، لقد رأيتك وأنت تومئ برأسك".

قال لارم بلا خجل: "كنت لأفعل أكثر من هذا لو كان بمقدوري".

"لماذا؟".

"ڤيك يسيطر على هؤلاء الفتيان بالنيابة عني، مما يعني أنني أحتاج إليه أكثر مما أحتاج إليك. أنت كنت تبحث عن شجار، وحاولت أن أحذرك، ولكنك لم تنصت إليَّ". ثم تنحنح في توتر وقال: "لهذا أنا هنا، أريد أن أعرف ما خططك بشأني".

قال آرينت في حيرة: "خططي؟".

"لا أنوي إمضاء بقية الرحلة وأنا أنتظرك أن تغرس نصلًا في ظهري. افعل ما تنوي فعله". ثم نفخ القزم صدره كأنما يتوقع أن يطعنه آرينت في التو واللحظة.

نظرت إليه سارا باستهزاء ثم عادت إلى عملها.

قال آرينت في تعب: "أنا لن أقتلك يا لارم. إن كوَّمت جثث الناس الذين قتلتهم فيمكنك أن تقف على الكومة وتلعن السماء، لا أريد

أن أضيف المزيد من الجثث إلى الكومة. إن هذا الفتى الذي أرسلته لقتلي لم يكن هناك داعٍ لأن يموت، لذا لم أقتله، والشيء ذاته ينطبق على ڤيك وينطبق عليكَ. فلتجب عن أسئلتي وسينتهي هذا اليوم ونحن أصدقاء".

تفحصه لارم، ومن الواضح أنه يبحث عن فخ مختبئ تحت كل هذا الكرم. إنها نفس النظرة التي منحها إيجرت لآرينت في اليوم الذي اعتذر له فيه عن وضع نصله على عنقه. من الواضح أن عمل الخير نادر على متن ساردام، حتى لم يعد أحد يتعرف عليه.

في نهاية المطاف قال لارم: "إن عملت بحارًا فلن تنجو ساعة".

قال آرينت وهو يدعوه إلى الجلوس على الكرسي المقابل: "هذا ألطف شيء قاله لي أحد".

بدا لارم مرتابًا، ولكن أقنعه النبيذ الذي دفعه آرينت ناحيته.

سأله آرينت: "ما الذي كان موجودًا في خزانة التهريب في مخزن البضائع؟". ثم تلوى وجهه بينما سارا تنهي غرزة أخرى. "لقد أفرغتَها قبل أن نصل إليك".

"قطعة من الغنيمة". عندما رأى الصدمة مرتسمة على وجهيهما قال على الفور: "ولكني لم أسرقها، كنت أفتش عن ثياب بوسي كما أمر القبطان، واعتقدت أنه ربما قد خبأها في إحدى الخزانات، ولكني وجدت هذه بدلًا منها".

"لم تجد الغنيمة كلها؟".

قال: "للأسف لا". بدا كرجل لطالما واجهه الحظ العاثر. "إن قطعة من الغنيمة كانت لتجلب مبلغًا كبيرًا من المال، ولكني إن استطعت أن أبيع الغنيمة كاملة فسأتمكن من شراء سفينة خاصة بي".

سأله آرينت: "كانت؟ ما الذي حدث لها؟".

نظر إليه لارم بريبة وقال: "لماذا تسأل؟".

تنهدت سارا وقالت: "لقد نفد صبري مع الانتهازيين على متن هذه السفينة، إن لم تجب عن أسئلتنا بشكل كامل فسأخبر زوجي أنك سرقت الغنيمة وسأشاهده وهو يمزقك إلى أشلاء".

قال على الفور: "حسنًا، حسنًا. لقد دمرتها بعد أن كدتما أنتما الاثنان أن توقعا بي، حطمتها إلى أجزاء ثم ألقيتها من كوة في حجرة المرساة. فكرت أنه من الخطير الاحتفاظ بها".

نظر آرينت إلى سارا، فأومأت برأسها كأنما لتقترح أنه على الأرجح يقول الحقيقة.

سألته: "كيف عرفت أنها قطعة من الغنيمة؟".

"لقد اختبرها الحاكم العام على متن ساردام. لم يكن مسموحًا لي باستخدامها، فقد تولى القبطان كراوڤلز كل الأعمال الملاحية، أما بقيتنا فقد كنا نبحر في الاتجاه الذي يشير إليه".

سأله آرينت دون مواربة: "لقد قُتل ساندر كيرس ووضعت جثته في إحدى خزاناتكم، ما الذي تعرفه عن الأمر؟".

قال: "لا شيء، ليس لديَّ سبب لإيذاء أي شخص".

قالت سارا: "باستثناء بوسي، لقد أمرت يوهانس ڤيك بقطع لسانه، أليس كذلك؟".

توقفت جرة النبيذ في طريقها إلى شفتي لارم. لم تنظر إليه سارا، كانت لا تزال تخيط جرح آرينت.

قالت بينما اهتمامها منصب على عملها: "هذه طريقتك في العمل، أليس كذلك؟ ڤيك يفعل الأشياء الشنيعة بالأشخاص الذين تعتقد أنهم يستحقون هذا، ثم تستولي على ما تبقى منهم، إن حيلتك باستخدام السكين في الحشد توضح هذا. ما الذي قاله بوسي فأردت أن تخرسه؟".

مال لارم للأمام وخفض صوته قائلًا: "ساردام هي بيتي، المكان الوحيد الذي لا يركلني فيه الناس من أجل التسلية. إن وظيفتي هي أن أحافظ على سلامتها، وبوسي قد عرضها للخطر".

"كيف؟".

"كان يجند رجالي، يتلاعب بعقولهم".

قالت سارا بإلحاح: "كيف؟".

"كان معه المال، قدر كبير من المال على أن يمتلكه بحار متواضع. لقد اشتراهم وجعلهم يؤدون مهام غريبة من أجله على متن السفينة".

قالت سارا: "إن موهبتك في أن تكون مبهمًا مثيرة للإعجاب والغيظ في الآن ذاته".

"لا أعرف المهام التي كان يطلبها على وجه التحديد، ولكننا أمسكنا به وبعض البحارة في أماكن من السفينة لا يُفترض بهم أن

يذهبوا إليها بعد أن رسونا في باتاڤيا، أعتقد أنهم كانوا يفتشون عن شيء ما، فينقرون على الجدران ويركلون ألواح الأرضية الخشبية. أيًّا كان هذا الشيء فإنه كبير بالحكم على الأدوات التي كانوا يحملونها. بل إنني ضبطتهم يقيسون مؤخرة السفينة، ولكنني لم أستطع أن أجبرهم على إخباري بالسبب".

سأله آرينت في اهتمام: "ما الذي حدث لهؤلاء البحارة الآخرين؟ هل يمكنني أن أتحدث إليهم؟".

قال لارم في أسى: "لقد اختفوا، أسرعوا هاربين من السفينة ذات صباح كأنما قد سمعوا صفير الشيطان، ولم يعودوا مرة أخرى. هذا ما كان يفعله بوسي. صدقني، لم ألتقِ من قبل برجل تتلاشى مبادئه بهذه السرعة عندما تلمع العملات أمامه. لقد قتل هؤلاء الفتية، أعرف أنه فعلها، ولهذا أمرت ڤيك بقطع لسانه، لم أرغب في أن يختفي المزيد من رجالي، بعد أن يضع هذا الوغد النقود في أيديهم".

قال آرينت: "ظننت أنه كان صديقك، لقد بنيتما خزانات التهريب تلك معًا، أليس كذلك؟".

أطلق لارم صفير إعجاب رغمًا عنه وقال: "أجل، لقد صنعنا هذه الخزانات معًا، وربحنا مالًا جيدًا من الأمر، ولكني لم أطمح إلى ما هو أكثر من هذا".

قفز لارم واقفًا من كرسيه وهو يحك بطنه.

نظر إلى القنطرة التي تؤدي إلى خصر السفينة، ثم تنهد كأنما قد خسر لعبة شد الحبل التي كان يلعبها مع ضميره، قبل أن يقول: "كن حذرًا من صديقك الجديد ياكوبي دريخت".

"دريخت؟ لماذا؟".

"ألم تسمع من قبل عن جزر باندا؟".

تبادل آرينت نظرة مع سارا وقد تذكر محادثتهما أثناء الإفطار، لقد ذبح عمه جميع من عاشوا هناك عندما رفضوا الالتزام بعقد التوابل الذي سيجعلهم يتضورون جوعًا.

"ما علاقة دريخت بالأمر؟".

قال لارم: "كانت سفينة ساردام هي التي أُرسلت عندما ثار السكان وعلى متنها الحاكم العام، ولهذا يعرف القبطان. لقد أصدر الأمر بذبح الجميع، وأرسل ياكوبي دريخت وفرسانه لفعلها. لقد سفك صديقك الدماء في تلك الجزر، ثم راح يشرب ويغني طيلة الليل بصحبة أصدقائه. منحه الحاكم العام هذا السيف نظير ولائه، وتعهد بأن يمنحه المزيد".

"المزيد؟".

"ثروة ملك، أموال طائلة أكثر مما يمكن أن ينفقه دريخت إن أعاده إلى الوطن بأمان. اتضح أن هذه هي تكلفة إقناع شخص ما بذبح الأطفال في أسِرَّتهم". ثم اتقد بالغضب وهو يقول: "إنهم جميعًا يرحبون بتوم العجوز".

٥٥

كان آرينت وسارا وسامي جاثين في خصر السفينة وهم يحدقون إلى جثة ساندر كيرس. كان البريديكانت مغلفًا بشرنقة من أقمشة القنب، ستُغلق بالخيط بإحكام وتُلقى من على جانب السفينة مع أول ضوء. كان هناك عشرات الشرانق المتراصة على سطح السفينة، وتتزايد مع مرور الوقت. معظمها لأشخاص قد قتلتهم الجروح التي أُصيبوا بها أثناء العاصفة. تخيلتهم سارا وقد استقروا في قاع البحر مثل أحد الخطوط المنقطة التي يستخدمها كراوڤلز لتحديد مسارهم على الخريطة.

قال سامي وهي يلتفت بقلق إلى حشد البحارة الذين جاؤوا لمراقبته وهو يعمل: "هل أنتِ واثقة أنه من الآمن لي أن أكون خارج زنزانتي".

كانت الشمس تغوص وراء الأفق، ولم يرها سامي منذ وقت طويل حتى إن عينيه ترقرقتا بالدموع عندما جلبه آرينت إلى الخارج.

قال سامي: "إن عرف زوجك أني أتجاهل أوامره سيلقي بي في الزنزانة دون أمل لأن أرى الضوء مرة أخرى".

قالت سارا: "لقد عزل زوجي نفسه ليختلي بأفكاره الكئيبة. إنه يعتقد أن سرقة الغنيمة جزء من حملة كبيرة يشنها ضده توم العجوز". لم تكن قادرة على إخفاء بهجتها لكربه. "ليس لدينا شيء لنخشاه

طوال الساعة القادمة على الأقل، دريخت يحرس بابه، وڤوس بالداخل يُصغي إلى تذمره. سيكون عليك أن تعود إلى زنزانتك عندما ينتهي اجتماعهما، ولكنك بأمان الآن، وكذلك أنا".

تفحص سامي ثياب الفلاحين التي ترتديها ثم قال: "هذه الرحلة قد غيرتك كثيرًا يا سارا ڤيسل". رفع كتف ساندر ليُكمل تفحصه للجثة، وبعد دقيقة تركها تسقط مرة أخرى. "لا يوجد المزيد لنستنتجه من هذه الجثة، لقد ذُبح قبل أسبوعين تقريبًا ووُضِع في خزانة سرية".

تمتمت سارا: "ولكن لمَ خُبِّأت الجثة؟". ثم كررت سؤالها مرة أخرى لكي يُسمع صوتها من فوق طرقات الشواكيش والأزاميل أثناء عمليات الإصلاح. الحقيقة هي أن الصوت يشي بأنشطة أكثر مما يمكن رؤيتها، فبحسب تخمينها لا يوجد أكثر من عشرة بحارة يعملون حقًّا على سطح السفينة، فبعد ما بذلوه من مجهود أثناء العاصفة ترك القبطان معظمهم ينامون.

قال سامي: "لا شك أن هناك شيئًا لا يُفترض بنا أن نعثر عليه". ثم اعتدل واقفًا وهو ينفض يديه بلا جدوى، فقد كانتا مغطاتين بطبقة من السخام والأوساخ المتراكمة لمدة أسبوعين في زنزانته. "هل كان هناك أعداء لساندر كيرس؟".

قالت سارا: "أعتقد أن توم العجوز قد استدرجه إلى باتاڤيا، لقد استدرجه بنفسه، أراد منه الشيطان أن يأتي إلى هنا، والآن ها هو جثة هامدة. يبدو لي أن هذا كان هدفه منذ البداية".

مرر سامي يده عبر شعره في انزعاج مزيلًا بعض القمل الذي اتخذ من شعره مسكنًا، ثم قال وهو يقطع سطح السفينة جيئة وذهابًا: "مهما حاولت فإنني لا أستطيع أن أجد رابطًا بين حقائق هذه القضية".

تمنت سارا لو أن ليا هنا لترى هذا، لقد وصف آرينت في قصصه بالتفصيل مشية سامي الحيوية بساقيه القصيرتين، وعندما كانت تمثل هذه القصص مع ليا كانتا دومًا تمشيان بمثل هذا النشاط قبل أن تستلقيا أرضًا وهما تضحكان.

"منذ البداية كان اهتمامي منصبًّا على جريمة قتل بوسي، وهو نجار قبل عرضًا بثروة عظيمة من صوت في الظلام نظير أن يجعل السفينة جاهزة لسفره على متنها. لسنا واثقين مما يتضمنه هذا العرض، رغم أن إيزاك لارم وصف عثوره على بوسي وتابعيه في أماكن غريبة في أرجاء السفينة، وقال إنه يعتقد أنهم يبحثون عن شيء ما، وعندما سُئل عما يفعله قال لهم: فخ".

قالت سارا مفكرة: "ربما كان يصنع فخًّا".

قال سامي: "أو يبحث عن فخ".

أضاف آرينت: "أو يفكك فخًّا".

نقل سامي نظره بينهما ثم تمتم: "كلتاهما فكرة جيدة، على أي حال كان يفعل هذا العمل نيابة عن شيء يُدعى توم العجوز، وهو شحاذ تسبب آرينت دون قصد في ضربه حتى الموت عندما كان صغيرًا. بعد نقل آرينت إلى ضيعة جده اجتاح هذا الشيطان الأقاليم كما يبدو، مستحوذًا على أجساد مجموعة من النبلاء والتجار الأغنياء، مما جعلهم يرتكبون فظائع لا توصف، قبل أن تتدمر حياتهم. إنه يعلن عن نفسه بعلامة تشبه عينًا لها ذيل، ونفس العلامة حُفرت على معصم آرينت بعد اختفاء أبيه قبل ثلاثين عامًا. عُثر على مسبحة أبيه في حظائر الحيوانات بعد أن ظهر لنا المصباح الثامن، ثم ذُبحت هذه الحيوانات دون أن يقترب منها أحد".

لقد بدا عليه التركيز الشديد، حتى خُيل لسارا كأنه يمشي إلى الوراء عبر الأحداث.

"إن ذبح الحيوانات كان أول المعجزات الشيطانية الثلاثة بحسب ما قاله البريديكانت الراحل، المعجزة الثانية هي اختفاء الغنيمة من حجرة مقفلة، مما قد يبدو أنه من صنيع كورنليوس ڤوس، في محاولة للزواج من كريسي ينس. ونحن نتوقع معجزة ثالثة، بعدها سيُذبح أي شخص لم يعقد صفقة مع توم العجوز. هل فاتتني أي تفاصيل؟".

قال آرينت مقترحًا: "أن توم العجوز يستحوذ على أحد الركاب".

"وأن زوجي على الأرجح قد استدعاه قبل سنوات طويلة، والآن يريد قتله. لقد طلب مني ومن كريسي أن نقتله بخنجر سيتركه تحت فراشه".

قال سامي بسعادة: "أوه، أجل، هل نظرتِ في الدرج؟".

"قائد الحرس دريخت يفعل هذا كل ليلة، ولكنه يقسم أنه لا يجد سوى الملابس". ثم نظرت إليه وقالت: "أخبرني يا سيد بيبس...".

"سامي من فضلك".

أحست بالشرف لأنه قد أسبغ عليها هذه الألفة، فقالت: "أخبرني يا سامي، هل تعتقد أن هناك شيطانًا يعيث فسادًا على متن هذه السفينة؟".

ابتسم بوجوم وقال: "شيطان من نوع أو آخر. الحقيقة أنني أجد نفسي في مواجهة خصم يفوق أي خصم قد واجهته من قبل، ويدغدغ كبريائي أن أعتقد أنه شيء خارق للطبيعة. إن سؤالك هذا عديم

الجدوى، ولا أقصد الإهانة، فمنهجنا في التحقيق لن يتغير سواء كان هذا شيطانًا يتنكر في هيئة إنسان أو إنسانًا يتنكر في هيئة شيطان، يجب علينا أن نحقق في كل حادث، وأن نتبع القرائن لنصل إلى الحقيقة".

لم تملك سارا إلا الإحساس بالإعجاب من الثقة في صوته، وهي تصغي إليه آمنت حقًّا أنهم سينجحون في هذا. ولأول مرة تساءلت إن كان اتهام كاسبر ڤان دين بيرج له بأنه جاسوس هو جزءٌ من الأمر برمته. هل كان الغرض من هذا الاتهام هو إبعاد بيبس عن الطريق، ليتمكن توم العجوز من تنفيذ مخططه دون أن يعترض طريقه أحد؟ وإن كان الأمر كذلك، ألا يشير هذا إلى أن جد آرينت متورط في الأمر كلّه؟

تساءلت سارا: "إن كان توم العجوز شيطانًا حقًّا فما الذي سنفعله حينها؟".

"لا أعرف، هذا يفوق نطاق خبراتي، ولكن هذا قد يفسر سبب قتل الرجل المتخصص في نفي الشياطين".

قالت سارا: "لا يزال لدينا إيزابيل، لقد درست موسوعة الشياطين، وهي مخلصة للدين قدر إخلاص ساندر، إن لم يكن أكثر".

"دعونا نأمل أنها ستكون كافية".

سأله آرينت: "كيف نمضي قدمًا إذن يا سامي؟".

كان الإذعان في صوته غريبًا على مسمعي سارا، عادة ما يكون مقدامًا للغاية، فيندفع للأمام سواء يرى الطريق أم لا، وهي واحدة من سماته التي تعجبها، ولكن عندما يتحدث إلى سامي يبدو وكأنه لا يستطيع أن يفكر بنفسه، ولا يمكنه أن يرى طريقًا للمضي قدمًا بدون صديقه.

ولكن، ترى ما السبب؟ كل شيء يعرفونه عن توم العجوز قد عرفوه أثناء احتجاز بيبس في زنزانته، إن زوجها يحترم آرينت، وهو لم يحترم في حياته رجلًا غبيًّا قط. إن آرينت هو الوريث لثروة جده، وقد اختاره فوق أبنائه الخمسة.

تفحصت الرجل الضئيل الواقف أمامها وهو يتحدث بسرعة كبيرة، حتى إن الكلمات بدت وكأنها تتساقط من فمه. فكرت أنه من الصعب بالتأكيد أن تقف إلى جانب سامي بيبس وتعد نفسك ذكيًّا. لقد عملا معًا لخمس سنوات، وشاهد آرينت المعجزة تلو الأخرى. استطاعت أن ترى لمَ قد يُخطئ المرء ويعد نفسه غبيًّا.

"فلنتبع قوس، ولنأمل أنه سيوصلنا إلى الجزء التالي من هذا اللغز الغريب قبل أن تحدث المعجزة الشيطانية الثالثة. هدفنا الآن هو أن نمنع حدوث مذبحة".

٥٦

تحت ضوء النجوم حمل البحارة آخر الجثث إلى خصر السفينة، وقد وضعوها في أكياس قماشية جنبًا إلى جنب. كان عدد المشيعين قليلًا، فالموتى يعدون شيئًا يجلب الحظ السيئ على متن أي سفينة هندية. كل بحار في نوبة الحراسة قد أشاح بوجهه بعيدًا. لقد أغلق صانع الأشرعة الأكياس بالخيط مغلقًا عينيه، وحتى القبطان كراوثلز وإيزاك لارم قد حرصا على النظر إلى ما وراء الجثث بدلًا من النظر إليها.

راحت إيزابيل تتلو الصلاة من أجل الموتى، فقد حملت العديد من مهام ساندر على عاتقها منذ موته. كانت سارا وكريسي وليا يراقبن وقد أحنين رؤوسهن في احترام.

عندما انتهى الأمر، أومأ كراوثلز إلى البحارة الذين رفعوا الجثث واحدة تلو الأخرى وألقوا بها من على جانب السفينة لتسقط في الماء.

انتهت الجنازة بعد خمس دقائق.

لم يكن هناك طائل من البقاء أكثر من هذا، جميعهم يعرفون أنه سيكون هناك المزيد من الجثث قبل انتهاء الرحلة.

٥٧

بينما يتناول ڤوس العشاء مع الركاب الآخرين تسلل آرينت إلى مقصورته، فوجد أن الحجرة تعكس مالكها بشكل مثالي، فلم يكن هناك زخرفة أو بهرجة من أي نوع. كان على المكتب شمعة في طبق وريشة ومحبرة وكيس من مسحوق الفحم. كان هناك أرفف مثبتة وكل رف مكتظ باللفافات.

لم يكن آرينت واثقًا إن كان يعتقد أن ڤوس شيطان مثلما هو لص، ولكن مقصورته تنفي وجود رذيلة من أي نوع، بل تشي بالهوس بالنظام وطموح كبير يمكن تحقيقه بالعمل الجاد. إن رأى سامي هذا المكان لألقى بنفسه من على حافة السفينة، فلا يوجد شيء يناقض إلى حد كبير ذوقه الخاص، الذي يميل إلى الملذات والملهيات والأشياء عديمة القيمة.

كان المكتب مرتبًا باستثناء دفتر وثلاث فواتير. عندما تفحصها آرينت وجد أنها إيصالات ركوب سارا وليا وعمه مع ترتيبات مقصوراتهم. من الواضح أن سارا كان من المفترض أن تكون في مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين، ولكن تبدلت مقصورتاهما. يحتوي الدفتر على قوائم منتظمة من الأرباح والمصروفات، لا شك أنها تمثل ثروة عمه وتجارته.

ترك آرينت الوثائق، وراح ينقر على ألواح الأرضية والجدران بحثًا عن خزانات سرية كما قد علمه سامي. حرك بعض حاويات اللفافات من موضعها، ولكن كان هذا بلا جدوى. إن ما تبقى من أجزاء الغنيمة لا يمكن إخفاؤه هنا، لا يوجد مساحة كافية.

بينما يخرج من المقصورة سمع صوتًا غريبًا يأتي من الجانب الآخر للممر، لقد بدا مثل... فحيح، ربما. فحيح طويل، ثم صمت، ثم يبدأ الفحيح من جديد.

نقر على الباب وقال: "فيكونتيسة دالڤين".

جاء صوتها الضعيف وهي تقول: "كم مرة يجب عليَّ أن أقول لكم أن تتركوني وشأني؟".

"يمكنني سماع صوت فحيح".

قالت بحدة: "إذن فلتكف عن استراق السمع".

فكَّر في الإلحاح عليها، فلم يعد من الممكن التغاضي عن أي شيء غريب يحدث على متن ساردام، ولكنه يعرف أن عليه أن يراقب ڤوس. ما إن عاد إلى السطح العلوي حتى تسلل إلى الظلال بالقرب من الصاري الرئيسي وانتظر أن ينهي الحاجب عشاءه.

كان آرينت بارعًا في الانتظار، فنصف ما يفعله من أجل سامي هو الانتظار. وضع يديه في جيبيه ليتحسس الخرز الخشبي المألوف بمسبحة أبيه، وحاول أن يتخيل كيف وصلت إلى حظائر الحيوانات.

لم يستطع أن يفكر في طريقة أخرى عدا أن جده قد تسلل إلى السفينة دون أن يشعر به.

أحس بدفء قديم مألوف في أعماقه، الآن سيرحب بنصيحة الرجل العجوز الفظة.

بعد أن ترك آرينت العمل مع جده لم يعد إلى فريزيا إلا قبل وقت قصير من الصعود على متن ساردام. وجد أن جده قد صار عجوزًا للغاية، ولكنه أكثر تسامحًا مع اختياره مما كان عليه من قبل.

لقد تحدثا ليومين ثم افترقا كصديقين.

الآن يفتقده آرينت لأول مرة منذ سنوات.

انتهى العشاء وخرج الركاب إلى الظلام، واجمين ولا يتحدثون إلا بصوت خفيض. ظهرت سارا أولًا متشبثة بليا، ثم تلاهما ڤوس وهو يتأبط ذراع كريسي التي تضحك في بهجة بينما تبدي كل إشارة على أنها مستمتعة بصحبته.

بعد تبادل بضع كلمات خجلة عند الباب المؤدي إلى مقصورات الركاب عاد ڤوس هابطًا السلم وقد تغير سلوكه تمامًا، فصار يتسلل خلسة وهو يمسح سطح السفينة بعينيه خشية أن يكون هناك من يراقبه. لم يتحرك آرينت قيد أنملة واثقًا أن الظلمة ستخفيه.

اندفع ڤوس مبتعدًا.

لحق به آرينت بقدمين خفيفتين وهو يتعقبه بحذر على السلم المؤدي إلى مخزن البضائع.

سمع من تحته صوت شيء يتحرك في الماء. حدق آرينت إلى أسفل عبر السلم، فرأى ڤوس يُخرج شمعة وقادحًا من جيبه وقد صنع لهبًا مع المحاولة الرابعة. فكر آرينت بشيء من الإعجاب أنه قد جاء

مستعدًّا بالطبع. كان عليه أن يتخلى عن حمل ضوء خاص به خشية أن ينبه طريدته.

عندما وصل إلى آخر السلم وجد أن مخزن البضائع قد عاد إلى هيئته الأولى، وأن الصناديق مرصوصة لتصنع متاهة من الممرات كما كانت. لقد ضخوا معظم الماء، ولكن مستواه لا يزال أعلى مما كان عليه قبل العاصفة والفئران الميتة تطفو على سطحه.

كان ثوس يتحرك بحذر لحسن الحظ، ومن الواضح أنه يكره وجوده هنا بالأسفل، فكل قطرة ماء، وكل احتكاك مخلب، يجعله يتوقف في موضعه ويتلفت حوله.

كانت الممرات متشابهة بالنسبة لآرينت، ولكن سرعان ما وجد ثوس ما يبحث عنه، فجثا على ركبتيه في الماء الآسن وبدأ يطرق على أحد الصناديق بمقبض خنجره وهو يصغي إلى الصوت الذي يصنعه.

إحدى الطرقات بدت جوفاء، فصرخ في ارتياح، ولكنه سرعان ما أخرس نفسه بأن وضع يده على فمه.

بينما يضع خنجره تحت حافة الغطاء، تسلل آرينت للأمام على أمل أن يرى ما يحدث بشكل أفضل.

توقف ثوس وقد عقد حاجبيه، ثم راح يُصيخ السمع، قبل أن يغمد خنجره وينعطف عند الناصية حاملًا شمعته.

فكر آرينت أن يسعى وراءه، ولكنه قد نال مبتغاه.

لم يكن معه أي ضوء، فتحسس طريقه عبر الممر حتى وصل إلى الصندوق الذي فتحه ثوس قليلًا. كل ما عليه فعله هو أن يلتقط

قطعتي الغنيمة، ويتحسس طريقه عائدًا بطريقة ما قبل أن يرجع ڤوس. إن عاد إلى عمه بالدليل على أنه قد أخطأ الحكم، فيمكنه أن يحرر الكونستبل ويأمر دريخت بوضع الحاجب في الأغلال.

لمست أصابعه حواف الصندوق الخشنة، فدفع يده إلى الداخل، ولكنه سمع صوتًا خافتًا من ورائه، فأدرك أنه قد وقع في الفخ.

بينما يحاول أن يلتفت ارتطم شيء ما برأسه مما جعله يسقط في المياه.

٥٨

عاد آرينت إلى وعيه وهو يشعر بالدوار، بينما تجتاحه موجة من الألم مع أدنى حركة من رأسه، إنه لا يزال في مخزن البضائع، ولكنه مقيد إلى عارضة خشبية وفمه مكمم.

حاول أن يتخلص من قيوده، ولكنه كان مقيدًا بإحكام.

كان ڤوس واقفًا إلى جواره وهو يحفر رمز توم العجوز على أحد الأعمدة. لقد أكمل ثلاثة منها بالفعل، ولكن هذه العلامة تبدو متقنة على عكس العلامات الأخرى.

لوى آرينت جسده محاولًا أن يرخي الحبال، وعندما فشل في هذا تساءل إن كان سيقدر على أن يمد عنقه ويعض أذن ڤوس ليقطعها.

عندما سمعه ڤوس يحاول التملص، نظر إليه وقد ظهر الخوف على وجهه الذي يكون عادة خاليًا من المشاعر.

وضع خنجره على عنق آرينت وقال بتوتر: "سأجذب الكمامة لكي نتحدث، إن حاولت أن تصرخ لطلب النجدة فسأذبحك، هل هذا مفهوم؟".

رغم إحساسه بالخوف إلا أن تهديده بدا مقنعًا.

أومأ آرينت برأسه، فجذب ڤوس الكمامة في تردد، لتحتك القطعة القماشية بشارب آرينت.

قال آرينت: "قليل من الرجال قد استطاعوا مباغتتي من الخلف، لقد أثرت إعجابي".

"لقد تعلمت أن أتحرك دون أن يلاحظني أحد في سنوات خدمتي للحاكم العام".

"مهارة مفيدة بالنسبة للص".

اتسعت عينا ڤوس قليلًا ثم ضيقهما قبل أن يسترخي.

قال: "إذن فأنت تعرف، جيد، هذا يجعل الأمر أسهل. من غيرك يعرف؟ من ينتظرني بالأعلى؟".

قال آرينت: "الجميع، الجميع يعرفون".

قال ڤوس وهو يطرق السمع: "ومع ذلك قد جئت وحدك، وأنا لا أسمع خطوات أقدام ولا ثرثرة بعيدة ولا أصواتًا تشير إلى وجود أي شخص آخر هنا بالأسفل". ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة مرعبة وقال: "لا، أنت وحدك. أعتقد أنك رأيت ڤوس الضئيل البائس المسكين، وظننت خطأً أنه لا يمثل تهديدًا". أشهر خنجره في وجهه وقال: "أنت لست أول من يظن هذا، ولكن لا يمكن للمرء أن يخرج من الوحل ليصير حاجب الحاكم العام دون أن يزيح بعض الخصوم من طريقه".

"والآن بعد أن امتلكت الغنيمة لم تعد راغبًا في أن تظل حاجب الحاكم العام".

ارتسمت الحيرة على وجه ڤوس وهو يقول: "الغنيمة؟ هل لهذا...". ثم انفجر في الضحك، فبدا الصوت غير طبيعي عندما صدر

عنه. "أوه يا عزيزي آرينت، إن القدر لا يحبك، أليس كذلك؟ أنا لم أسرق الغنيمة، رغم أنني أشعر بالشرف لأنك ظننت أنني قادر على هذا. أخشى أنك أمسكت بالمجرم الصحيح، ولكن بالجرم الخطأ".

بدا وكأن الفكرة تدغدغه، فقد كان لا يزال يضحك وهو يعيد الكمامة إلى فم آرينت قبل أن يعود إلى نحت علامة توم العجوز على العمود.

أكمل حديثه قائلًا: "قد يبدو لك هذا غريبًا، ولكني مسرور بالأمر، إن عملي يتطلب أن أخفي شخصيتي وأن أتظاهر بأنني أقل شأنًا مما أنا عليه في الحقيقة، ولكني لطالما فكرت بشأن مستقبلي، لن أكون قانعًا بكوني كلب الصيد المفضل للحاكم العام إلى الأبد. إنه من دواعي سروري أن يراني أحد أخيرًا حتى ولو من قبيل الصدفة".

ظهرت شمعة على مسافة بعيدة، بقعة صغيرة من الضوء تقترب بشكل رتيب.

راح ڤوس يمرر طرف خنجره على علامة توم العجوز وهو يقول: "لا تخف، أنا لم أخضع لأهواء ذلك المخلوق، إن كان هذا ما تفكر فيه. الشيء الجميل حيال خوف بهذا العمق هو أنه لا أحد ينظر إلى ما وراءه، فيمكنه أن يفسر أي شيء. إن حفرت هذه العلامة على صدرك فيعتقد الجميع أن الشيطان قد قتلك، لن يفكروا حتى في التحقق من الأمر، إنهم جميعًا يرغبون في تصديق هذا. الناس يحبون الحكايات أكثر من الحقيقة".

اقتربت الشمعة أكثر وظهرت ضمادات في الظلمة، حيث سقط الضوء على ضمادات دامية تحيط بوجه المجذوم. كان ڤوس يوليه

ظهره، ومنهمكًا في الحديث، حتى إنه لم يسمع صرخة آرينت التحذيرية المكتومة. "لقد همس لي توم العجوز، الزواج من كريسي نظير حياة الحاكم العام، بل إنه عرض عليَّ ترك خنجر تحت فراشه لكي أستخدمه". ثم غرق في تفكيره قبل أن يقول: "سأعترف لك أن العرض كان مغريًا، ولكن لحسن الحظ لديَّ خططي الخاصة". تنهد وهو ينقر على الخشب بنشوة وقال: "أعرف أن كريسي ستقبل العرض في نهاية المطاف، كل ما أحتاج إليه هو الصبر، هذا كل شيء".

صار المجذوم على بعد خطوتين فقط من ورائه، فتشنج جسد آرينت وهو يومئ برأسه ناحيته ويصرخ من وراء الكمامة.

عقد ڤوس حاجبيه كما لو أنه يشعر بالحيرة لأن رجلًا في موقف آرينت يصنع مثل هذه الجلبة، ثم قال: "تمالك نفسك وسأمنحك كلماتك الأخيرة".

صار المجذوم على بعد خطوة واحدة فتوقف آرينت عن محاولة الصراخ، بينما يسمح لڤوس بأن يجذب الكمامة لأسفل.

صرخ آرينت: "وراءك! وراءك أيها الأحمق اللعين!".

جفل ڤوس بفعل الرعب في صوت آرينت، فدار على عقبيه ليواجه المجذوم، ومن مكان ما تحت الضمادات أصدر فحيحًا وهو يغرس خنجرًا في صدر ڤوس قبل أن يديره.

صرخ الحاجب في معاناة فتردد الصدى في مخزن البضائع. ارتخى جسد ڤوس بينما المجذوم يجذب النصل ببطء ليترك ڤوس يهوي في الماء الآسن.

خطا المجذوم مقتربًا من جثته، بينما ضماداته الدامية على مرمى ذراع من وجه آرينت، وتفوح منه رائحة الفضلات النتنة.

ظهر السكين أمام وجه آرينت بينما دماء ڤوس لا تزال تتقاطر من حافته. كان له مقبض خشبي منحوت بشكل بدائي، بينما النصل الرفيع الغريب يبدو وكأنه سينكسر في الثانية التي يستخدمه أحد فيها.

وضع المجذوم حافة الخنجر على وجنة آرينت، وشعر أن المعدن بارد على بشرته.

جفل آرينت وهو يحاول أن يبعد رأسه.

مرر النصل على وجنته ورقبته حتى وصل إلى معدته، ومن بين الضمادات كان آرينت قادرًا على سماع أنفاسه الخشنة. قال لنفسه في انتصار إن الموتى لا يتنفسون، أليس كذلك؟

ضغط بالخنجر على معدته ثم توقف فجأة، تشممه المجذوم ثم تشممه مرة أخرى بشكل أعمق كما لو أنه متفاجئ من شيء ما. تسللت يده إلى جيب آرينت، وببطء أخرج المسبحة. أمال رأسه جانبًا وهو يحدق إلى الخرز في انبهار، ثم أطلق تلك الزمجرة الحيوانية التي سمعها مع سارا.

لثانية راح المجذوم يتأمله، ثم أطلق فحيحًا قبل أن ينفخ في الشمعة ليطفئها، ثم اختفى.

٥٩

لم تكن سارا بحاجة إلى انتظار سماع الطرق على الباب لتعرف أن آرينت قادم عبر الممر. كانت أصوات خطواته المتعثرة تتردد عبر الألواح الخشبية، ثقيلة بما يكفي لسماعها عبر القيثارة التي تعزف عليها من أجل ليا ودوروثيا وكريسي وإيزابيل.

عندما فتحت الباب وجدته يحمل كيسًا ثقيلًا على كتفه، وقد بدا عليه آثار كل جهد من المجهودات الشاقة التي بذلها خلال الأيام الماضية. كان الدم يسيل على جبهته، ومن الجرح الذي خاطته في ساعده، والجلد مكشوط في معصميه، بينما تفوح منه رائحة الماء الآسن النتن، ووجهه متعب للغاية حتى إنها لم تستطع أن تتخيل كيف جر نفسه إلى هنا بالأعلى.

انضمت إليها النسوة الأخريات في الممر وهن لا يزلن يحملن النبيذ الذي كن يشربنه.

عندما وصل إليهن آرينت ألقى بالكيس على الأرضية.

قال بصوت أجش: "كان سامي محقًّا بشأن ڤوس".

سألته سارا: "أنه لص؟".

"أجل".

سألته كريسي وهي تنظر إلى الكيس: "هل هذه هي الغنيمة؟".

قال آرينت: "لا. كان سامي مخطئًا بشأن هذا الجزء، لم يسرق ڤوس الغنيمة، بل سرق هذه". ثم ركل الكيس لينسكب منه أطباق وأقداح فضية، وتيجان، وألماس، وسلاسل ذهبية، وحلي جميلة.

حدقت كريسي إلى المجوهرات التي تتلألأ تحت قدميها، ثم قالت وهي تجثو على ركبتيها لتتفحص الأحجار الكريمة بطمع: "قال لي إنه سيحصل على ثروة كبيرة، لا شك أن هذا ما كان يقصده".

قالت سارا في دهشة: "هذه ثروة". ثم حدقت إلى آرينت، كان جلده شاحبًا وعيناه زائغتان. "من أين حصل ڤوس على كل هذا؟".

"قتله المجذوم قبل أن يخبرني".

"المجذوم؟ هل رأيت المجذوم؟".

قال آرينت وهو يريح جسده الثقيل على الجدار: "لقد أنقذ حياتي. كان على وشك أن يقتلني، ولكن بدا عليه حينها أنه قد شعر بمسبحة أبي التي أحملها معي، فسرقها وتركني أخلص نفسي من الحبال".

قالت كريسي وقد بدا عليها الصدمة: "ڤوس قد مات؟ أوه، يا له من أحمق!".

بينما ليا تواسي كريسي وضعت سارا يدها على صدر آرينت، كانت قادرة على أن تشعر بالحمى من تحت قميصه الخفيف.

قالت: "أنت بحاجة إلى فراش يا آرينت، حرارتك مرتفعة للغاية".

قالت دوروثيا ببهجة وهي تضع خاتمًا تلو الآخر في أصابعها: "بعض هذه القطع أقدم مني. هذه الخواتم تناسبني، ألا ترون هذا؟". ثم رفعت يدها المزينة لكي تنظر إليها سارا بإعجاب.

قالت سارا وهي تجذب أحد الخواتم من أصابع دوروثيا: "مهلًا، أنا أعرف شعار النبالة هذا، لقد جعلني أبي أحفظ الكثير من شعارات النبالة عندما كنت طفلة. كل شعار نبالة وكل لقب عائلة وكل نسب، هذا شعار عائلة دايكسما".

قالت كريسي في دهشة: "هيكتور دايكسما هو واحد من الذين استحوذ عليهم توم العجوز، وكان اسمه في القائمة التي سرقتها من مقصورة يان".

قالت سارا: "أجل، أتذكر أنني قرأت عنه في موسوعة الشياطين". ثم راحت تعتصر ذاكرتها لتتذكر الفقرة المحددة.

قال إيزابيل لتساعدها: "دايكسما كان الابن الثاني لعائلة تجارية ثرية في الأقاليم، لقد جعلني ساندر أدرس موسوعة الشياطين حتى إنني قادرة على تلاوة كل صفحة، لقد استحوذ توم العجوز على دايكسما ١٦٠٩، وقد استخدمه لتأدية طقوس شيطانية في بيت العائلة. لعدة أشهر اختفت الخادمات من قرية قريبة، ثم اكتشف بيتر أن هناك من استدعاهن إلى البيت. حاول أن يحررهن ولكنهن قد ذُبحن. لقد تصارع مع توم العجوز، وتمكن من طرده من جسد هيكتور الذي هرب إلى الأقاليم قبل أن يحرقه العوام الغاضبون".

"هل تذكر موسوعة الشياطين ما حدث له بعدها؟".

قالت إيزابيل: "لا، ولكن إن كان هذا هو كنز هيكتور دايكسما فربما ڤوس هو في الواقع هيكتور؟ ما إن تدمر اسم عائلته حتى هرب بما تبقى من ثروة العائلة".

قالت كريسي مخمنة: "أو ربما ڤوس هو توم العجوز. هل يُعقل أن الأمر هكذا؟".

قال آرينت: "لقد أمسكت به يحفر علامة توم العجوز على الصناديق". كانت كلماته متداخلة حتى إن الآخرين فهموه بالكاد. "ولكنه أنكر كونه الشيطان، قال إن الخوف تغطية رائعة على جرائمه".

قالت سارا في قلق: "تعالَ معي يا آرينت، يجب أن نذهب بك إلى مهجعك".

"يجب عليَّ أن أرى سامي أولًا، هل يمكن لأحدكن أن تخبر عمي بشأن ڤوس، فلندعه يصدق أن ڤوس قد سرق الغنيمة، لا أريد أن يُجلد شخص آخر بريء".

بينما يبتعد مترنحًا لحقت به سارا. كان عليه أن يتكئ إلى الجدار لكي يبقى واقفًا.

سألته: "هل ستكون بخير؟".

ضحك بوجوم وقال: "لقد كان يومًا طويلًا، والكثير من الناس قد حاولوا قتلي". ثم فكر في الأمر قبل أن يقول: "ربما كان ڤوس هو توم العجوز وربما لا. ربما يكون الشيطان موجودًا وربما لا. إن كان موجودًا فقد استدعاه عمي، رجل أحببته ذات يوم، ولكنه الآن يبدو وغدًا حقودًا ووحشيًّا وقاتلًا. ڤوس قد امتلك كنزًا سُرق من عائلة دمرها توم العجوز قبل قرابة ثلاثين عامًا، وآخر صديقٌ اكتسبته قد أباد جزيرة عن بكرة أبيها، ونحن على بعد معجزة شيطانية واحدة من ذبح الجميع وفقًا لنبوءة بريديكانت مقتول. وأسوأ ما في الأمر هو أن الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يصلح شيئًا من هذه الفوضى محبوس في الظلام إثر اتهام كاذب من جدي، وليس بمقدوري أن أفعل شيئًا لمساعدته".

وما إن قال هذا حتى انهار أرضًا.

٦٠

انتبه الحاكم العام مع ثلاث طرقات مهذبة على باب مقصورته، وقد عرف من رشاقتها أنها طرقات قائد الحرس دريخت.

قال: "ادخل يا دريخت".

بعد أسبوعين من غرقه في أفكاره الخاصة صار الحاكم العام هزيلًا ولم يعد وجهه حليقًا، مع هالات سوداء تحيط بعينيه. أي وزن اكتسبه في باتاڤيا قد خسره ليبدو جسده لحمًا على عظم.

كان يعمل في ضوء شمعة واحدة، وهو يقارن قائمة الأشخاص الذين استحوذ عليهم توم العجوز بسجل الركاب. هناك دين قديم مطلوب منه سداده، وشخص ما على متن السفينة هو المسؤول، لقد وضع علامة توم العجوز على الشراع ليعرف أن ماضيه قد ابتلع حاضره، ويحكم الخناق حول مستقبله. كان واثقًا من أن آرينت سيغرس سيفه في توم العجوز قبل أن يحدث هذا، ولكنه لم يمنحه ما يكفي من المعلومات، إن آرينت قوي وذكي، ولكن حتى هو لا يمكنه أن يقاتل بغمامة على عينيه.

هناك بعض الأشياء التي يندم عليها يان هان، ومنها أنه قد كذب على آرينت طيلة هذه السنوات. إن الماضي أرض مسمومة، هذا ما علمه له كاسبر ڤان دين بيرج. يختار الرب لكل إنسان طريقه، لذا ما

فائدة القلق بشأن هؤلاء الذين يسقطون على جانبي الطريق، هؤلاء الذين تؤذيهم أو تتسبب في إيذائهم لكي تتمكن من الصعود؟

يؤمن الحاكم العام بهذا، ولكنه لطالما كان يتوق إلى إخبار آرينت بالحقيقة، بشأن الغابة وأبيه والصفقة التي أُبرِمت. بتسليح آرينت بهذه المعلومات كان سيكتشف بالتأكيد من الذي يهدد السفينة، ولكن السر كان مدفونًا عميقًا للغاية، مهما حاول يان هان فإنه لا يقدر على أن يحفر لإخراجه.

والآن قد سرق توم العجوز الغنيمة.

إن ارتقاءه إلى مصاف السادة السبعة عشرة يعتمد على إيصال هذه الآلة لهم، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلهم يتغاضون عن نفورهم منه في بادئ الأمر.

لا يمكنه أن يعود إلى أمستردام صفر اليدين.

إنه ليس واثقًا إن كان الكونستبل قد عقد صفقة مع الشيطان أم أنه بريء كما يصر آرينت. ولكن هذا لا يهم، إن الخوف شيء معدٍ، لقد رأى أفراد الطاقم ما فعله بالكونستبل، ويعرفون أنه سيكون دور واحد منهم في الغد. في قلوبهم الخبيثة يحتفظ أحدهم بالمعلومات التي يحتاج إليها، سيخبرونه بها بعد أن ينزفوا ما يكفي من الدماء.

في الوقت الحالي كان يحدق إلى سجل الركاب وقائمة الأرواح التي استحوذ عليها توم العجوز. إنه على متن هذه السفينة، ودومًا ما يعرض الصفقات. على الحاكم فقط أن يعرف ما يمكن أن يغريه به.

دلف دريخت إلى الحجرة وهو يجر من ورائه كيسًا ثقيلًا، قبل أن يقلبه رأسًا على عقب، فتدحرج قدح على الأرضية حتى استقر عند

قدمي الحاكم العام، الذي أمسك به ورفعه إلى النور، ثم قلبه فرأى شعار النبالة على الجانب الآخر.

تمتم: "دايكسما".

"أتعرفه يا سيدي؟".

"منذ زمن بعيد. أين عثرت على هذا؟".

انتصبت قامة قائد الحرس دريخت وهو يضع يده على مقبض سيفه، وهي الوقفة التي يتخذها قبل أن ينقل أخبارًا سيئة. "لقد استعادها ابن أخيك من كورنليوس ڤوس يا سيدي. اكتشف أن ڤوس هو سارق الغنيمة، ولكن ڤوس حاول قتله". ثم نفخ صدره وقال: "لقد مات ڤوس يا سيدي، قتله المجذوم".

سأله في قلق: "وماذا عن آرينت؟".

ارتعش وجه دريخت تحت لحيته وقال: "إنه مصاب بالحمى يا سيدي، وهناك من يعتني به".

مال الحاكم العام إلى الوراء في كرسيه وقال: "يا لڤوس المسكين، إن طموحه عبء لا يمكن أن يتحمله إلا القليل، أخشى أن ثقله قد سحقه". ثم هز رأسه وقال: "لقد كان مساعدًا ممتازًا". وهكذا أنهى خطاب تأبينه فقد كانت أفكاره بالفعل قد انتقلت إلى شيء آخر.

"هل استعدتم الغنيمة؟".

"لا يا سيدي".

سب يان وقال: "كيف سرقها؟".

"من الواضح أنه قد أخفى القطع الثلاثة في ثلاثة براميل، ثم جعل اثنين متواطئين يدحرجونها معه إلى الخارج عندما صدر الأمر بالتوجه إلى مراكز القتال".

تمتم: "ثلاثة؟". لقد احتاج الأمر إلى ثلاثة منهم لاستدعاء توم العجوز قبل سنوات طويلة، لا يمكن أن تكون هذه مصادفة. "لا شك أن الاثنين الآخرين قد انقلبا عليه. هل عرفنا هذين المتواطئين؟".

"لا يا سيدي".

قال وهو ينقر على الطاولة بأظافره الحادة: "إذن فلتجلد رجلين عند الصاري الرئيسي كل يوم، أريد أن نعثر عليهما".

لقد خانه ڤوس، هل يعقل أن الأمر حقًّا على هذه الصورة؟ لطالما فكَّر أنه من الخسارة قتل هؤلاء الذين تهزمهم، وإلا فلن يفهموا خسارتهم كاملة. إنه يؤمن أن الرحمة هي أعمق جرح يمكن أن تصيب به أحدًا، فهو الجرح الوحيد الذي لن يلتئم.

هل تحليه بالرحمة في الأقاليم هو ما جلب عليه هذا؟ وهل يمكن أن ترشده إلى مخرج من هذا المأزق؟

نظر من الكوة إلى القمر المكتمل الكامن وراء السحب البيضاء الممزقة.

تمتم كأنما يرى وجه الشيطان يطفو هناك: "توم العجوز، كان يجب أن نكون أكثر حذرًا". لم يكن يخاطب أحدًا على وجه التحديد. "كان علينا أن نعرف أن شيئًا بهذه القوة سيتحرر منا في نهاية المطاف، هذه هي مشكلة استدعاء الشياطين، عاجلًا أو آجلًا سيؤلبها شخص آخر ضدك".

تبدلت ملامح دريخت من الحيرة إلى القلق، بينما انتقل بصر الحاكم العام إلى أسماء الأشخاص الذين استحوذ عليهم الشيطان على مر السنين.

باستيان بوس

توكيهيري

غيليس ڤان دي سيولين

هيكتور دايكسما

إيميلي دي هاڤيلاند

تمتم وهو يقارن هذه الأسماء بسجل الركاب: "من الاثنين اللذين تحالفا معه؟ أين تختبئ أيها الشيطان؟".

اتسعت عيناه في دهشة وقد تركز بصره على أحرف معينة. طيلة الأسبوعين الماضيين كان يحدق إلى هاتين الوثيقتين، محاولًا استخلاص المعلومات التي تبدو واضحة له الآن. كيف فاته شيء بهذا الوضوح؟

قال بضعف: "هذا الأمر لا يتعلق بالغنيمة". صار وجهه شاحبًا، وارتجفت يده وهو يضعها على عينيه. ثم نظر إلى قائد الحرس القلق وقال: "هيا بنا يا دريخت، سنذهب إلى مقصورات الركاب".

بالخارج كان المطر يطرق على الخشب كأنما يحاول أن يتسلل إلى الداخل، بينما السفينة تئن في تعب، لم تعد كما كانت قبل العاصفة، فقد تحولت أصوات الصرير إلى صرخات، وصارت حبال الأشرعة فوضوية كشباك عنكبوت متكسرة.

مثل كل شيء على متن السفينة كانت الصلابة مجرد وهم، لقد غلفوا أنفسهم بالخشب والمسامير وألقوا بأنفسهم في البحر معتقدين أن شجاعتهم ستوصلهم إلى بر الأمان، ثم رفع عدوهم يده وأظهر لهم مدى حماقتهم.

تقاطر المطر من على أنف الحاكم العام الطويل وذقنه المدبب، بينما يسقط من على جفنيه عندما يرمش. كان الحاكم العام يبذل مجهودًا لمجاراته.

عندما وصلا إلى مدخل مقصورات الركاب قال الحاكم العام آمرًا: "انتظر هنا".

"سيدي، أنا لا...".

"انتظر هنا! سأناديك إن احتجت إليك".

أطبق دريخت شفتيه وتبادل نظرة قلقة مع إيجرت، قبل أن يقف على الجانب المقابل من الباب الأحمر. عدل الحاكم العام من درع صدره ثم خطا إلى الداخل وأغلق الباب وراءه. بحركة سريعة وضع دريخت غمد سيفه في الفجوة ليمنع الباب من أن ينغلق بشكل كامل. لا يمكنه أن يرى ما يحدث بالداخل، ولكن على الأقل يمكنه أن يسمع.

طرق الحاكم العام على باب إحدى المقصورات.

لم يأتِ رد.

طرق الحاكم العام مرة أخرى، ثم تنحنح وقال بنبرة متواضعة كأنما هو بائع جائل: "أنا يان هان، أنت في انتظاري".

أصدر الباب صريرًا وهو ينفتح في الظلمة ليكشف عن شخص يجلس في الزاوية. وجهه مختفٍ وراء وهج شمعة، ولكنه عندما دلف يان هان إلى الداخل دفع الشمعة جانبًا ليكشف عن نفسه.

قال الحاكم العام في أسى: "لقد كنتُ محقًّا إذن".

انغلق الباب وراءه بقوة، وفي ظلمة المحيط فتح المصباح الثامن عينه.

٦١

كان دريخت لا يزال واقفًا ليحرس الباب المؤدي إلى مقصورات الركاب، وهو يحدق إلى المصباح الثامن قبالة الربع الخلفي الأيمن للسفينة، بينما اليأس يتعاظم بداخله. لقد خسر معارك من قبل، ولكن كان أعداؤه يفوقونه عددًا وأجبروه على التراجع، لم يحدث من قبل أن فشل في استيعاب حجم عدوه أو شروط الاستسلام.

كيف يفترض به أن يحمي الحاكم العام من شيء يمكنه أن يظهر ويختفي كيفما شاء، وأن يتحدث بدون صوت، وأن يذبح من على بعد، وأن يأخذ أشياء من الغرف المقفلة دون أن يترك أثرًا.

جاء إيزاك لارم وهو يصعد السلم مهرولًا، ثم عبر الباب الأحمر المؤدي إلى مقصورات الركاب، قبل أن يخرج بعد بضع دقائق بصحبة القبطان كراوڤلز. من الواضح أن القبطان كان نائمًا، فلم يكن يرتدي إلا سرواله. لا يتذكر دريخت أنه قد رآه أشعث من قبل.

توجه كلاهما إلى السور عند مؤخرة السفينة على بعد بضع خطوات.

قال كراوڤلز وهو يحدق إلى المصباح الثامن: "إننا حتى لا نعرف أين نحن، فكيف استطاع العثور علينا؟".

قال إيزاك لارم: "لقد أمرنا الحاكم العام بتعمير المدافع في حال ظهوره مرة أخرى".

قال كراوڤلز بانزعاج وهو ينظر إلى الراية الخفاقة أعلاهم: "إنه بعيد للغاية كما أن الرياح في صفه. وحتى لو لم يكن الأمر هكذا فإن أشرعتنا لا تزال ممزقة، لا يمكننا المناورة، مما يعني أنه لا يمكننا القتال. لا نعرف حتى ما الذي نقاتله".

"ما هي أوامرك أيها القبطان؟".

قال: "فليصعد كل البحارة على سطح السفينة وهم مسلحون، وحتى ذلك الحين سنكتفي بالمراقبة".

ظهر الحاكم العام من مقصورة الركاب بعد ساعتين، وعاد في صمت إلى مقصورته. اتخذ قائد الحرس دريخت موقعه المعتاد خارج المقصورة، ثم أشعل غليونه وراح ينتظر، بعد بضع دقائق تعالى صوت بكاء من الخارج.

٦٢



لم يهجم أحد على السفينة هذه الليلة، أو الليلة التي تلتها، رغم أن المصباح الثامن ظهر مرة أخرى، وفي كلتا المرتين اختفى قبل الفجر.

على مدار اليومين التاليين جرى إصلاح الأشرعة وصارت ساردام قادرة على الإبحار. في محاولة لإيجاد يابسة وتحديد موقعهم، أمر كراوقلز بالإبحار في أقواس لتغطية أكبر مساحة ممكنة.

وبينما تجدد الأمل كان هناك خوف جديد.

من اللحظة التي غادروا فيها باتاڤيا تلقوا اللعنة تلو الأخرى، والآن ينتظر الجميع الكارثة التالية. أغلق الحاكم العام باب مقصورته على نفسه رافضًا الخروج، وآرينت طريح الفراش بفعل الحمى. ڤوس قد مات، والبريديكانت قد مات. والمجذوم يجوب مخزن البضائع بحرية، والسفينة لا تكاد تظل طافية. في كل ليلة يهمس توم العجوز للبحارة بمعجزات شيطانية. لقد حدثت معجزتان ويتبقى واحدة. بعد الكشف عنها فإن أتباعه سيذبحون كل من لم يعقد صفقة معه، هذا هو وعده.

بالنسبة للجميع كان الإغواء أكبر من قدرتهم على التحمل، إبحار آمن نظير دماء شخص آخر لهو صفقة أجمل من أن تفوتها، وبالتأكيد أفضل من أي شيء تعده به الشركة.

كل صباح يكون هناك المزيد من التمائم المتدلية من حبال الأشرعة، تُصدر رنينًا في الرياح بعد أن تخلى عنها أصحابها، لم تعد ذات نفع لهم. لقد صافح البحارة الشيطان الذي كان من المفترض أن يكبحوا جماحه.

٦٣

تلوى آرينت في فراشه وهو يتمتم. وضعت سارا يدها على قلبه وأصغت إلى النبضات العنيفة في صدره. كانت قد عادت للتو من مقصورة زوجها، وأحست بالجزع عندما وجدت آرينت في نفس الحالة التي تركته عليها.

لم يكن من الواضح إن كان قد أصيب بالحمى بسبب صراعه مع ڤيك أم عمله على المضخة أثناء العاصفة، ولكن حالته حرجة للغاية. لقد سمعت سارا بالرهانات التي وُضعت بين البحارة والفرسان، كانت الاحتمالات ضده، فرغم كل قوته إلا أنهم قد رأوا رجالًا مثله يسقطون بعد المعارك، وهم يعرفون ما يعنيه هذا. يُمكن خياطة الجروح والدم الفاسد سيصير نقيًّا بمرور الوقت. ولكن ما لا يمكن رؤيته لا يمكن علاجه. معظم الرجال يموتون وهم يغمغمون، لا وهم يصرخون.

على مدار الأيام الثلاثة التالية جربت كل الأشياء التي بوسعها لكي تكسر هذه الحمى، ولم يتبقَّ شيء سوى الصبر والصلاة.

قالت: "لقد أمرت بإرسال حصص الطعام إلى سامي". تعرف أن هذا سيعجبه. "الفارس الذي يحرس بابه -أعتقد أن اسمه ثيمان- قد عرض أن يصحبه للتريض كل ليلة. لقد تحدثت إليه قليلًا أمس، إنه يفتقدك ويريد أن يأتي إليك ويعتني بك بنفسه، ولكن اللعنة على زوجي. لقد أثنيته عن الأمر، أعرف أنك لا تريد مني أن أتركه يموت

بينما أنت طريح الفراش. كان من الصعب عليه تقبل الأمر، فهو يحبك كثيرًا". ثم ازدردت ريقها، منزعجة من صعوبة قولها لهذا. "أفترض أنه ليس الشخص الوحيد".

تأملت وجهه بحثًا عن أدنى ارتعاشة، أي شيء قد يشي بأنه فهم ما قالته.

لم ترَ شيئًا فأكملت قائلة: "لقد حاول أن يطمئنني، قال لي إنك قد ذهبت إلى الظلام من قبل، ووجدت طريق العودة". قربت شفتيها من أذنه وقالت: "قال إنك قد ناديت الرب ولكنه لم يأتِ. قال إنك تؤمن بأنه لا شيء ينتظرك، لا رب ولا شيطان، لا قديسون ولا آثمون. إنه يشعر بالرهبة منك، يقول إنك استثنائي لأنك اخترت فعل الخير، ليس لأنك تخشى ما ينتظرك إن لم تفعل مثل معظم الناس". راحت تفتش عن الكلمات المناسبة ثم قالت: "لا أؤمن أن الجنة خاوية، أعتقد أن الرب ينتظرك، ولكني أنتظرك أيضًا". وضعت يدها بخوف على صدره وقال: "أنتظرك هنا، على سفينة لعينة، يتربص بها شيطان لا يمكنني أن أوقفه وحدي، أحتاج منك أن تستيقظ وتساعدني يا آرينت، أنا بحاجة إليك".

سقط شيء ثقيل في الماء بالخارج، فجفلت سارا وهي تبعد يدها على الفور عن صدره.

اقتربت من الكوة ونظرت إلى الخارج، كان هناك بعض التموجات على سطح المحيط، ولكن ليس هناك أدنى إشارة على ما تسبب فيها.

إن البحر يكتم أسراره كالعادة.

من ورائها قال آرينت بصوت أجش: "ألا يمكن للناس أن يروا أنني أحاول أن أنام؟".

٦٤

تحت المقصورة الكبرى يتأرجح مصباح، بينما الركاب ينظرون بوجوم إلى عشائهم.

العديد من المقاعد كانت خاوية، فلم يرَ أحد الحاكم العام منذ موت ڤوس إلا لمامًا، لقد سمعوه يصرخ في وجه دريخت بينما يجلسون في كراسيهم، ولكنه صار صامتًا.

كان قائد الحرس واقفًا أمام باب مقصورته كعادته في ذلك الوقت وهو يدخن الغليون، فاختفى وجهه وراء الدخان.

على السطح الواقع أسفلهم كان آرينت هايز يتقلب ويتلوى في فراشه المعلق، وقد أمضت سارا ڤيسل كل ساعة إلى جانبه، فلا تتركه إلا لتلبية واجباتها تجاه زوجها. راحت تعالج آرينت بأشياء غريبة تحرقها في أطباق.

بقيت الڤيكونتيسة دالڤين مختبئة في مقصورتها. كان القبطان كراوڤلز قد ذهب للاطمئنان عليها بعد العاصفة، ولكنها صرخت في وجهه لطرده كما فعلت مع سارا وآرينت.

وهكذا لم يتبقَّ سوى كراوڤلز ورينير ڤان شوتن وليا وكريسي وإيزابيل للتحديق بوجوم إلى الطعام الضئيل في أطباقهم. لقد تركوا باتاڤيا بإمدادات لا تكاد تكفيهم للوصول إلى رأس الرجاء الصالح،

وهذا على افتراض أنهم سيقدرون على إعادة التزود بالمؤن من الأسطول، ولكنهم صاروا وحدهم منذ العاصفة.

لقد أمر ڤان شوتن بتقليل حصص الطعام إلى الربع، مما ترك لهم القليل من لقيمات من الخبز الجاف وشريحة صغيرة للغاية من اللحم وجرعة من النبيذ أو الويسكي.

بأخذ كل ما حدث في الحسبان، لم يكن من المفاجئ أن المحادثات قد انقطعت وتلاشت بسرعة بعد أن امتصتها دوامات أفكارهم. حتى كريسي كانت صامتة، وقد غاب عن وجهها المتعب ذلك الوميض المرح العابث. كان الصوت كثيفًا حتى إن بعض الناس قد جفلوا في دهشة عندما سعلت إيزابيل قبل أن تطرح سؤالها.

لم يكن من المفترض أن تكون على الطاولة مطلقًا، ولكنها قد تولت بعض واجبات ساندر، بل إنها تُلقي العظات عند الصاري الرئيسي. تناقص عدد الناس الذين يحضرون العظات، ولم يكن هذا لنقص حماسها الديني، بل كان الحماس للرب متقدًا في هذه الفتاة أكثر مما كان متقدًا في ساندر كيرس.

قالت متسائلة: "هل يمكنك أن تساعدني في شيء أيها القبطان؟".

كان كراوڤلز يمضغ قطعة من الخبز، فلم يكلف نفسه عناء إخفاء انزعاجه عندما توجهت إليه كل الأنظار. مسح الفتات من على شفتيه ثم مد يديه ناحية النبيذ وهو يقول: "أنا في خدمتك".

سألته: "ما هي المياه المظلمة؟ لقد سمعت الرجال يتحدثون عن الأمر على سطح السفينة".

تنهد القبطان ووضع النبيذ جانبًا ثم قال: "ما الذي يقولونه؟".

"إن توم العجوز يسبح في المياه المظلمة".

التقط كراوڤلز قرصه المعدني من على الطاولة وراح يقلبه في يده ثم قال: "هل ذكر إن كان توم العجوز قد همس له في الليل؟".

شهق الركاب في صوت واحد وهم يتبادلون نظرة خائفة؛ لقد أبقى الجميع الهمسات طي الكتمان معتبرين أنها سرهم الخاص. إن توم العجوز شيطان، سواء دعوته أم لا، إن حضوره وحده يشي بدنس مسبق، بعض الميل إلى الفساد، الهمسات تكشف الخطيئة التي يشعر بها كل واحد بداخله.

نظر كراوڤلز من وجه إلى وجه، ثم أومأ في رضا وقال: "هذا ما خمنته، لقد همس لنا جميعًا إذن، ربما لكل شخص على متن هذه السفينة".

كرر دريخت من عند باب الحاكم العام: "ما الذي تتوق إليه؟".

وافقه ڤان شوتن وقد بدا عليه الشعور بالغثيان: "هذا ما قاله لي". منذ تقليل الحصص اضطر لتمالك نفسه، وتمكن من أن يُبقي نفسه يقظًا تقريبًا، رغم أن الجميع قد اتفقوا على أنه لا يزال رجلًا ممسوسًا، فعيناه خاويتان وحمراوان بسبب قلة النوم.

قالت إيزابيل بإلحاح: "ما هي المياه المظلمة يا قبطان؟".

أجابها ڤان شوتن من على الجانب المقابل للطاولة: "إنه ما يسميها البحارة الروح، يعتقدون أن خطايانا تكمن تحتها كالحطام في قاع المحيط، المياه المظلمة هي روحنا، وتوم العجوز يسبح فيها".

كأنما قد تلقى نداءً، نبض المصباح الثامن بالحياة في البحر، وتسلل ضوءه عبر النوافذ لينعكس على وجوههم المرعوبة.

إنه أقرب بكثير مما كان من قبل.

ويتوهج بلون أحمر.

٦٥

كان يوهانس ڤيك جالسًا على أحد الأسِّرة في مشفى السفينة، يعالجه الحلاق-الجراح الذي كان يلتقط الديدان من فأر ميت في وعاء ويضعها على جرح الرجل حيث تتلوى وتدفن نفسها.

كانت معدة ڤيك تفعل شيئًا مماثلًا، فتهدد بإعادة الطعام إلى حلقه، ولكنه أشاح بوجهه بعيدًا وأخذ نفسًا عميقًا، ثم سمع بعض البحارة يتحدثون بشأن نزاله مع هايز.

كانوا يسخرون منه. لقد وعد بأن يذل هايز ثم يقتله ببطء، وبدلًا من هذا أبرحه المرتزق ضربًا حتى صار التحدث مؤلمًا، حتى سكين آخر في الحشد لم تكن كافية لمساعدته.

عادة ما تجعلهم نظرة ڤيك الحادة يفرون هاربين، ولكنهم كانوا أكثر جرأة بسبب إصابته. لن يمضي وقت طويل قبل أن يأتي أحد ليذبحه، هكذا حصل على هذه الوظيفة، ولهذا يحاول تركها.

هز ڤيك رأسه، لقد أراد أن يستقل، أن يحظى بحياة من الكدح والهدوء. ولكن جزءًا منه يشعر أن هذه ستكون حياته دومًا أينما ذهب. لقد عاش لوقت طويل، ولطالما كان له أعداء، إنه رجل سريع الغضب، مما يعني أنه دومًا ما يجد نفسه مظلومًا، يغلي بسبب إهانات قد تخيلها، ولا ينسى ضغائنه. ولكن به سمة نبيلة معينة، فكونه محاطًا بالأعداء، جعله يبالغ في حماية أحبائه.

إنه يذهب إلى سطح الحظائر كل صباح ليراقب العظة، وبينما يترنم الآخرون بصلواتهم كان يقطع وعدًا للشخص الوحيد الذي سيحفظ وعده معه.

وحينها قد تعرف على الكاذب على متن السفينة.

لم يُدهش ڤيك عندما جاء توم العجوز يناديه، تمامًا كما حدث في ذلك البيت الكبير عندما كان يعمل في الأقاليم. حينها رفض أن يتعاون وخسر عينًا بسبب تعذيب صائد الساحرات اللعين له. وهكذا، عندما همس له توم العجوز في تلك الليلة، وافق ڤيك، ولكنه جعل شروطه واضحة. إنه يعرف من الذي يحميه توم، يعرف غرضه على متن السفينة، ومقابل حفظ هذا السر يريد حياة جديدة لعائلته، بيتًا ووظيفة شريفة، بينما كل أطرافه لا تزال متصلة بجسده.

ولكن توم العجوز وعده بما هو أكثر، فهمس له بثروة تفوق كل أحلامه إن قتل آرينت هايز أثناء نزالهما. لم يذكر الشيطان أن هايز بارع في استخدام النصل أكثر من أي شخص آخر قد رآه ڤيك في حياته. لم يذكر أنه أسرع من أي رجل بهذا الحجم، وأنه قادر على التنبؤ بما ستفعله.

متى سيتعلم أنه لا يجب عليه أن يعقد صفقة مع شيطان لعين؟

تعالت صرخات من سطح السفينة الواقع وراء الستارة.

قفز ڤيك واقفًا وهو يدفع الحلاق-الجراح جانبًا، بينما الديدان تتناثر على الأرضية، قبل أن يخطو خارجًا من المشفى. كان هناك حالة من الفوضى؛ المسؤولون يركضون من هذا الطريق أو ذاك وهم يصرخون بأوامر لا يستجيب لها أحد. لقد أُنزلت الأغطية فوق

الكوات، ونُزع الفاصل الخشبي الذي يقسم السطح إلى قسمين، مما سمح بدحرجة البراميل من مخزن البارود حتى تصل إلى المدافع.

لقد صدر أمر بالتوجه إلى مراكز القتال، المصباح الثامن قد عاد متوهجًا بلهب أحمر كالدم. آخر مرة حدث فيها هذا ذبح حيواناتهم دون أن يُطلق طلقة واحدة.

شق طريقه بين الفوضى وهو يفتش في وجوه الركاب تحسبًا لأن تكون بينهم، عادة ما تكون هناك.

صرخ أحدهم: "حريق!".

بعد سماع ذلك الصوت رأى ڤيك دخانًا أبيض يتصاعد من الأرضية، فاندفع الناس ناحية السلم وهم يدعسون بعضهم بعضًا في محاولة للوصول إلى الهواء النقي.

صرخ: "توقفوا أيها الملاعين! توقفوا وارفعوا الماء!".

لم ينصتوا إليه. أما الصوت الذي زرع الرعب في قلب كل وغد منهم قد ضاع بين صرخات الاستغاثة.

تصاعد الدخان بسرعة، ولكنه لم يكن حريقًا، أي أحمق يمكنه أن يرى هذا، إنه لا يتحرك على النحو الصحيح ويبدو ملمسه زيتيًّا على الجلد، هذا أشبه بضباب.

ومن بين الضباب جاء المجذوم.

تلوى الضباب ثم ابتلعه.

جر ڤيك قدميه عائدًا إلى المشفى ثم انتزع منشارًا من على الجدار. كان يرغب في الجري، ولكن بدا هذا بلا جدوى، فهو لا يقدر على أن

يرى أكثر من خطوتين أمامه. لذا بدلًا من هذا راح يلوح بالمنشار وهو يصرخ في المخلوق ألا يقترب.

أحس بالغثيان بينما تخنقه رائحة الفضلات الكريهة.

شيء حاد ضرب يده مما جعله يسقط المنشار، ثم ظهرت ضمادات المجذوم أمامه.

رفع المجذوم خنجره أمام وجهه.

٦٦

الصرخات بالأسفل والذعر بالأعلى.

توقفت كريسي عند المدخل المؤدي إلى المقصورة الكبرى، والشعيرات منتصبة على ذراعيها. كان ضوء المصباح الثامن الأحمر المتوهج يتسلل من النوافذ ويضفي على كل شيء ظلالًا شيطانية.

تمتمت: "توم العجوز".

جزء منها أراد أن تركض عائدة عبر السلم لتحتضن ابنيها النائمين بالأعلى، ولكن بينما تفكر في الأمر ومض ضوء صغير في الظلمة. طفا ناحيتها كشرارة هاربة من المصباح.

راح قلبها يخفق بعنف.

"أفترض أنه يجب عليكِ العودة إلى مقصورتك". خرج قائد الحرس دريخت إلى الضوء والغليون يتوهج في فمه. "هناك خطب ما".

قالت: "يجب أن أرى الحاكم العام، لقد أمر بهذا".

فكر دريخت في الأمر وعيناه تتفحصانها من تحت حافة قبعته، خُيِّل إليه أن هناك شيئًا بهما، شيئًا يجد صعوبة في تحديده.

لم يبدُ عليه إن كان سيسمح لها بالمرور أم لا، فخطت من جانبه وفتحت باب مقصورة الحاكم العام.

كان المكان معتمًا، فلا شيء يضيئه سوى الضوء الأحمر الذي يتسلل عبر الباب. لم يكن هذا معتادًا بالنسبة ليان، بسبب خوفه من الظلمة، لا يرغب قط أن ينام بدون شمعة مشتعلة.

"يان؟".

في ذلك الوهج الشيطاني صنع خيالها وحوشًا من كل شكل، فذلك الوحش الرابض اتضح أنه طاولة الكتابة، والأشواك على ظهره ليست سوى زجاجات نبيذ.

حامل دروع يان الكامن في الزاوية بدا أشبه بقاطع طريق في أحد الأزقة.

كومة العظام على الأرفف اتضح أنها لفافات موضوعة كيفما اتفق.

اقتربت من الفراش ومدت يدها لتتحسس الجلد البارد تحت أنامله.

صاحت في خوف: "فلتسرع يا دريخت، هناك خطب ما".

اندفع قائد الحرس إلى الحجرة وانحنى فوق الحاكم العام. كان الظلام دامسًا على أن يرى أي شيء، لذا رفع يده، ولكنها سقطت بارتخاء إلى جانب الفراش.

قال: "إنه بارد، فلتجلبي ضوءًا".

ارتجفت كريسي وعيناها مثبتتان على اليد الخالية من الحياة.

صرخ فيها: "اجلبي ضوءًا!". ولكن الصدمة قد جمدتها، فاندفع خارجًا من الحجرة ليجلب شمعة من على الطاولة. ارتجفت الشمعة في طبقها وهو يعود إلى المقصورة.

أكدت الشمعة مخاوفهما؛ لقد مات الحاكم العام بخنجر منغرس في صدره.

٦٧

أسرع القبطان كراوڤلز وهو يقطع خطوتين في المرة الواحدة ناحية الذعر الذي يسود السطح السفلي.

كانت ساردام مشلولة، ولا أحد يستجيب لأوامره، لقد اقترب المصباح الثامن بما يكفي للصعود على متن سفينتهم، ولكنه قد شلهم دون إطلاق طلقة واحدة، والآن يُبحر مبتعدًا وقد انتهى عمله الشيطاني.

بعد أن وصل إلى الجناح الواقع تحت السطح الأوسط، وجد أن السلم المؤدي إلى السطح السفلي مختنق بالأجساد، بينما البحارة والركاب يصارعون بعضهم بعضًا للخروج.

تجاوزهم الدخان الأبيض ثم تصاعد عبر قضبان الشباك الحديدية.

هؤلاء الذين تمكنوا من الهروب جثوا على ركبهم وهم يسعلون.

كان إيزاك لارم يساعد أفراد الطاقم على الجانب الآخر من السفينة، بينما آرينت هايز يجذب الركاب من بين الزحام الخانق. لا يزال عرق المرض يلمع على جلده الشاحب، ولكن لم يبدُ أن هذا قد قلل من قوته.

نظر كراوڤلز إلى الركاب وهم يندفعون صاعدين السلم كنمل يهرب من عش مهدوم، ثم صرخ من فوق الضجيج: "يجب علينا أن نهبط ونطفئ الحريق".

أجابه هايز صارخًا وهو يجذب راكبًا آخر لتحريره: "هذا ليس حريقًا، لا توجد ألسنة لهب ولا حرارة، لا أعرف ما هو، ولكن الخطر الوحيد بالأسفل هناك هو الذعر".

رأى آرينت طفلًا صغيرًا في الحشد، فمد يديه من بين الأجساد التي يضغط بعضها على بعض، وجذبه بين ذراعيه وحمله بأمان إلى سطح السفينة. قفزت أم الصبي إلى الأمام واحتضنته بقوة وهي تبكي.

سأله كراوڤلز: "إن لم يكن حريقًا فما هو إذن؟".

"لقد كان المجذوم". قالها الكونستبل وهو يسعل، بينما يصارع ليشق طريقه صاعدًا السلم. كانت عيناه حمراوين بفعل الدخان والدموع تسيل منهما بغزارة، لا يزال ضعيفًا بسبب جَلده، ولكنه قد استأنف مهامه في مخزن البارود. "لقد رأيته في الدخان... لقد قتل ڤيك و...". اندفع ناحية سور السفينة ليتقيأ في المحيط.

على الفور بدأ آرينت يشق طريقه بين الناس هابطًا السلم.

عندما رأى كراوڤلز أن آرينت قد شق طريقًا اندفع ليلحق به إلى الأسفل. كان الدخان ينقشع بالفعل، وخيوط الدخان المتلوية تتسلل من الكوات.

كان هناك بعض الأشخاص المستلقين على الأرض، بعضهم فاقدو الوعي، وبعضهم يتأوهون ويتشبثون بأطرافهم الدامية.

صرخ كراوڤلز لأعلى عبر السلم: "هؤلاء الناس بحاجة إلى رعاية طبية". ثم واصل شق طريقه عبر الفوضى.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يرى يوهانس ڤيك ممددًا فوق لوح خشبي ووجهه متلوٍّ في آخر تعبير قد ارتسم عليه، لقد بُقرت بطنه كالحيوانات في الحظيرة.

قال القبطان وهو يشعر بالغثيان: "بحق الجحيم، ما الذي يفعله توم العجوز بسفينتي؟".

لقد رأى الكثير من الجثث على مدار مسيرته المهنية، ولكنه لم يرَ أحدًا يستخدم السيف بمثل هذا الاستمتاع الوحشي.

جثا آرينت على ركبته إلى جانب الجثة ليتفحصها بتمعن، قبل أن يتنهد في رضا ويعتدل واقفًا على قدميه. قال آمرًا: "فلتأمر شخصًا ما بجلب إيزابيل إلى هنا بالأسفل".

"لماذا؟".

"لأن ڤيك تفوح منه رائحة البابريكا".

لا يمكن لكراوڤلز أن يتخيل إجابة أكثر إثارة للحيرة، ولكن من الواضح أن آرينت ليس في حالة مزاجية تسمح بأن يفسر الأمر. لقد أسرع بالفعل ليقطع سطح السفينة ناحية الباب المقابل.

ناداه كراوڤلز: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"لإخراج سامي من زنزانته. لقد طال هذا الأمر بما يكفي، نحن بحاجة إليه".

٦٨

وصلت سارا إلى المقصورة الكبرى لتجد شمعة وحيدة مشتعلة في الشمعدان، ويطل لهبها الكئيب من فوق حافة الطاولة. كانت ليا على بعد خطوات قليلة من ورائها، تسرع هابطة من السطح العلوي. لقد سمعتا كريسي تصرخ، ولكن الصوت الذي تتبعاه الآن هو صوت نحيب يأتي مباشرة من مقصورة الحاكم العام.

وقعت أعينهما على الجثة.

كان يرتدي ثياب النوم التي كان يرتديها عندما تركته سارا باكرًا، ولكنها الآن ملطخة بالدماء، وهناك خنجر بمقبض خشبي يبرز من صدره.

لم تشعر بأي شيء، ولا حتى الابتهاج، أدركت أن هناك شيئًا مثيرًا للشفقة حيال الأمر برمته. بعد أن مات وبعد أن تلاشت هالة السلطة التي كانت تحيط به، ظهر على حقيقته؛ مجرد رجل عجوز نحيل ضعيف. كل ثروته ونفوذه ومكره ووحشيته، كل شيء قد صار هباءً منثورًا.

فجأة أحست أنها متعبة للغاية.

سألت سارا ليا: "هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟". ولكن وجه ابنتها أفصح عن كل شيء، لقد تهللت أساريرها بالارتياح مع معرفتها بأن محنتها الفظيعة قد انتهت أخيرًا.

فكرت سارا أن هذا هو ميراثه، ليس سلطته، ولا حكمه لباتافيا، ولا مقعده بين السادة السبعة عشرة، الذي لن يشغله أبدًا. إن ميراثه عائلة تشعر بالسرور لأنه قد مات، ولهذا السبب أحست بشيء من الشفقة تجاهه.

باستثناء جثة زوجها فإن كل شيء في المقصورة تمامًا كما كان؛ قدحين من النبيذ موضوعان على الطاولة، أحدهما فارغ والآخر ممتلئ، ومن بينهما جرة وشمعة يتراقص لهبها. كان هناك راية مهترئة على الأرضية وقد رُسمت علامة توم العجوز على شعار الأسد الذي يمثل الشركة.

أدركت أن قتل زوجها هو المعجزة الشيطانية الثالثة.

عندما رأتها كريسي ألقت بنفسها بين ذراعيها، وللحظة اكتفت كل منهما بمعانقة الأخرى، لم تعرف أيٌّ منهما ما الذي يجب أن تقوله، لم يكن هناك حاجة إلى المواساة، ولا ألم يحتاج إلى تلطيف، أو دموع لمسحها. إن تنشئتهما الدينية تطلب منهما توقير الميت، بينما كل ذكرى للرجل الذي قد قُتل تطلب منهما الرقص والشرب.

بالنسبة لسارا، كان فقط ضحية للمخلوق الذي ينشر الرعب في هذه السفينة، مما يجعله شيء يستحق الدراسة لا الرثاء.

سألتها كريسي في اشمئزاز: "هل لاحظتِ الخنجر؟ أراهن أنه الخنجر الذي وعد توم العجوز بأن يتركه تحت الفراش إن قبلنا صفقته".

حدقت سارا إليه، كان شيئًا قبيحًا بمقبض خشبي، من النوع الذي يُستخدم لسرقة حفنة من العملات المعدنية، إن مكانة يان العظيمة لم تمنحه حتى سلاحًا جميلًا ليُقتل به.

تساءلت سارا إن كان هذا هو المغزى، لقد سلبه توم العجوز كل كبرياء كان يحوزه.

سألتها كريسي: "هل تعتقدين أن شخصًا ما قد قبل عرض توم العجوز؟".

"لا أعرف. إن صار هناك ملك فجأة على متن هذه السفينة خلال بضعة أيام فسأقول أجل". ثم ابتسمت بشحوب قبل أن تشعر بالذنب فقالت: "هل أخبر أحد آرينت؟ نحن قريبون للغاية".

قالت كريسي وهي تتشبث بذراعها: "هل استيقظ؟".

قالت سارا وهي تبتسم: "قبل ساعة".

قالت ليا: "كان هناك حريق في السطح السفلي، سمعت أنه كان يساعدهم بالأسفل".

قالت سارا بشيء من الفخر في صوتها: "بالطبع كان يساعدهم. حسنًا، إن كان يعمل بالأسفل فأفترض أننا يجب أن نبدأ من هنا بالأعلى".

سألتها كريسي: "كيف؟".

"في مثل هذه القضايا، يبدأ بيبس دومًا بالبحث عن الأشياء غير الموجودة التي من المفترض أن تكون موجودة، أو الأشياء الموجودة ومن المفترض ألا تكون موجودة".

قالت كريسي متذمرة: "تبدو وكأنها نصيحة غير مرضية تمامًا بالنسبة لي، كيف نفرق بين الأمرين؟".

هزت سارا كتفيها وقالت: "إنه لم يفسر قط هذا الجزء".

قالت كريسي بإلحاح: "حسنًا، سأخبرك شيئًا، هذه الشمعة كانت مطفأة عندما دلفت إلى المقصورة".

من الواضح أنها تفكر في نفس الشيء الذي تفكر فيه سارا، لا ينام زوجها مطلقًا من دون شمعة، لأنه يخشى الظلام، والأكثر أهمية هو أن سارا قد أضافت عقَّار النوم إلى نبيذه.

لقد شاهدته وهو يتجرعه.

مع تناوله لهذا العقَّار لن يستيقظ قبل الصباح، وحتى لو كان لديه رغبة في هذا فما كان ليقدر على أن ينهض لإطفاء الشمعة، مما يعني أن قاتله قد أطفأها.

التفتت ناحية دريخت الواقف عند المدخل، قائد الحرس الذي لم يعد هناك أحد ليحرسه.

سألته: "هل كنت أنا آخر من رأى زوجي على قيد الحياة؟".

كان غارقًا في أفكاره فلم يجبها على الفور.

قالت سارا: "يا قائد الحرس!". انتزعته نبرتها من أفكاره اليائسة.

قال على الفور: "لا يا سيدتي، لقد استدعاني عند تقديم العشاء وطلب مني أن أفتش المقصورة بحثًا عن خنجر، وطلب مني أن أفعل هذا كل ليلة، قال إن توم العجوز قد هدده".

"وهل فعلت ما طلبه؟".

"بالطبع".

"وهل وجدت خنجرًا؟".

كان الخنجر البارز من صدر زوجها يحمل هالة اتهام. لاحظ أن الجميع ينظرون إليه بطرف أعينهم فقال محتجًّا: "لم يكن هذا الخنجر موجودًا عندما غادرت، وحتى لو كان موجودًا فلم يدخل أحد أو يخرج حتى عثرنا أنا وكريسي على الجثة، لقد كنت في نوبة حراسة طيلة الليل، لم أغفل ولم أذهب بعيدًا".

تمتمت كريسي وهي تفكر: "أتذكر أنني سمعته يناديك أثناء العشاء، وخُيل إليَّ أنه يبدو غريب الأطوار".

وافقها قائد الحرس قائلًا: "لقد كان غريب الأطوار منذ زيارته لمقصورات الركاب".

"متى حدث هذا؟".

جذب لحيته وهو يفتش في ذاكرته ثم قال: "في ليلة موت قوس، لقد أمضى ما بعد الظهيرة منكبًّا على سجل الركاب وقائمة الأسماء الأخرى الموضوعة إلى جانبه، بينما يتمتم بشأن فقدان السيطرة على الشياطين. لا شك أنه قد رأى شيئًا، لأنه قال إن الأمر ليس متعلقًا بالغنيمة، ثم قفز واقفًا وذهب لمواجهة شخص ما. لقد بدا خائفًا".

"من كان؟".

"لم أره، سمعت فقط ما قاله، والطريقة التي قاله بها. أعتقد أنك كنت في انتظاري. كانت هذه هي كلماته، وقد تحدث... في تواضع. لم أسمعه يتحدث هكذا من قبل".

سألته سارا في لهفة: "ما الذي حدث بعدها؟".

أحست بالدماء تتدفق في عروقها، فكرت أن هذا بلا شك ما يشعر به بيبس طيلة الوقت، إثارة الاكتشاف والإحساس بوجود عدو بعيد

المنال، فليغفر لها الرب، إن هذه الرحلة هي أكثر شيء مثير للحماس قد حدث لها في حياتها.

أكمل دريخت حديثه قائلًا: "لقد جاء بعد ساعتين، وطلب مني أن أعيده إلى مقصورته. لم يقل أي شيء، ولكن ما إن صار بداخل مقصورته حتى بدأ في النحيب، وبعدها لم يخرج مرة أخرى".

قالت ليا في عدم تصديق: "أبي كان ينتحب".

راحت سارا تقطع المقصورة جيئة وذهابًا وهي تحاول تفسير تصرف زوجها غير المألوف. لقد كان رجلًا ذا نفوذ، مما يعني أنه لم يكن يذهب لرؤية الناس، بل كان يستدعي من يريده، أيًّا كان ما اكتشفه في سجل الركاب فقد جعله متواضعًا، ولكن أي شيء هذا؟ من الذي سيذهب إلى مقصورات الركاب لرؤيته؟

ذهبت سارا إلى المكتب وتفحصت القوائم، ولكنها لم تستطع أن ترى شيئًا قد يُزعج زوجها. كان هناك ريشة ملقاة إلى جانب القوائم، ولطخة من الحبر قد جفت على الخشب.

انتابها إحساس غريب من الديجافو. قبل ثلاثة أيام فحسب قد فعلت الشيء ذاته في مقصورة كورنليوس ڤوس، ولكنها لم تستطع أن تفسر الأمر. لم يكن هناك شيء لمعرفته أكثر مما قد لاحظه آرينت بالفعل، كل شيء كان مرتبًا باستثناء إيصالات ركوب العائلة، مما يشي أنه كان مشغولًا بالأمر قبل موته. لم تستطع سارا أن تعرف السبب، ولكن شيئًا حيال الأمر قد أزعجها. كان ڤوس رجلًا منظمًا، ولم يكن ليخرج الإيصالات ما لم يكن هناك شيء غير معتاد بها.

قالت: "ليا".

"نعم يا أمي".

"هل يمكنك أن تتفحصي سجل الركاب وقائمة الأشخاص الذين قد استحوذ عليهم توم العجوز، إن لديك عينًا متفحصة وسرعة بديهة، ربما يمكنك أن تري شيئًا قد فاتني".

تهللت أسارير ليا لهذا الإطراء، ثم جلست أمام المكتب.

السؤال الثاني هو ما الذي تناقشا بشأنه، أيًّا ما كان فقد جعل زوجها ينتحب. فكرت أن هذا يشي بأمر له علاقة بآرينت، فهو الشخص الوحيد الذي كان زوجها يحبه.

تلفتت في أرجاء المقصورة مرة أخرى بحثًا عن طرف الخيط الذي سيفسر كل شيء. عادت عيناها مرة أخرى إلى الشمعة، لا شك أن القاتل هو من أطفأها، ولكن لماذا؟ وكيف تمكن من الدخول والخروج دون أن يراه دريخت، ربما دريخت يكذب عليهم، ولكن إيزاك لارم قد أخبرهم أن قائد الحرس قد عُرض عليه مكافأة ضخمة نظير أن يوصل زوجها إلى أمستردام بأمان. كما أن دريخت إن أراد قتله فقد أتيحت له فرص كثيرة في الماضي، لمَ يفعل هذا هنا والآن بينما سيكون من الواضح أنه القاتل؟

تفحصت عيناها الأثاث بحثًا عن أي تفسير آخر. في قضية سر صرخة منتصف الليل، اكتشف بيبس أن هناك بابًا سريًّا أسفل ألواح الأرضية قد أخفى القاتل، الذي ظل مختبئًا هناك حتى انتهت التحقيقات، ثم تسلل عندما صار المكان آمنًا.

بدأت سارا تضرب ألواح الأرضية بقدميها، فنظر إليها الجميع بتعجب.

كانت جميعها مصمتة.

"دريخت؟".

"أمرك يا سيدتي؟".

"هل يمكنك أن تقف على كرسي وتطرق على السقف؟ إن فستاني ثقيل للغاية".

رفع دريخت حاجبًا كثًّا وقال: "أفهم أنك تمرين بمحنة يا سيدتي، ولكن...".

قالت مفسرة: "قد يكون هناك باب سري". ثم مشت إلى المكتب وتفحصت وثائق زوجها قبل أن تقول: "ربما يكون شخص ما قد قفز من الأعلى".

"ولكن هذه مقصورتك يا سيدتي".

"أجل، ولكني لم أكن بها هذا المساء، لأنني كنت أعتني بآرينت".

بينما يفكرون في الأمر ابتسمت ليا، قبل أن تضحك وهي تقول في استمتاع: "هذه فكرة ذكية للغاية". لم يكن أحد يصدق أن جثة أبيها على بعد خطوات قليلة منها.

قالت: "أعتقد أنني عرفت من الذي ذهب أبي لرؤيته".

اقتربت منها كريسي وسارا بينما تُخرج ريشة من محبرة أبيها، قبل أن تضع خطًّا تحت اسم الفيكونتيسة دالفين في سجل الركاب، وخطًّا تحت اسم إيميلي دي هافيلاند في قائمة الأشخاص الذين استحوذ عليهم توم العجوز.

قالت: "ألا ترون الأمر؟". ولكن أحدًا لم يره. "إن دالڤين هو إعادة ترتيب حروف هاڤيلاند".

بدون كلمة اندفعت سارا خارجة من المقصورة بأقصى سرعة يسمح بها فستانها، ومن ثم إلى السطح العلوي. ارتبك دريخت وكريسي وليا بسبب خروجها المفاجئ ثم لحقوا بها.

تحت السماء المرصعة بالنجوم يجري انتشال الأشخاص من الاختناق في السطح السفلي، الأطفال يبكون بينما البالغون يتشبثون بأحبائهم في يأس.

عند مقصورة دالڤين راحت تطرق بإلحاح، ولكن لم يأتها إجابة.

"ڤيكونتيسة دالڤين!".

لم تأتها إجابة أيضًا، فقالت بدلًا من هذا: "إيميلي دي هاڤيلاند؟".

وصلت كريسي وليا ودريخت عند بداية الممر، ولكنها تجاهلتهم وهي تجرب المزلاج، فأصدر الباب صريرًا وهو ينفتح. على الضوء الخافت المتسلل إلى الداخل بدا على الفور وبشكل واضح أن المقصورة خاوية، بل أكثر من خاوية، لم يبدُ أن أحدًا قد استخدمها على الإطلاق. لم ترَ أي متاع أو أي صور على الجدران أو أي فراء على الفراش، وكان المرحاض نظيفًا تمامًا. كانت السجادة الحمراء الضخمة التي تغطي الأرضية هي الشيء الوحيد الذي يشي بأن هناك من سكن المقصورة. تذكرت كيف حاول البحارة إدخالها عبر الباب في صباح ذلك اليوم الأول، ولم تبدُ أصغر حجمًا بعد أن بُسطت على الأرضية، فقد كانت حوافها مطوية عند الجدران.

قطعت المقصورة إلى طاولة الكتابة لتبحث عن شمعة.

تهشم شيء بصوت كريه تحت قدميها.

سألتها ليا من عند المدخل: "ماما؟".

أشارت لها سارا أن تبقى في موضعها. أمسك دريخت بسيفه بينما يشير إلى ليا وكريسي أن تبقيا إلى ورائه.

جثت سارا على ركبتيها ولمست شيئًا متعرجًا وملتويًا، حملته إلى الممر حيث يمكن أن تراه بوضوح أكثر في الضوء، كانت قطعة منحوتة من الخشب، تمامًا مثل التي نحتها النجار عندما صنع لها رفًّا في ذلك الصباح الأول. هل هذا له علاقة بالصوت الذي سمعته دوروثيا؟ هل كانت دالڤين تبني شيئًا هنا؟

أو إيميلي دي هاڤيلاند كما تُعرف الآن.

تمتمت: "لاكساجار كلمة نورنية تعني فخ".

قال دريخت وهو يضيق عينيه وينظر عبر الضوء الخافت: "هناك جسم على طاولة الكتابة". بدا متوترًا، ومن الواضح أنه لا ينوي وضع قدمه داخل المقصورة.

على الفور جلبت سارا من مقصورتها شمعة موضوعة في طبق، قبل أن تعود إلى مقصورة إيميلي دي هاڤيلاند.

كانت موسوعة الشياطين موضوعة على طاولة الكتابة.

تجمدت في موضعها.

عادة لا تغيب إيزابيل عن ناظريها. هل هناك علاقة تربطها بدالڤين لم تذكرها لها؟ وإن كان الأمر هكذا فلمَ تكون الموسوعة هي الشيء الوحيد في حجرة فارغة؟ إن إعادة ترتيب الحروف شيء بارع، ولكن

من الواضح أن إيميلي دي هاڤيلاند قصدت أن يكشف شخص ما الأمر، مما يعني أنها أرادت أن يأتي شخص ما إلى هنا ويكتشف هذا الكتاب.

اقتربت سارا منه بحذر، ثم مدت يدها لتفتح الغلاف.

ولكن ما بداخله لم يكن موسوعة الشياطين.

إنه نفس الغلاف ونفس الورق، بل وحتى نفس الأسلوب في الرسم والكتابة، ولكن المحتويات مختلفة، فبدلًا من الكتابة اللاتينية الكثيفة كان هناك رسومات.

قلبت سارا الصفحة الأولى.

مرسوم بحبر أسود بيت كبير يحترق، يُحيط به حشد غاضب من أشخاص يجذبون الناس إلى خارج البيت ويذبحونهم، في إحدى الزوايا كان صائد الساحرات بيتر فليتشر يراقب بلا اكتراث بينما توم العجوز يضحك في أذنه.

قلبت الصفحة.

كان هناك رسمة أكثر تفصيلًا لبيتر فليتشر وهو مقيد بالأغلال إلى جدار بينما يصرخ. كان توم العجوز ينتزع كل أعضائه من صدره، ويضعها في كومة على الأرض.

قلبت سارا الصفحة وهي تشعر بالغثيان.

هنا كانت لوحة لهم وهم يستقلون السفينة في باتاڤيا؛ سارا وزوجها وليا على السطح العلوي، بينما سامويل بيبس وآرينت يدفعهما دريخت عبر الحشود، بينما توم العجوز يتربص بهم وهو يمتطي ذئبًا بوجه خفاش.

قلبت الصفحة وهي تشعر بالدوار.

كانت هذه لوحة تمثل ساردام في البحر والأسطول يحيط بها، وفي الأفق كان المصباح الثامن، ولكنه لم يكن سفينة، بل توم العجوز يحمل مصباحًا في يده.

في الصفحة الخامسة كان المجذوم يذبح ماشية ساردام، بينما توم العجوز يرقص بين الجثث.

في الصفحة السادسة المجذوم يتسلل عبر الضباب في السطح السفلي ويتعقبه توم العجوز.

جاءت كريسي من ورائها وسألتها: "ما هذا يا عزيزتي؟".

قالت سارا في اشمئزاز: "إنها مذكرة توضح كل شيء قد حدث". ثم قلبت الصفحة لتكشف عن رسمة لزوجها ميت في فراشه والخنجر في صدره.

شهقت ليا وهي تقف إلى جانبها، ثم قالت: "أماه! هذا هو المشهد بالضبط، كيف يعقل أن دالقين كانت تعرف ما سيحدث؟".

أحست سارا أن يدها ثقيلة كالحجر، ولكن كان عليها أن ترى ما سيأتي لاحقًا.

سفينة ساردام مشتعلة بالنيران، والركاب متشبثون بجسد توم العجوز العملاق وهو يحملهم إلى جزيرة قريبة. كان الشيطان يحدق إلى خارج الصفحة ناحية سارا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، إنه يعرف أنها تقرأ الكتاب.

على الصفحة المقابلة كانت علامة توم العجوز تطفو على سطح المحيط، وساردام ذرة ضئيلة من تحتها.

شيء ما راح يلح عليها، إن العلامة مرسومة بشكل غريب، وقد تكسرت الخطوط المألوفة إلى أشكال شبه دائرية بأحجام مختلفة، كما لو أن إيميلي قد تركت الحبر يتقاطر من ريشتها على الورق.

ثم اختنقت الأنفاس في حلق سارا.

أدركت في رعب متزايد أن هذه لم تكن علامة توم العجوز، بل رسمة لجزيرة تبحر ساردام ناحيتها.

هذا هو المكان الذي جاء منه الرمز.

لقد تحققت المعجزات الشيطانية الثلاثة، والآن يأخذهم توم العجوز إلى بيته.

٦٩

حدق آرينت إلى إيزابيل فبادلته التحديق.

من ورائها قال القبطان كراوقلز: "بابريكا؟".

ضحك سامي في ضعف، كان هذا أكثر ما استطاع فعله، فأثناء اليومين اللذين نامهما آرينت كانت سارا قد طلبت من الفارس ثيمان أن يصطحبه إلى تريضه. كان محاورًا مفعمًا بالحيوية بشكل مفاجئ، ولكنه لم يكن متحمسًا للسهر معه طوال الليل كما كان آرينت يفعل، ونتيجة لهذا قضى معظم اليومين في زنزانته الضيقة المظلمة، مما جعله منهكًا، وضعيفًا، وشاحبًا كالموتى، ومبتلًّا بالعرق، ومصابًا بسعال شديد. كان في هذه اللحظة يتفحص جثة ڤيك، وأصابعه تقفز من مكان لآخر كذباب مذعور. قال سامي: "تخيلوا شعوري، قبل أربع سنوات مضت حاولت أن أدربه ولم أحقق أي نتيجة، ولكن عندما أختفي لبضعة أسابيع يصنع الأعاجيب".

قال آرينت متجاهلًا المزحة: "لقد أمسك الكونستبل بإيزابيل وهي تتسلل في أرجاء السفينة بالليل، وقد اشتممت منها رائحة البابريكا طيلة الأيام القليلة الماضية، كما لاحظت أن الرائحة كانت تفوح من ڤيك بينما نتصارع. إن البابريكا لا تُخزن إلا في موضع محدد في مخزن البضائع، مكان لن يكون لدى أي منهما سبب للذهاب إليه إلا إذا كانا يجتمعان هناك".

سألها كراوڤلز: "هل هذا صحيح؟".

قال آرينت وهو يحاول التحديق إلى عينيها بينما تتحاشى النظر إليه: "أراهن أن الطفل الذي في بطنها طفله، هل عقدتِ صفقة مع توم العجوز لقتله لأنه جعلك تحبلين؟".

ومضت عيناها بالغضب وهي تقول: "قتله؟ لقد كان صديقي، وهذا ليس طفله، ولكنه قد شعر بالشفقة عليه".

قال كراوڤلز ساخرًا: "الشفقة؟".

نظرت إليه إيزابيل بغضب وقالت: "إنه يعرفني منذ زمن بعيد، إنه يُبحر إلى باتاڤيا عندما كنت طفلة صغيرة، أتوسل على أرصفة الميناء، لقد منحني مالًا من أجل الطعام والفراش، وقد عاد هذه المرة ليجدني حبلى بلا أب ليربي الطفل. قال إنه قد اكتفى من هذه الحياة وإنه سيعتني بنا في الأقاليم إن غامرت بالإبحار معه. لم أستطع أن أتحمل تكلفة الإبحار على متن السفينة، لذا قلت لا. ولكن بعدها قال لي ساندر إنه قد تعقب توم العجوز إلى هذه السفينة، وإن علينا أن نطارده. ظننت أن الرب قد رضي عني أخيرًا".

قال سامي متسائلًا: "لا يوجد عيب في هذا الأمر، فلمَ كنتما تلتقيان سرًّا؟".

قالت: "لكي تكون عريف الملاحين يجب على الآخرين أن يخافوك، هذا ما قاله لي. إن عرفوا أنه يبالي بشيء ما فسيؤذونه لكي يؤذوه".

وافقها كراوڤلز قائلًا: "إن مهمة عريف الملاحين هي السيطرة على أفراد الطاقم، إن فشل في هذا فسينتهي به المطاف ميتًا. لقد كان ڤيك بارعًا تمامًا في هذا الأمر، مما يعني أنه كان شخصًا شنيعًا".

قالت وصوتها لا يزال مفعمًا بالاستياء: "لم يكن من المفترض أن نتواصل حتى نصل أمستردام، ولكنه أرسل لي رسالة أنه يرغب في أن يلتقي بي عند مقدمة السفينة، ولكني حينها فوجئت بالقزم ذاهبًا إلى هناك. لذا أرسل لي خبرًا بأن ألتقي به في مخزن البضائع، قال لي إنه قد رأى شخصًا ما على متن السفينة يتظاهر بأنه شخص آخر، قال إنه قد تعرف عليه من بيت العائلة الكبيرة التي اعتاد العمل لديها".

سألها آرينت: "من كان؟".

"لم يخبرني، قال إن الوضع ليس آمنًا، ولكنهم سيدفعون ثمنًا باهظًا لإبقاء الأمر سرًّا، وأننا بعد هذا سنحظى بالحياة التي وعدني بها". ثم نظرت إلى جثته وقالت بمرارة: "ولكن بدلًا من هذا انتهى به المطاف هكذا".

"أي عائلة كان يخدمها؟".

"لم يخبرني".

قالت سارا وهي تهبط السلم: "لا شك أنها عائلة دي هاڤيلاند، إن دالڤين هي إعادة ترتيب لحرف هاڤيلاند، وقد كانت إيميلي هاڤيلاند واحدة من الأشخاص الذين استحوذ عليهم توم العجوز في الأقاليم قبل ثلاثين عامًا. كانت على متن السفينة طيلة الوقت. لقد لاحظت ليا الأمر، وكذلك لاحظه زوجي، وقد ذهب إلى هناك لمواجهتها قبل...".

نظرت إلى آرينت في تعاطف قبل أن تقول بصوت متهدج: "لقد مات يا آرينت".

أمسكت بيده بينما سامي يقترب منه ويقول: "تقبل خالص عزائي يا صديقي".

ازدرد آرينت لعابه ثم جلس على أحد الصناديق.

قال بصوت مختنق: "أعرف أن عمي كان... أن ما فعله...".

قالت سارا برفق: "لقد أحبك رغم كل شيء".

بينما سارا تواسي آرينت، مد سامي يده ليثبت المصباح المتأرجح من فوقهم وقال: "دعونا نضع كل شيء جنبًا إلى جنب، لقد تعرف ڤيك على إيميلي دي هاڤيلاند على متن السفينة، وعلى الأرجح أثناء صعودها على متنها. لقد خدم العائلة قديمًا في الأقاليم، ويعرف أنها قد اتهمت ذات يوم بأن الشيطان قد استحوذ عليها، وأن بيتر فليتشر قد حقق في أمرها. حاول ڤيك ابتزازها، ولكنها أرسلت تابعها المجذوم...".

قاطعه كراوڤلز بعدائية: "نجاري الميت".

أكمل سامي: "لكي يقتله".

تساءلت سارا: "ولكن لمَ قد تبالي إيميلي دي هاڤيلاند كثيرًا بشأن حماية اسم تعرف أننا سنكتشفه؟ لقد صعدت على متن السفينة باستخدام اسم مركب من حروف اسمها، لقد أرادت منا أن نكشف الأمر في نهاية المطاف".

قال آرينت مقترحًا: "ربما كانت تبالي بالوقت الذي سنكتشف فيه هذا". ولكنه لم يبدُ مقتنعًا.

صاح كراوڤلز وهو يهز رأسه: "لا شيء من هذا مهم. لقد وعدنا توم العجوز بثلاث معجزات شيطانية قبل أن يذبح أي شخص لم يقبل واحدة من صفقاته. حسنًا لقد اكتملت المعجزات، من وجهة نظري فالطريقة الوحيدة لإيقافه الآن هي العثور على إيميلي دي هاڤيلاند، وتقييد يديها وقدميها، وإلقاؤها في الماء".

قالت سارا ساخرة: "إغراق الساحرة، يا لها من فكرة جديدة".

٧٠

اجتمع مجموعة من الأشخاص المتجهمين تحت مصباح متأرجح بينما الظلال تتراقص على الجدران. الكتاب الذي عثروا عليه في مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين موضوع في منتصف الطاولة، والجميع يقفون على مسافة بعيدة منه. لقد رأوا جميعًا ما بداخله، وجميعهم يفضلون لو لم يروه.

مع موت الحاكم العام صار كبير التجار هو السيد المطلق للسفينة، رغم أنه لم يبدُ سعيدًا بهذا. كان ممتقع الوجه ويتحرك جيئة وذهابًا أمام النوافذ، بينما يمرر يديه عبر شعره الخفيف. لم يتبقَّ أي نبيذ ليشربه، ولكن بدا أن أصابعه تتوق لهذا.

فكر آرينت أنه حتى هذه الخواتم المرصعة قد فقدت بريقها.

قال رينير ڤان شوتن: "عشرات الموتى ومن بينهم الحاكم العام، يجب علينا أن نوقف هذا الأمر قبل أن يبتلع السفينة". ثم التفت إلى آرينت وأشار إليه بإصبع الاتهام قائلًا: "ألم يكلفك عمك بمسؤولية إيجاد هذا الشيطان عندما ظهرت علامته لأول مرة على الشراع؟ كيف لم تتنبه إلى حقيقة أن الڤيكونتيسة دالڤين هي في الواقع إيميلي دي هاڤيلاند؟".

قال سامي في سخرية وهو يضع قدميه على الطاولة: "أجل، لأن بقيتكم كنتم على الأرجح تشعرون بالريبة".

رغم كل ما حدث، خصص وقتًا للاستحمام في الماء المالح وتغيير ملابسه بثياب قد جلبها له آرينت. لقد استحم ووضع المساحيق وتعطر، مما يعني أنه لأول مرة منذ أسابيع صار شبيهًا بنفسه، رغم أنه لم يكن قادرًا على إخفاء الضعف في جسده أو الرعشة الخفيفة في صوته.

أكمل حديثه قائلًا: "كما أننا لا نعرف على وجه اليقين أن الاثنين هما الشخص نفسه، نعرف فقط أن شخصًا ما قد صعد على متن السفينة باستخدام اسم مركب من حروف اسم هاڤيلاند. ربما يعني هذا أن إيميلي دي هاڤيلاند تلعب لعبة ما، أو أن شخصًا آخر يحاول خداعنا. لا تفترض شيئًا يا كبير التجار". ضحك وفرك يديه معًا ثم قال: "هذه حقًّا قضية رائعة، لو أن شخصًا ما قد جلبها لي في أمستردام لقفزت في بهجة".

أحس ڤان شوتن بالغضب من سلوكه الوقح فقال في حدة: "من سمح لك بالخروج بحق الجحيم؟".

قال آرينت وهو يعقد ذراعيه على صدره الضخم: "أنا من سمح له بهذا. لقد مات عمي، ورحل معه السبب الوحيد لإبقاء سامي سجينًا. الآن وقد تحققت المعجزات الشيطانية الثلاثة، فنحن نحتاج إليه خارج الزنزانة للتحقيق في الأمر لا أن يتعفن في زنزانة رطبة".

تمتم جميع من بالحجرة بالموافقة، مما أجبر ڤان شوتن على الاستسلام منهزمًا، ولكن على مضض.

تساءل قائلًا: "إذن أين توجد الآن الراكبة التي كانت موجودة في تلك المقصورة؟".

قال سامي معترفًا: "لا أعرف. هل التقى أحد بها؟".

قال كراوڤلز وهو يستفيق من أفكاره لأول مرة منذ أن صعدوا من السطح السفلي: "مرة واحدة". كان القبطان واقفًا على رأس الطاولة واضعًا راحتيه على سطحها. "فستان رمادي طويل، وشعر رمادي طويل. تُشبه ڤوس بطريقة ما غريبة. كان لها تلك الطريقة الغريبة الخاوية في النظر إليك. لقد جلست في الظلمة وصرخت في وجهي أن أتركها وشأنها".

سأله سامي: "ماذا عن فتيان الخدمة؟ هل كان أحدهم يعتني بمقصورتها؟".

أجابه ڤان شوتن في أسف: "كان محرمًا عليهم دخولها".

"إذن من كان يُفرغ مراحيضها؟".

قالت كريسي وهي تُجعِّد أنفها كأنما لا تزال تشتم الرائحة: "كانت تتركها خارج بابها كل ليلة".

سألت سارا: "إن كانت تسعى جاهدة للبقاء مختبئة، فلمَ غامرت بحجز مقصورة؟".

قال ڤان شوتن: "منذ متى ونحن نسمح للنساء بالانخراط في هذه الاجتماعات؟". كان قد شعر بالغضب من جديد بعد أن أدرك أن سارا وليا وكريسي يجلسن على الطرف الآخر من الطاولة المقابل لكراوڤلز. "هذا ليس من شأن النساء".

أجابته كريسي بحدة مماثلة: "هل سيكون هذا من شأن النساء عندما يُغرق توم العجوز السفينة؟".

قال كراوڤلز بحزم: "لا يهم من هنا ومن ليس هنا، المهم هو ما يجب علينا أن نفعله الآن، كيف ننقذ ساردام؟ حتى هذه اللحظة كان توم العجوز قادرًا على المجيء والذهاب كما يحلو له، وأن يذبح كما يشاء. لقد سمعت حكايات عنك يا بيبس، أريد منك أن تساعدني في إخراج إيميلي دي هاڤيلاند من الجحر الذي تختبئ فيه".

تنهد سامي وقال: "لن نقدر على العثور عليها أيها القبطان. إيميلي أو توم العجوز أو أيًّا من كان المتسبب في كل هذا قد خطط لكل شيء بدقة". لوح بيده إلى سماء الليل وراء النوافذ وقال: "هناك سفينة بالخارج من المفترض أنها تحت سيطرتها، ولديها مجذوم ينفذ رغباتها دون أن نتمكن من العثور عليه. لقد سرقت الغنيمة دون أن يدرك أحد هذا، وذبحت ماشيتنا بينما نقف على مسافة عشرين خطوة منها، والآن قد تمكنت من قتل أقوى رجل على متن السفينة دون أن تحتاج إلى دخول مقصورته. لقد اختفت لأن هذا هو وقت اختفائها. هل تعتقد أننا سنجدها مختبئة في عش غراب؟".

صرخ كراوڤلز وقد بدا عليه أنه يزداد غضبًا كلما تكلم سامي لوقت أطول: "يجب علينا أن نفعل شيئًا ما".

قال سامي ضاحكًا: "وأنا سأفعل شيئًا ما. ولكن الغباء ليس خطًّا مستقيمًا كما قد يبدو للوهلة الأولى. أنا أرى أن هناك ثلاثة أسئلة مهمة، ومكان إيميلي دي هاڤيلاند ليس واحدًا منها. الأول هو ما الذي يربط بين المعجزات الشيطانية الثلاثة؛ لمَ قد يسرق عدونا الغنيمة ويذبح بعض الحيوانات ثم يقتل الحاكم العام؟".

قالت كريسي وهي تستخدم يدها للتهوية على وجهها: "ظننت أنها أفعال عشوائية".

نظر إليها سامي، ثم جذب قدميه من على الطاولة واعتدل واقفًا وانحنى بكياسة قبل أن يقول: "لا أعتقد أننا قد التقينا من قبل يا سيدتي، أنا ساموِيل بيبس".

أومأت برأسها وهي تضحك بلطف قبل أن تقول: "أنت تستحق كل ما قاله عنك آرينت في قصصه يا سيدي".

"الأمر يزداد صعوبة مع كل قصة يكتبها، بضع سنوات أخرى تحت ريشة آرينت ولن أصير شيئًا سوى براعة وفضيلة". ابتسم كل منهما للآخر وبدا أن صداقة قد نشأت بينهما. "لأجيب عن سؤالك فيبدو أن المعجزات الشيطانية كانت عشوائية، ولكن لا شيء آخر في هذه القضية كان عشوائيًّا، وأشك أن توم العجوز قد بدأ الآن، فهذه المعجزات كان مخططًا لها، مما يعني أنها اختيرت بعناية".

الآن وقد وقف راح يقطع المقصورة جيئة وذهابًا وهو يطعن الهواء بإصبعه بينما يتحدث: "سؤالي الثاني هو كيف قُتل الحاكم العام؟ والثالث هو لمَ قتل المجذوم كورنليوس ڤوس وترك آرينت على قيد الحياة؟ أثق أنني ما إن أجيب عن هذه الأسئلة فسيكشف بقية هذا اللغز العجيب عن نفسه".

صاح كراوڤلز: "هذا كل شيء!؟ تعتقد أنك ستحل جريمة قتل وبهذا ستُنهي عذابنا؟ في كل مرة يتوهج فيها ذلك المصباح الثامن بالضوء الأحمر تمزق سفينتي نفسها. لقد تسلق المجذوم من البحر ليصل مقصورة سارا، والآن إيميلي دي هاڤيلاند تعيث فسادًا على متن سفينتي. إن إرسال آرينت لمواجهة الأمر كان أشبه بإرسال طفل إلى حرب، والآن أرى أنك لست أفضل منه حالًا". نظر إلى الجميع متجهمًا ثم اندفع خارجًا من المقصورة.

قال ڤان شوتن وهو يلاحقه ببصره: "فلتباشر عملك يا بيبس، أنا سأهدئ كراوڤلز. لارم، يجب علينا أن نجعل البحارة يعودون إلى الإبحار وألا يقلقوا بشأن الشياطين. سيساعدنا أن نجد عريفًا جديدًا للملاحين".

قال لارم الذي كان متكئًا على المدخل المؤدي إلى حجرة الدفة: "عادة ما يطعن المرشحون بعضهم بعضًا حتى لا يتبقى سوى واحد فقط، ولكني سأحاول أن أعجل بالأمر".

أشار سامي لآرينت ثم توجه كلاهما إلى مقصورة الحاكم العام. خطا سامي إلى الداخل مباشرة، ولكن آرينت لم يتمكن من تجاوز عتبة الباب. كان يشعر بإحساس خانق من الرهبة، بينما عيناه تزيغان كلما حاول النظر إلى الفراش.

عندما رأى عمه أخيرًا جعله الألم يرغب في أن يصرخ.

عضَّ على نواجذه وراح يرمش بعينيه ليبعد الدموع بينما يحاول أن يفهم إحساسه بالفاجعة.

في كل الأحوال لم يكن هذا عمه الذي يتذكره، لقد حلت القسوة محل اللطف، لقد ضرب سارا، وحبس ليا، وعقد صفقة مع توم العجوز. لقد أولى ظهره للمثل العليا التي كان يعتنقها عندما كان آرينت صبيًّا، ومع ذلك... لقد أحبه آرينت.

وقد استمر هذا الحب، سواء كان مكتسبًا أو مستحقًّا أو صحيحًا، فقد احتل مكانًا في قلبه، ولم يستطع إزاحته مهما حاول.

لخمس عشرة دقيقة راقب آرينت سامي وهو يتفحص كل شيء بعينيه، ويلمس ويتحسس ويقلب ويحدق ويقطع الحجرة كنسيم

هواء فضولي، تاركًا الأشياء التي تفحصها في موضعها الأصلي بدقة. ما إن شعر بالرضا حتى أخرج الخنجر من جثة الحاكم العام بصوت مثير للغثيان، ثم تفحص الجرح.

قال وهو يزيح قطعًا خشبية صغيرة من صدر الحاكم العام: "إنها شظايا، على الأرجح من مقبض سلاح الجريمة. قل لي ما رأيك في هذا يا آرينت".

بينما سامي لا يزال مشغولًا مرر الخنجر والشظايا إلى يدي آرينت، دومًا ما يطلب منه سامي أن يتفحص أسلحة الجريمة. في حال أن خبرته كجندي ستكون مفيدة، ولكن هذا مختلف.

هذا ليس سلاحًا، بل مصدرًا لإحساسه بالذنب.

لقد قُتل عمه على مسافة طابقين منه، كيف يُعقل هذا؟ لقد أنقذه آرينت ذات مرة من الجيش الإسباني بأسره، فلماذا لم يقدر على حمايته من همس في الظلام؟

في أعماقه -حيث تحول حزنه إلى لوم- اقترح صوت أنه ربما لم يرغب في إنقاذه، الآن وقد مات فقد تحررت سارا منه.

قال لنفسه: "اصمت".

سأله سامي: "ماذا؟". كان يزحف على الأرضية على يديه وركبتيه، وعيناه تكادان أن تلمسا الألواح الخشبية بينما يبحث عن طرف خيط.

تمتم آرينت في حرج: "لا شيء". ثم راح يتفحص الخنجر؛ كان أقصر من المعتاد، وبنصل أكثر نحافة، أدرك أنه نحيف للغاية حتى يكاد أن يكون هشًّا. لا يمكن لأي حداد أن يصنع سلاحًا على هذا النحو، لأنه سيكون عديم النفع وسينكسر عندما يرتطم بالدروع.

قال آرينت وهو يزن الخنجر في راحة يده: "أنا أعرف هذا السلاح، لقد هددني به المجذوم في مخزن البضائع".

"هذا مثير للاهتمام، لأن بصمات يدي المجذوم تصعد إلى الكوة ومن فوقها سبعة خطاطيف على مسافات متباعدة. لا أعرف الغرض منها، ولكن يجب علينا أن نكتشفه".

"إذن فأنت تتهم المجذوم بقتل عمي؟".

"يجب أن نضع هذا المخلوق في الحسبان، فبناء على برودة جثة الحاكم العام ودرجة تخثر دمه أقترح أنه قد مات قبل ساعات من إشعال كريسي وقائد الحرس دريخت للشمعة".

سأله آرينت: "إذن تعتقد أنه قد قُتل أثناء العشاء؟ هذا من شأنه أن يستبعد جميع الركاب، فقد تناولوا الطعام معًا".

"يجب علينا أن نتيقن أن أيًّا منهم لم يترك العشاء لأي سبب. إن كان هذا لم يحدث فأخشى أنه يضع سارا ڤيسل في موضع سيئ للغاية".

عندما رأى اعتراض آرينت رفع يده ليهدئه وقال: "أعرف أنك مغرم بها، ولكنك كنت فاقد الوعي معظم المساء. كان بمقدورها بسهولة أن تترك جانبك. كل ما نعرفه هو أنها ربما رأت فرصة لقتل شيطان ولوم شيطان آخر على هذا الفعل، فاغتنمت الفرصة".

ارتجف آرينت وهو يتذكر كيف كان ڤوس يخطط لفعل الشيء ذاته، كان سينجح في خطته لو لم يتدخل المجذوم.

قال سامي وهو ينظر إلى خارج الكوة: "والآن نصل إلى مسألة إطفاء الشمعة. قالت سارا إن زوجها لم ينم قط من دون ضوء، ولا

ليوم واحد طيلة السنوات التي عرفته فيها. وقد أكدت كريسي على هذا. من الواضح أنه كان يخشى الظلام، وهو شيء لن يعرفه إلا أحد المقربين منه. هل كان هناك رياح قوية هذه الليلة؟".

"لا".

وضع سامي جسده على مسافة متساوية ما بين الكوة وطاولة الكتابة، ومد ذراعيه، ومع ذلك لم يستطع أن يصل إلى الشمعة. "وسيكون من المستحيل أن يميل شخص بجسده ويطفئها من الخارج".

التقط سامي حافظة لفافات من وراء الرف الشبكي وألقى بها ناحية آرينت، ثم قال آمرًا: "سيكون علينا أن نفتش كل شيء في هذه الحجرة، لذا فلتبدأ من هنا".

جر آرينت قدميه إلى طاولة الكتابة ثم ألقى بجسده ليجلس في ثقل، قبل أن ينتزع الغطاء من الحافظة ليخرج اللفافة من داخلها. أدرك أنه مخطط للغنيمة، أو على الأقل جزء صغير منها.

قال سامي: "آرينت؟". كان ينظر لأعلى ناحية الكوة بينما يضع ذقنه على الأرضية. "كيف كان إيزاك لارم يشعر تجاه عمك؟".

قال آرينت: "كان يكره المذبحة التي أمر بها عمي في جزر باندا، ولكن عدا ذلك لا أعرف. لماذا؟".

"لأنه يمكن لقزمنا هذا أن يدخل عبر الكوة مع قليل من التلوي".

نظر آرينت إلى الكوة محاولًا أن يتخيل لارم وهو يضغط جسده من خلالها.

قال آرينت معترضًا: "كانت الضجة لتوقظ عمي وتجعل دريخت يركض إلى الداخل". ثم أمسك باللفافة التالية.

عزيزي يان،

حالتي الصحية تتدهور، ولن أرى صيفًا آخر.

عند موتي سيصير موضعي بين السادة السبعة عشرة شاغرًا، ولألتزم بالوعد الذي قطعته لك -ومكافأة لك على تعاوننا العظيم طيلة السنوات الماضية- فقد رشحتك من أجل المنصب، وقد وافق زملائي.

ولكن كل واحد منهم لديه من يفضله، لذا بدأت المناورة. لا يمكنني أن أضمن لك هذا المنصب بمجرد موتي.

استمع لنصيحتي وعد إلى أمستردام دون تلكؤ، فلتجلب ابنتك، فهي في سن الزواج، وسوف تنفعك كثيرًا عندما تبدأ المقايضة.

ضع الأغلال في يدي سامويل بيبس. لقد وصلني اتهام بأنه جاسوس لصالح الإنجليز، إنه ليس خائنًا لمشروعنا النبيل فحسب، بل لأمتنا بأسرها. هذا الأمر ليس معروفًا للجميع بعد، ولكني تيقنت من المزاعم وسأعرضها على زملائي قريبًا. الإعدام ينتظره. فلتجلبه ليمثل أمام السادة السبعة عشرة وستتحسن مكانتك كثيرًا. افعل هذه الأشياء وتعالَ بسرعة.

مع خالص مودتي

كاسبر ڤان دين بيرج

قرأ سامي الرسالة من فوق كتف آرينت، وعلى الفور شعر بالارتباك. لم يكن التعاطف شيئًا يبرع فيه، كونه رجلًا يرى أن الجثث قرائن وأن جرائم القتل جزء من مهنته، ولكنه ربت على كتف صديقه في شيء أشبه بالتعاطف.

قال له: "تقبل مواساتي، أعرف أنك كنت تحب جدك، وسماع هذا في نفس الوقت الذي...".

قاطعه آرينت قائلًا: "إنه لا يحتضر".

نظر سامي إلى وجهه الخالي من التعبيرات وقال: "قد يكون الأمر صعبًا".

قال وهو يشير إلى الورقة: "هذه الرسالة يعود تاريخها إلى ما قبل إبحارنا بأسبوع، ولا شك أنها وصلت إلى باتاڤيا في نفس الوقت الذي وصلنا إليها. لقد رأيت جدي قبل رحيلنا عن أمستردام ببضعة أيام. كنت قلقًا أنني قد لا أنجو من الرحلة، ولم أرغب في أن يعتقد...". ازدرد آرينت لعابه وقال: "كان بصحة جيدة يا سامي، عجوزًا، ولكنه لم يكن يحتضر. إنه لم يكتب هذه ولم يتهمك بكونك جاسوسًا".

انتزع سامي الرسالة من يده، ثم قال: "إذن فمن كتبها هو شخص يعرف جيدًا ما يفعله. هل كان عمك قريبًا من إيميلي دي هاڤيلاند؟".

"إنه لم يذكرها، وحسبما أعرف فإن عائلتها قد سقطت قبل وقت طويل من صعود أسهم عمي بما يكفي لأن يلتقي بها، ربما عرفها جدي فإن عمره يقارب عمرها".

"إن الخطاب يذكر تعاونًا عظيمًا بينهما، هل تملك أدنى فكرة عن ماهيته؟".

"لقد تصادق جدي ويان هان قبل مولدي بسنوات، وقد عملا معًا لوقت قصير، ولكني لا أعرف ما الذي كانا يفعلانه، ولكن هذا قد ساعد في جعل كليهما ثريًّا".

لفّ سامي الرسالة ثم وضع حواف الختم المتكسرة معًا مرة أخرى، قبل أن يقول: "هذا هو الختم الرسمي للسادة السبعة عشرة، لا يعرف هيئته إلا كبار المسؤولين في الشركة، ناهيك عن معرفة كيفية تزوير الطابع. وحتى حينها يجب أن يسلمه ممثل عن الشركة يمكن الوثوق فيه".

"من قد يكون هذا؟".

نفخ سامي وهو يضم شفتيه ليسقط خطاب الاستدعاء من جديد على الطاولة، ثم مشى ليتفحص قدحي النبيذ وهو يقول: "ربما يكون ڤوس هو من فعله، أو القبطان كراوڤلز، أو رينير ڤان شوتن، أو أنا. أو ربما يكون شخصًا ليس على متن السفينة، أو لم يعد على متنها".

تساءل آرينت: "هل يمكن أن تكون الڤيكونتيسة دالڤين هي من أوصلت الرسالة؟ نحن نعرف أن عمي قد ذهب لرؤيتها قبل موته، ربما أرادت سجنك في زنزانة لكيلا تتمكن من التحقيق في جريمة قتله".

وافقه سامي قائلًا: "ملحوظة جيدة، إن كان لها علاقة بالسادة السبعة عشرة فبالتأكيد سيثقون في حيازتها للختم".

فجأة قال آرينت: "لقد استُدرِج عمي إلى هنا، أليس كذلك؟ تمامًا مثل ساندر كيرس، لقد أراد توم العجوز أن يكون كلاهما على متن السفينة".

تشمم سامي رائحة القدحين مرة أخرى ثم قال: "أشك أيضًا أنك هنا من باب المصادفة. إن توم العجوز كان حكايتك، العلامة هي نفس ندبتك، ومسبحة أبيك كانت في حظائر الحيوانات، والمجذوم قد تركك أنت على قيد الحياة في مخزن البضائع. كل شيء قد حدث على متن هذه السفينة يرتبط بك بشكل أو بآخر".

"ولكني على متن السفينة فقط لأنك كنت محتجزًا".

"مما يعيدنا إلى دالڤين".

قلَّب سامي الفكرة في رأسه، بينما يحرك جرة النبيذ جيئة وذهابًا، ويصغي باهتمام إلى حركة السائل بالداخل. ثم أفرغ النبيذ في كأس فارغ وشاهد تدفق السائل.

قال وهو يحدق إلى الكأس: "هذا السائل ملوث، تعالَ وانظر".

في البداية لم يرَ آرينت شيئًا، ولكن سامي قرَّب الشمعة ليكشف عن رواسب لزجة قد استقرت في القاع.

استخدم سامي طرف إصبعه ليتذوقه.

سأله آرينت: "هل يمكنك التعرف عليه؟".

"هذا عقَّار النوم الذي منحته لي سارا".

"ربما كان عمي يتناوله أيضًا".

قال سامي: "وربما يجب علينا أن ندع السيدة تفسر لنا الأمر بنفسها". ثم فتح الباب وخطا عائدًا إلى المقصورة الكبرى. كان كل شخص جالسًا في الموضع الذي تركه فيه، كل واحد غارق في أفكاره الخاصة بعينين زائغتين، ينقر بأصابعه ويراوح بين قدميه.

اقترب سامي من سارا وليا وكريسي وهو يمرر عينيه بشكل غير ملحوظ ليتفحص ملابس لارم بينما يمشي من جانبه. توقف فجأة وقال: "إن لديك رقائق من طلاء أخضر على سروالك، ما السبب؟".

نظر إليه متجهمًا وقال: "هذا ليس من شأنـ...".

قال ڤان شوتن محذرًا: "فلتجبه". كان واقفًا عند النوافذ شابكًا يديه وراء ظهره.

نظر لارم نظرة حادة وقال: "أنا أتحرك في هذه السفينة صعودًا ونزولًا، أليس كذلك؟".

"إن هيكل السفينة خارج مقصورة الحاكم العام مطلي باللون الأخضر".

"أجل، وكذلك مقدمة السفينة حيث أقضي معظم وقتي".

تفحص سامي وجهه للحظة طويلة غير مريحة حتى سب لارم واندفع خارجًا من المقصورة. ما إن اختفى حتى أولى سامي اهتمامه لسارا وقال: "هل كان زوجك يتناول عقَّارًا قبل أن يخلد إلى الفراش؟".

قالت سارا وهي تمد يديها لتمسك بيدي ليا وكريسي: "لا، كنت أضع عقَّارًا في نبيذ زوجي لكي تتمكن كريسي من سرقة مخططات الغنيمة".

قالتها كأن هذا شيء معقول تمامًا.

أكملت كريسي الحكاية قائلة: "في كل مرة كنت أضع إحدى الأوراق في حافظة لفافات مثبتة في الجزء الداخلي من فستاني، ثم

آخذها إلى ليا التي تصنع منها نسخة. في الليلة التالية أعيدها وأفعل الشيء ذاته مرة أخرى".

"لِمَ قد تقدر ليا على...".

قالت ليا: "أنا من اخترعت الغنيمة يا سيد بيبس". ثم أطرقت بعينيها كأنما تخجل من هذه الحقيقة.

كاد ڤان شوتن أن يسقط أرضًا.

قالت ليا: "لقد اخترعت الكثير من الأشياء". ثم هزت كتفيها وهي تنظر إليهم قائلة: "لم تكن الغنيمة هي المفضلة لدي، ولكن يبدو أن والدي قد أعجب بها".

قالت سارا بنبرة ليس فيها أدنى تردد: "كنت أنوي بيع المخططات إلى الدوق الذي ستتزوجه كريسي، نظير أن أنال ملاذًا في فرنسا إلى جانب الثروة والحرية. يبدو أنه ثمن زهيد نظير كل هذا. أفهم أنه عليك أن تشك فيَّ، ولكن لا يوجد أي سبب حقيقي لكي أغامر بقتل زوجي كما ترى".

خيم الصمت عليهم جميعًا حتى قالت كريسي أخيرًا بصوت خفيض: "كنت أظن أنني سأتزوج كونت".

٧١

على ضوء شمعة واحدة في مقصورته، راح رينير ڤان شوتن يتفحص النسخة المنقحة للمواد الغذائية الموجودة في المخزن. كان واضعًا رأسه بين يديه وصدغاه ينبضان، لقد فقدوا معظم إمداداتهم أثناء العاصفة، وحتى إن تمكنوا من إيجاد طريقهم والعودة إلى المياه المأهولة فلن يكون لديهم ما يكفي للوصول إلى رأس الرجاء الصالح، أفضل ما يمكنهم أن يأملوه هو أن يعودوا بأمان إلى باتاڤيا وأن يهدروا شحنة كاملة من التوابل.

لن يبالي السادة السبعة عشرة بشأن الشياطين أو العواصف، إنهم لا يبالون إلا بالأرقام في الدفاتر، وهذه الأرقام لن ترضيهم. إن كبار التجار هم المسؤولون عن الشحنة التي يوصلونها، وعندما يفقدونها يكون متوقعًا منهم تعويض هذه الخسارة، سيقضي ما تبقى من حياته يعمل بالسخرة لصالح الشركة.

إن سنوات من الخبرة قد علمته أن يتعامل مع الإبحار من باتاڤيا إلى أمستردام بأقصى قدر من الحذر. لقد كان يعرف مخاطر الرحلة، وكان يعرف أن الأسطول سيتفرق، مما يجعل إعادة التزود بالإمدادات شيئًا غير مؤكد. لِمَ وافق عندما طلب الحاكم العام مساحة تخزين إضافية؟ فكَّر في اشمئزاز أنه المال، مال أكثر مما قد رأى في حياته، مع وعد بالمزيد.

لقد شق طريقه من كاتب إلى كبير تجار دون توصية أو محاباة، وعمل بكفاءة لا يمكن تجاهلها. لقد رقاه رؤساؤه مضطرين قبل إخوتهم، مما سمح له بأن يعلو فوق أولئك الذين كانوا يسخرون منه عندما كان يبقى في غرف عدِّ النقود لوقت متأخر، ليشرف على حساباته، ولطالما آمن أنه يومًا ما سينال مكافأته.

إن عرض الحاكم العام قد بدا اختصارًا لكل هذا المجهود، رحلة واحدة فقط ولن يضطر للإبحار مرة أخرى، لن يكون هناك المزيد من الليالي المؤرقة، حيث يتعقبهم القراصنة، ولا مزيد من الأمراض الاستوائية، ولا مزيد من الجدال مع حمقى جشعين مثل كراوڤلز.

سينهي مسيرته المهنية قبل أن ينهيها غرق سفينة بالنيابة عنه.

ولكن ما إن وافق على هذا كان من السهل أن يوافق على البقية، كان هذا أسلوب الحاكم العام، إنه يمنحك عملة مغطاة بالعسل، وقبل أن تشعر بالأمر تجد نفسك عالقًا، وبعدها يضع العملة والتاجر الجشع مرة أخرى في جيبه ليستخدمهما متى يحلو له.

ضرب ڤان شوتن الدفتر فتلطخت يده بالحبر، إنه مسرور لأن هذا الوغد قد مات، مسرور لأن كورنليوس ڤوس قد مات، يتمنى فقط لو أن إيميلي دي هاڤيلاند -أيًّا من كانت- قد قتلت قائد الحرس دريخت لتكمل المجموعة. إنهم لم يجلبوا أي شيء سوى الحظ العاثر لهذه السفينة.

سمع صوت طرقات ثقيلة على الباب فصرخ: "انصرف".

صاح دريخت: "ماذا كانت الشحنة السرية التي جلبها الحاكم العام على متن السفينة؟".

وضع ڤان شوتن الريشة جانبًا ببطء وقد شعر أن ساقيه لا تقويان على حمله.

قال دريخت مزمجرًا: "إن جعلتني أضطر لكسر هذا الباب فسينتهي هذا الأمر على نحو سيئ بالنسبة لك".

دفع ڤان شوتن كرسيه إلى الوراء ثم مشى ناحية الباب كرجل محكوم عليه بالإعدام. ما إن انفتح الباب قليلًا حتى اندفعت يد دريخت إلى الداخل لتعتصر حلقه.

حدقت عيناه الزرقاوان في وجهه الوحشي إلى التاجر العاجز كذئب قد انقض على أرنب.

"ماذا كانت الشحنة يا ڤان شوتن؟ لقد ساعدته في جلبها على متن السفينة، وتعرف أين يحتفظ بها. ما هي؟ هل هي شيء مهم بما يكفي لأن يقتله شخص من أجله؟".

قال ڤان شوتن: "كان كنزًا". راح يشهق وهو يحاول عبثًا أن ينتزع أصابع دريخت من على حلقه. "كنز أضخم من... أي شيء قد رأيته في حياتي".

قال دريخت في حدة: "فلترني إياه".

انطلقا على الفور ولم يتوقفا إلا مرة واحدة ليهمس دريخت بالتعليمات لإيجرت، الفارس الذي يحرس الباب المؤدي إلى مقصورات الركاب. أيًا كان ما قاله فقد جعل إيجرت يندفع ناحية مقدمة السفينة.

ما إن وصلا إلى مخزن البضائع حتى أخذ ڤان شوتن المصباح من الوتد الموجود في آخر السلم، وشق طريقه عبر متاهة الصناديق

التي صارت مغطاة كلها تقريبًا بعلامة توم العجوز. من الواضح أنها لم تكن جميعها مرسومة باليد الأصلية، فالعديد منها كان غير متقن ونصفها غير مكتمل، بعضها كبير للغاية، وبعضها ضئيل. من الواضح أن رسم العلامة قد صار طريقة لإعلان الولاء.

لم يهبط ڤان شوتن إلى هذا المكان منذ صعودهم على متن السفينة، وكان دَهِشًا لرؤية هذا التغير. عادة ما يكون مخزن البضائع مأوى للصناديق والفئران، وأي مسافرين قد تسللوا خلسة على متن السفينة. عادة ما يكون مكانًا مقبضًا ولكنه مسالم.

هذا المكان بدا ملعونًا.

إن الظلمة اللزجة والرائحة العطنة للتوابل المتعفنة قد جعلتا المكان يبدو شيطانيًّا.

قال دريخت: "إن هذا المكان بأسره قد صار كنيسة لتوم العجوز، بعد أربع جثث فحسب صار له ديانة لعينة".

شعر ڤان شوتن من نبرة دريخت أنه قد قتل أكثر من هذا بكثير، وبدأ يتساءل عما كانت مكافأته.

عندما وصلا إلى مركز المتاهة أشار ڤان شوتن إلى صندوق كبير وقال بصوت مرتجف: "إنه هنا".

استل دريخت خنجره ووضعه تحت حافة لوح خشبي وفتحه عنوة، ليكتشف مئات من الأكياس القماشية بالداخل.

قال ڤان شوتن: "فلتفتح أحدها".

فعل دريخت هذا، فمزق القماش بخنجره قبل أن يرتطم بشيء معدني، أعاد دريخت الخنجر إلى غمده ثم مزق الكيس بيديه فتساقط

منه أقداح فضية وأطباق ذهبية، ثم تلاها قلائد وخواتم مرصعة بالمجوهرات.

قال دريخت: "هذه نفس الأشياء التي كان ڤوس يحملها في كيسه عندما قتله المجذوم، لا شك أن الحاجب كان يسرق قطعًا من هذا الكنز. لم أكن أدرك في أعماقي أنه لص. ما مقدار الموجود من هذا هنا؟".

قال ڤان شوتن وقد بدا عليه الإحساس بالغثيان: "هناك مئات الصناديق، إنها تحتل نصف مخزن البضائع، معظمه مخبأ في أكياس قماشية ومتخفٍّ في هيئة أشياء أخرى". ثم عاد شيء من الحدة إلى صوته وهو يقول: "هذا هو السر الذي قتلتَ أولئك البحارة لكي تحميه".

نظر دريخت إليه كأنما هو مدهوش من وجود بعض الشجاعة تحت كل هذا الجبن. لقد أراد الحاكم العام أن تظل شحنته سرية، مما يعني إسكات أولئك الذين يعرفون بشأنها، بمن في ذلك هؤلاء الذين حملوها إلى متن ساردام.

قال وهو يقلب أحد الأقداح بين يديه: "لقد نفذت الأوامر، هذا ما يفعله الجنود. أنت من أرسلهم إلى المستودع حيث كنت أنتظرهم، أنت الشخص الذي وثقوا فيه، والذي قبض ثمن فعلته من الحاكم العام".

أمسك قطعة من المجوهرات فانعكس بريقها في عينيه، ثم قال متعجبًا: "إن الرجل الذي يتمتع بهذه الثروة لن يعرف العوز مرة أخرى في حياته، سيكون لديه خدم وبيت كبير ومستقبل لأولاده".

بدأت يده تستل سيفه ببطء وهو يقول: "الأمر وما فيه يا ڤان شوتن هو أنه ليس البحارة فحسب هم من يعرفون بشأن الشحنة". بدأ يتقدم ناحية التاجر. "ولم يكن من المفترض أن أقتلهم وحدهم".

٧٢

كانت دوروثيا تغسل الثياب في السطح السفلي، بينما تصغي إلى غناء إيزابيل. كان الركاب جميعًا يستمعون إليها منبهرين بجمال صوتها. لم تذكر هذه المهارة من قبل، ولا يبدو أنها تفتخر بها كثيرًا، لقد فتحت فمها فحسب فتدفق الغناء منه. توقف كل حديث ولعب، فارتدت أحجار النرد من على الجدران ثم بقيت ساكنة. أغلق الناس أعينهم في حصرهم وأسرتهم المعلقة واستمتعوا بالبهجة الوحيدة التي عرفوها في هذه الرحلة.

"سيدة دوروثيا".

التفت دوروثيا لتجد الفارس إيجرت يسرع ناحيتها، فابتسمت له بحرارة أكثر مما تبتسم لمعظم الناس عادة.

قالت وقد شعرت بالحيرة من مجيئه: "يسعدني رؤيتك، ولكن الوقت مبكر للغاية على تناولنا لشاي المساء".

قال بصوت خفيض: "شيء ما يحدث على متن هذه السفينة يا سيدتي". أحست بالخوف في صوته يعتصر قلبها. "يجب عليكِ أن تضعي بابًا ثقيلًا بينك وبين ما هو آتٍ".

"ما الذي سيحدث يا إيجرت؟".

هز رأسه الأجرب وقال في رعب: "لا يوجد وقت لهذا، هل يمكن لسيدتك أن تأويكِ في مقصورتها؟".

"أجل".

قال وهو يمسك بذراعها: "جيد، فلتبقي بالقرب مني إذن".

سألته دوروثيا وهي تثبت قدميها وتشير إلى الركاب الآخرين: "وماذا عن هؤلاء الناس؟ ما الذي يُفترض أن يختبئوا وراءه؟".

قال معتذرًا: "ليس لدي سوى سيف واحد يا سيدتي".

"لن أتخلى عن هؤلاء الذين يحتاجون إلى المساعدة".

تلفت إيجرت حوله في يأس، ثم أسرع إلى مخزن البارود وطرق على الباب. انزاح اللوح جانبًا وظهر على الجانب الآخر حاجبان أبيضان كثان.

سأله الكونستبل: "ما الأمر؟". لقد صار فظًّا وسريع الغضب منذ جلده.

قال إيجرت: "هناك تمرد، هل يمكنك أن تحمي هؤلاء الركاب بالداخل؟".

تلفت الكونستبل في أرجاء السطح في ريبة، إيزابيل لا تزال تغني، والركاب يراقبونها، لم يكن هناك أدنى أثر للمتاعب. قال مخاطبًا دوروثيا التي تقف إلى جانب إيجرت: "هل يقول الحقيقة؟".

"لا أرى سببًا لأن يكذب".

قال إيجرت: "لقد جاءت الأوامر من قائد الحرس دريخت، وبدأ الفرسان في التحرك بالفعل، يجب علينا أن نحمي هؤلاء الناس".

انزاح المزلاج إلى الوراء فتدفق ضوء الشموع إلى ظلمة السطح السفلي. قال الكونستبل: "فلتجلبوا الأمهات والأطفال إلى الداخل، لا يوجد مكان لاستيعاب المزيد، ولكن يمكن لبقية النساء أن يحصن أنفسهن في مخزن الخبز بالأسفل. ومن الأفضل أن يسلح الرجال أنفسهم، فسيضطرون للقتال قريبًا".

٧٣

دقت الأجراس الاثنا عشر وسط السفينة لتستدعي أفراد الطاقم إلى السطح، كان صوتًا كئيبًا مناسبًا للحالة المزاجية السائدة. انهمر المطر بينما القطرات الباردة تعكس التغير في خط الطول.

راح البحارة يكافحون لإيجاد موطئ قدم، وقد بدت وجوههم ملائكية بشكل غريب في الوهج الدافئ للمصباح المشتعل، بينما تخفق الأشرعة لتحملهم إلى الأمام بوتيرة عنيفة.

على السطح العلوي أمسك القبطان كراوثلز بالسور وهو ينظر إلى الأسفل ناحيتهم، بينما يحاول أن يجد الكلمات المناسبة. يعرف ما يجب عليه قوله، ولكنه لا يعرف كيف يقوله. لقد خاطب أفراد الطاقم مئات المرات، ولكنها دومًا ما تكون خطبة واحدة في بداية الرحلة، خطبة عن النعم والحظ الحسن، أسهل شيء في العالم يمكن قوله، ولكن هذا الأمر كان مختلفًا. الكلمات حادة وستثخنهم بالجراح.

عندما اجتمع الجميع قال: "لقد حُكم على ساردام بالهلاك، نحن جميعًا نعرف ما يحدث على متن هذه السفينة وما يتربص بنا في المياه المظلمة".

تعالت دمدمات ساخطة.

"هل أنتم جميعًا سمعتم الهمسات؟". كان هناك بعض الإيماءات والتمتمات وعدد قليل من النظرات الخاوية. معظمهم قد سمعوها، وقليل منهم لم يسمعوها. ولكن هذا لا يهم، جميعهم يعرفون ما كانت الهمسات تعرضه.

تململ كراوڤلز في عدم ارتياح، أحس وكأنه يحاول أن يُصلح مزهرية بأن يبصق على الأجزاء الفخارية المكسورة.

قال معترفًا بينما الوجوه تصير غائمة أمامه: "لقد ارتكبت بعض الأخطاء، وثقت بأشخاص لا يستحقون الثقة، وضللتكم. ولكن الآن يجب علينا أن نختار لأنفسنا، ما الذي نريده؟ لن يختار هذا النبلاء الذين نحملهم، أو هؤلاء الفرسان الملاعين. نحن وحدنا، البحارة، يجب علينا أن نختار".

وافقه الجميع بصوت صاخب.

"توم العجوز يجوب هذه السفينة، لا يمكننا أن ننكر هذا، لقد قدم لنا ثلاث معجزات ليقنعنا بقوته، هذا ما قاله لنا في الظلام. ثلاث فرص لكي نرفع رايته ونقبل حمايته". راقبه أفراد الطاقم وقد حبسوا أنفاسهم. "لم يتبقَّ أي معجزات، في المرة التالية التي يأتي فيها سيفتك بهؤلاء الذين لم يقبلوا صفقته".

تعالت صيحة خوف عظيمة.

صاح كراوڤلز وهو يرفع ذلك القرص المعدني: "لقد منحني الحاكم العام يان هان هذا نظير الإبحار به إلى جزر باندا، وأنتم جميعًا تعرفون ما حدث هناك".

تعالت صيحات تقول: مجزرة، مذبحة، إبادة.

"لقد قبضنا جميعًا ثمن أشياء لسنا فخورين بها، ولكن هذه هي الشركة، أليس كذلك؟ إنهم يطلبون الكثير نظير القليل، هؤلاء النبلاء يزدادون ثراءً طيلة الوقت بفضل مجهودنا، وقد سئمت هذا".

راحوا يصرخون: القبطان، القبطان، القبطان.

ألقى بالقرص المعدني ناحية الحشد فتدافع البحارة للحصول عليه، وبدلًا منه رفع خنجرًا في راحة يده.

قال وهو يمرر الخنجر على راحته: "يطلب منا توم العجوز خدمة ودماءً لنعرب عن ولائنا. الخدمة هي أن نعمل لصالحه. ارفعوا خناجركم إن كنتم مستعدين لأن تصيروا طاقم سيد جديد يا رجال، سيد سيخرجنا من كل هذا، وسيطلب منا فعل أشياء شنيعة، ولكنه على الأقل سيجزل لنا العطاء نظير هذه الأفعال".

ارتفعت مئات الخناجر في الهواء لتجرح مئات الراحات.

تدفق الدم غزيرًا.

صرخ كراوڤلز: "لقد حُسم الأمر إذن، سنبحر الآن تحت راية توم العجوز، ولن نصغي إلا لصوته".

أحنى ظهره للوراء وتدفقت الدماء من فمه، بينما سيف يبرز من صدره. زأر أفراد الطاقم في غضب، واستلوا خناجرهم واندفعوا ناحية السطح العلوي، بينما جثة كراوڤلز تهوي أرضًا لتكشف عن ياكوبي دريخت من ورائه.

صرخ دريخت: "أطلقوا النار أيها الفرسان". اندلعت الفوضى وتردد دوي البارود في أرجاء السطح، بينما البحارة يصرخون ويسقطون أرضًا.

من طرف عينه رأى دريخت إيزاك لارم يندفع ناحيته بسكين في يده.

دفع سيفه ناحية صدر لارم، ولكن في هذه اللحظة سحب آرينت القزم إلى الوراء بعيدًا عن النصل. كان بيبس محتميًا وراءه، وقد بدا المشكلاتي ضئيلًا في ظل صديقه.

صاح آرينت من فوق ضجيج المعركة: "ما الذي تفعله يا دريخت؟".

"لا يمكنني أن أسلم هذه السفينة لتوم العجوز".

قال آرينت في غضب وقد رآه على حقيقته للمرة الأولى: "هؤلاء الفرسان كانوا في مواقعهم قبل بدء خطبة القبطان بوقت طويل، قبل أن تعرف ما كان سيفعله. هذا تمرد".

قال دريخت: "أريد الثروة التي وعدني بها الحاكم العام، لقد ذبحت أطفالًا في أسرتهم لكي ينال أطفالي مستقبلًا أفضل، لم أعد أنام يا آرينت، لا يمكنني أن أنام، والآن أريد ما دفعت ثمنه غاليًا".

سأله سامي وهو يغطي أذنيه ليحميهما من صليل المعدن: "ومن سيُبحر بهذه السفينة بعد أن تنال ما تريده".

"سنبقي على قيد الحياة ما يكفي من البحارة لإعادتنا إلى الديار".

قال سامي وهو يراقب الفرسان يهاجمون البحارة بالأسفل: "هذا إن سمحوا لك بذلك".

حدق دريخت إلى آرينت وهو يلطخ وجهه بدماء كراوڤلز بينما يحاول مسحها. قال: "هل ستقف في صفنا يا آرينت؟ أخبرني الآن؟".

صاح آرينت: "أنا أقف في صف الركاب، فلتبقِ رجالك بعيدًا عنهم".

حمل آرينت سامي وأنزله على السطح بالأسفل قبل أن يقفز وراءه من فوق السور. كان الفرسان قد تمركزوا بالقرب من آخر السلم حيث يقاتلون موجة تلو الأخرى من البحارة الغاضبين. للحظة بدا أن البحارة لهم اليد الطولى، ولكن هذا لن يدوم، فالفرسان قادرون على مواجهة اثنين منهم في وقت واحد، وقد استنزف البحارة قوتهم أثناء محاولتهم لأن يسبقوا العاصفة. سيسقطون منهكين قبل أن ينفد أعداؤهم.

تمايلت السفينة فراحوا يترنحون.

كانت ساردام تندفع عبر الماء دون أحد ليوجهها. اندفع آرينت وسامي عبر المساحات الفارغة في المعركة الدائرة، ثم عثروا على لارم ملتصقًا بالسور وهو يضرب أفخاذ الفرسان بسكينه.

ضرب آرينت النصل ليسقطه من يده، ثم أمسك بيد القزم وحدق إلى راحته. لم يكن بها علامة.

صرخ من فوق ضجيج القتال: "أنت لست مع توم العجوز؟".

قال: "أنا مع ساردام، فليذهب إلى الجحيم أي شيء آخر".

اندفع فارس ناحيتهم وهو يصرخ، أمسكه آرينت من قميصه ثم ألقى به في الماء.

تساءل سامي وهو ينحني ليقرب رأسه من لارم: "إن سيطرنا على السفينة هل يمكنك أن تقنع الطاقم بإعادتنا إلى باتاقيا؟".

أجابه لارم: "هذا يعتمد على عدد البحارة الذين سيتبقون على قيد الحياة، ولكن لا يمكنني أن أفكر في خطة أفضل. أين رفاقكما؟".

قال آرينت: "لست متيقنًا، ولكني متوجه إلى السطح السفلي".

لم يقل شيئًا آخر، ولم يكن بحاجة إلى هذا، الجميع يفهمون ما تعنيه المعركة بالنسبة لأولئك الذين لا يملكون قوة للدفاع عن أنفسهم، ما إن تُسفك الدماء لا يتبقى أي رادع عن أي خطايا. من المرجح أن بعض هؤلاء الرجال في طريقهم إلى الأسفل بالفعل للبحث عن نوع مختلف من التسلية.

حاول أحد البحارة أن يتسلق من فوق السور إلى السطح العلوي، ولكن دريخت غرس سيفه في عينه، مما دفعه من جديد إلى الحشد بالأسفل.

قال لارم وهو يومئ ناحية دريخت: "لن يكون لديك أدنى فرصة للسيطرة على هذه السفينة بينما لا يزال هو على قيد الحياة".

قال آرينت: "سأقنعه بالمنطق، ولكن...".

أصدرت الألواح الخشبية صريرًا بينما سطح السفينة ينفجر. ورمح من الصخور يندفع لأعلى ليطيح بالصاري الرئيسي ويسحق كل من في طريقه. تطاير الناس في الهواء وتساقطت السلاسل والأقداح الذهبية من حولهم.

اندفعت المياه المظلمة للأعلى كيد عملاقة لتجذب آرينت وسامي ولارم إلى البحر البارد.

٧٤

طغى زئير المحيط على أذني آرينت.

شيء ما وكزه فتأوه، ثم فتح عينيه بصعوبة. لقد بزغ الفجر، وكانت السماء لوحًا رماديًّا من فوقهم. حاول أن يتحرك ولكن جسده بدا وكأنه مصنوع من الأخشاب الطافية، كان مبللًا وتغطيه قشرة من الملح.

كان الفارسان إيجرت وثيمان ظلين في الوهج، أحدهما واقفًا والآخر جاثيًا على ركبته ويهزه من كتفه.

تساءل ثيمان الذي كان واقفًا: "حسنًا؟".

أجابه إيجرت: "إنه يتنفس".

مال آرينت على جانبه وراح يتقيأ ماء البحر حتى آلمه حلقه.

مسح فمه ثم تلفت حوله وهو يشعر بالدوار. لقد جرفته الأمواج إلى شاطئ من الحصى تتخلله الأعشاب البحرية، بينما الأمواج المزبدة تتقدم وتتراجع وتجذبه من كاحليه. بعيدًا في خليج من صخور مسننة تبرز شعب مرجانية أرجوانية وبرتقالية، بينما المياه تتدفق من بين الصخور وتقذف أعمدة ضخمة من الرذاذ.

كانت ساردام على الجانب الآخر من الخليج وقد جنحت على جزيرة صغيرة، كان هناك صخرة مدببة قد اخترقت جانبها السفلي ومزقت أسطح السفينة قبل أن تبزغ من الخصر.

قال متسائلًا وهو يضرب صدغيه لإخراج ماء البحر: "هل رأيتما سارا ڤيسل؟ أو سامي بيبس؟".

راح يحرك رأسه يسارًا ويمينًا في يأس محاولًا أن يعثر عليهما في المياه الضحلة. كان هناك قرابة ثلاثين ناجٍ متناثرين على طول الساحل، وعدد كبير من الموتى تطفو جثثهم في المياه الضحلة. لقد مزقتهم الصخور وظهرت بقع حمراء في الأماكن التي ضربتها الصخور أو طعنتها.

الأمهات يهدهدن أطفالهن، ويندبن من فقدن أو يصرخن بأسماء من يأملن في العثور عليهم. بينما الرجال يندفعون وراء المؤن الطافية في الماء، ويمسكون بأي شيء يستطيعون حمله، ويتشاجرون مع الآخرين على الأشياء التي لم يتمكنوا من حملها.

كان هناك ثلاثة من الفرسان يثبتون بحارًا لا حول له ولا قوة، بينما فارس رابع يغرس خنجرًا في بطنه. المزيد من الفرسان كانوا يجوبون الشاطئ ويغرسون سيوفهم في أجساد أي بحارة قد جرفتهم الأمواج، سواء كانوا يتنفسون أو لا.

كانت المنحدرات الصخرية ترتفع على يمين آرينت، والخليج يخفي ما على يساره. بدا أن مركز الجزيرة هو غابة تفصلها الشجيرات الحمراء المتناثرة عن المياه الضحلة.

لم يستطع أن يرى أدنى أثر لأصدقائه.

قال ثيمان: "لم أرَ بيبس، إن كان على قيد الحياة فسيكون في المخيم مع قائد الحرس دريخت".

قال آرينت: "دريخت على قيد الحياة إذن". ثم اعتدل واقفًا على قدميه مترنحًا. "بالطبع هو كذلك".

قال إيجرت: "لقد أصدر أمرًا بالتخلي عن ساردام ووضع سارا وعائلتها في أول قارب شراعي يتوجه ناحية الجزيرة، إنهم جميعًا في المخيم". ثم قال محذرًا في وجوم: "لا تتوقع رؤية بيبس هناك، لقد هوى توم العجوز بقبضته علينا، معظمنا قد مات".

فكر آرينت أن هذه بلا شك هي الجزيرة التي كانت مرسومة في موسوعة الشياطين الخاصة بإيميلي دي هاڤيلاند، الجزيرة التي كانت أساس علامة توم العجوز التي يحملها كندبة على معصمه. الركاب وأفراد طاقم ساردام قد ذُبحوا وأُرسلوا إلى هنا تمامًا كما وعدتهم.

شعر أنه ضعيف للغاية وهو يترنح، بينما ساقاه تعتادان اليابسة بعد ثلاثة أسابيع في البحر.

حتى هذه اللحظة كان يعتقد أنه قد تحمل كل أنواع الضرب الذي قد توجهه له الحياة، ولكن القدر قد خدعه مرة أخرى. كانت الجروح الخشنة تغطي جسده، وضلوعه تؤلمه بشدة، حتى إنه لم يستطع الوقوف منتصبًا. اهتزت الأسنان في فكه.

شعر وكأنما مئة رجل قد داسوه بأقدامهم، وأنه بطريقة ما قد قاتل لكي يتحرر. اندفعت المياه من بين الصخور لتغطي الموتى والمحتضرين والشعب المرجانية الحادة قبل أن تكشف عنها من جديد. لطالما آمن أن المعجزات هي ما يحدث عندما ينفد الأمل. إنها قطع من الحظ مصقولة حتى تلمع، وتصل إليهم في الوقت الذي يحتاجون إليها.

هذه ليست معجزة، شعر أنه خنزير قد نجا من المذبح ليجد نفسه يركض مباشرة ناحية المطبخ.

قال ثيمان في ريبة: "لا يمكن قتلك، أليس كذلك؟ كل هذه الأغاني كانت محقة".

سأله بصوت أجش: "أين المخيم؟".

أشار إيجرت من فوق المياه الضحلة إلى اليسار.

تشبث آرينت بضلوعه المتألمة وهو يمشي في هذا الاتجاه. سماء رمادية تضغط على محيط رمادي، والحرارة ترتفع باطراد مما يزيد دفء المطر الذي لا ينقطع، والذي راح يضربه كتيار من البول تحمله الرياح.

كلما رأى جسدًا ينحني ليتفحص الوجه، وهو يخشى دومًا أن يرى خصلات سارا الحمراء. وجد سامي فاقدًا الوعي في ظل بعض المنحدرات التي يغطيها فضلات الطيور البيضاء، بينما الطيور البحرية ذات مناقير طويلة تندفع من -وإلى- أعشاش مبنية في فجوات في الصخور. كان مستلقيًا على جانبه موليًا ظهره إلى آرينت. لا يزال يتنفس، رغم أن أنفاسه متقطعة. هذه الملابس الفاخرة التي ارتداها الليلة الماضية قد تمزقت لتُظهر جسده النحيل. كانت الدماء تسيل من عشرات الجروح وقد بدا اللون ساطعًا بشكل مثير للقلق على بشرته الشاحبة المرتجفة.

كان هناك فارسان يحومان من حوله وقد استلا سيفيهما.

تجهم آرينت في ألم وهو يجبر نفسه على الانتصاب ثم صاح: "انصرفا أيها الفتيان".

تلفتا حولهما بحثًا عن مساعدة فلم يجدا أي شيء، لذا انسلا مبتعدين. راقبهما آرينت حتى اختفيا عن ناظريه ثم سمح لجسده بأن يتهدل مرة أخرى. تحرك بأسرع ما يستطيع ليصل إلى سامي، ثم تأوه عندما رآه.

لقد تمزق نصف وجهه بفعل الشعب المرجانية، وقد فقد عينه اليمنى.

تلوى وجه آرينت في ألم وهو يرفعه من المياه الضحلة. اجتاح الألم ضلوعه وكاد أن يسقطه على ركبتيه. لدقيقة راح يبذل مجهودًا شاقًّا من أجل كل نفس قبل أن يعض على نواجذه أخيرًا ويبدأ في المشي.

كل خطوة كانت معاناة، ولكن ما نفع ألمه لهؤلاء الذين يحتاجون إلى مساعدته. إن سامي مصاب بشدة ويجب عليه أن يجد سارا وليا. واصل المضي قدمًا وهو لا يكاد يقدر على رفع قدميه.

جاء بحار صارخ يركض ناحيتهما، يلاحقه فارسان، ثم انقضا عليه كذئبين وطعناه عشرات المرات حتى مات. وقف الفارسان وهما ملطخان بالدماء، ولكنهما يضحكان، ثم نظرا ناحية آرينت في جوع، قبل أن يبتعدا ليجدا المزيد من الفرائس.

فكر آرينت أنهما لن يجدا المزيد من الفرائس بسهولة. إن المياه الضحلة مليئة بالبحارة الذين قتلتهم الصخور أو الطعنات.

تململ سامي في ذراعي آرينت وهو يزدرد لعابه. تركزت عينه الواحدة على صديقه، ثم قال وهو يلهث في ضعف: "تبدو وكأنك قضيت ليلة مع بقرة". مما جعل آرينت يضحك ضحكة مؤلمة.

أجابه: "لم أرغب في أن تكون أمك وحيدة". ثم أضاف: "يجب علينا أن نجد لك مساعدة".

سأله وهو يسعل: "ما الذي... حدث؟".

"لقد جنحنا على جزيرة بينما الجميع يتقاتلون".

أمسك سامي بقميص آرينت وقال: "هل هي... جزيرة لطيفة على الأقل؟". كان يبذل مجهودًا مع كل كلمة.

قال آرينت: "لا، أعتقد أنه المكان الذي يعيش فيه توم العجوز".

أومأ سامي في رضا وقال: "آها، على الأقل لم نعد مضطرين للبحث عنه".

أغلق سامي عينه وارتخى رأسه. تفحصه آرينت في خوف، ولكنه لا يزال يتنفس.

وصلا إلى مخيم قد أُعد كيفما اتفق في الوقت المناسب، فقد كانت ذراعا آرينت ترتعشان وصار من الصعب عليه أن يتنفس.

أحس بالارتياح عندما كان أول من رآه ماركوس وأوسبرت يلقيان بالصخور على سطح المياه الضحلة، بينما دوروثيا تراقبهما. باستثناء شعرهما الأشعث لم يبديا أسوأ حالًا مما كانا عليه عندما كانا على متن السفينة.

كان إيزاك لارم جالسًا على برميل خشبي وهو ينظر بتجهم إلى المؤن الطافية على سطح الماء، كما لو أنها إهانات توجهها إليه سفينته الغابرة. كان ياكوبي دريخت يشير بيديه ويصرخ بالأوامر إلى فرسانه، الذين كانوا يخوضون المياه محاولين جمع الصناديق والبراميل

وتكديسها تحت الأشجار لحمايتها من المطر. وفي مكان قريب كان هناك عشرات من الصناديق الممتلئة بمحتويات الكنز.

عندما رأى إيزاك لارم آرينت، اندفع ناحيته وهو يقول: "مئات الموتى ومع ذلك ها أنت ذا، بالكاد قد أصبت، يبدو أن الرب لم ينتهِ منك بعد".

أجابه: "لقد نال سامي نصيبي من الإصابات".

أومأ دريخت برأسه في تحية، وقد نجت لحيته، وكذلك قبعته، ولكنه فقد الريشة الحمراء. كان هناك جزء مفقود من أذنه اليمنى، وإحدى أصابعه منثنية في زاوية غير طبيعية. لسوء الحظ لم تكن هذه يده التي يقاتل بها.

قال: "أنا مسرور لرؤيتك بخير، كنت أخشى ما هو أسوأ".

نقل آرينت بصره ما بين دريخت ولارم ثم قال: "أنا دهِش لأنكما لا تحاولان كل منكما قتل الآخر".

قال دريخت: "بعد أن تحطمت السفينة طلبت هدنة لكي أضع أكبر عدد ممكن من الركاب في القوارب الشراعية".

قال لارم بحدة: "وماذا عن البحارة الذين يذبحهم رجالك على الشاطئ؟".

قال دريخت بصراحة: "المصابين فحسب، لقد تناقشنا في هذا الأمر، ليس لدي ما يكفي من المؤن من أجل الأحياء، لن أضيع أيًّا منها على شخص يحتضر". ثم وقعت عيناه الزرقاوان على سامي الذي يحمله آرينت بين ذراعيه فقال: "هل ما زال يتنفس؟".

قال آرينت مزمجرًا: "بلى، ولن تنال منه. هل رأيت سارا؟".

قال دريخت: "لقد وضعتها في القارب بنفسي، وهي الآن تساعد المصابين. تعالَ سآخذك إليها".

مشى دريخت على الحصى متتبعًا منحنى الساحل بينما لارم يمشي من ورائه.

تساءل آرينت: "ماذا حدث بعد أن جنحنا؟".

قال دريخت: "لقد تنحى القدر جانبًا". انعطف ناحية حطام ساردام الذي اخترقته الصخرة، كان هناك صدع كبير متسع في منتصفها، وقد راحت ألواحها الخشبية ترتجف تحت وطأة هجمات البحر التي لا تنقطع. لقد رأى آرينت رجالًا يعانون بنفس الطريقة، حيث ظلوا يتنفسون بعد أن تمزقت أجسادهم ويرتجفون بينما الحرارة تتسرب من أجسادهم. إنها نهاية مشينة، وخصوصًا بالنسبة لشيء كان يومًا عظيمًا للغاية. أكمل دريخت قائلًا: "معظم البحارة كانوا لا يزالون في الخصر أو السطح السفلي، والصخرة التي اخترقت السفينة قتلتهم كلهم تقريبًا دون أن تمس رجالي بأذى. لقد هلك كل أتباع توم العجوز".

قال لارم وقد اشتعل غضبًا من نبرة دريخت الظافرة: "ومات معهم الكثير من الرجال الصالحين".

اقتادهم دريخت إلى كهف كبير مليء بالأجساد المتأوهة نصف المحطمة. يمتد الكهف عميقًا داخل الجزيرة، وكان باردًا بشكل مفاجئ، حيث يتدفق نسيمًا مالحًا من الظلمة كأنفاس وحش نائم.

كان هناك قرابة عشرين شخصًا بالداخل، ولم ينجُ أيٌّ منهم. كانوا يحتضنون أذرعًا مكسورة ويعرجون على سيقان مكسورة. كانوا

مجروحين وهزيلين وشاحبين، وتغطي وجوههم دماء جافة، وأعينهم زائغة بفعل الارتباك والألم.

وجد آرينت مساحة فارغة فأنزل سامي برفق كأنما يضع رضيعًا في مهده، ثم ذهب ليبحث عن سارا. كانت تتحرك بين المصابين وهي تحمل مدية وتخرج الشظايا الخشبية من أجسادهم بدون عناء، كما لو أنها تلتقط ديدانًا من مكيال تفاح.

قال دريخت: "سأجهز قارب إنقاذ، نحن على بعد ثلاثة أسابيع فحسب من باتاڤيا، لقد أبعدتنا العاصفة كثيرًا عن مسارنا، ولكني متفائل بأننا سنكون قادرين على العثور على سفينة تمد لنا يد العون".

ابتسم لارم ساخرًا من هذه الخطة، ولكن دريخت تجاهله وهو يُكمل قائلًا: "سنشكل مجلسًا لاتخاذ القرارات بشأن نجاتنا بمجرد أن نعرف من تبقى على قيد الحياة، وأتمنى أن تكونا أنتما الاثنان جزءًا منه".

قال آرينت: "أجل، تبدو فكرة جيدة".

"إذن فلتعد إليَّ بعدما تنتهي مما تفعله هنا".

"آرينت!". التفت ليرى موجة من ذراعين وساقين وشعر أحمر، بينما سارا تجذب وجهه لأسفل ناحية وجهها وتقبله. كانت قبلة يائسة ومفعمة بالعاطفة يمكنها أن تجعل رجلًا ينسى أن أحدًا قد قبله من قبل.

لقد قال له سامي ذات يوم إن الحب هو أسهل شيء يمكن تمييزه، لأنه لا يشبه أي شيء آخر، لا يمكن أن يخفي نفسه ولا يمكن أن يتنكر أو أن يمضي وقت طويل دون أن يلاحظه أحد. لم يفهم آرينت ما يعنيه هذا إلا في هذه اللحظة.

مسدت وجنته وقالت: "ظننت أنك مت".

جذبها ليقربها منه وهو يشعر بالارتياح والنشوة، ويشعر بدفء جسدها على جسده. صرخت ضلوعه ولكنه لم يبالِ بهذا.

سألها في تردد: "هل ليا وكريسي... هل هما...". راح يفتش الكهف بحثًا عنهما.

قالت سارا: "لقد جاءتا على متن قارب". ثم أشارت إلى زاوية مظلمة، حيث كانتا تمزقان أشرطة قماشية إلى ضمادات بمساعدة إيزابيل.

تشبثت به أكثر.

لا يعرف أي منهما كم من الوقت ظلا على هذه الحالة، ولكن في النهاية تخلت عنه سارا، ثم وضعت يديها على صدره وهي تتأمل وجهه في حنان، قبل أن تجثو على ركبتيها إلى جانب سامي وتبدأ في تفحص عينه وإصاباته الأخرى.

"هل سيكون بخير يا سارا؟".

"سأفعل ما بوسعي، ولكني لا أعتقد أن الجروح هي المشكلة، دريخت يقتل المصابين لتوفير المؤن".

"لقد أقسم أن يترك سامي وشأنه".

قال لارم وهو يضيق عينيه ناظرًا إلى هيئة قائد الحرس البعيدة: "أجل، وقد أقسم ألا يغرس سيفًا في صدر كراوڤلز، ولكنه فعل هذا على أي حال، ولا أظن أنه سيتوقف عند المصابين، بمجرد أن يصير غير قادر على إطعام الأحياء سيبدأ في قتل أي شخص لا يعتقد أنه مفيد بالنسبة له، وأنا أعرف أين سيكون موقع قزم في هذا الترتيب الهرمي".

شعر آرينت بالتعب يتعاظم بداخله، هذا لن ينتهي قط، أليس كذلك؟ لن يتوقفوا بعضهم عن ذبح بعض. لم يتوقف ياكوبي دريخت حتى لمسح يديه بعد التمرد. في تلك الليلة الأولى على متن ساردام، أخبره قائد الحرس دريخت أنه لا يؤمن بالشياطين وأن البشر لا يحتاجون ذريعة لارتكاب الشر، ظن آرينت حينها أنه يتحسر، ولكنه أدرك الآن أنه كان يعترف. لقد نظر فقط إلى داخل نفسه وأخبره بما عثر عليه.

كاد آرينت أن يضحك، إن كان توم العجوز قد جلبهم إلى هنا لكي يعانوا فكل ما عليه فعله هو أن يتركهم وشأنهم، سيفعلون هذا الفعل بدون أجر وببهجة مضاعفة مقارنة بأي شياطين أخرى.

تنهد وقال: "ما الذي تريده مني يا لارم؟".

"أريد منك أن تقتل دريخت أيها الوغد الأحمق، وأريدك أن تفعل هذا بسرعة".

قال آرينت: "هذا لن يجدي نفعًا، دريخت هو الشخص الوحيد الذي يمنع الفرسان من التحول إلى الوحشية التامة، إن قتلناه فسيلحق به بقيتنا بعد وقت قصير".

قالت سارا: "إذن نحتاج إلى السيطرة على رجاله".

قال آرينت وهو ينظر إلى الفرسان وهم يجمعون المؤن بالقرب من المياه: "أجل، سيكون هذا سهلًا، أليس كذلك؟".

٧٥

غادر آرينت الكهف وعاد إلى المخيم البدائي، كانت هناك نيران صغيرة قد أُشعلت تحت أغصان الشجرة، يحيط بها الركاب الذين يحاولون تجفيف أنفسهم. كان المطر قد تحول إلى ضباب تقريبًا، ولكن بضع دقائق في المطر كانت كافية لجعل الماء يتقاطر من كل شيء.

كان الفرسان يجرون الجثث ويكدسونها في كومات، بينما الآخرون يفتحون أغطية البراميل والصناديق التي أنقذوها لجرد المؤن. كانوا يصيحون بما يجدونه إلى الكونستبل الذي يضيف هذا إلى الإحصاء. عندما رأى الكونستبل آرينت حياه بتحية رسمية.

"صندوق من لحم الضأن المجفف".

"صندوقان من الخبز الجاف".

"ثلاثة براميل من الجعة".

"أربع جرار من البراندي".

"جرتان من النبيذ".

"خيوط وشمع من الشحم".

"فؤوس ومطارق ومسامير طويلة".

فكر آرينت أنها مؤن شحيحة، تكفي لإبقائهم على قيد الحياة لأيام وليس لأسابيع.

كان هناك قاربان شراعيان يقطعان المياه المتقلبة، عائدين من السفينة المحطمة. من الواضح أن دريخت قد أرسل رجالًا لجلب آخر ما تبقى من مؤن ساردام وما تبقى من الكنز.

آرينت ولارم وجدا دريخت جالسًا على قطعة من الخشب الطافي والمطر ينقر على قبعته وقد شبك ساقيه عند الكاحلين. قال آرينت مخاطبًا دريخت: "أين مجلسك؟".

قال دريخت: "نحن في المجلس، والآن وقد جئتما يمكنني أن أعلن انعقاده". ثم أمال طرف قبعته ليسقط مياه المطر التي قد تجمعت فوقها.

قال آرينت عاقدًا حاجبيه: "يجب علينا أن ندعو الجميع، لم يتبقَّ منا سوى عدد قليل، وهذه الأمور ستؤثر على الجميع".

سعل لارم وقال: "عليك أن تسمع ما يريد قوله قبل أن تقرر هذا".

ثبت دريخت عينيه الثلجيتين على آرينت ثم قال: "معظم ما استنقذناه سيبقينا دافئين وجافين، ولكن ما لم نكن قادرين على أكل المسامير وشرب القطران فسيكون علينا أن ننام ببطون خاوية". مرر لسانًا ورديًا على شفتيه المالحتين وقال: "لقد نجا تسعة عشر فارسًا واثنان وعشرون بحارًا وأربعون راكبًا بمن فيهم أنت، لا يمكننا أن نطعمهم جميعًا، مما يعني ضرورة اتخاذ قرارات صعبة بشأن مواردنا". منحهما لحظة لاستيعاب الأمر وهو ينظر إليهما نظرة ذات مغزى.

"الفرسان تحت إمرتي قتلة ولصوص، ولكنهم بارعون في النجاة وقادرون على الصيد والتعقب. هؤلاء هم الرجال الذين سنبقيهم على قيد الحياة، إن السيطرة عليهم ليست مطلقة، وخصوصًا عندما تبدأ الحصص الغذائية في الانخفاض. عاجلًا أو آجلًا سيقررون أخذ ما يريدونه بدلًا من انتظار منحهم إياه، والخطوة الذكية هي أن نقدمه لهم نظير طاعتهم لنا".

ألقى دريخت نظرة ناحية النسوة الذين يجمعون الحطب عند حافة الأشجار.

قال آرينت مزمجرًا: "أنت ستبيح لهم الاغتصاب كمكافأة".

قاطعه دريخت على الفور قائلًا: "ليس المتزوجات ولا المخطوبات، هذا يتعارض مع المسيحية. بحقك يا آرينت، فلتفكر بشكل عقلاني، هناك رابطة تجمعك بسارا، ولقد رأيتها بنفسي، لذا سنجنبها الأمر، وكذلك ليا. وأنت يا إيزاك فلتختر من تريد".

شعر آرينت بالغثيان، لقد انتصر توم العجوز، لقد سعى لإخراج الأسوأ من كل شخص على متن ساردام، وقد نجح هنا أخيرًا، لم يعد بحاجة إلى عرض الصفقات، إنهم يحلمون بخطاياهم وجوائزهم.

قال في اكتئاب: "وماذا عن كريسي ينس؟ أفترض أنك ستضحي وتتزوجها".

قال دريخت في شرود: "لدي زوجة في دَرِنته، لا أحتاج إلى زوجة أخرى".

تساءل آرينت: "ما رأيك في هذا يا لارم؟".

حدق لارم إليهما في أسى وقال: "ما أهمية رأيي؟ لم يتبقَّ لدي سوى حفنة من البحارة، معظمهم مصابون، ولا أحد منهم مسلح. إن الفرسان هم من يجب أن نقلق بشأنهم، أنا هنا فقط لجعل الأمر يبدو عادلًا".

سأله آرينت: "ولكن ما الذي تعتقده؟".

قال وهو ينظر بحدة إلى دريخت: "أعتقد أن هذا أقذر شيء سمعته في حياتي، وأعتقد أنه سيفعل هذا بغض النظر عما سيقوله".

وافقه دريخت قائلًا بدون أدنى خجل: "إنه محق، لدي القوة، مما يعني أن لدي السلطة، وأعرف أن فعل هذا هو الصواب، هؤلاء الركاب يحترمونك يا آرينت، سيكون الأمر أسهل إن تمكنت من إعلان الأمر وأنت بجانبي".

"ماذا إن قلت لا؟ ماذا سيكون موقفي حينها؟".

"أبعد ما يكون من سيفي إن كنت حكيمًا".

حدقا كل منهما إلى الآخر، فوجدا أنهما قد عادا إلى ما قد بدآه على متن ساردام في ذلك الصباح الأول، في انتظار معرفة من سيطعن الآخر أولًا.

قال آرينت في وجوم: "أريد سارا وليا، وإيزاك سيوافق على أن يتزوج كريسي، ولكنه لن يلمسها، لا يمكن أن نتركها لرجالك".

راح قائد الحرس السابق ينظر بتمعن إلى وجهه بحثًا عن أدنى أثر للخديعة، ولكن آرينت قد صمد أمام نظرات سامي المتفحصة لسنوات، فلم يرَ سوى الامتثال الغاضب.

قال وهو يمد يده: "هل تقسم بشرفك؟".

صافحه آرينت وهو يقول: "أجل".

تنفس دريخت الصعداء غير قادر على إخفاء بهجته، ثم قال: "لم أكن أتطلع لهذه المحادثة يا آرينت، ولكني سعيد لأنك اقتنعت بالمنطق العقلاني. يجب علينا أن نحرص على تأمين كل المؤن، بمجرد الانتهاء من هذا سنخبر الركاب بخطتنا. أقترح أن نفعل هذا صباح الغد، إن ليلة صعبة بحصص غذائية قليلة ستجعل الجميع يرون ما نواجهه بوضوح".

قال آرينت وهم يستعدون للتفرق: "أحتاج إلى شيء آخر قبل أن يحدث هذا. أريد وضع سامي على متن قارب الإنقاذ".

قال لارم في استياء: "سيكون هذا تصرفًا أهوج، لم يعد لدينا ملاحون جديرون بهذا اللقب، أيًّا كانوا من سيذهبون فلن يكون لديهم سوى القليل من المؤن، ولا شيء لإرشادهم، سيأملون في طقس جيد وحظ حسن، وليس لدينا وفرة من هذا أو ذاك".

"إن إصابات سامي خطيرة، سيموت هنا أو سيموت هناك، أفضل أن أخرجه من هذا المكان مع فرصة لإنقاذه".

قال دريخت: "إن كانت هذه رغبتك فسأفعل هذا، لا أعتقد أن أحدًا سيعترض. سأترك لك مسؤولية العثور على طاقم قارب الإنقاذ يا لارم".

قال في وجوم: "أوه، أجل، تفترض أن الناس سيتشاجرون على الصعود على متن سفينة ملعونة، أليس كذلك؟".

"لا، مما يعني أنه يجب أن نبدأ في التفكير بشأن الرجال الذين سيكونون سعداء بإرسالهم إلى حتفهم". ثم اكتسى وجهه بالجدية وقال: "نحن المسؤولون الآن أيها السادة، ولم يتبقَّ أي قرارات سهلة".

٧٦

خرجت سارا من الكهف وهي تشعر بالتعب، ثم حدقت إلى أصابعها بإحساس عميق من الرضا.

قبل ثلاثة أسابيع صعدت على متن ساردام مختبئة بعمق تحت طبقات من الإتيكيت والكراهية، حتى إنها كادت أن تنسى من تكون. ولكن في مكان ما بين أهوال العاصفة وتعذيب توم العجوز لهم اكتشفت نفسها من جديد، كمرآة مغبرة تحت طبقة من التراب. وسط كل هذه المعاناة كانت سعيدة أكثر من أي وقت مضى. طيلة الساعات الماضية مارست فن الشفاء الذي تجيده دون أن يقول لها أحد إن هذا أدنى من مكانتها أو إنه يقلل من كرامتها، لقد قبلت آرينت على الملأ وكانت قادرة على الذهاب حيثما تشاء وأن تقول ما تشاء، وأن تترك ليا تكون ذكية كما تشاء دون الحاجة إلى توبيخها.

لم يكن أي من هذا ممكنًا إن عادوا إلى أمستردام.

لقد استولى قائد الحرس دريخت على مخططات الغنيمة، فصارت سارا بلا شيء تقايض به حريتها. على الأرجح ستتكمن ليا من إعادة رسمها، ولكن هذا سيتطلب خطوات من العمل، ولن يمنحها أحد هذا الوقت. إنها في سن الزواج وسيبحث لها والد سارا على الفور عن زوج مناسب.

ستخضع سارا للمراقبة عندما تذهب إلى الأماكن الثلاثة المسموح لها بالذهاب إليها، بينما يختار والدها زوجها التالي من قائمة الخُطَّاب الذين لم تلتقِ بهم قط. هذه الفكرة جعلتها ترغب في إغراق نفسها في البحر.

همس آرينت في لهفة وهو يخطو عبر الماء الضحل: "سارا".

التفتت إليه، وسرعان ما تلاشت ابتسامتها لرؤيته بفعل التعبير المتجهم المرتسم على وجهه.

"ما الخطب؟".

قال: "اجلبي ليا وكريسي، لدي أخبار سيئة".

قالت موبخة بلطف: "أنت لا تجلب أي نوع آخر من الأخبار. تحاول كريسي أن تقنع الولدين بأخذ قيلولة. أيًّا ما كان الأمر فسأخبرها به لاحقًا، ولكني أود أن تسمع إيزابيل بالأمر".

"هل تثقين بها؟".

"أجل. إنها حبلى يا آرينت، أيًّا كان ما سيحدث فيجب أن تكون جزءًا منه".

أومأ برأسه، وعلى الفور أخذته إلى ليا وإيزابيل. بعد أن اطمأن إلى أن أحدًا لا يراقبهم، أسرع بهم إلى أعلى الحافة ثم إلى داخل الأشجار بعيدًا عن الأنظار. ما إن صاروا مختبئين في الغابة حتى شرح لهن خطة دريخت.

همست سارا في اشمئزاز: "دار بغاء؟".

كان المطر ينهمر بغزارة، والفرسان منشغلون ببناء ملاجئ للشحنات ويشحذون عصيًّا من أجل الصيد، ولكنهم أيضًا يلقون نظرات جائعة على مجموعة من النساء يغزلن شباك صيد عند الشاطئ.

سألته ليا وهي تبعد الشعر المبتل عن عينيها: "ما الذي سنفعله إذن؟". كانت مبللة وترتجف وترتدي الوشاح الذي كانت ترتديه عندما رحلت عن ساردام. لم يكن هناك أي ثياب أخرى لمنحها لها، مما جعل سارا تضطر لأن تلف جسدها حولها كاللحاف.

قال آرينت: "سيخبرون الجميع بالخطة في الغد، وعلى الأرجح سيضعون أيديهم على سيوفهم وهم يفعلون هذا".

وضعت إيزابيل يدها على بطنها في رعب.

قالت ليا: "إذن سيكون علينا أن نهرب الليلة، هل يمكننا أن نختبئ في الغابة؟".

قال آرينت: "هذا ما أفكر فيه، سأستطلع الغابة بعد الظهيرة لأرى إن كان هناك بعض الكهوف التي يمكننا أن نتحصن بها. هل يمكنكن أن تنشرن الخبر بين الركاب وأن تخبرنهم بأن يكونوا مستعدين؟ يخطط دريخت لتوزيع بعض جرار النبيذ على رجاله مكافأة لهم على جهودهم. بمجرد أن يصيروا في حالة من السكر سنتسلل هاربين".

قالت سارا: "وماذا بعدها؟ لقد استولى دريخت على كل المؤن والأسلحة، سيعثر علينا في نهاية المطاف". كان صوتها مشتعلًا بغضب خطير ومتهور.

قال آرينت محذرًا: "لا يمكننا أن نقاتل يا سارا، سيكون هذا انتحارًا".

قالت في حدة: "فلنقاتل اليوم أو فلنمت في الغد، ما الفارق الذي سيصنعه هذا؟".

قال آرينت: "لأننا إن هربنا اليوم فقد نجد طريقة للهرب في الغد وبعد الغد، حتى تأتي النجدة. النجاة ليست انتصارًا، بل ما تفعلينه عندما تخسرين، كما أن هذه هي جزيرة توم العجوز، لقد جلبنا إلى هنا لغرض ما، مما يعني أن المصباح الثامن لن يكون بعيدًا عن هنا".

هذا جعل عيني سارا تلمعان وهي تقول: "تعتقد أن باستطاعتنا السيطرة على سفينة شبحية؟".

"بعد كل ما فعلته بنا... أعتقد أن العودة إلى باتاڤيا على متنها هو أقل ما يمكنها أن تفعله لنا".

اجتاحهم جميعًا إحساس بالخسارة.

من مكان ما بعيد نادى دريخت باسم آرينت. كان يمشي عبر الشاطئ واضعًا يديه على فمه وهو يبحث عن المرتزق.

قال آرينت: "يجب عليَّ الذهاب".

قالت سارا: "يجب عليك أن تعرف أنه ليس كل الركاب سيأتون معنا".

بدا آرينت مدهوشًا وهو يقول: "ماذا؟ لماذا؟".

"بعضهم سيعتقد أن دريخت منصف في عرضه، إما لأنه لا يؤثر عليهم، أو لأنهم يعتقدون أن الحياة تستحق الثمن".

"لا أفهم".

قالت سارا وشعرها يخفق حول وجهها: "لأنك لم تضطر إلى هذا من قبل. لا تقلق، سنحاول أن ننشر الخبر بين المتعاطفين فحسب، فلتعرف فقط أننا لن ننقذ الجميع".

تبادلوا النظرات بشكل يفصح عن أفكارهم، لقد اعتقدوا أنهم سيموتون على متن السفينة، والآن يعتقدون أنهم سيموتون هنا، لم يعد هناك حواجز ولا أسرار، لقد سلبتهم ساردام الكثير، ولكنها على الأقل قد أخذت الحواجز والأسرار معها.

قال: "سننقذ من نقدر على إنقاذه".

٧٧

راحت الأغصان العريقة تخدش وجنتي آرينت بينما يتعمق في الغابة. لم يكن هناك شيء يتحرك، وحتى نسيم البحر لم يتمكن من شق طريقه إلى هنا. قال آرينت لدريخت إنه ذاهب للصيد، ولكنه أراد في قرارة نفسه أن يستطلع مسارًا لهرب الركاب. إن جرى كل شيء على ما يرام فسيتسللون خلسة في الليل، ولكن إن جرت الأمور على نحو سيئ فيريد أن يعرف الاتجاه الذي سيهربون ناحيته. هذه جزيرة توم العجوز، كل ما خطط له موجود في هذه الغابة. لا يريد آرينت أن يتعثروا على غير هدى.

كان الجزء الداخلي من الجزيرة مكانًا غريبًا ومتلويًا، فتنقسم جذوع الأشجار عند قاعدتها وتمتد أغصانها في الهواء كأصابع وحش مخيف. كانت هناك أزهار حمراء ضخمة تصل إلى ارتفاع خصره من الأرض، وكل واحدة مكونة من مجموعة من الخيوط اللزجة لاصطياد الذباب الذي يقف عليها. كان هناك فراشات بحجم البتلات تتطاير في الهواء، بينما بتلات بحجم الأطباق تظلله من لهيب حرارة الشمس.

كان هناك مخلوقات غير مرئية تتسلل من تحت الشجيرات وتتسلق من بين الفروع. خلال ساعته الأولى هنا فكر أن كل صوت من هذه الأصوات له معدة خاوية وينظر بجوع إلى حلقه. لقد كاد

أن يركض عائدًا إلى الشاطئ، وكان هذا سببًا كافيًا لمواصلة المضي قدمًا، إن الخوف مادة هشة للغاية فلا يمكن اتخاذ قرارات جيدة بناء عليها.

تقاطر العرق من على وجهه، وكان الهواء رطبًا للغاية كما لو أنه يتدلى من الأغصان. راح يعب الهواء الرطب عبًّا، بينما جسده يصرخ في ألم.

لقد اعترضت سارا على ذهابه بمفرده، وجادلت واحتجت وطالبت بأن تذهب معه. لقد احتاج إلى كل حجة في جعبته لكي يقنعها بأنه سيكون أكثر أمانًا وحده، وسيتحرك بسرعة وصمت.

آخر شخص يبالي بشأنه مثلما كان عمه يفعل.

راح إحساسه بالخسارة يعتصر قلبه.

فكر أن الأمر ليس منطقيًّا، إنه لم يعد صبيًّا، والرجل الذي التقى به في باتاڤيا لم يكن نفس الرجل الذي رباه. لقد ضرب سارا، وذبح سكان جزر باندا، وتحالف مع الشيطان، وحبس سامي في زنزانة وكاد هذا الأمر أن يقتله.

لقد كانت تصرفات وحش، ومع ذلك... لا يزال آرينت يشعر في أعماقه بالحب تجاهه، وقد حزن لموته. لماذا شعر بهذا؟ وكيف يعقل هذا؟

مسح الدموع من عينيه وواصل المضي قدمًا ملاحظًا أثرًا من الأغصان المتكسرة، شخص ما قد مر من هنا. بعد بضع خطوات اتسع الأثر، فكر آرينت أن هذا لم يحدث منذ وقت قريب، فالأغصان المقطوعة قد بدأت في التعافي.

امتد الأثر أمامه، هذا أمر قد استغرق شهورًا وبفعل عشرات الرجال.

تبع الأثر بحذر حتى دلف أخيرًا إلى مساحة كبيرة خالية من الأغصان، حيث كان هناك ثلاثة أكواخ خشبية طويلة مبنية حول بئر صخرية، وهناك دلو مقلوب على جانبه. ظل مختبئًا بين الأشجار وهو يبحث عن قاطني الأكواخ، ولكن لم يكن هناك أحد من حوله. لم يأتِ أحد إلى هنا منذ أشهر بالحكم على شباك العنكبوت الضخمة المغزولة على الأبواب والنوافذ.

اندفع آرينت من بين الأشجار وألصق جسده بجدار أقرب الأكواخ، ثم شق طريقه إلى إحدى النوافذ، حاول أن يفتحها ولكنها كانت مغلقة بمزلاج من الداخل.

واصل المضي قدمًا حتى وصل إلى الباب الذي كان مكشوفًا تمامًا من الكوخين الآخرين. لا يزال لا يجد أثرًا لأي شخص، والأرض الطينية لا تحمل أي آثار أقدام.

إنه مكان مهجور.

تمتم: "أو ربما شيء قد دفعهم للتخلي عنه". فتح الباب القريب ثم خطا إلى الظلمة ليُزعج مجموعة من العناكب قد اندفعت هاربة إلى السقف المصنوع من القش. بالداخل كان هناك ثلاثون سريرًا مزدوجًا في صفوف منظمة، ولكن لا يبدو أن أحدًا قد نام فيها منذ وقت طويل.

كان هناك باب آخر على الجانب البعيد من الكوخ فتوجه ناحيته. بينما يمشي لاحظ زرًّا مصنوعًا من اللؤلؤ وخيطًا لا يزال مشبوكًا في فجوته، كان شيئًا باهظًا من نوعية الأشياء التي قد يرتديها كراوڤلز.

نفخ الغبار من عليه ثم قال لنفسه: "شخص ما كان يعيش هنا". ثم نظر إلى الأسرة وقال: "الكثير من الأشخاص".

بدأ قلبه يخفق.

فتح الباب الثاني بثقة أكبر، ومن ورائه كانت حجرة مؤن. كانت الرفوف مليئة بالأكياس المنتفخة والصناديق والأواني الفخارية المغلقة بسدادات من الفلين.

أنزل أحد الأواني الفخارية وانتزع السدادة ثم اشتم محتوياتها.

تمتم: "نبيذ".

كان غطاء الصندوق مغلقًا بالمسامير، فضرب منتصفه بمرفقه ليحطم الخشب. استخدم أصابعه لنزع الشظايا الخشبية فوجد أنه مليء باللحم المملح وصندوق آخر مليء بخبز جاف.

قطع بخنجره الجزء العلوي من أقرب الأكياس له ليكشف عن الشعير الموجود بداخله. يوجد هنا ما يكفي لإطعام الناجين من ساردام لأسابيع.

ترك الحبوب تسقط من بين أصابعه.

هذه جزيرة توم العجوز، لذا من المرجح أن هذا هو المكان الذي كان من المفترض أن يرسو فيه أتباعه الجدد. سينعمون بالدفء والغذاء وعلى الأرجح سيكونون ممتنين.

أغلق آرينت قبضته ليمسك آخر حبة شعير بقوة، هذا ليس صحيحًا.

توم العجوز لن يبني هذا، أي شيطان سيبالي بالامتنان؟ إن موسوعة الشياطين تصف مخلوقًا ليس له هدف سوى الذبح والدمار، ولا يترك شيئًا وراءه سوى الفساد، لقد أرسل أتباعه إلى العالم ليتسببوا في المعاناة. لم تذكر الموسوعة أن هذا يسبقه وجبتان مشبعتان ونوم هانئ.

لا يوجد ملك حارب من أجله قد عامل جنوده مثل هذه المعاملة الحسنة، فلم ينالوا إلا حساءً نتنًا ولُحُفًا قديمة قذرة للنوم في الوحل.

خرج آرينت من الكوخ وهو يشعر بالاضطراب ثم دفع غطاء البئر. باستثناء بعض الحشرات الميتة كان الماء نظيفًا. غرف من الماء غرفة بيده ثم تذوقه، فوجده عذبًا ومنعشًا. بعد أن نثر بعض الماء على وجهه ليبرده فتش الكوخين الآخرين.

كان كلاهما مزودين بالكثير من المؤن أيضًا.

كان هناك مساحة تكفي مئات من الأشخاص في هذا المخيم، ولا شك أن هذه المؤن قد وُضعت منذ وقت قريب، فلا شيء سيبقى كثيرًا في هذا الجو الحار. لقد ذبح دريخت الجرحى بلا مقابل، هذه المؤن من طعام وشراب من شأنها أن تبقي الناجين على قيد الحياة لأشهر إن تطلب الأمر.

خطا عائدًا إلى الخارج، ثم سار ببطء حول المبنى غير قادر على فهم هذا الكرم.

كان هناك قطع من الخشب وشظايا من عوارض وصناديق متكسرة ملقاة عند حافة المساحة الخالية من الأشجار، وعندما اقترب أدرك أن هناك المزيد من المخلفات من ورائها. مسامير متناثرة على

أرضية الغابة من صندوق مقلوب وعصي خشبية قد تراصت على جذع شجرة سميك. شق طريقه عبر الفوضى ليتعمق أكثر في الغابة، فوجد أشرعة ممزقة وقاربًا شراعيًّا متضررًا بشدة.

كان مختفيًا وراء الأوراق الكثيفة وكان سيتجاوزه دون أن يلاحظه، لولا أن بعض الأوراق قد تساقطت لتكشف عن الهيكل الخشبي من تحتها. انتزع ما تبقى من الأوراق ليتفحص القارب، كانت الإطارات قد انتزعت من موضعها لإفساح مجال لإطارٍ مثلثٍ ضخم لا شك أنه قد سقط من القارب. لا يزال بإمكان آرينت أن يرى المسامير التي انتزعت من الهيكل، مما أدى إلى تحطم جانب من القارب.

لقد احتل الإطار القارب بأسره، ولكن لم يكن هناك أي شيء ليشير إلى الغرض منه.

حدق إليه لبضع دقائق قبل أن يمشي عائدًا إلى الأكواخ.

أحس بالعطش فعاد إلى البئر ليشرب مرة أخرى، فلمح مقبض سيف يبرز من الطين. انتزعه من موضعه بيسر ليكشف عن نصل مكسور. غسله في الدلو فلم يجد شيئًا مثيرًا للاهتمام. كان مصنوعًا من الفولاذ وله مقبض من الخوص، بجانبين حادين وطرف مدبب. مثل كل السيوف كان ممتازًا في القتل وسيئًا في الحلاقة. لم يخبره بشيء عن الأشخاص الذين بنوا الأكواخ، باستثناء أنهم لم يكونوا يعتنون كثيرًا بأسلحتهم. كانت الحواف مسننة وقد تآكل النصل بفعل الصدأ. لهذا قد انكسر النصل. إن أفضل طريقة لقتل رجل بهذا السيف هي أن تأمل أن تتعثر به فيرتطم رأسه بصخرة.

أصغى إلى حفيف أوراق الشجر بالغابة، كان هذا ثاني سلاح سيئ الصنع يراه في غضون الأيام القليلة الماضية. على الأقل كان له نصل

ملائم على عكس خنجر المجذوم. فقد كان هذا الخنجر عبارة عن قطعة من المعدن الرقيق ومقبض خشبي. لقد بدا وكأنه...

"خنجر للزينة...". قالها ببطء بينما أفكاره ترتطم بفكرة كبيرة للغاية.

لقد أخبر توم العجوز سارا وكريسي وليا أنه سيترك خنجرًا تحت فراش الحاكم العام لكي يقتلوه به، وقد حرص المجذوم على أن يُلقي آرينت نظرة جيدة على النصل، لماذا؟

الشيء الجميل حيال خوف بهذا العمق، هو أنه لا أحد ينظر إلى ما وراءه. هذا ما قاله ڤوس عندما حاول قتله، لقد نقش الحاجب علامة توم العجوز على الألواح الخشبية وهو يعرف أن أحدًا لن يطرح أي أسئلة بمجرد أن يعثر عليها. ماذا لو كان هناك شخص يعتمد على نفس المنطق لإخفاء طبيعة الخنجر الحقيقية؟ نعم إنه ليس سلاحًا خطيرًا، ولكن لا تقلق بشأن هذا لأنه سلاح شيطان، لقد رأيت خادمه يحمله على أي حال.

ولكن ماذا لو لم يكن الخنجر هو سلاح الجريمة؟

من الناحية الواقعية لا يمكن أن يكون سلاح الجريمة، فقد كانت المقصورة مقفلة، ولم يدخلها أحد بعد أن خلد الحاكم العام إلى الفراش. الشخص الوحيد الذي كان قادرًا على هذا هو ياكوبي دريخت، ولكنه جندي محترف، لو قتل الحاكم العام لاستخدم سلاحًا حقيقيًّا، لم يكن ليثق في أن خنجر المجذوم سيؤدي المهمة. لن يثق أحد في هذا، ولم يستخدمه أحد.

إنه خنجر للزينة.

راودته فكرة ثم أخرى ثم أخرى. كيف تقتل شخصًا دون أن تدخل مقصورته؟ أي سلاح يمكنه فعل هذا؟ من سيستخدمه؟

قال بصوت عالٍ وقد خطرت له الإجابات في اندفاع مثير للدوار: "مستحيل... مستحيل".

٧٨

وضعت سارا يد هنري الميتة على صدره، كان هذا مساعد النجار الذي أخبرها لأول مرة عن بوسي، عندما صعدوا على متن السفينة. قطعة من الهيكل قد تحطمت وارتطمت بصدره وسحقت كل شيء بداخله. لقد استطاع أن يتنفس طويلًا بما يكفي لكي يضعه رفاقه في قارب شراعي ويجلبوه إلى الجزيرة، ولكن لم يكن هناك طريقة لشفاء إصابة كهذه. أفضل ما يمكنها فعله هو أن تمنحه الراحة كما فعلت مع بوسي على رصيف الميناء.

اعتدلت سارا واقفة على قدميها، ونفضت الحصى التي تجمعت على تنورتها قبل أن تتلفت حولها في أرجاء الكهف وقد صنع الحزن ثقبًا في صدرها. لقد مات معظم من جلبوهم إلى هنا، هؤلاء القلة الذين نجوا راحوا ينتحبون في ألم ويتوسلون من أجل أحبائهم، بعضهم سيموت قريبًا وبعضهم الآخر سيعيش لوقت أطول، ولم يكن لهذا أو ذاك علاقة بسارا، فقد بذلت كل ما في وسعها باستخدام ما هو متاح لها.

إن الرب هو من يختار مصير هؤلاء الناس. ليس بوسعها إلا أن تصلي من أجل أن يرحمهم، فهذا أقل ما يستحقونه بعد كل ما مروا به.

لم تعد قادرة على تحمل المعاناة أكثر من هذا، فخطت إلى الأمطار الرمادية، ومشت عبر الشاطئ ناحية حافة المياه، وقد وقفت بعيدًا عن متناول الأمواج المتكسرة.

من ورائها فوق الحافة الصخرية أصدرت الأشجار حفيفًا، مما جعلها ترتجف في خوف.

هذه جزيرة توم العجوز، وقد جلبهم إلى هنا من أجل غرض ما فظيع. أيًا ما كان سره فإنه على الأرجح ينتظرهم في هذه الغابة، ومع ذلك فقد اختفى آرينت بداخلها كأنما هو ذاهب إلى السوق.

لم تلتقِ قط برجل أشجع منه، ولكنه لم يقبل هذا الإطراء، قال إنه لا يوجد شجاعة في فعل ما هو ضروري.

تنهدت وهي تفكر أنه لا يكون من السهل أن تحب رجلًا كهذا.

جثت سارا على ركبتيها وغسلت يديها في ماء البحر، ثم حدقت إلى حطام ساردام البعيدة. كان الشق الكبير في منتصفها قد اتسع ليكشف عن مخزن البضائع بالداخل، كانت الألواح الخشبية تتساقط من جانبيها إلى الماء والطيور البحرية تحوم من فوقها كالغربان التي تحوم من فوق بقرة ميتة.

كان هناك قارب عائد ببراميل مليئة بمحتويات الكنز. لقد راحوا يجلبونها لساعات، ويضعونها في كومة تحت الأشجار على مسافة بعيدة بعض الشيء من الإمدادات الأخرى. حتى من على هذه المسافة كانت قادرة على رؤية الأقداح والسلاسل والأطباق الذهبية والمجوهرات والحلى، لا شك أن هذه هي الشحنة السرية التي أمر زوجها رينير ڤان شوتن أن يجلبها على متن السفينة في الخفاء.

جفلت عندما تذكرت ڤان شوتن، إنها لم ترَ كبير التجار منذ التمرد، لم يكن في الكهف أو في قارب النجاة. نظرت على طول الساحل في قلق، ولكن الجثث كانت مكدسة تحت ملاءة في انتظار دفنها. من

آن لآخر كان المحيط يجلب جثة جديدة، حيث يمنح المد والجزر أطراف الجثة حياة مرتعشة غريبة. لا شك أن الأمواج ستجلب جثة ثان شوتن عاجلًا أو آجلًا.

راقبت سارا الفرسان وهم يجرُّون القارب الشراعي إلى الشاطئ وينزلون قرابة عشرة صناديق، غير عابئين بما يسقط من عملات ذهبية وأطباق مزخرفة وقلائد وألماس وياقوت. ضحك الفرسان وهم يتركونها هناك، وقالوا مازحين من سيكلف نفسه عناء سرقتها.

راحوا يزمجرون وهم يحملون صندوقًا إلى المخيم تاركين البقية بلا حراسة.

حدقت سارا إلى الكنز المكدس عاليًا.

كان كنزًا من نفس النوع الذي كان ڤوس يحاول إخفاءه عندما واجهه آرينت، لا شك أن الحاجب قد سرقه من زوجها، لهذا اعترف بأنه لص عند اتهامه، رغم أنه لم يسرق الغنيمة.

ولكن لمَ كان زوجها يمتلكه؟ لقد كان تاجرًا يبيع التوابل نظير الذهب، ولكنه لم يكن يقايض مقابل الأقداح والأطباق مهما كانت ثمينة.

اقتربت من الكومة وتفحصتها، ثم التقطت الأطباق والأقداح وراحت تبحث عن أي علامات فيها، وسرعان ما وجدت شعار نبالة عائلة دايكسما تمامًا كما وجدته على الأشياء التي قد سرقها ڤوس.

ولكن كان هناك المزيد من شعارات النبالة.

جذبت سيفًا مزخرفًا من غمده لتكشف عن شعار أسد يحمل سيفًا وسهامًا وتحلق فوق رأسه راية مكتوب عليها "الشرف والدهاء" باللغة اللاتينية.

إن هذا شعار عائلة دي هاڤيلاند، هذه ليست صدفة بلا شك، كانت إيميلي دي هاڤيلاند على متن ساردام.

واصلت البحث فوجدت شعار نبالة يخص عائلة ڤان دي سيولين، وآخر لعائلة بوس. هذه هي العائلات التي أنقذها بيتر فليتشر من شر توم العجوز.

لِمَ قد يفعل زوجها هذا؟ لقد اعترف بأنه استدعى توم العجوز، هل يُعقل أن هذا هو السبب؟ لكي يسرقهم؟

أدركت في لمحة من البصيرة أن السرقة لم تكن هي الهدف، هذه ليست طريقة زوجها. ماذا لو أنه فعل بهذه العائلات ما فعله بأبيها وبكورنليوس ڤوس وعدد آخر لا يحصى أثناء حياته؟ أن يدمرهم ويحقر من شأنهم ثم يتركهم أحياء ليعانوا من هزيمتهم؟

بحسب موسوعة الشياطين كان جميع هذه العائلات تجارًا وبناة سفن، أشخاصًا كان زوجها يحتاج إليهم أو يتنافس معهم، بينما يبني تجارته على مدار الثلاثين عامًا الماضية. ماذا لو أنه قد استدعى توم العجوز ليطلقه عليهم؟

لقد أحبط بيتر فليتشر المخطط، ثم قتله زوجها انتقامًا منه.

ولكن...

أحست بذكرى تلح عليها، أول مرة رأت فيها صورة بيتر فليتشر في مقصورة كريسي انزعجت منها، كان متألقًا في ثيابه الجميلة واقفًا

أمام بيتهما الريفي. لقد كان قادرًا على أن يتحمل تكلفة الزواج من كريسي التي عادة ما يتودد إليها الملوك.

وعلى النقيض منه كان ساندر كيرس يرتدي أسمالًا بالية، وباعترافه الشخصي قد توسل الصدقات من المصلين لكي يصعد على متن ساردام.

إن مهنة صيد الساحرات لا تجعلك ثريًّا، وبطريقة ما كان بيتر فليتشر ثريًّا.

كانت كريسي تساعد إيزابيل في جمع الحطب، عندما جاءت إليها سارا التي كانت تلهث وقد احتاجت إلى دقيقة لتلتقط أنفاسها قبل أن تطرح عليها سؤالها.

قالت وهي تلهث: "هل كان بيتر... هل كان... نبيلًا؟ هل ينحدر من عائلة ثرية؟".

ضحكت كريسي بوجوم وقالت: "إن صائدي الساحرات لا ينحدرون من عائلات ثرية، بل ينالون المال كمكافأة على عملهم الصالح في إنقاذ العائلات".

قالت سارا لنفسها: لا، الأمر ليس هكذا. إن المكافآت تمنح عن طيب خاطر. لقد أطلق الحاكم العام توم العجوز على تلك العائلات ليدمر سمعة منافسيه، وليبتز هؤلاء الذين قد يستفيد منهم، وبعدها عندما وافقوا على شروطه أرسل بيتر فليتشر لـ "نفي" توم العجوز وإقناع الجميع بأن الشيطان قد رحل حقًّا.

ولكن زوجها قد ترك أعداءه على قيد الحياة، لطالما فعل هذا، لطالما استمتع برؤيتهم يعانون.

وأحدهم قد عثر عليه.

عندما وجدت سارا الكتاب في مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين اعتقدت أنه استهزاء من موسوعة الشياطين، ولكنها في الواقع كانت سجلًا حقيقيًّا لما كان يحدث طيلة السنوات الماضية، لقد دمر توم العجوز عائلة دي هاڤيلاند. لقد ترعرعت وهي تسعى للانتقام، وراقبت تصرفات بيتر فليتشر بعينها وكرست حياتها لتعقبه. لقد عثرت عليه في أمستردام متزوجًا من كريسي وأبًا لولدين، لقد تعرف عليها بطريقة ما وهرب، ولكنها لحقت به إلى ليل، لقد عذبته واكتشفت المتآمرين معه. من المحتمل أن هذا قد قادها إلى ساندر كيرس والحاكم العام.

لا عجب أن زوجها لم يكن ينتزع درع صدره قط، ولا عجب أنه أخفى نفسه في باتاڤيا محاطًا بالأسوار العالية والحراس.

كيف تقتل رجلًا محصنًا للغاية؟ قالت لنفسها: بأن تستدرجه إلى الخارج.

لقد تلقى البريديكانت خطابًا مزيفًا من بيتر فليتشر قبل عامين يطلب منه الإبحار إلى المدينة، وتلقى زوجها خطاب استدعاء مزيف من جد آرينت قبل شهر من صعودهم على متن ساردام.

تمتمت وهي تنظر إلى الحطام من جديد: "لاكساجار كلمة نورنية تعني فخ".

لقد وضعت إيميلي العلامة على الشراع لكي يعرف زوجها أن ماضيه قد لحق به، وتركت الاسم المركب من حروف اسمها في

السجل ليعرف الفاعل. لقد جلب توم العجوز المعاناة، وحرصت إيميلي على أن يعاني يان هان نظير ما فعله.

اندفعت سارا إلى الشاطئ لتبحث في يأس عن آرينت. هذه الأفكار كبيرة للغاية حتى شعرت أن رأسها سينهار تحت وطأة ثقلها.

يجب عليها أن تخبره بشكوكها.

كان يمشي عبر الشاطئ وهو يلقي بنظرات محمومة من حوله، وعندما رآها اكتسى وجهه بالارتياح.

اندفعا أحدهما ناحية الآخر ثم ضم آرينت سارا بين ذراعيه.

قالت بشكل محموم: "أعرف لِمَ يحدث هذا".

اتسعت عيناه وقال: "جيد، لأنني أعرف من وراء هذا".

٧٩

"هذه خطة سيئة للغاية". قالها آرينت وهما يقتربان من ساردام في قارب شراعي. ألقت السفينة الضخمة المحطمة بظلالها عليهما بينما الهيكل المكشوف مغطى بالأصداف والأعشاب البحرية. كانت خيوط من الضوء تتسلل عبر الشقوق إلى مخزن البضائع، لتكشف عن الطيور البحرية التي بنت أعشاشها بالداخل. بدت السفينة وحشية من هذه الزاوية، كوحش فظيع قد ربض وهو يُحتَضَر.

أجابته سارا وهي جالسة عند مقدمة القارب لتراقب المياه الضحلة: "حسنًا، لم يكن لديك الوقت الكافي إلا للتفكير في خطة سيئة، كما أننا يجب أن نتيقن من أننا محقون، وهذا هو المكان الوحيد للتيقن من ذلك".

كان البحر مضطربًا، فاضطر آرينت لبذل جهد إضافي في تحريك المجاديف لتجنب الاصطدام بالصخور المسننة. لقد أخبرا دريخت أنهما سيستعيدان قيثارة سارا، وهو أمر لا يمكنهما أن يعهدا به إلى شخص آخر. لقد أنصت إليها وهي تعزف على الآلة الموسيقية لساعات كل يوم في القلعة، لذا قبل عذرها دون أدنى شك.

ثبت آرينت القارب بينما سارا تقفز منه، ثم سحب المجاديف إلى الداخل وخطا إلى الصخور قبل أن يجذب القارب الشراعي من

الماء. كان الركاب قد نزلوا هنا هذا الصباح، ولا يزال السلم المصنوع من الحبال متدليًا من خصر السفينة.

تحطمت الأمواج على الصخور لتنثر الرذاذ في الهواء وتبللهما. بذل آرينت مجهودًا ليبقى واقفًا على قدميه وهو يمشي ناحية مؤخرة السفينة، بحثًا عن البقعة التي تنبعج فيها مقصورة عمه من الهيكل.

كانت آثار يدي المجذوم صغيرة للغاية، حتى ليظن المرء أنها بقع من الأوساخ قبل أن يقترب منها، إنها تمتد من الماء إلى مقصورة عمه ثم تتجاوزها إلى مقصورة سارا ومن ثم إلى سطح الحظائر.

قال آرينت: "لقد افترضنا أن المجذوم قد صنع هذه الثقوب في الهيكل أثناء تسلقه، ولكن ماذا لو كانت موجودة في الهيكل قبل حتى أن نصعد على متن السفينة؟ يصعد الجميع من على الجانب الآخر للسفينة، لذا لن يلاحظها أحد في الميناء".

"تقصد سلمًا؟ هل تعتقد أن بوسي هو من صنعه؟".

قال آرينت: "أجل. لقد قال لساندر في باتاڤيا أنه يهيئ السفينة من أجل سيده. أعتقد أن هذا جزء مما كان يعنيه".

مشيا إلى مخزن البضائع عبر الصدع في هيكل السفينة، فاجتاحتهما على الفور رائحة التعفن النفاذة المثيرة للغثيان. إن الرمح الصخري الذي أنهى التمرد لصالح دريخت قد اخترق الهيكل بشكل مستقيم، وكان ملطخًا بالتوابل.

تتلألأ بعض المجوهرات هنا وهناك في المياه الآسنة، وقد غفل عنها فرسان دريخت.

تساءل آرينت: "لـمَ جلب عمي هذا الكنز إلى باتاڤيا؟". ثم التقط حجرًا من الجشمت ونفض قطرات الماء عنه.

أجابته سارا: "أين كان سيتركه دون أن يخاطر بسرقته أو أن يثير الأسئلة؟ باستثناء المجوهرات، فإن كل قطعة تقريبًا تحمل شعار عائلة كبيرة قد اضمحلت".

"كان بمقدوره أن يبيع الأحجار الكريمة وأن يذيب البقية".

"أنت لم تعرف زوجي حقًّا رغم كل شيء، أليس كذلك؟". كان هناك شفقة في صوتها. "من المرجح أنه قد استخدم الكنز عندما احتاج هذا لتحقيق بعض المساعي، ولكنه لم يكن ينظر إلى هذا باعتباره كنزًا. إنها جوائز، تذكارات لانتصارات، لا تختلف كثيرًا عني أنا وڤوس، إنه يحب أن يجمع ضحاياه ويعرضهم أمام الناس".

فتح آرينت راحة يده ليترك حجر الجشمت يسقط مرة أخرى في المياه القذرة، كأنما شعر فجأة أنه ساخن.

دون كلمة واحدة هبط السلم إلى السطح السفلي الذي كان زلقًا بفعل الدماء. لقد تغذت الطيور البحرية على بقايا الموتى.

توقعت سارا أن يتوجها مباشرة إلى مقصورات الركاب، ولكن آرينت فتح الباب المؤدي إلى مخزن البارود. لقد انقلبت البراميل وانسكب البارود على الأرضية، ولكنه كان رطبًا ولا خطر منه. كانت تميمة الكونستبل ملقاة بين بعض الشظايا الخشبية، فمن الواضح أنها قد تمزقت من حول عنقه عندما ساد الذعر بسبب التمرد.

سألته: "ما الذي تبحث عنه؟".

أجابها بشرود: "لا شيء في هذه الرحلة قد حدث من قبيل الصدفة". ثم التقط التميمة ومسح البارود من عليها قبل أن يضعها في جيبه، سيعيدها إلى الكونستبل لاحقًا. "هذه السفينة كانت فخًّا مصممًا لقتل عمي، لقد جرى التخطيط لكل شيء لسنوات".

قالت سارا: "بما في ذلك المعجزات الشيطانية الثلاثة".

قال آرينت: "لم يكن أحد ليقدر على دحرجة البراميل التي تحتوي على الغنيمة خارج المخزن، إلا أفراد الطاقم".

"إذن فنحن نسعى وراء ثلاثة أشخاص".

قال: "بل اثنان، لا شك أن القبطان كراوڤلز كان متورطًا في الأمر. إن كانت إيميلي دي هاڤيلاند تنوي منذ البداية أن تجلبنا إلى هذه الجزيرة، إذن فقد كان هو الشخص الوحيد الذي قد يضمن هذا، لأنه من كان يوجه السفينة".

قالت سارا: "ربما كانت الغنيمة هي الثمن، فهي ثمينة بما يكفي. كانت ستشتري لي أنا وليا حياة جديدة كاملة. كان كراوڤلز مهووسًا باستعادة اسم عائلته، لو باع الغنيمة لصار قادرًا على تحقيق هذا".

"كان يعرف أن المصباح الثامن سيظهر، لذا كان يعرف أنه سيأمر بالتوجه إلى مراكز القتال، لم يكن يحتاج إلا للثقة في بعض الأشخاص يكونون في موضع الاستعداد لدحرجة البراميل التي تحتوي على الغنيمة إلى مخزن البضائع، وإخفائها في خزانات التهريب التي صنعها بوسي. إن كنا محقين بشأن هوية إيميلي فكانت لتقدر بسهولة على سرقة مفتاح صندوق الغنيمة".

حدقا أحدهما إلى الآخر وهما يشعران بحماسة الإلهام.

فجأة سألها آرينت: "هل تعتقدين أن إيزاك لارم كان متورطًا؟".

"لماذا؟".

"لأن لدي خطة يمكنه أن يساعدني فيها، ولكنه كان قريبًا من كراوڤلز، ربما تعاونا معًا".

قالت سارا: "لا أعتقد هذا، لقد اعترف بأنه عثر على قطعة من الغنيمة مخفية في أحد خزانات التهريب الخاصة به، ولكنه قال إنه لم يتمكن من العثور على البقية. تذكر كم بدا خائب الأمل، لو كان يعمل لصالح كراوڤلز فلِمَ قد يعترف بهذا؟".

كانت درجات السلم التي تؤدي إلى الأعلى متكسرة مما أجبرهم على التحرك بحذر شديد. كانت المقصورة الواقعة تحت السطح السفلي مائلة ناحية الدفة، والموتى مكومون بجانب الجدار، وبالإضافة إلى الجثث كانت آثار المعركة في كل مكان، من الحفر في الألواح الخشبية إلى السيوف التي لا تزال عالقة فيها.

لقد اخترقت الصخرة خصر السفينة لتدمر كل شيء فيه، بما في ذلك الصاري الرئيسي الذي كان في هذه اللحظة في البحر ولا يربطه بالسفينة إلا حبال الأشرعة.

قالت سارا في اشمئزاز: "هذا يذكرني بذراع مبتورة".

لاذ آرينت بالصمت. كانت هذه ساحة المعركة التي ظن أنه قد هرب منها.

قالت سارا وهي تشعر بالغثيان: "هل يجب أن نبدأ في تفتيش مقصورات الركاب إن كنا محقين...".

قال متعاطفًا: "أعرف، أشعر بالشيء ذاته".

واصلا المضي قدمًا في صمت وعلى مضض، صاعدين السلم إلى مقصورات الركاب. لم يصل القتال إلى هذا الجزء من السفينة، حرص قائد الحرس دريخت على أن يضع رجالًا عند الباب. لقد أجبره الشرف على حماية سارا وليا، حتى عندما أجبره افتقاره للشرف على بدء التمرد الذي عرضهم جميعًا للخطر.

لم يكن آرينت قادرًا على أن يتخيل التفكير هكذا، لا شك أن عقله ملتوٍ كحبل قديم.

ذهبا إلى مقصورة ڤوس أولًا، ولكن آرينت بقي عند عتبة الباب عاقدًا ذراعيه وهو يراقب سارا تفتش إيصالات الركوب على طاولة الكتابة، ثم التقطت دفتر النفقات من على الأرضية. قلبت بضع صفحات قبل أن تمرر يدها على أعمدة الأرقام.

وأخيرًا أغلقته في غضب، ثم نظرت إليه نظرة تؤكد كل شيء يشكان فيه.

شعر آرينت بقبضة باردة تعتصر قلبه.

قطعا الممر ثم دلفا إلى مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين، فتعثرت قدم سارا بالسجادة الضخمة التي تغطي الأرضية.

جثا آرينت على ركبته على الفور وتحسس النسيج بأصابعه وهو يتمتم: "إذن هكذا جلبوها على متن السفينة".

"العصا الخشبية؟".

رمش بعينيه وهو يسألها: "ماذا؟".

"لقد كنت في الممر عندما حاولوا إدخال السجادة إلى المقصورة، لقد كسروا عصا خشبية رفيعة كانت بداخلها".

قال عاقدًا حاجبيه: "لا، ليس هذا ما أعنيه. انظري".

مرر يده على السجادة فضيقت عينيها ثم أدركت ما الذي عثر عليه، كانت مطبوعة كأنما شخصًا ما قد مرر نصلًا عليها.

قال: "هذا القطع بطول السجادة".

"ما الذي يتسبب فيه؟".

قال: "سلاح الجريمة". بذل مجهودًا للموازنة ما بين إحساسه بالرضا لكونه محقًّا، والإحساس بالاشمئزاز الذي انتابه بسبب هذا الاكتشاف.

قالت وقد فهمت الأمر: "هذا نصل كبير".

قال: "لم يكن هناك مفر من هذا، فقد كان عمي على مسافة بعيدة".

أصدرت السفينة صريرًا بينما الألواح الخشبية تتشقق والأرضية تتحرك من تحت أقدامهما. قالت سارا وهي تحافظ على توازنها: "السفينة تتمزق".

دون كلمة أسرعا إلى مقصورة سارا حيث رفع آرينت مرتبة فراشها. شيئًا ما حيال وجوده بالقرب من سريرها جعل وجهه يحمر خجلًا رغم الموقف الذي هما فيه.

قال وهو يفتش قاعدة المرتبة بأصابعه: "إن استخدام خنجر المجذوم لقتل عمي لم يكن منطقيًّا، فقد كان رفيعًا للغاية، مما يعني أنه هش للغاية على أن يكون سلاحًا نافعًا. ولكن أسلحة القتل البارعة

دومًا ما تكون أسلحة سيئة، لقد جعلني سامي أرى هذا، لا أحد يذهب إلى ساحة المعركة سيثق في سم ثعبان أو قطعة حادة من الفخار. القتلة يصنعون أسلحتهم الخاصة بحسب احتياجاتهم".

قالت سارا: "وكان القاتل بحاجة إلى سلاح يمكن استخدامه دون أن يدخل أحد المقصورة أو يغادرها".

"بالضبط، لقد مات عمي في فراشه، لذا بدأت أفكر في الأسلحة التي قد تصل إليه أثناء نومه".

تنحى جانبًا، ثم أشار إلى البقعة التي كان يتفحصها وقال: "انظري".

كان هناك قطع رفيع بحجم إصبعها الصغيرة بالكاد ملحوظًا في الخشب الداكن.

قال آرينت: "لقد عثر سامي على شظايا خشبية في صدر عمي، وخمن أنها من المقبض الخشبي لخنجر المجذوم، ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانت من هذه الفجوة. تقع مقصورة عمي تحتنا مباشرة، وأراهن أن هذه الفجوة تظهر فوق فراشه مباشرة. كان يجب أن تكون رفيعة لكيلا يلاحظها، وحتى لو لاحظ هذا فسيظن خطأً أنه شق في الخشب. كان لدى إيميلي هاڤيلاند نصل طويل رفيع مصمم ليناسب المرور من هذه الفجوة. لقد أخفته في السجادة لأن هذا هو السبيل الوحيد لحمل شيء غريب كهذا على متن السفينة دون أن يعلق شخص بشأنه. لقد أخرجت النصل من السجادة وسحبت الأدراج من تحت سريرها، ثم دفعته عبر هذه الفتحة مما أدى إلى قتل عمي. عندما انتهت من الأمر سحبت النصل وأعادت الأدراج إلى موضعها ثم ألقت به من الكوة".

قالت سارا: "أعتقد أنني سمعت هذا، في الليلة التي مات فيها زوجي...". أعادت التفكير في الأمر ثم قالت: "التي مات فيها يان، كنت أعتني بك وقد سمعت صوت شيئًا يرتطم بالماء بالخارج".

قال آرينت: "لا شك أنها كانت مسرورة لأنك لم تكوني في مقصورتك، كان من المفترض أن تكون هذه هي مقصورتها، ولكن رينير ڤان شوتن بدل مقصورتك لأنه ظن أن هذا المكان ملعون".

"لو أن كل الركاب كانوا في المقصورة الكبرى لتناول العشاء عندما قُتل يان، وكان إيجرت يحرس الباب المؤدي لمقصورات الركاب، فكيف وصل القاتل إلى هنا؟".

كانت مقصورة كراوڤلز في آخر الممر فتوجها إليها. كانت ملابسه الفاخرة متناثرة على الأرضية تطفو في الماء الذي تدفق إلى المقصورة عبر الكوة أثناء تحطم السفينة. ركل آرينت بعض الأشرطة ثم دفع السقف الذي انفتح إلى حظائر الحيوانات من فوقه، فتساقط القش على كتفيه.

قال: "هكذا ذبح المصباح الثامن الحيوانات، وهنا اختبأ المجذوم عندما لاحقته عبر كوة مقصورتك. في ليلة قتل عمي تسلق المجذوم من الماء وصعد مباشرة عبر جانب السفينة إلى سطح الحظائر، لقد استخدم هذه الفتحة ليهبط إلى هنا ثم استبدل ثيابه بثياب جافة لكيلا يترك أدنى أثر، قبل أن يجلب السيف ويذهب إلى مقصورتك".

توجها أخيرًا إلى المقصورة الكبرى حيث انقلبت الطاولة الضخمة على جانبها. كانت النوافذ محطمة ومن ورائها البحر الرمادي المضطرب.

بدت مقصورة الحاكم العام مريحة كعهدها دومًا رغم أن اللفافات كانت متناثرة في أرجائها. لقد انقلبت المحبرة فتلطخ الجدار والطاولة بالحبر.

تحسست سارا الشق الضيق في الخشب فوق فراش زوجها ثم قالت: "ولكن مقبض الخنجر لن يمر من هنا".

قال: "أعرف، وهذا هو الجزء البارع، لهذا كان يجب إطفاء الشمعة، ولكني ما زلت غير متيقن من كيفية فعل هذا. من المستحيل فعل هذا دون الدخول إلى المقصورة، ولا يمكن فعل هذا من خلال الكوة لأن المكتب بعيد للغاية".

قالت سارا مبتسمة: "أنا أعرف، لقد رأيت الأمر، وسمعت صوتًا أثناء صنعه".

"أنا لا...".

"متى كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى الكنيسة يا آرينت؟".

قال معترفًا: "منذ وقت طويل".

"هل سبق وأن رأيت إحدى مطافئ الشموع ذات العصا الطويلة التي يستخدمونها لإطفاء الشموع في الثريات؟".

ارتسم الفهم على وجهه.

"العصا التي رأيتها تسقط من سجادة الڤيكونتيسة دالڤين كانت مطفأة شموع". ثم اقتربت من الكوة ونظرت إلى الخطاطيف الثلاثة الموضوعة على مسافات متباعدة بالأعلى التي لاحظها سامي بعد موت زوجها، وقالت: "كان من المفترض أن يجلبها المجذوم من

مقصورة الڤيكونتيسة دالڤين ثم يضعها على هذه الخطاطيف عندما يكون هناك حاجة إليها. ولكنه لم يعرف أن مقصورتينا قد تبدلتا، لهذا ظهر عند مقصورتي في تلك الليلة".

"ولكنك قلتِ إنها قد انكسرت، هل أصلحوها؟".

"لا، لقد سرقوا أحد المقابض من العجلة الرحوية في مخزن البضائع، لقد سمعت يوهانس ڤيك يصرخ غاضبًا بشأن ذلك الأمر خلال العظة الأولى، ثم استخدموا مسحج النجار لجعله بالحجم المناسب. لقد سمعت دوروثيا الضوضاء أثناء مرورها بجانب مقصورة دالڤين، ولكنها لم تفهم طبيعة الصوت. ربما كان الشيء الوحيد بالطول المناسب الذي استطاعوا سرقته بسهولة".

قال آرينت في وجوم: "بالتفكير في الأمر، فإن هناك احتمالًا أن أيًا من هذا لم يكن ليحدث إن لم يتمكنوا من سرقة هذا المقبض اللعين".

٨٠

قضى آرينت وسارا ما بعد الظهيرة معًا، يمشيان جيئة وذهابًا بمحاذاة الشاطئ بينما يرسمان خطتهما. كانا متشابكي اليدين ويتحدثان بصوت خفيض ومن آن لآخر ينظران ناحية ساردام.

تركهما الجميع وشأنهما.

لقد أخطأ الجميع الظن في أن هذه تمشية رومانسية، وهي الفكرة التي تتناقض مع التعبير المرتسم على وجهيهما، غضب شديد تمنوا ألا يروه مرة أخرى.

لم يفترقا إلا عندما أخبرهما ياكوبي دريخت بأن قارب الإنقاذ مستعد للرحيل، وكل منهما يحمل عبء مهمته المخيفة. ذهب آرينت إلى إيزاك لارم الذي كان جالسًا وحيدًا في أقصى الشاطئ، لقد وجد كتلة جديدة من الخشب فاستأنف ما كان يفعله من نحت. إنه يحاول صنع بيجاسوس* منذ سنوات، ولكنه لم ينجح.

عندما رأى المرتزق تجهَّم، وقد تذكر موافقة آرينت على اقتراح دريخت بعمل دار بغاء. ولكن استياءه تبخر عندما استمع إلى فكرة آرينت. بحلول الوقت الذي انتهى فيه آرينت من حديثه كان فاغرًا فاه في دهشة.

* البيجاسوس: حصان أسطوري مجنح في الأساطير الإغريقية.

قال محاولًا استيعاب الأمر: "يجب أن أكون مجنونًا لكي أفعل ما تطلبه".

قال آرينت محتجًا: "إن لم تفعل هذا فسيموت الجميع". ثم ألقى نظرة ناحية دريخت الذي كان صبره ينفد بينما ينتظره إلى جانب قارب الإنقاذ.

قال لارم وهو ينظر إلى دريخت في اشمئزاز: "وإن فعلته فسأموت على الأرجح. ولكني سأحب أن أنال فرصة للتبول على قبعته". ثم أومأ برأسه وقال: "أعتقد أن هذا سبب كافٍ. أين تريدني أن أكون؟".

أجابه آرينت: "أقصى اليسار". وعندما رأى حيرة لارم ربت على يده اليسرى وقال: "هذا الجانب".

مع رحيل لارم، ذهب آرينت إلى الكهف حيث كان سامي يتمتم وهو مستلقٍ على حصيرته. كانت سارا قد وضعت كِمَادة على وجهه المصاب، ودهنته بالمرهم الذي تشبه رائحته رائحة البول من مجموعة الكيمياء الخاصة بها.

حمله آرينت من على أرضية الكهف وسار به إلى مركب الإنقاذ، حيث كان دريخت يعطي الأوامر لثيمان وإيجرت.

قال: "آه، آرينت، لا شك أن تعرف متطوعينا".

قال آرينت: "أعرفهما، لقد جلبا سامي على متن ساردام. لقد حدث بيننا خلاف صغير على طريقة معاملتهما له، يبدو مناسبًا أن يكونا من سيحملانه إلى الديار".

وضع سامي على مقعد في الجزء الخلفي من القارب الشراعي، لم يستيقظ، وكان آرينت مسرورًا لهذا، لا يعرف ما قد يقوله، كان من

المفترض أن يحميه، ولكنه لم يعد قادرًا على التفكير في كيفية فعل هذا بعد كل ما حدث، يشعر وكأنما قد فشل.

قال آرينت مخاطبًا دريخت: "لقد وجدت كوخًا مليئًا بالمؤن في الغابة، لحم مملح وجعة وكل شيء، ما يكفي لإطعامنا لأشهر إن تطلب الأمر".

قال دريخت وقد تهللت أساريره: "حقًّا؟ إنها ضربة حظ عظيمة يا صديقي. لا شك أنه مخزن للقراصنة، ولكن هذا لا يعني أنني سأتغاضى عن هذه المؤن".

نظر آرينت للإمدادات الشحيحة بالقارب وقال: "أعتقد أننا قد نوفر لهؤلاء الرجال برميلًا إضافيًّا من الجعة وبعض الخبز، ألا ترى هذا؟ ستكون رحلتهم شاقة".

فكر دريخت في الأمر، ثم أومأ برأسه وقد بدا مسرورًا لأن آرينت قد انحاز إلى جانبه.

كانت المؤن مكدسة عند حافة الأشجار بالقرب من الغابة، فرفع آرينت برميلًا على كتفه واختار سلة من الخبز واللحم المجفف قبل أن يضعهما بحرص في القارب.

أحس بالرضا لأنه قد منحهم أفضل فرصة ممكنة قبل أن يضع يده برفق على صدر المشكلاتي النحيل.

كان وداعًا جبانًا، ولكن لم يعد لديه الكثير ليقدمه.

تمنى الحظ الحسن لإيجرت وثيمان، ثم أمسك بمقدمة القارب بكلتا يديه ودفعه بمفرده إلى المحيط المضطرب.

***

راقبت كريسي قارب الإنقاذ وهو يختفي وراء الأفق وقد اجتاحها إحساس بالقلق.

كان ماركوس وأوسبرت إلى جانبها يلقيان بالأحجار في الماء، بسبب سنهما الصغير تعافيا بسرعة من صدمة التمرد وتحطم السفينة، والآن يعتقدان أنهما منخرطان في مغامرة عظمى. تأمل أنها ستقدر دومًا على جعلهما في مأمن من الخوف.

بعيدًا إلى يسارها لاحظت إيزابيل تمشي ناحيتها، وقد ارتسم على وجهها تعبير خاوٍ. إنها لا تعرف الفتاة جيدًا، ولكنها تحبها، لقد حملت على عاتقها الكثير من المهام منذ موت ساندر، مظهرة حماسًا دينيًّا يتضاءل إلى جانبه حماس سيدها.

بعد أن قطعت إيزابيل الشاطئ وقفت إلى جانبها، كانت تتحدث مع سارا باكرًا، وأيًّا كان ما قالته فقد جعل سارا تشعر بالجزع.

لم تتحدث معها الفتاة على الفور، بل اكتفت بالوقوف هناك وهي تحدق إلى ساردام، فسألتها: "هل أنتِ بخير يا إيزابيل؟".

سألتها إيزابيل: "هل تعتقدين أن إيميلي دي هاڤيلاند قد ماتت على متن السفينة؟".

أجابتها كريسي وقد شعرت بالتوتر من النبرة الخاوية في صوتها: "لا أعرف".

قالت إيزابيل: "لقد اعتنى بي ساندر عندما لم يبالِ بي أي شخص آخر، ومنحني حرفة، وعلمني كيف أحارب الشر، ولكني خذلته. لقد

سمحت بقتله ثم ذبح توم العجوز الجميع، تمامًا كما قال ساندر إنه سيفعل".

لم تعرف كريسي كيف تواسيها فقالت: "معظم الركاب قد ماتوا أثناء التحطم، وأنا متيقنة من أن إيميلي كانت بينهم، فنحن قطعًا لم نرَ أي امرأة عجوز بشعر رمادي طويل بين الأحياء".

"إذن فقد عثر توم العجوز على مضيف آخر".

"إيزابيل...".

قالت بشراسة: "من يعرف أيًّا من الرجال الذين أقسموا بالولاء لخدمته قبل أن تجنح السفينة". ثم اتسعت عيناها في خوف وارتجف صوتها في غضب ديني وهي تقول: "ربما يكون مختبئًا في أي روح من أرواحهم الدنسة". حدقت كريسي إليها وهي تتساءل إن كان تحطم السفينة قد زعزع شيئًا بداخل الفتاة.

قالت إيزابيل: "لقد خذلت ساندر على متن ساردام لأنني لم أكن مستعدة لفعل ما هو ضروري، لن أرتكب هذا الخطأ مرة أخرى".

سألتها كريسي في قلق وهي تتلفت حولها بحثًا عن سارا: "ما الذي تخططين له؟".

"لن أسمح بإيذاء أي شخص آخر، أيًّا كان ما يجب عليَّ فعله فلن أسمح لتوم العجوز بمغادرة هذه الجزيرة".

٨١

بحلول الوقت الذي ألقى فيه المساء غلالته على الجزيرة كانوا قد أقاموا مخيمين.

ياكوبي دريخت والفرسان يحيطون بنيران كبيرة، يتمازحون ويشربون جرار النبيذ التي نهبوها من الأكواخ التي عثر عليها آرينت. لقد دعوا الركاب للانضمام إليهم، ولكن سارا كانت قد نشرت خبرًا عن خطة دريخت مما جعل قلوب معظمهم تقسو. لقد انضم عدد قليل من الركاب إلى دريخت على أي حال كما خمنت، وراحوا يحتفلون في سعادة.

أما بقية الركاب فقد أقاموا مخيمًا أصغر إلى جانب حافة الأشجار وهم يتشاركون الجعة والسمك المشوي الذي اصطادوه باكرًا هذا اليوم. كان هناك قطعة مهترئة من شراع قماشي تحمي ظهورهم من الأمطار المنهمرة، ولكن لم يكن هناك طريقة لإخفاء بؤسهم. كانت الثرثرة خفيضة، وكل شخص ينظر بخوف إلى الفرسان المخمورين، الذين يكشف ضوء النيران عن رغباتهم.

يعرف الركاب ما سيحدث، وهو ما يحدث دومًا عندما يُمنح الأقوياء سلطة مطلقة على الضعفاء.

وحدها إيزابيل بدت غافلة عن الأمر.

ما أثار استياء كريسي هو أن الشابة كانت تغني وترقص وتمرح بين الفرسان، فتصب لهم النبيذ وتسمح لهم بالتحديق إلى مفاتنها.

منذ محادثتهما بعد الظهيرة شيء ما قد تغير بداخلها، كان هناك يأس في تصرفاتها، رأت كريسي أنه تهور، ولكن إيزابيل لم تنصت إلى توسلاتها، أو تسمح لها بجذبها بعيدًا.

زعمت أنها تستمتع بوقتها، وأنها لم تحظَ بمثل هذه المتعة منذ وقت طويل.

بينما كريسي تحتضن ماركوس وأوسبرت وليا بجانب النيران الصغيرة، لم يكن بوسعها أن تفعل شيئًا سوى أن تدعو الرب أن تعود إيزابيل إلى صوابها قريبًا.

لمحت عيناها حركة، لقد ذهبت دوروثيا لكي ترى إن كانت سارا بحاجة إلى طعام أو شراب. كانت صديقتها واقفة عند حافة الماء بصحبة آرينت، واضعة رأسها على ذراعه، يحدقان إلى حطام ساردام، وقد تشابكت يداهما.

قالت لنفسها: على الأقل هناك شيء جيد قد نتج عن كل هذا.

تعالت أصوات ارتطام بالأرض من المخيم الآخر أعقبها تأوهات وصرخات ذعر. تعثر الفرسان في سكر وهم يحاولون الإمساك بإيزابيل التي تجنبتهم بقفزات رشيقة.

راحوا يسقطون واحدًا تلو الآخر.

ترنح دريخت وهو يخطو للأمام محاولًا أن يستل سيفه، ولكنه سقط على ركبتيه أمامها قبل أن يهوي أرضًا.

وصل آرينت إلى مخيم الفرسان في الوقت نفسه الذي وصلت فيه سارا وبقية الناجين. تناثرت عشرات الأجساد حول النيران المتأججة، وقد سقطت الأقداح من أيديهم.

سألتها سارا: "هل ماتوا؟".

قالت إيزابيل: "لا". ثم وكزت جسد ياكوبي دريخت بقدمها وقالت: "لقد سكبت قنينة من عقار النوم الخاص بسارا في نبيذهم. فليجلب أحدكم بعض الحبال لكي نقيدهم".

عانقت كريسي إيزابيل بشدة، ثم قالت معترفة في سعادة: "ظننت أنك فقدتِ عقلك، ولكن ما فعلتِه... لقد أنقذتِنا جميعًا".

قالت إيزابيل في أسى: "ليس بعد، ولكن أوشكت على هذا".

خطت متجاوزة كريسي لتخاطب الركاب قائلة: "لقد جلبنا توم العجوز إلى هذه الجزيرة وهو يفكر في القضاء علينا، ولكن رغم أن شر الشيطان هو الذي قاد سفينتنا إلى هذه الصخور، كانت يد الرب هي التي أنقذتنا".

ترنح آرينت قبل أن يسقط أرضًا، ثم تأوه بعض الركاب والأرض تميد من تحت أقدامهم.

صرخت كريسي بينما ماركوس وأوسبرت يسقطان عند الشاطئ: "ما الذي فعلتِه؟".

قالت بينما سارا تنهار أرضًا: "قد يلوذ توم العجوز بروح أي شخص قد عقد معه صفقة، ولست واثقة أي منكم قد فعل هذا".

صارت الرؤية ضبابية في عيني كريسي.

أكملت إيزابيل حديثها قائلة وهي تبتسم ابتسامة الشهداء: "لقد علمتني موسوعة الشياطين كيف أشعل نيرانًا مقدسة، سأطهر أرواحكم واحدًا تلو الآخر، حتى لا يتبقى أي مكان للاختباء. سأضع حدًّا لطغيان توم العجوز بشكل حاسم وإلى الأبد.

***

استيقظت كريسي وهي تتأوه، كانت مقيدة إلى قطعة من حطام ساردام على الشاطئ، كانت قيودها محكمة والحطام ثقيل على أن تحركه. من المستبعد أن يكون قد مر أكثر من بضع ساعات لأن السماء لا تزال مظلمة ونيران المخيم لا تزال متأججة. كان كل شخص آخر -الركاب والفرسان على حد سواء- مقيدًا بإحكام أيضًا.

صاحت: "ماركوس! أوسبرت!".

لم تستطع أن تراهما رغم أن سارا وليا كانتا مقيدتين بالقرب منها. نادت باسميهما وراقبتهما تتململان ببطء وهما ترمشان في ارتباك وتهزان رأسيهما يمينًا ويسارًا في محاولة لاستيعاب ما يحدث.

صاحت كريسي: "ماركوس! أوسبرت! فلتجيباني بحق السماء!".

ببطء بدأ المزيد من الناس يستيقظون. لم تستطع كريسي تمييز أيهم يؤمن بتوم العجوز وأيهم لا يؤمن، ولكنها رأت أنهم جميعًا خائفون. قبل ساعة مضت كانوا مقتنعين بأنهم سيتعرضون للاغتصاب أو القتل على يد الفرسان، والآن هم على وشك أن يموتوا حرقًا على يد متعصبة دينيًّا.

إنها صفقة جديرة بتوم العجوز نفسه.

صرخت سارا التي كانت تنظر ناحية شيء لا تستطيع كريسي أن تراه: "إيزابيل! فلتوقفي هذا يا إيزابيل!".

تأججت النيران من ورائهم وتعالت صرخة عذاب. أمالت كريسي عنقها في محاولة لأن ترى من يكون، ولكنها لم تستطع أن تميله بالقدر الكافي. كل ما استطاعت فعله هو أن تصغي إلى ترانيم إيزابيل الغريبة.

صرخت ليا: "لا تتركيها تفعل هذا يا أمي، أرجوكِ".

قالت سارا وهي تحاول التخلص من قيودها: "كوني شجاعة يا عزيزتي، تذكري الشجاعة التي تحليتِ بها على رصيف الميناء عندما أرحنا المجذوم. أغلقي عينيكِ وصلي معي. صلي معي!".

انقطعت الصرخات، ثم خرجت إيزابيل من الظلمة مكللة بضوء النيران. لقد صنعت مشعلًا من غصن شجرة وقماش شراع، وراح يحترق وهي تمسكه في يدها بينما يقطر لهبًا على الشاطئ.

صرخت كريسي في يأس والدموع تسيل على وجنتيها: "لست مضطرة لفعل هذا يا إيزابيل. أرجوك، أرجوك، أرجوك. أصدقائي أبرياء وابناي بريئان. أطلقي سراحهم".

أجابتها إيزابيل بصوتها المبحوح الخالي من المشاعر: "قد يكون توم العجوز مختبئًا في أي مكان، هذه فرصتنا الوحيدة لنفيه".

توجهت ناحية ليا، ثم جثت على ركبتيها أمامها ونظرت إليها بعينين خاويتين قبل أن تقول: "قد تكونين بريئة، وإن كنتِ كذلك فأنا آسفة على ما يجب أن أفعله. قد تعزيك معرفة أن الرحمة التي

سيسبغها عليكِ الرب في السماوات، ستساوي العذاب الذي سينزله عليَّ في الجحيم".

استخدمت إيزابيل طرف إصبعها لترسم بالتراب علامة على جبهة ليا.

صرخت سارا بصوت مبحوح: "أرجوكِ يا إيزابيل إنها مجرد فتاة".

تجاهلتها إيزابيل وهي تخفض المشعل ناحية طرف فستان ليا وهي تقول: "أنا آسفة حقًّا".

صرخت ليا من أجل الرحمة بينما تصرخ سارا في إيزابيل أن تتوقف.

صرخت كريسي من أعماق قلبها: "لا يوجد شيء اسمه توم العجوز".

خيم الصمت عليهم جميعًا بينما كل الأعين تلتفت إليها. توقف المشعل المتأجج في طريقه إلى فستان ليا، وقد بدت الحيرة واضحة على وجه إيزابيل.

صرخت كريسي في يأس: "لقد اختلقت الأمر برمته. لقد فعلت كل هذا، أردت أن أقتل الحاكم العام وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة، ليا ليست شيطانًا. أرجوكِ لا تؤذيها!".

اختفى الجنون من وجه إيزابيل، ثم نظرت إلى سارا في انتصار وقالت: "ما رأيك في هذا؟".

قالت سارا وهي تخرج يديها من الأحبال المرتخية وتساعد ليا على الوقوف على قدميها: "لقد أديتِ عملًا رائعًا".

رمشت كريسي وهي تنظر إليهما في حيرة وقالت: "ما الذي يحدث يا سارا؟".

قالت سارا ببرود: "لقد كانت مسرحية، نفس المسرحية التي أديتِها أمامنا. لم أرغب في أن يكون هناك ذرة شك، أردت أن أتيقن من أنك المذنبة".

٨٢

انتهت التمثيلية، وراحت ليا ودوروثيا على الفور تفكان قيود الركاب الآخرين، بينما تفسران بلطف ما قد حدث. لقد كانت قصة مذهلة وقد أنصت معظمهم فاغرين أفواههم.

قالت كريسي: "أين ابناي؟". وهي تتلفت حولها بحثًا عنهما.

قالت سارا مفسرة: "بصحبة آرينت، لم نرغب في أن يريا هذا". ثم صفرت للظلمة فأجابها صفير آخر. قالت: "إنهم قادمون الآن".

تهدل جسد كريسي وقد بدت منهكة فجأة، ثم قالت: "شكرًا لك يا سارا".

قالت: "لا تشكريني، لم ينتهِ الأمر بعد".

"ومتى سينتهي؟".

نبض ضوء المصباح الثامن بالحياة ثم انفجر على الفور، لتتساقط قطع مشتعلة في المحيط.

قالت سارا: "عندما يحدث هذا".

أضاء مصباح آخر على جانب السفينة الأيسر، ثم تلاه أكثر من عشرة مصابيح أخرى تضيء الصواري والأسطح ومقدمة السفينة، وحتى البحارة على الخصر. تحول المصباح الثامن من كونه شيئًا

مخيفًا إلى شيء تقليدي اعتيادي. إنها مجرد سفينة هندية، تمامًا مثل ساردام، بها صواري وأشرعة، ومن الواضح أن العاصفة قد أنهكتها تمامًا كما حدث معهم.

قال شخص ما من ورائها: "إنها مجرد سفينة". لقد بدا خائب الأمل.

قال صوت آخر: "إنها ليوواردن، أعرف ألوان رايتها، لقد كانت جزءًا من الأسطول الذي غادر باتاڤيا، ظننت أننا فقدناها في العاصفة".

كان هناك تمتمة موافقة ودهشة، بينما قارب آخر أصغر حجمًا يقطع الماء ويقترب من الجزيرة.

قال آرينت وهو يخرج من الظلمة بصحبة ماركوس وأوسبرت: "كانت ليوواردن هي المصباح الثامن منذ البداية". كان الولدان يركضان لمواكبة خطواته الواسعة، وعندما رأيا أمهما ركضا إليها على الفور ثم ارتبكا عندما وجدا أنها مقيدة إلى قطعة من الحطام.

قالت كريسي في محاولة لطمأنتهما: "إنها مجرد لعبة نلعبها". ثم ألقت نظرة ناحية سارا التي أومأت برأسها إلى آرينت.

أخرج المرتزق سكينًا من حذائه وقطع الحبال التي تربط يدي كريسي، مما سمح لها بمعانقة ابنيها.

قالت ليا محتجة: "ولكننا رأينا ثمانية مصابيح في الماء، كيف يعقل أنه لم يكن هناك سوى سبع سفن؟".

أجابها آرينت وهو يقترب من حافة الماء: "المصباح الثامن كان مجرد مصباح مثبت إلى قارب شراعي معد لهذا الغرض، لقد رأيت

نسخة محطمة منه في الغابة. لا شك أن أفراد طاقم كريسي قد صنعوا بعض القوارب كهذه على الجزيرة قبل أن يصلوا إلى الشكل الصحيح، ثم نقلوه إلى ليوواردن، وعندما احتاجوا إلى المصباح الثامن لإخافتنا أنزلوه إلى الماء وأشعلوا المصباح. هكذا يظهر ويختفي بسرعة، لأنه كان يذهب ويجيء من ليوواردن".

اقترب القارب أكثر وأكثر والمجاديف تضرب الماء، بينما شخص ما يحمل مصباحًا عند مقدمة القارب. راقبه آرينت بتعبير متجهم على وجهه.

قالت سارا بصوت كالفحيح وهي تنظر إلى كريسي نظرة حادة: "لقد عرضتي ابنتي للغرق".

قالت كريسي متوسلة: "لا، لا، لم يكن هذا غرضي قط، هل تعتقدين أنني كنت سأجلب ابنيَّ على متن السفينة إن كنت أفكر في إلحاق الضرر بها؟ كان توم العجوز مجرد مسرحية، ظلًّا يتحرك على الجدران. لم يكن من المفترض أن يندلع تمرد أو أن تتحطم السفينة، لقد خططت للأمر بحرص يا سارا، لقد قبض كراوڤلز ثمن الإبحار بنا إلى هنا، ثم إنزال الجميع بحجة تفتيش السفينة للبحث عن إيميلي دي هاڤيلاند. افترضت أن الجميع سيكونون خائفين للغاية فيوافقون على الأمر طواعية. هذه الجزيرة ليست خطيرة، إنها لا تشبه علامة توم العجوز حقًّا، كان هذا فقط لمحو أي شكوك بأن الشيطان حقيقي وأنه قد قتل يان هان. توجد مؤن هنا، وكان من المفترض أن يبدو أن ليوواردن قد عثرت علينا صدفة في غضون يوم أو اثنين. كنت سأعيد الجميع إلى أمستردام تاركة كراوڤلز وعددًا من أفراد الطاقم لإنزال الكنز منقوصًا منه أجره. كان من المفترض أنه بمجرد انتهاء هذا الأمر

أن يبحروا عائدين بأمان على متن ساردام، لتسليم الشحنة واسترضاء السادة السبعة عشرة. الشخصان الوحيدان اللذان كان من المفترض أن يتأذيا هما يان هان وساندر كيرس". كانت كل كلمة مفعمة بالكراهية. "لم أكن أعرف أن يوهانس ڤيك سيكون على متن السفينة، ولم أتوقع أن يخونني كراوڤلز، لقد أراد الكنز والغنيمة لنفسه، وظن أنه سينالهما بتحريض أفراد طاقمه على قتل النبلاء بمن فيهم أنا. صدقيني لقد كان توم العجوز من أجل زوجك فحسب".

"ماذا عن بوسي؟ أيتها الـ...".

خمد غضب سارا لرؤية ماركوس وأوسبرت ينظران إليها بأعين متسعة، متشبثين بأمهما والنيران تتراقص على وجهيهما البريئين الخائفين.

قالت وهي تشعر بالألم في قلبها: "يجب علينا أنا وأمكما أن نسوي بعض الأمور، لمَ لا تذهبان للعب مع دوروثيا لبعض الوقت؟".

نظرا إلى أمهما في تردد، ولكن كريسي ابتسمت لهما وقالت: "اذهبا أيها الولدان، سألحق بكما قريبًا".

أمسكت دوروثيا بكل صبي في يد، ولم يفصح وجهها عن إحساسها بالحيرة أو الاستياء بشأن ما يحدث، تعرف سارا أنها ستطرح الأسئلة لاحقًا، ولكن اهتمامها في الوقت الحالي كان منصبًّا على ماركوس وأوسبرت كعهدها دومًا.

كان هناك حشد من الركاب قد أحاط بهم، مما أجبر دوروثيا على أن تشق طريقها من بينهم. كانوا يشعرون بالفضول في الوقت الحالي، وما زالوا يشعرون بالدوار بسبب ما حدث، ولكن سارا خمنت أن

غضبهم سيظل مكبوتًا حتى يدركوا أن هناك شخصًا ما يمكن أن يلوموه على معاناتهم.

نظرت سارا إلى آرينت بالقرب من حافة المياه وهي تتمنى لو أنه أقرب. كان على بعد خطوات قليلة فحسب، ولكنها شعرت أنها ستحتاج إليه قريبًا.

قالت سارا وهي تراقب كريسي تقف على قدميها: "لمَ قتلتِ بوسي؟".

عندما رأت كريسي الوجوه المحيطة بها، شمخت بأنفها كما لو أنها تحدق إلى خدم وقالت: "كنت بحاجة إلى شخص ليقدم شيطاننا إلى الناس، لذا طلبت من كراوفلز أن يرشح أسوأ شخص يمكنه ترشيحه، فاختار بوسي. صدقيني إن القتل كان أقل خطاياه. لم أستمتع بما فعلته به، ولكنه كان مخدرًا بشكل أفقده الشعور، كان هناك رحمة في الأمر".

قالت سارا محتجة وقد أغضبتها نبرة كريسي اللا مبالية: "لقد نظرت إلى عينيه بينما يحتضر، وكان يتألم، لم يكن هناك أي رحمة في الأمر".

تدخلت ليا قائلة: "كيف فعلتِ هذا؟". لقد أفصحت نبرتها المتلهفة عن ولعها بالآليات الكامنة وراء الجريمة. "لم يكن هناك أحد بالقرب منه، كيف تمكنتِ من إضرام النار فيه؟".

"الصناديق التي كان يقف فوقها كانت مجوفة، وقد وُضع سلم بداخلها. كان هناك أحد حلفائي بالداخل، وهو المسؤول عن الصوت

الذي سمعتموه، وعندما جاء الوقت المناسب فتح حليفي فتحة صغيرة وأشعل ثياب بوسي من الداخل".

تمتم الحشد في غضب، الكثير منهم كانوا على رصيف الميناء عندما اشتعلت النيران في بوسي، ولم يكن من السهل نسيان هذه المعاناة.

قالت ليا: "كيف أخفيتِ جثةساندر؟".

فكرت سارا أن هناك شيئًا مخيفًا في تلهفها للإجابات، كما لو أن هذه مجرد قضية أخرى من قضايا سامي بيبس، خالية من العواقب وليس هناك هدف من ورائها سوى التسلية.

قالت كريسي وقد بدا من التعبير المرتسم على وجهها أنها تشعر بنفس التوتر الذي انتاب سارا: "كان ساندر كيرس هو آخر فرد في جماعة صائدي الساحرات الخاصة به، كانوا يعذبون ويذبحون دون اكتراث، ورأيت أن العالم سيكون أفضل حالًا عند التخلص منهم. من خلال التخطيط الدقيق تمكنت من قتل الآخرين، ولكني أردت أن أقتل ساندر كيرس بنفسي، لقد علم بيتر كل الحيل الدنيئة التي كان يعرفها، لذا استدرجته إلى باتاڤيا. كنت أنوي قتله في نفس الليلة التي قُتل فيها يان هان، ولكنه عندما سمع اعتراف رينير ڤان شوتن ذهب ليتفقد الكنز في مخزن البضائع. وبصدفة تعيسة سمعني أتحدث مع...". بترت جملتها، لقد كادت أن تفشي اسمًا. "... مع أحد حلفائي. تمكنت من التسلل وراءه وذبحه، ولكن الأمر لم يكن متقنًا. لم أكن متيقنة في الظلمة أنني لم أترك شيئًا يدينني ورائي، لذا جررت جثته إلى إحدى خزانات التهريب الخاصة ببوسي إلى أن نعرف ما يجب فعله به".

من وراء دائرة المتفرجين جاءت صرخة ألم مكتومة، اندفع آرينت ناحيتها بينما عينا سارا تلحقان به.

كان دريخت ينزف من جرح في رأسه ناتج عن صخرة مستقرة إلى جواره بشكل بريء، شخص ما قد ألقى بها ناحيته.

مرر آرينت عينيه على الحشد ببطء مما جعلهم يتراجعون إلى الوراء.

قال آرينت: "أنتم محقون في إحساسكم بالغضب منه بعد كل ما فعله". ثم أشار بإبهامه ناحية كريسي وقال: "ومحقون في إحساسكم بالغضب منها أيضًا. ولكن أُريق ما يكفي من الدماء بالفعل، هناك أخطاء تحتاج إلى تصحيح، وسنفعل هذا قريبًا. ولكننا لن نفعل هذا بدافع من الغضب. هكذا أُطلق سراح توم العجوز في المقام الأول -سواء كان حقيقيًّا أم لا- والآن انظروا إلى الضرر الذي أحدثه". منحهم فرصة ليستوعبوا كلماته ثم توجه ناحية كريسي. كان متجهمًا وضخمًا، فانكمشت على نفسها وهي تبتعد عنه. سألها: "هل معكِ مسبحة أبي؟".

قالت وقد بدت آسفة حقًّا: "لقد تخلصت منها، كانت ضمن ممتلكات بيتر، لقد استأجر عمك بيتر لقتل أبيك، وطلب منه جدك المسبحة كدليل على أنه قد أنهى مهمته. ما إن رآها كاسبر حتى أمر بيتر بتدميرها، ولكنه احتفظ بها لسبب ما، ربما كتذكار. لقد ألقيت بها في حظيرة الحيوانات لكي أجعلك تشعر بالألم يا آرينت". كان هناك غصة في حلقها. "أردت أن يعرف يان هان سبب حدوث كل هذا له، إن قتل أبيك هو ما بدأ كل هذا. عندما طعنه بيتر قفزتَ ناحية بيتر وأنت تحمل سهمًا، وقد كاد أن يضطر لإغراقك في جدول ماء لكي يمنعك

من قتله. كان بيتر مصابًا بشدة، وكل ما استطاع فعله هو أن يجر نفسه بعيدًا، كان خائفًا منك، لذا تركك في الغابة وحدك. كان هناك صخرة مسننة قد حفرت تلك الندبة على معصمك بينما تضرب بيديك في الماء. لم يكن من المفترض أن يؤدي هذا إلى أي شيء، ولكنك رسمتها على بعض الأبواب في القرية، وعندما رأى يان الفوضى التي أحدثها هذا أدرك أن لديه طريقة يصنع بها ثروة لنفسه. لقد أخبر كاسبر ڤان دين بيرج وبيتر بالخطة، فقدم كاسبر التمويل اللازم، ونسج بيتر قصة الاستحواذ والطقوس مستخدمًا زملاءه صائدي الساحرات لترويع أراضي أولئك الذين يرسله يان في أعقابهم. لقد نجحوا معًا في إخراج منافسيهم من العمل بما في ذلك عائلتي".

تساءل دريخت الذي لا يزال مقيدًا إلى صخرته: "عائلتك؟".

قالت سارا: "لقد وُلدت كريسي ينس باسم إيميلي دي هاڤيلاند". كانت تتفحص كل ارتعاشة في وجه كريسي محاولة أن تجد هذه المرأة بداخلها. طيلة العامين الماضيين كانت تنظر إلى هذه الملامح بحب، معتقدة أنها تعرف كل فكرة تكمن وراءها، تُدرك الآن مدى حماقتها، لقد تعرضت للاستغلال والخيانة.

شعرت وكأنما قد فقدت كريسي وليس زوجها.

نظرت إليها كريسي بإعجاب وقالت: "كنت أعرف أنك ذكية، على الرغم من أنني سأعترف بأن اسم تلك الفتاة البريئة لا يتناسب مع المرأة الآثمة التي صرت عليها. كيف عرفتِ أنني من وراء كل هذا؟".

"سجلات ڤوس. كانت إيصالات ركوبنا على طاولته بعد موته، كأنما كانت تزعجه. كانت فواتير مقصورتي ومقصورة ليا ومقصورة

زوجي. لا أعرف السبب ولكن عندما أخبرني آرينت بأنه يشك فيكِ راودتني فكرة. يسجل ڤوس كل حسابات زوجي، لذا يعرف تمامًا ما اشتراه زوجي وما لم يشترِه. لقد قلتِ لنا مرارًا وتكرارًا أنك على متن السفينة فقط لأن زوجي قد أمر بأن تبحري معنا، ولهذا قد دفع ثمن ركوبك. لماذا إذن لم يكن إيصال ركوبك بين سجلات ڤوس؟ هذا لأن زوجي لم يأمر بشيء كهذا، ولم يدفع ثمن مقصورتك. لقد أخطأتِ بذكر هذه الكذبة لڤوس، أليس كذلك؟ وبعدها أدرك الأمر، لهذا كان على المجذوم أن يقتله".

تمتمت كريسي قائلة: "ولو لم يدركه لكان من المرجح أن يموت آرينت على يدي ڤوس. من الغريب كيف يعمل القدر، أليس كذلك؟". نظرت ناحية آرينت الذي عاد إلى حافة الماء لمراقبة اقتراب القارب. كان يبدو متوترًا وقد ضم قبضتيه.

قالت متسائلة: "ما الذي جعلك تشك فيَّ؟ ظننت أنني كنت حريصة للغاية".

كان اهتمام آرينت مصوبًا على القارب المقترب، لذا لم يلاحظ أن الناس ينتظرون حديثه، حتى جذبته إيزابيل من كمه وقالت: "يريدون أن يعرفوا كيف أدركت أن كريسي هي المسؤولة عن موت الحاكم العام".

مرر آرينت بصره على الوجوه المترقبة أمامه، ومن الواضح أن أفكاره لا تزال شاردة. قال: "لقد قُتل عمي في فراشه بنصل طويل غُرس من تحت فراش سارا ثم سُحب مرة أخرى. أدركت أن الخنجر قد غُرس في الجرح بعد موت عمي، ولم يكن هناك سوى فرصة واحدة لفعل

هذا، عندما عثرت كريسي على الجثة لأول مرة، ولهذا السبب كان من الضروري إطفاء الشمعة. لو كانت المقصورة مضاءة للاحظ دريخت على الفور أنه ليس هناك خنجر في صدره. كان الأمر ليستغرق دقائق من سامي لمعرفة كيفية ارتكاب الجريمة. بعد أن قتل المجذوم عمي تسلق هابطًا عبر الكوة واستخدم مطفأة الشموع الموضوعة بالأعلى لإطفاء الضوء. أجبرت كريسي دريخت على مغادرة المقصورة ليجلب شمعة أخرى، ثم طعنت عمي في الجرح الموجود بالفعل".

تنهدت كريسي ثم قالت وهي تفرك عينيها: "أعترف أن هذا غريب، ولكن لم تكن هناك طريقة أخرى لقتله دون أن يُكتشف أمري. لقد لاحقه دريخت كظله منذ أن غادر القلعة، وقد كان يرتدي درع الصدر اللعين في كل مكان ما عدا الفراش".

تساءلت ليا في حيرة: "إن لم تكن العمة كريسي هي المجذوم فمن يكون؟".

قالت سارا وهي تشير إلى القارب الشراعي: "الإجابة في هذا القارب، لن يضيرك بعض الصبر".

قالت ليا في انزعاج: "قد يضيرني. كيف صرتِ عشيقة أبي؟ أفترض أن هذه لم تكن مصادفة".

"من دون عائلتي لم يعد لي ثروة أو نفوذ، لذا كان عليَّ أن أعتمد على جمالي. زوجي الأول كان مخيفًا، ولكني استخدمت ثروته لتعقب صائد الساحرات، ما إن عثرت عليه حتى تركت زوجي وأعدت اكتشاف مهارات الإغواء بداخلي. لقد أغويت بيتر وكنت أنوي قتله عندما أنال فرصة لهذا، ولكن...". زمجرت كحيوان في

فخ ثم قالت: "وقعت في حبه، لقد تخلى عن عمله وكان لطيفًا وكريمًا و... جعلني أشعر وكأنني شخص جديد. سمحت لنفسي أن أصدق بأنه قد تغير وأنني قد تغيرت. ثم تناقصت أموالنا وبدأ يتحدث عن مخطط سيستخدمه لجعل نفسه ثريًّا. لقد أرسل رسالة إلى جد آرينت فعرفت أنه على وشك البدء من جديد، كان يخطط لتدمير المزيد من العائلات مثلما دمر عائلتي، لذا استدعيت...". كادت أن تفشي الاسم مرة أخرى قبل أن تتدارك نفسها وتقول: "صديقًا قديمًا، عذَّب بيتر ليحصل على أسماء المتواطئين معه، وبعدها بدأنا انتقامنا".

كانت هناك دموع في عينيها، نفس الدموع التي تترقرق في عينيها كلما كانت تتحدث عن بيتر في الماضي. فكرت سارا في حيرة أنها قد أحبته حقًّا.

سألتها: "وهذا أوصلك إلى زوجي؟".

"لقد التقيت بزوجك قبل سنوات عن طريق بيتر، وعرفت أنه معجب بي. بعد أن قتلت بيتر أرسلت له وأخبرته أنني مغرمة به، فجلبني على متن أول سفينة قادمة إلى باتاڤيا".

"لماذا الانتظار إذن؟ لماذا لم تقتليه عندما وصلتِ قبل عامين؟".

"لأن أمري كان سينكشف حينها، وأنا أحب ابنيَّ، كما أحببتك أنتِ وليا، فلم أرغب في أن أتفرق عنكم. كان عليَّ أن أنتظر اللحظة المناسبة".

خاض آرينت في الماء للمساعدة في جذب القارب الشراعي إلى الشاطئ. قفز إيزاك لارم من القارب وهو يحمل مصباحًا بينما كان إيجرت وثيمان يمسكان بالمجدافين.

قال لارم وهو يصافح آرينت: "كنتَ محقًّا بشأن كل شيء، كان موجودًا بالضبط في المكان الذي أشرت إليه ويريد أن يراكم".

سألته ليا في حدة: "من هذا الذي يريد أن يرانا؟ من كان يساعد العمة كريسي؟".

أجابها آرينت: "لقد قرأتِ كل قضايانا يا ليا، هل تعرفين عدد الأشياء التي غفل عنها بيبس أثناء تاريخنا معًا؟".

قالت: "لم يغفل عن شيء". كأنما شعرت بالإهانة من احتمالية ارتكابه خطأً.

قال في حزن: "هذا صحيح، ولكنه بطريقة ما قد فاته شيءٌ يسيرٌ مثل باب سري في حظائر الحيوانات يؤدي إلى مقصورة القبطان كراوقلز".

"ما الذي تقصده؟".

قالت سارا: "يقصد أن الوقت قد حان للالتقاء بتوم العجوز".



٨٣

ارتطم قاربهم الشراعي بهيكل ليوواردن، بينما إيجرت وثيمان يجذبان المجدافين إلى الداخل. لم ينطقا بكلمة أثناء الرحلة، وكان من الواضح أنهما يشعران بالتوتر لوجودهما بالقرب من آرينت. لقد احتل المقعد الخلفي بأسره وظل ساكنًا طيلة الرحلة. كان صامتًا وهو ينظر بتجهم إلى السفينة.

أطلق ثيمان صفيرًا ناحية سطح السفينة، فأنزل أحدهم على الفور مقعدًا من الأعلى.

سألت سارا في توتر: "من سيذهب أولًا؟".

قالت كريسي: "سأذهب أنا. أقسم أن أحدكم لن يمسسه أذى. أنتم بأمان هنا، الجميع بأمان، لقد انتهى عمل توم العجوز ونُفي الشيطان".

بينما كريسي تُرفع إلى الهواء مال آرينت ليقترب من إيجرت وثيمان ثم سألهما: "منذ متى وأنتما تعملان لصالح كريسي؟".

تبادلا النظر أحدهما إلى الآخر في تردد، فقال: "أنتما الاثنان ساعدتماها على سرقة الغنيمة في باتاڤيا، أليس كذلك؟ هل كنتما اللصين البرتغاليين اللذين هربا مني؟".

ابتسم إيجرت كأنما يتذكر مزحة قديمة بين صديقين وقال: "أجل، ولكن لو أنها لم تخبرنا أنك قادم...".

وكزه ثيمان في ضلوعه، ولكن آرينت بدا راضيًا.

قال متسائلًا: "هل أنت من قتل الحيوانات يا إيجرت؟ كنت تحرس مقصورات الركاب، كان من السهل عليك أن تتسلل إلى مقصورة القبطان وتفتح تلك الفتحة في سقفها".

تنهد ثيمان وقال: "كان من المفترض أن يفعل هذا، ولكن إيجرت لم يكن لديه الجرأة لقتل الخنزير الصغير المسكين، لذا اكتفى بمراقبة ليوواردن من كوة مقصورة القبطان ثم ناداني عندما أشعلوا مصباحهم".

أجابه إيجرت في غضب وهو يدفعه: "لم يحدث الأمر هكذا. كان فقط الخنزير هو الذي لم أستطع أن أؤذيه. ولكني كنت بالفعل قد قتلت الدجاج قبلها بدقائق ورسمت الرمز في الظلام. لم تكن لتقدر على فعل هذا بنفس السرية كما فعلته، لقد أنجزت معظم العمل".

نظرت سارا إلى آرينت، وعرفت من التعبير المرتسم على وجهه أنه يفكر فيما تفكر فيه. من سيثق في هذين الأحمقين لفعل أي شيء؟

هبط المقعد مرة أخرى، وهذه المرة صعدت سارا ثم ليا وأخيرًا آرينت، الذي تطلب الأمر ستة رجال لرفعه.

كانت ليوواردن مطابقة لساردام في كل شيء، باستثناء سلوك أفراد الطاقم الذين يؤدون مهامهم في هدوء ونشاط. كان القبطان وكبار مسؤوليه يتبادلون الحديث في السطح العلوي، بينما نبراتهم الموزونة تتناقض مع الصيحات الفظة لكراوڤلز ولارم وڤان شوتن. بعد أن اعتادوا على الصخب في ساردام بدت بالفعل سفينة شبحية، وقد التصقت ليا بسارا في توتر.

مط آرينت جسده الضخم، فتوقف أفراد الطاقم عن تأدية مهامهم للتحديق إليه. لقد سمعوا الحكايات، ولكنهم لم يصدقوها إلا في هذه اللحظة.

جاء صوت سامي المألوف من وراء مصباح وهو يقول: "لم أكن أنوي أن نلتقي من جديد هكذا".

خفض الضوء الذي يعمي أبصارهم فشهقت ليا، رغم أنه كان يرتدي ملابس رائعة بثنايا وأشرطة مع عصا وقبعة ذات ريشة لتكملا مظهره الأنيق إلا أن وجهه كان مصابًا بشدة، نصفه مشوه وهناك رقعة تغطي عينه المفقودة.

قال سامي في سخرية: "ألا تعجبكِ القبعة؟".

قالت كريسي: "إن سمحتِ يا سارا، أريد أن تأخذ دوروثيا الولدين إلى مقصورتي، إنها نفس المقصورة التي كنت فيها على متن ساردام. يمكنهما أن يستحما ويستريحا، لقد مرا بالكثير".

أومأت سارا برأسها، ثم راقبت كريسي وهي تقبل الولدين وتتمنى لهما ليلة طيبة. جاء الولدان إليها هي وليا لمعانقتهما كالعادة قبل النوم. بينما يصعدان السلم المؤدي إلى الطابق العلوي بخطوات سريعة ودوروثيا تلحق بهما أحست سارا بالدوار، كان من السهل أن تصدق أن شيئًا لم يتغير على الإطلاق.

اقترب سامي من كريسي وأمسك يديها بيديه وقد ارتسم القلق على وجهه. قال: "هل أنتِ بخير؟ لقد صرت قلقًا عندما لم تأتني إشارة".

"لقد زيفا صيد ساحرات، كنت لتفخر بهذا يا أخي".

صرخ آرينت: "أخي!".

انحنى سامي بشكل مبالغ فيه وقال: "اغفر لي هذا التعريف الذي تأخر كثيرًا يا صديقي، أنا هيوجو دي هاڤيلاند، أو هذا من كنته". تغيرت لكنته قليلًا وصار التعبير المرتسم على وجهه متعاليًا، كما لو أن هيوجو كان يرتدي جلد سامي طيلة الوقت. ثم ابتسم فجأة ابتسامة عريضة ليستعيد شخصية المشكلاتي من جديد وقال: "إن استخدام القزم كان عبقريًّا، لم أتوقع هذا حقًّا".

قالت كريسي وهي تنقل بصرها ما بين آرينت وسامي: "القزم؟ ما دور إيزاك لارم في كل هذا؟".

قال آرينت دون أن يبعد عينيه عن سامي: "أدركت أنا وسارا أنه إن كانت الجزيرة هي موطن توم العجوز، فسيكون من المنطقي أن المصباح الثامن يجوب المياه. لقد فكر الجميع في أن إرسال قارب إنقاذ هو مهمة انتحارية، لذا اعتقدنا أنه إن طلبنا متطوعين فعلى الأرجح سيكونون من يعرفون بالفعل أن هناك سفينة حليفة في انتظاره". ثم حك تحت عينه وهو يقول: "لقد أخفيت لارم في برميل ووضعته على قارب الإنقاذ مع الإمدادات الأخرى. طلبت منه أن يتسلل بمجرد أن يصير على متن السفينة وأن يبحث عن بيبس في مقصورة القبطان".

سألته ليا: "كيف عرفت أنه سيكون هناك؟".

"لأنني أعرف سامي".

بدا على سامي الخجل وهو يقول: "لقد قضيت ثلاثة أسابيع في تلك الظلمة العفنة، لذا ظننت أنني أستحق القليل من الراحة. لا

يمكنك أن تتخيل مدى دهشتي عندما ظهر لارم عند باب مقصورتي بكل جراءة وأخبرني أن آرينت يعرف كل شيء، وأن عليَّ أن أفجر المصباح الثامن إن كنت أريد لصداقتنا أن تستمر".

نظر المشكلاتي إلى آرينت مبتسمًا كأب فخور وقال: "كنت أعرف أنك ستحل اللغز".

تنهد آرينت كأنما يشعر بالخجل من هذا الثناء وقال: "كان لك دور كبير في الأمر".

لوح سامي بيده بلا اكتراث وقال: "بعض التلميحات هنا وهناك. لقد كانت قضيتك الثانية فحسب، وأردت أن تستمتع بها".

قالت سارا في حدة وقد انزعجت من استخفافه بالأمر: "لقد مات الكثير من الناس".

قال سامي متحيرًا من ثورتها: "هكذا تبدأ وتنتهي معظم قضايانا. إن كان هذا سيواسيكِ فإن كل شخص مات قد استحق هذا، باستثناء الأشخاص الذين ماتوا أثناء تحطم السفينة، ولكن هذا كان بسبب تجاهل كراوڤلز للخطة". مرر أصابعه على وجهه المليء بالندوب وقال: "وأعتقد أنك ستوافقينني بأنني قد تلقيت عقابي بسبب سوء تقديري للأمور".

هبت رياح هادئة عبر سطح السفينة فتعالى صرير من الأشرعة.

قالت كريسي: "لا فائدة من مناقشة الأمر هنا". ثم ألقت نظرة ناحية أفراد الطاقم الذين يبذلون قصارى جهدهم للتظاهر بأنهم لا يسترقون السمع. "لمَ لا نذهب للمقصورة الكبرى؟".

قال سامي: "بالطبع، بالطبع، لقد رتبت كل شيء".

حاول بشكل غريزي أن يمشي إلى جانب آرينت، ولكن المرتزق رمقه بنظرة حادة فتراجع خطوة للوراء ليسير بمحاذاة ليا وسارا.

سألته ليا وهي لا تزال منبهرة ببطلها رغم كل شيء: "هل كنت أنت من يهمس؟".

"كنا نحن الأربعة نهمس في أوقات مختلفة، أنا وكريسي وإيجرت وثيمان. كان في الواقع واحدًا من الأشياء السهلة لفعلها". قالها بتواضع بينما يمرون عبر الجناح الواقع تحت السطح الأوسط، الذي بدا -من دون ركاب- نظيفًا ومرتبًا ويُستخدم لتخزين الأدوات. "لقد دفعنا لبوسي لكي يصنع ثقوبًا في الجدران حتى نتمكن من الهمس من خلالها، وكنا نسدها عندما لا نستخدمها لكيلا ينتقل الصوت بين المقصورات".

هبت رياح قوية من فوق سور السفينة فجذبت ثيابهم، من بعيد بدت النيران المشتعلة على الشاطئ وكأنما قد انطفأت للحظة، بدا الأمر وكأن الجزيرة بأسرها قد اختفت.

سألته ليا: "ماذا عن أفراد الطاقم، كيف همستم لهم؟".

"الصناديق الموجودة في مخزن البضائع تكاد أن تلمس الحواجز الشبكية الموجودة في أرضية السطح السفلي، والبحارة ينامون على الجانب الآخر من هذه الحواجز الشبكية، في الليل عندما لا يكون هناك أي ضوء فإن الهمس هو أسهل شيء في العالم لأن يكون مرعبًا".

سألت سارا كريسي مفصحة أخيرًا عن السؤال الذي كان يؤرقها منذ أن كانت على الشاطئ: "ولكن لمَ تكبدتِ مثل هذا العناء يا كريسي؟ إن كنتِ تكرهين زوجي إلى هذا الحد، فقطعًا كان بمقدورك أن تجدي طريقة أسهل لقتله".

تساءل سامي في حيرة: "وأين المتعة في هذا؟".

نظرت إليه كريسي نظرة ساخطة ثم قالت: "لم يكن قتله كافيًا يا سارا، أردنا منه أن يعرف إحساس المرء عندما يتعرض للتعقب والمطاردة، تمامًا كما شعرنا عندما كنا أطفالًا وبدأت علامة توم العجوز تنتشر في أراضينا، وراح الغرباء يطرقون على أبوابنا ليتهمونا بالشعوذة، لطالما كنت أنا وساموئيل موهوبين، وفجأة تحولت هذه الهبات إلى اتهامات. الخدم الذي عرفونا طيلة حياتهم صاروا يمشون خلسة عندما يمرون بجانب حجرتينا خشية أن نسحرهم. إن ذهبنا إلى قرية تُلقى الأحجار علينا، لأن بيتر فليتشر وزملاءه من صائدي الساحرات قد نقشوا بعض الرموز على الأبواب ونشروا بعض الشائعات. أردنا أن يعرف يان أنه سيموت، وأن يكون عاجزًا عن منع هذا، تمامًا كما كنا عندما اقتحم الغوغاء بيتنا في نهاية المطاف ليذبحوا والدينا ويحرقوا عالمنا ليصير أنقاضًا. أردنا منه أن يعرف رعبنا".

قالت سارا وقد فهمت الأمر فجأة: "وأردتِ منه أن يعرف أنك الفاعلة، لهذا وضعتِ العلامة على الشراع في ذلك اليوم الأول، لهذا اشتريتِ مقصورة باستخدام اسم مركب من حروف اسمك الحقيقي، أردتِ منه أن يجدك".

قال سامي مؤكدًا: "أردتُ أن أواجهه في النهاية، أردتُ منه أن يعرف من فعل به هذا، لقد انتظرته في مقصورة دالڤين في الليلة التي قتلت فيها ڤوس".

قالت كريسي باستياء: "متهور كعهدك دومًا. لقد فكرت أن هذا الجزء من الخطة خطير للغاية، ولكنه لم يُصغِ إليَّ. نادرًا ما يصغي

إليَّ". تنهد آرينت في تعاطف رغمًا عنه. تساءلت كريسي وقد عاد إليها انزعاجها من أخيها: "ما الذي كنت لتفعله لو قبض عليك دريخت؟".

أجابها سامي بنبرة متعبة تشي بأن هذا نقاش قديم: "لقد قضينا سنوات ندرس يان هان. يمكن وصفه بصفات عديدة، ولكن الغباء ليس واحدة منها. كان يعرف حجم عدوه، وفي كل موقف تكون فيها الاحتمالات ضده يحاول أن يتفاوض. كنت أعرف أنه سيأتي وقبعته في يده على أمل أن يسترضينا لفترة طويلة بما يكفي لخيانتنا، كما أن إيجرت كان يحرس مقصورات الركاب، لو حاول دريخت القبض عليَّ لطعنه إيجرت من ظهره. كان الموقف تحت السيطرة".

تساءلت ليا: "ما الذي عرضته عليه؟".

"إن أعظم نقاط ضعف والدك كانت اعتقاده بأن كل شخص يريد ما يريده، ولكنهم يفتقرون إلى الدهاء والوحشية لأخذ ما يريدون. أخبرته أننا نريد استعادة ثروة عائلتنا ومحو العار الذي لحق باسمها، شيئًا سيكون ضمن سلطته عندما ينضم إلى السادة السبعة عشرة، أخبرته أنه إن خاننا فسيكون لنا السيطرة الكاملة على ساردام، وحينها سنقتله هو وعائلته وآرينت".

سألته سارا: "ألم تكن خائفًا من أنه قد يبحر عائدًا إلى باتاڤيا؟".

"كان معه خطاب استدعاء في جيبه يخبره أنه إن تأخر فقد يضيع فرصته في أن ينال مجلسًا بين السادة السبعة عشرة، ناهيك بأن مخزن البضائع مليء بالأرباح التي قد تفسد مع كل يوم نقضيه في البحر". ابتسم سامي بوجوم وقال: "إن الجشع قادر على قتل أكثر الرجال حذرًا".

سأله آرينت: "كان هذا أحد الخطابات التي وصلتك قديمًا من الشركة، أليس كذلك؟".

أجابه: "أجل، وقد احتفظت بالختم".

قال آرينت في دهشة: "منذ متى وأنت تخطط لهذا الأمر؟".

قال: "منذ أن جندتك، لقد اخترتك فقط لأنني كنت آمل أن توصلني إلى عمك وجدك. ولكن بعدها ما أثار استيائي هو أنك كنت بوضوح رجلًا شريفًا حقًّا، ربما الوحيد الذي التقيت به في حياتي. يبدو أن حب هؤلاء الذين نعتقد أننا نستغلهم هو أحد سمات عائلتنا".

نظر إلى كريسي نظرة ذات مغزى. فقالت له: "صه يا أخي".

دلفوا إلى مقصورة كبرى غارقة في الظلال وضوء الشموع. كان هناك وليمة معدة بلحم خنزير ذهبي، وجلده المقرمش ودهنه يتساقط من على جانبيه. كان هناك كومة من البطاطس ومخروط من السكر موضوع على الطاولة وحبيباته تتلألأ في وهج الشمعدان الدافئ.

جذب المضيفون الكراسي وصبوا النبيذ.

قالت سارا وهي تضرب بيديها على الطاولة في غضب: "ما كل هذا؟ هناك جزيرة مليئة بأشخاص مرعوبين بمن فيهم الأطفال ونحن نجلس هنا لتناول العشاء؟ يجب علينا أن نجلبهم إلى متن السفينة، يجب أن يعرفوا أنهم آمنون".

نظرت كريسي إلى سامي ثم إلى أصابعها قبل أن تقول: "أنتِ محقة يا عزيزتي، ولكن لدينا الكثير لنناقشه أولًا، ما رأيك أن نرسل

لهم قاربًا مليئًا بالطعام والنبيذ؟ نحتاج إلى ساعة فحسب. بحلول الوقت الذي ينتهون فيه من تناول الطعام، يمكننا أن نبدأ في جلبهم على متن السفينة، هل تقبلين هذا؟".

أومأت سارا برأسها على مضض، فنادى سامي أحد المضيفين وهمس له آمرًا بشيء ما.

تساءل آرينت وهو يتحسس عوارض السقف المطلية: "كيف تمكنتما من تحمل تكلفة كل هذا، لا شك أنكما اشتريتما الطاقم بأسره، أعرف أنك كنت تطلب مبلغًا باهظًا نظير خدماتك، ولكن هذا المخطط قد كلفكما ثروة بالتأكيد".

قال سامي وهو يشير إلى الجميع أن يجلسوا: "إن إدوارد كويل هو من اشترى كل هذا في الواقع".

تساءلت سارا وهي تنظر إلى آرينت: "كويل؟".

قال آرينت وهو يجلس: "كان كاتبًا قد اتُّهِم بسرقة ماسة والهرب إلى فرنسا. ظننته مذنبًا، ولكن سامي وجد دليلًا على أنه بريء".

قال سامي مصححًا وهو يضع منديلًا على حجره: "في الواقع لم أجد، لقد منحني كويل الماسة نظير إيجاد طريقة لتبرئته، ولكن سبب سرقته للماسة هو افتتانه بـ...". أشار إلى المرأة الجالسة إلى جانبه.

أنهت ليا جملته قائلة: "كريسي".

قالت سارا وهي تهز رأسها: "تمامًا مثل ڤوس".

ابتسمت لها كريسي وهي تأمل في رؤية أي أثر لصداقتهما، ولكن أملها قد خاب.

قال سامي: "لقد نجحتَ في حل تلك القضية يا آرينت، لقد أصبتَ في كل شيء وأنا سلبتُ منك ذلك النجاح".

قال آرينت لنفسه: ها هو قد اعتذر أخيرًا. ليس في الكلمات التي قالها سامي، بل في نبرة صوته وحزنه. يشعر سامي بالقليل من المسؤولية تجاه تحطم السفينة والخوف، ولكنه قد كذب على آرينت بشأن ما حققه من إنجاز بدلًا من أن يحتفل به. هذا هو الشيء الوحيد الذي يندم عليه سامي.

رآه آرينت حينها على حقيقته لأول مرة، ليس رجلًا عظيمًا كما كان يعتقد، بل مجرد رجل بارع، قاسٍ وبارع ككل شخص آخر قد التقى به. من خلال سامي ظن آرينت أنه يرى مستقبلًا تخضع فيه القوة للذكاء، مما يجعل العالم مكانًا آمنًا للجميع، وخصوصًا الضعفاء. ولكن سامي يعتقد أن ذبح الأبرياء ثمن عادل نظير قتل رجل قوي، إنه لا يختلف عن الملوك الذين قاتل آرينت من أجلهم.

قالت كريسي: "هذه الألماسة اشترت لنا ولاء طاقم ليوواردن، في رحلتها الأخيرة من أمستردام حولنا اتجاهها إلى هذه الجزيرة لإنزال المؤن وبناء الأكواخ والمصباح الثامن. لقد وصلت ليوواردن إلى باتاڤيا متأخرة بضعة أسابيع، ولكن الجميع اعتقد أن عاصفة قد أخرجتها من مسارها".

قال سامي مكملًا الحكاية: "ظننا أننا سنقنع الحاكم العام بأن يستقل هذه السفينة في عودته إلى أمستردام، ولكنه كان مصرًّا على الإبحار في ساردام، لذا دفعت ثمن خدمات كراوڤلز وبوسي اللذين كانا متلهفين. إن إيجرت وثيمان يعملان لصالحنا منذ سنوات، لذا عرفنا أنه بمقدورنا الاعتماد على ولائهما".

سأله آرينت: "لمَ كنتَ في تلك الزنزانة؟".

"لأنني أردت هذا".

تنحنحت كريسي وقالت: "كنا نعرف أنه بمجرد أن يرسل أخي أمر الاستدعاء الزائف -الذي يحمل تهمة التجسس- إلى يان، سيأمر كراوڤلز بوضعه في مكان آمن، لذا جعلنا القبطان يقترح عليه أن يسجن في مقدمة السفينة".

قال سامي متفاخرًا: "لم أكن لأغامر بأن يطلب مني التحقيق في الأمر، لأنني أعرف أنك ستكتشف أخطائي على الفور، ولكن لا يمكن لأحد أن يلومني على عدم حل لغز الشيطان إن كنت مكبلًا بالأصفاد في أسوأ زنزانة في السفينة".

وضع سامي قطعة من اللحم في فمه وقال: "بمجرد أن وُضعت في تلك الزنزانة كان لديَّ حرية الذهاب والمجيء كما أشاء، لقد جعلنا بوسي يبني بابًا سريًّا يؤدي من زنزانتي إلى مقدمة السفينة، وهذا سمح لي بأن أرتدي زي المجذوم، وأن أتسلل إلى الماء لكي أسبح إلى السلم المؤدي إلى سطح الحظائر. كنت أفعل هذا عادة بعد أن يتركني آرينت. لم يكن عليَّ حينها سوى الهبوط عبر الباب السري الذي بنيناه في حظائر الحيوانات إلى مقصورة كراوڤلز، ومن ثم أندفع عبر الممر إلى مقصورة دالڤين قبل أن يستيقظ أحد ويشعر بالأمر. لقد قضيت معظم أيامي هناك".

قالت ليا وقد أدركت الأمر فجأة: "لهذا أمرت إيجرت وثيمان بذبح الحيوانات، فقد كانت تصنع الكثير من الجلبة في كل مرة يقترب شخص منها. إن كنت ستذهب وتجيء باستمرار...".

أنهى سامي جملتها قائلًا: "سيلاحظ أحد الأمر. كما حدث في الليلة الأولى التي رأتني فيها سارا عند كوة مقصورتها. لقد ذهبت لجلب مطفأة الشموع من أختي، ولكني لم أعرف أن مقصورتك ومقصورة دالڤين قد تبدلتا. كاد آرينت أن يمسك بي، ولكنني تمكنت من الوصول إلى حظائر الحيوانات قبله، ثم هبطت إلى مقصورة كراوڤلز وأنا أحمل دجاجة بين ذراعيَّ. حمدًا للرب أن الجميع كانوا مشتتين للغاية على أن يسمعوا ما يحدث".

أزاح آرينت كومة من البطاطس ليتكئ بمرفقيه على الطاولة وهو يقول: "لقد قتلت الحاكم العام بينما الجميع يتناولون العشاء، أليس كذلك؟".

"بلى".

"وأنت من أنقذني من ڤوس؟".

"لم يكن هذا غرضي، ولكني مسرور لأنني كنت هناك".

سألته سارا: "هل قتلت ڤيك؟".

تمايلت السفينة قليلًا فانزلقت الأطباق على الطاولة.

قالت كريسي وهي تمسك نبيذها: "كان عامل إسطبل في بيتنا عندما كنا صغارًا، حاول بيتر أن يجبر الخدم على قول إنهم قد رأونا نمارس أفعالًا شيطانية، ولكن ڤيك وقف إلى جانبنا. لقد خسر عينًا نظير هذا، وانتهى به المطاف بالانضمام إلى الشركة بعد ذبح العائلة. هذه التجربة قد غيرته".

لمس سامي وجنة أخته ليهدئ من روعها، ثم قال: "عندما همست له قال لي إنه قد تعرف على كريسي على متن السفينة، وإنه يريد ثمن

صمته. لم يكن بوسعنا أن نترك هذا يمر مرور الكرام. لقد عرضت عليه في الواقع ثروة لقتل آرينت أثناء قتالهما". عندما رأى نظرة آرينت الغاضبة رفع يديه وقال: "كنت أعرف أنه لا يقدر على الفوز. تمنيت فقط أن يقتله آرينت أثناء دفاعه عن نفسه ويجنبني ذلك العناء".

تساءلت ليا بفضول احترافي: "كيف تمكنت من صنع الدخان الأبيض الذي ظن الجميع خطأً أنه حريق؟".

"إنه شيء عرفته بالصدفة بينما أصنع صوف الفيلسوف* من الزنك. إنه شيء مثير للإعجاب، أليس كذلك؟ لقد وضعته في القطران المستخدم في سد ثقوب السطح السفلي، وكان عليَّ حينها فقط أن أشعل النار في القطران ليحترق صانعًا ذلك الدخان الأبيض بينما يترك الخشب سليمًا".

كادت سارا من نبرة صوته أن تعتقد أنه لم يستخدمه إلا لحيل سحرية في البلاط. عندما رأت رد فعل ليا المبتهج أدركت أنها ربما تعتقد الشيء ذاته.

سأله آرينت بصوت متهدج: "منذ متى وأنت تفعل هذا؟ ارتكاب الجرائم؟".

كانت سارا قادرة على الإحساس بالغضب في صوته، بالكاد يمكنه السيطرة عليه. أمسكت بيده من تحت الطاولة، ولكنه كان يضم قبضته بإحكام.

قال سامي معترفًا: "لقد كنت أخطط لجرائم القتل قبل وقت طويل من أن تصير مهنتي هي حل جرائم القتل. لقد تدمر اسم

* صوف الفيلسوف: هو مصطلح خيميائي قديم كان يُطلق على أكسيد الزنك.

عائلتي، ولم يكن لدينا أحد ليرعانا. لقد نجونا أنا وإيميلي بكل ما في وسعنا، ولكن اتضح أن الناس الذين يريدون قتل شخص ما أكثر عددًا ممن يبالون بمن قتله. يمكنني أن أخبرك أنني واصلت فعل هذا لأنني كنت فقيرًا وأتضور جوعًا، ولكني كذبت بما يكفي اليوم. إن مواهبي تحتاج إلى التمرن باستمرار، والشيء الوحيد الأكثر إثارة من كشف غموض جريمة قتل معقدة هو التخطيط لجريمة ثم رؤيتها تؤتي ثمارها بشكل مثالي، حتى إن أحدًا لن يعرف أنها كانت جريمة. يموت الملوك بسلام في أسِرَّتهم، ويسقط النبلاء من على خيولهم أثناء الصيد، وتنتحر الوريثات الجميلات في الحفلات الراقصة. إن الألغاز الجيدة نادرة للغاية، ولكن إن كان لديك القليل من الخيال فيمكنك أن تخترع منها قدر ما تريد. لقد ثبت على مدار سنوات أنه مشروع مربح. لقد صدرت هذه الجرائم إلى فرنسا وألمانيا ورأس الرجاء الصالح، إنها توابلي، ولكن على عكس السكر والبابريكا فإن النبلاء لا يملون مطلقًا من قتل بعضهم بعضًا".

قال آرينت بنبرة جوفاء: "أنت حقًّا توم العجوز".

أخذ سامي رشفة من النبيذ، فاصطبغت شفتاه باللون الأحمر قبل أن يقول: "لا وجود للشياطين يا آرينت، ولكن هناك دومًا صفقات يمكن عقدها".

خُيل لسارا أن هناك حقًّا شيئًا شيطانيًّا حياله، ربما بسبب النبيذ أو الظلال المتراقصة أو التورد في وجنتيه.

"صفقات". كررت الكلمة ببطء وقد سمعت العرض الذي تشي به لهجته.

شبكت كريسي يديها ومالت على الطاولة ليسقط عليها ضوء الشموع، ثم قالت: "لقد أخبرتكِ سابقًا أننا فعلنا كل هذا لأننا أردنا أن يعرف يان هان خوفنا، ولكننا فعلنا هذا أيضًا لأننا لم نرغب في أن يوقع أحد بنا، كل شخص في هذه الجزيرة يؤمن أن شيطانًا قد قتل زوجك، وهذا بالضبط ما أردناه. هذه هي الحكاية التي سيحكونها بعد عودتهم إلى الديار". عندما رأت الشك مرتسمًا على وجه سارا لوحت بيدها وقالت: "كل هذا يمكننا تفسيره، ولكن الخرافة تنشب جذورها عميقًا، إنهم يؤمنون بها الآن، يؤمنون بتوم العجوز. سيمضون حياتهم وهم يلعنونه من أجل الأشياء التي تسير على نحو خاطئ في حياتهم، وسيلمسون التمائم لإبقاء أنفسهم آمنين. سيؤمن أبناؤهم بهذا، وكذلك أحفادهم". صمتت لتجمع شتات نفسها ثم قالت: "أنا أحبك يا سارا". ثم انتقلت عيناها إلى ليا وقالت: "وأحبك يا ليا. ويحبكما ابناي. أريد منكما أن تأتيا معي إلى فرنسا كما خططنا، إن كنز يان بحوزتنا مما يعني أننا سنعيش الحياة التي لطالما تحدثنا عنها، دون أي التزام بالزواج".

ألقت ليا نظرة ناحية أمها، ولكن سارا أبقت عينيها على كريسي. إن ليا لطيفة وذكية، ولكنها لا تبالي كثيرًا بمعاناة الغرباء. إنها تريد الحياة التي لطالما وعدتها بها كريسي، وتعرف أن هاتين العينين السوداوين ستتوسلان إليها من أجلها.

لا تعرف سارا إن كان لديها القوة للمقاومة، أو حتى إن كان هذا ما يجب عليها فعله. طوال السنوات الخمسة عشرة التي قضتها متزوجة من يان هان لم تكن تحلم إلا بحريتها، والآن يُعرض عليها ما تريده. جزء منها يشتاق إلى الموافقة، أن تغتنم الفرصة بجشع.

قال آرينت مزمجرًا: "أيًّا ما كانت نواياكما فقد مات مئات الأشخاص، أطفال قد فقدوا آباءهم وأمهاتهم، أزواج قد فقدوا زوجاتهم، لا يمكنكما التنصل من الأمر بهذه السهولة، شخص ما يجب أن يحاسب". ثم حدق إلى سامي في شراسة وقال: "هذا ما كنا نفعله يا سامي، كنا نحاسب الناس على فعل أشياء كهذه".

قالت كريسي: "لقد حاسبنا عمك، وضميري يؤلمني بسبب الأذى الذي تسببنا فيه أثناء فعلنا هذا، ولكنه يرتاح لمعرفة أننا قد منعنا السادة السبعة عشرة من السيطرة على الغنيمة، ومن ثم توسيع إمبراطورية تمنح السلطة لرجال قساة مثل يان هان".

قال آرينت محتجًّا: "حتى تبيعاها لشخص آخر".

قال سامي: "لقد دمرناها، أو على الأقل دمرنا الجزئين اللذين استعدناهما، كانت الغنيمة أقوى بكثير من أن يمتلكها أي ملك أو شركة".

لم يسمع تأوه ليا إلا سارا، فقد آلمها ضياع سنوات من العمل.

أطرقت كريسي برأسها وقالت: "نشعر بالحزن على ما تسببنا فيه، ولكن كراوفلز هو من جعل هؤلاء الركاب يلقون حتفهم، كنا ننوي إنقاذ من نقدر على إنقاذه والعودة إلى أمستردام".

مال سامي إلى الأمام ليسقط عليه الضوء مصوبًا اهتمامه إلى آرينت. كان التعبير المرتسم على وجهه متحفزًا، ولكنه مليء بالأمل أيضًا، كطفل يطلب شيئًا من أبيه. وبخت سارا نفسها لأنها لم تلاحظ التشابه بينه وبين كريسي في وقت مبكر، إن لهما نفس شكل العينين

ونفس الذقن، نفس الجمال غير الطبيعي، ربما كان هذا سببًا آخر لحرصهما على ألا يوجدا معًا في نفس الحجرة.

قال سامي مخاطبًا آرينت: "أعرف طبيعتك يا صديقي، أعرف أنه من المؤلم لك أن تترك ظلمًا يمر دون عقاب، ولكن كان هناك شيطان حقًّا، وقد نفيناه حقًّا من هذا العالم. كانت الغنيمة ستجلب معاناة لا توصف وقد دمرناها. يوجد خير في هذا الأمر بقدر ما يوجد شر. إن قلبتم نسختنا من هذه الحكاية فستتقاسم كنز يان هان معكم أنتم والركاب. ستكونون أحرارًا وسيمكنكم اختيار الحياة التي تريدونها، بل وربما يومًا ما سنحل لغزًا معًا مرة أخرى".

نظرت سارا إلى آرينت محاولة أن تقيم حالته المزاجية، عادة ما يكون وجهه قناعًا جامدًا يخفي وراءه كل مشاعره، ولكن ليس الليلة، لقد ظهر الغضب في تقطيب جبينه وتضييق عينيه. إنه يجتاح كتفيه المتوترتين وقبضتيه المضمومتين. إنه مستعد لإغراق هذه السفينة بيديه العاريتين.

تساءلت ليا بصوت مرتجف: "ما البديل؟ ما الذي سيحدث إن قالوا لا؟ هل ستقتلوننا؟".

صاحت كريسي في جزع: "لا، لا يا عزيزتي، لا. إن كان بمقدوري أن أسمح بحدوث هذا لما اعترفت عندما كانت إيزابيل على وشك إحراقك".

قال سامي: "إن لم تعجبكم صفقتنا فأنتم أحرار للبقاء على متن الجزيرة في سلام، هناك طعام يكفي لسنوات والصيد وفير". بدا أن هذه الفكرة تؤلمهم حقًّا.

من الواضح أن غضب آرينت قد أثار توتر سامي، لذا نظر إلى سارا وقال: "توم العجوز قد سألك عن أعمق رغباتك، وقد قلتِ الحرية، والآن أعرضها عليك. السؤال هو ما الذي ستدفعينه مقابلها؟".

نظرت سارا إلى ليا ثم إلى آرينت.

كانت نظرة ليا متوسلة، هذا هو كل ما أرادته. وعلى النقيض منها بدا أن هيئة آرينت الهائلة تملأ المقصورة الكبرى وكتفاه الضخمتان تعلوان وتهبطان كثور يضرب الأرض. هذا هو آرينت الذي تذكره الأغاني، صعب المراس ولا يمكن إيقافه. أرسلته السماء لإسقاط الممالك، ولكن القدر الذي يخدمه قد خيب أمله. لم يعد هناك مجال للمغفرة.

أدركت سارا أن أيًّا كان ما ستقوله سيحدد إذا ما كان آرينت سيعيش أم سيموت، وأن الكثير من الناس سيموتون أثناء محاولتهم إيقافه.

ما هي أعمق رغباتها؟ وما الذي ستدفعه من أجلها؟

لثانية لم يكن هناك سوى صرير الخشب بينما ينتظرون قرار سارا.

قالت بصوت خافت: "لا". حبس كل من حول الطاولة أنفاسهم، وتوتر آرينت مستعدًّا للقفز من كرسيه. أكملت سارا حديثها: "لا، سئمت من أن يُملي أحد عليَّ ما يجب فعله، هناك اختيار ثالث".

قال سامي وهو ينظر إلى آرينت في حذر: "أؤكد لك أننا فكرنا في كل شيء".

قالت كريسي موبخة: "اصمت يا سامويل. ما هو اختيارك الثالث يا عزيزتي؟".

قالت سارا: "الكفارة. يستحق هؤلاء الركاب تعويضًا عما فقدوه، ولديكما كنز كافٍ لمنحهم حياة جديدة، ولكن لا يمكنكما الهرب من الأمر بعدها وكأن شيئًا لم يحدث. لقد مات الكثير من الأبرياء، يجب عليكما أن تقدما التعويضات".

تساءلت كريسي في فضول: "وكيف تقترحين أن نفعل هذا؟".

أجابتها سارا في حماس: "بتحويل توم العجوز إلى غرض نبيل، بأن نحرص على أن يهمس لهؤلاء الذين يستحقون سماع صوته". شعرت بأنهما على وشك الاعتراض فقالت على الفور: "نعلم جميعًا أن هناك مئات الأشخاص مثل زوجي يفعلون أشياء فظيعة، ولكن لديهم سلطة كبيرة تجعلهم يفلتون من العقاب، ماذا لو تغير هذا الأمر؟ في المرة التالية التي يقتل فيها أحد النبلاء خادمته، يعثر عليه توم العجوز ويجعله يدفع الثمن. ماذا لو أنه في المرة التالية التي يقود فيها ملك جيشه إلى الذبح ثم يهرب من ساحة المعركة في جبن يكون توم العجوز منتظرًا إياه في قلعته؟".

تبادل سامي وكريسي نظرة غير مصدقة، ولكن آرينت كان يبتسم، وكذلك ليا.

قالت سارا: "فلتنظرا إلى كل ما فعلتماه للتخطيط لانتقامكما، لقد خططتما لهذا الأمر لأربع سنوات، وكشفنا أنا وآرينت غموضه في بضع أسابيع، لقد اخترعت ليا الغنيمة للتخلص من الملل، تخيلوا ما يمكن لخمستنا فعله معًا، تخيلوا الخير الذي يمكننا فعله".

قال سامي معترضًا: "لا يمكننا أن ننتقم من كل فعل شرير في هذا العالم". ولكن كلماته كانت متعارضة مع اللهفة في صوته. أدركت

سارا أنه يريد من يقنعه، هذا تحدٍّ سيستمر لبقية حياته، تحتاج فقط إلى الكلمات المناسبة.

قال آرينت في دمدمة خفيضة: "لا نحتاج إلى الانتقام من كل فعل شرير، ولكن يمكننا أن نجعل الناس يخافون ارتكاب هذه الأفعال". ثم حدق إلى سامي وقال: "أنت وغد ماكر كاذب خائن يا سامي بيبس، ولكنك كنت صديقي حتى هذا اليوم، وأتمنى أن تعود صداقتنا مرة أخرى. لقد فجرتَ المصباح الثامن لأنني طلبت منك أن تثبت أنني ما زلت قادرًا على الثقة بك، والآن اطلب منك هذا".

قالت ليا متوسلة وهي تمد يدها إلى كريسي عبر الطاولة: "أرجوكِ يا كريسي".

نظرت كريسي إلى أخيها في أمل وقالت: "هل هذا ممكن؟".

قال سامي مفكرًا: "لدينا كنز يكفي لهذا الأمر، وسفينة، وجزيرة، ناهيك بوفرة البراعة والدهاء. ربما يمكن تحقيق الأمر. أنا واثق من أنني أرغب في معرفة هذا بنفسي".

تبادل الجميع ابتسامات مترددة بينما عقد جديد غريب يُبرم بينهم.

قالت كريسي بمرح: "إذن ربما قد حان الوقت ليفعل الشيطان ما لن يفعله القدر". ثم نظرت إلى سارا بفضول وقالت: "من أين نبدأ؟".

اعتذار للتاريخ والسفن

مرحبًا يا صديقي.

أعتذر على اقتحام أمسيتك دون دعوة، أردت أن آتي بعد أن يستقر غبار الرواية لكي أتحدث معك.

أعتقد أن أي كتاب يكون كما تقرر أنت، المشاهد والروائح والشخصيات، كل شيء تعتقده بشأنها تكون محقًّا فيه! لهذا أحب الكتب، لا يوجد قارئان متماثلان، مما يعني أنه لا يوجد قراءتان متماثلتان. إن نسختك من آرينت تختلف عن نسختي من آرينت، كما يتضح من عدد الناس الذين يرونه مثيرًا. لم يكن في نيتي أن يكون حارسًا شخصيًّا جذابًا، ولكن من يبالي؟ إن كنت تريد آرينت مثيرًا فسيكون لديك آرينت مثير.

وبالمثل لا أحب أن أختار لونًا أدبيًّا معينًا لرواياتي. إن الموتات السبع -كتابي السابق- قد وُصف كثيرًا على أنه كتاب بوليسي من العصر الذهبي، أو رواية خيال علمي ميتافيزيقية، أو فانتازيا معاصرة، أو رعب. وكل واحد منهم كان محقًّا، فهذا كان كتابهم، لذا يمكنهم أن يكون أيًّا ما يحلو لهم.

لقد خمنت أن رواية الشيطان والمياه المظلمة ستُنسب إلى عديد من الألوان الأدبية، ولا بأس بهذا، باستثناء... أنني قلق من أن بعض الناس قد يصفونه بأنه كتاب سفن، أو أدب من الخيال التاريخي.

عند النظرة الأولى يكونون محقين، إن أحداث رواية الشيطان والمياه المظلمة تجري في عام ١٦٣٤، لذا فهي رواية تاريخية قطعًا، وهي خيالية قطعًا، وتجري أحداثها على متن سفينة قطعًا. ما يقلقني هو الأشخاص الذين يبحثون عن هيلاري مانتل أو باتريك أوبراين، سيأتون للبحث عن تفاصيل يؤسفني أنني قد تجاهلتها، ليس بدافع العجرفة، ولكن فقط لأنها تعترض طريق القصة التي أحاول سردها.

أي سفينة هندية سيكون بها عشرات المسؤولين، وجميعهم دورهم حيوي لتشغيل السفينة. كان لدي ثلاثة، لأنني لم أرغب في عرقلة القصة بهذا العدد الكبير من الشخصيات أو الحبكات الفرعية. التاريخ الذي تسلل إلى كتابي قد حدث على الأرجح بشكل مختلف، أو بعدها بوقت طويل، أو لم يحدث على الإطلاق. التكنولوجيا متقدمة للغاية على ما يفترض، وكذلك السلوكيات وطريقة الحديث، وعلى وجه الخصوص طريقة الحديث. كل هذا كان متعمدًا، لقد أجريت بحثي ثم تخلصت من الأجزاء التي عرقلت قصتي. هل تفهم ما أعنيه؟ هذا خيال تاريخي حيث التاريخ هو الخيال. آمل أنك لا تمانع هذا، ولكني أعرف أن الكثير من الناس سيمانعون، لأن الناس يريدون الشوكولاتة لا القهوة، إنهم يريدون التفاصيل التي ألقيت بها في البحر.

هذه طريقة مستفيضة للغاية لكي أقول لك من فضلك لا ترسل إليَّ خطابات انتقادية بشأن الطرق الصحيحة في تحريك أشرعة السفن الضخمة أو الموضة النسائية في القرن السابع عشر، ما لم تكن حقائق مثيرة للاهتمام ترغب في مشاركتها.

أحب الحقائق الجيدة.

حسنًا، لقد أطلت عليك بما يكفي، آمل حقًّا أنك استمتعت برواية الشيطان والمياه المظلمة كما استمتعت أنا بمحادثتنا، أتمنى لك أمسية طيبة. دعنا نتحدث مرة أخرى في غضون عامين عندما يُنشر كتابي التالي، أعدك أنه سيكون ممتعًا للغاية.

إلى اللقاء،

ستيو

شكر وعرفان

في رواية الموتات السبع شكرت نصف الأشخاص الذين كان من المفترض أن أشكرهم، هذه المرة أعتقد أنني أشكر الجميع دون أن أنسى أحدًا، إن كتابة رواية الشيطان والمياه المظلمة كانت عملًا شاقًّا، وكذلك إنجاب طفل أثناء كتابتها. لقد اشتكيت قليلًا بشأن كليهما، أعتذر للجميع، أنا أكثر سعادة الآن. فلتأتِ وتلتقِ بي فأنا أدين لك بكأس من الشراب.

عزيزتي المسكينة ريزا، باستثناء كل الأوقات التي كانت تصغي فيها إليَّ وتشرب معي الشاي، كانت زوجتي تعتني بآدا وحدها في معظم عطلات نهاية الأسبوع، كانت هي أيضًا من أشار إلى أن نهايتي الأصلية محض هراء. إن كان لديك شريكًا مثل ريزا فإن ٩٠٪ من حياتك سيكون مثاليًّا. شكرًا يا حلوتي. (استخدام هذا اللقب في الأماكن العامة سيؤدي بالتأكيد إلى قتلي).

دعوني أتحدث قليلًا بشأن المحررين لدي، أليسون هينيسي وشانا دريس وجريس ميناري واينفيلد، لقد فحصوا الرواية كلمة كلمة وكان عليهم أن يقرأوا الكثير من الهراء، ولكنهم كانوا لطفاء وإيجابيين، لم تكن الرواية لتوجد من دونهم.

وكيلي هنري إيلينجوورث، إنه... طويل، وها أنا قلتها. ولكن بجدية إنه رفيقي الذي يعرف الكثير بشأن النشر، وهذا مفيد بشكل

رائع، إنه أيضًا بارع في عدم البكاء عندما أخبره أنني سأفوت موعدًا نهائيًّا آخر، ويكون عليه أن ينقل الخبر إلى أليسون، هذه مهارات لا يمكن تعلمها.

لقد تخلت عنا بيجفيل، لذا انتهى أمرها بالنسبة لي، كنت على وشك أن أقول كم كانت بارعة في الترويج لرواية الموتات السبع، وكم كانت الحملة الترويجية لرواية الشيطان والمياه المظلمة تتشكل ببراعة. كنت على وشك أن أقول إنها صديقتي، ولكنها بكل أنانية اختارت أن تحمل وأن تقضي إجازة وضع، لذا لن أقول أيًّا من هذا. وكل هذا ينطبق أيضًا على آمي، لذا سأوجه هذا لها وحدها. آمي، أنتِ معجزة في هذا العمل، شكرًا لكِ، وشكرًا لكِ يا فيل بالطبع، لا يمكنني أن أكون قاسيًا معك لأنك أنجبتِ طفلًا، فهذه عقوبة كافية.

يجلب جلين الكعك عندما أوقع كتبي، هذا بالإضافة إلى السماح لي بأكل أذنه بينما نتنقل بين مكتبات لندن، شكرًا لك. ديڤيد مان، يصمم أغلفة رائعة، إن غلافيْ الموتات السبع كان من تصميمه، وغلاف الشيطان والمياه المظلمة من تصميمه، وأنا أحبهم جميعًا، شكرًا يا رفيقي. رسمت إيميلي فاتشيني الخريطة التي كنت تتطلع إليها، إنها موهوبة للغاية، لقد رسمت خريطة الموتات السبع أيضًا، وكان هذا رائعًا أيضًا.

تمكنت كاتلين وڤاليري وجينيڤيڤ من دفع كتبي أمام الكثير من الوجوه، وأنا دَهش أن الناس لا يتعثرون بهم عند الخروج من البيت. شكرًا يا رفاق. ولا يمكنني أن أنسى سارا هيلين التي جعلت عملية الإنتاج تبدو سهلة، حتى في خضم وباء كورونا، أحسنتِ عملًا!

وأخيرًا أمي وأبي، كيف تشكر الأرض التي تقف عليها وطبقة الأوزون التي تحميك من الاحتراق؟ كنت أحاول أن أصير كاتبًا لوقت طويل، ولم يتوقفا عن الاعتقاد بأنني سأصير كذلك.

فلتبدأ الموسيقى، فلتبدأ الدموع، أنا ذاهب من هنا.



عن الكاتب

ستيوارت تورتون مؤلف إنجليزي يعيش في هيرتفوردشاير. صدر له سابقًا الموتات السابعة لإيفيلين هاردكاسل، التي كانت من أكثر الروايات مبيعًا على مستوى العالم وحازت الكثير من الجوائز بما في ذلك جائزة كوستا لأفضل رواية، رغم كونها مجنونة للغاية. قبل أن يصير كاتبًا روائيًا كان صحفيًّا كثير الأسفار، وقبل ذلك كان يؤدي كل الوظائف التي يمكنك تخيلها. لقد كان أفضل مزارع ماعز، والأسوأ في تنظيف المراحيض.

يمكنك أن تجده على تويتر: @stu_Turton

عن المترجم

أحمد صلاح المهدي كاتب ومترجم وناقد مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، نشرت له خمس روايات ما بين الفانتازيا والرعب والخيال العلمي، ترجمت اثنتان منهم إلى اللغة الإنجليزية وهما "ريم" و"ملاذ: مدينة البعث". نُشر له عدد من القصص القصيرة والمقالات الأدبية والنقدية باللغتين العربية والإنجليزية، وترجمت بعضها إلى لغات أخرى كالرومانية والإسبانية. صدر له ترجمات العديد من الروايات المختلفة، مثل سلسلة "القاعدة" من تأليف أيزاك أزيموف التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أبل تي في، و"عين العالم" الجزء الأول من سلسلة "عجلة الزمن" من تأليف روبرت جوردن التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أمازون.

الشيطان
والمياه المظلمة



ستيوارت تورتون

في العام ١٦٣٤، يُقرِّر نقل "ساموئيل بيبس" أعظم محقق في العالم، إلى أمستردام ليتم إعدامه في جريمة لا أحد يعلم ما إذا كان قد ارتكبها أم لا. يسافر معه حارسه الشخصي المخلص "آرينت هايز" العازم على إثبات براءة صديقه.

ما إن تُبحر السفينة التي تحمل على ظهرها ساموئيل، حتى تبدأ مجموعة من الأحداث الغريبة، والتي بلغت من شدة الغموض أن يُتهم بها شيطان! لا محالة، لا يمكن لأحد فعل كلِّ هذا إلا أن يكون الشيطان نفسه. شخص يموت مرتين، رمز غريب يظهر على الشراع، الماشية تموت جميعها بشكل فجائي، ركّاب يوسمون بعلامات الموت.

لا يملك آرينت في ظل سجن صديقه إلا أن يتولى مهام حلِّ اللغز الذي تتشابك خيوطه بمضيِّ الوقت، لغز يتداخل فيه ماضي الركاب وحاضرهم، ويهدد بإغراق السفينة وقتل ركابها جميعاً.

ISBN 978-9921-712-80-3
9 789921 712803

دار الخان للنشر والتوزيع

Info@daralkhan.com
@DarAlkhan_kw